Maja Lunde

مــايا لونـدِه

حين اختفى النحل

روايـــة

دار المنى

مـــايا لونـدِه

حين اختفى النحل

النص العربي:
علاء الدين أبو زينه

دار المنى

مـــايا لونْدِه

حين اختفى النحل

Arabic edition © Bokförlaget Dar Al Muna, Stockholm 2017
© H. Aschehoug & Co 2015. (W. Nygaard) Agency
First published in Norwegian by Aschehoug & Co. under the title
Bienes Historie
Published in agreement with Oslo Literary Agency
Arabic text: Ala'Eddin Ahmad Mohammad Abu-Zeineh

ISBN 978 91 87333 79 8

Dar Al Muna, Box 127, 182 05 Djursholm, Sweden
www.daralmuna.com

تاو

المقاطعة 242، شيرونغ، سيشوان، عام 2098

مثلَ طيورٍ ضخمة ، توازنَت كلُّ واحدةٍ منا على غُصنِها ، ومع كلٍّ منا دلوٌ بلاستيكيٌّ في يد ، وفرشاةٌ من الريش في الأخرى .

تسلقتُ إلى أعلى ، ببطء شديد ، وبأقصى ما استطعتُ من الحذر . لم أكُن مخلوقةً لهذا ، لم أكن مثل الكثير من النساء الأخريات في الطاقم . كانت حركاتي ثقيلة في كثيرٍ من الأحيان . كنتُ أفتقر إلى المهارات الحركية والدقة المطلوبة . لم يكُن هذا ما خُلقتُ لأجله . ومع ذلك ، ترتَّب عليَّ أيضاً أن أكون هنا ، كل يوم ، 12 ساعة في اليوم .

كانت الأشجار قديمة قِدم الحياة . والفروع هشةً مثل الزجاج الرقيق ، تتصدع تحت ثقلنا . طويتُ جسمي بحذرٍ حتى لا ألحقَ الضرر بالشجرة . وضعتُ قدمي اليمنى على غُصن أبعد ، وسحبتُ قدمي اليسرى وراءها بعناية . وأخيراً وجدتُ وضعاً آمناً للعمل ، غير مريح وإنما مستقر . ومن هناك استطعت أن أصل إلى الأزهار الأكثر علُوّاً .

كان الوعاء البلاستيكي الصغير ممتلئاً بلعاب الشمس الذهبي ، بغبار الطلع الموزون بعناية . حاولتُ أن أنقل مقادير غير مرئية بخفة من الوعاء وإلى الأشجار . يجب دهن كل زهرة مفردة بالغبار بواسطة الفرشاة الصغيرة المصنوعة من ريش الدجاج ، الذي تم استخلاصه من الدجاج عِلمياً لهذا الغرض بالضبط . لم يقترب أيُّ ريش مصنوع من الألياف الصناعية مجرد اقتراب من فعاليته . وقد تم اختباره ، ثم

اختباره مرة أخرى ، لأن لدينا متسعاً من الوقت . في منطقتي كان عمرُ التلقيح الاصطناعي أكثر من مائة عام . فقد اختفى النحل هنا وراءً في ثمانينيات القرن العشرين ، قبلَ وقت طويل من «الانهيار» ، وذهبَت المبيدات الحشرية معه أيضاً . وبعد سنوات قليلة ، عندما لم تعُد المبيدات الحشرية قيد الاستخدام ، عاد النحل ، لكنَّ التلقيح الاصطناعي باليد كان يُستخدَم لدينا مُسبقاً . وكانت نتائجه أفضل ، حتى مع أنه تطلَّب عدداً هائلاً من الناس ، وعدداً لا يُصدقُ من الأيدي .

وهكذا ، عندما حدَث «الانهيار» ، تمتعَت منطقتي بميزة تنافسية . أفادَها أنها تسببَت بالتلوث أكثر من غيرها . كنا أمة رائدة في التلوث ، وبذلك أصبحنا أمة رائدة في التلقيح الاصطناعي أيضاً . كانت المفارقة هي التي أنقذتنا .

مدَدتُ جسمي إلى أبعد حدّ أستطيعه ، لكنني لم أستطع أن أصل تماماً إلى الزهرة القصيةِ الأبعد في الأعلى . كنت على وشك الاستسلام ، لكنني أعرفُ أنني رُبما أعاقَب على التراخي ، ولذلك حاولتُ مرة إضافية . كانت أجورنا تقل إذا استخدمنا حبوب اللقاح بسرعة كبيرة . وكانت أجورنا تقلُّ أيضاً إذا استخدمنا القليل منها . كان عملُنا غير مرئي . وعندما نهبط عن الأشجار في آخر اليوم ، لم يكن هناك أي دليل على عملنا سوى إشارات X المرسومة بالطباشير الحمراء على جذوع الأشجار ، والتي تصل في الوضع المثالي إلى 40 شجرة في اليوم . ولم نكن نعرفُ مَن منا هم الذين نجحوا فعلاً في العمل إلى أن يجيء الخريف وتصبح الأشجار محمَّلة بالفاكهة . وبحلول ذلك الوقت ، نكون قد نسينا في العادة أي أشجار هي التي لقحها هذا والتي عمل عليها ذاك .

كلّفوني بالعمل في الحقل رقم 748 اليوم. مِن كَم؟ لم أعرف. كانت مجموعتي واحدة من مئات. وكنا في أزيائنا الموحّدة البيضاء المائلة إلى الصُّفرة مجهولين تماماً، مثل الأشجار نفسها؛ وقريبين من بعضنا بعضاً مثلما هيَ الزهور. لم نكن وحدنا أبداً، وإنما دائماً معاً، في قطيع، هنا فوقاً في الأشجار أو متنقلين في الأسفل في طرق الأثلام التي صنعتها إطارات السيارات من حقل إلى آخر. خلف جدران شققنا الصغيرة الخاصة فقط كنا نستطيع أن نكون وحدنا بضع ساعات في اليوم. وبخلاف ذلك، كنا نقضي حياتنا كلها هنا، في الحقول.

خيَّم الهدوء على كل شيء. لم يكن مسموحاً لنا بالحديث أثناء عملنا. وكان الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه هو هسيس حركاتنا الحذرة في الأشجار، وربما نحنحة خافتة لتنظيف الحلق، وبعض التثاؤبات، وخشخشة قماش أزيائنا وهو يحتك بجذوع الأشجار. وفي بعض الأحيان، كنا نسمَع ذلك الصوت الذي تعلمنا جميعاً أن لا نحبَّه - أنينَ غصنٍ، وفي أسوأ الحالات، انقصافَه. كان انقصافُ غصن يعني فاكهةً أقل، وسبباً إضافياً لتخفيض أجورنا أيضاً.

بخلاف ذلك، لم يُسمع سوى همسُ الريح وهي تمر من خلَلِ الفروع، وتحفُّ بالأزهار، وتنسلُّ عبر العشبِ على الأرض.

أزت ذبابةٌ في الهواء، في مشهد نادر الحدوث. أيام كثيرة مرّت منذ شاهدت طائراً. تناقصت أعدادها هي أيضاً. كانت تصطاد الحشرات القليلة التي يمكن أن تعثُر عليها عليها، وتجوع، مثل بقية العالَم.

لكن صوتاً مُدويّاً كسرَ هدأة الصمت عندئذٍ. صوت صافرة قادم من ثكنات الإدارة، في إشارة إلى بدء الاستراحة الثانية والأخيرة لليوم. وعندئذٍ، لاحظتُ على الفور كَم كان لساني جافاً.

نزلتُ عن الشجرة بحذر جبان. زحفنا، زميلاتي وأنا، نازلات عن الأشجار وإلى الأرض. شرعت النساء الأخريات مباشرة في الدردشة، كما لو أن ثرثرتهن الناشزة فُتِحت بمفتاح تحويل في جزء من الثانية بمجرد معرفة أنه أصبح بوسعهن التحدُّث.

لم أقل أي شيءٍ، وأبقيتُ تركيزي على الهبوط دون أن أكسر غُصناً. وتمكنت من ذلك. حظٌّ صِرف. كنتُ خرقاءَ بلا حدود، وعملتُ هناك طويلاً بما يكفي لأعرف أنني لن أبرع في هذا العمل حقاً في أي يوم.

على الأرض بجوار الشجرة، رقدَت حافظةُ مياه معدنية بائسة. تناولتها وشربتُ منها بسرعة. بدا الماء فاتراً وبطعم الألمنيوم، وجعلني الطعم أشربُ أقل من حاجتي.

بسرعةٍ وزّع صبيان صغيران يرتديان زي لجنة التجارة الأبيض علبَ الصفيح القابلة لإعادة الاستخدام، والتي تضم وجبة اليوم الثانية. جلستُ وحدي وقد أسندت ظهري إلى جذع الشجرة، وفتحت علبتي. كان الأرز ممزوجاً بالذرة اليوم. أكلتُ بسرعة. وكالعادة، كان الطعام مالحاً أكثر من اللازم، مبهراً بفلفل حار اصطناعي، ومخلوطاً بالصويا. مرَّ وقت طويل منذ تذوقتُ طعمَ اللحم. يتطلبُ إنتاجُ علف للحيوانات استخدامَ الكثير جداً من الأراضي القابلة للزراعة. ويتطلب إنتاج الكثير من العلف الحيواني التقليدي تلقيحَ النباتات. ولم تكن الحيوانات تستحق هذا القدرَ من عملنا اليدوي المضني.

فرغَت علبة الطعام المعدنية قبل أن أشبع . وقفتُ ووضعتها في سلة الإعادة الخاصة بلجنة التجارة . ثم هرولتُ في مكاني . كانت قدماي متعبتين ومتصلبتين من الوقوف بسكون في أوضاع مغلقَةٍ هناك فوقاً في الأشجار . تنمَّلَت أطرافي ، ولم أستطع الوقوف بثبات .

لكن ذلك لم يُساعِد . ألقيت نظرةً سريعةً من حولي . لم يكن أحد من جماعةِ الإدارة منتبهاً . استلقيتُ بسرعة على الأرض ، وأردتُ أن أمدد ظهري فقط . كان يؤلمني بعد بقائه منحنياً في الوضع نفسه لفترة طويلة .

أغلقتُ عينيَّ لحظةً ، وحاولتُ ألا أسمع تفاصيل حديث النساء الأخريات في الطاقم ، وأن أستمع فقط إلى صخب الثرثرةِ المختلطة وهو يمتدُّ وينحسر . هذه الحاجة إلى الحديث ، لدى كثيرات يتحدثن كلُّهن في وقت واحد ، من أين أتت؟ بدأت النساء الأخريات ذلك عندما كنَّ فتيات صغيرات . ساعةً بعد أخرى من حديث المجموعات ؛ حيث يكون الموضوع دائماً أدنى قاسم مشترك ، وحيث لا يستطيع المرء الدخول حقاً إلى عمق أي شيء على الإطلاق –ربما إلا إذا كان الشخص الذي يجري الحديث عنه غير موجود .

شخصياً ، فضلتُ الحديث واحدًا لواحد . أو مع رفقتي الخاصة ، إذا كان ذلك يهم .

في العمل ، فضلتُ الخيار الثاني . وفي البيت ، لدي كوان ، زوجي . لم نكن نُجري أطول المحادثات أنا وهوَ أيضاً ، لم يكن الحديث هو الذي يبقينا معاً . كانت مراجع كوان ململمةً من هنا وهناك ، كان صلباً ، ولم يكن يتوق إلى المعرفة ولا يطمحُ إلى المزيد . لكنني وجدت السلام بين

ذراعيه . ثم أنَّ لنا ابننا ، وي-وِن ، ابن الثلاث سنوات . وعنه يمكن أن نتحدث .

تماماً عندما كادت ثرثرة النساء تهدهدني إلى النوم ، صمتَت الأصواتُ كلها دفعةً واحدة . هدأ الجميع . جلستُ . رأيتُ النساء الأخريات في الطاقم ينظُرن إلى الطريق ، إلى حيث المجموعة تسير في الأثلام التي صنعتها إطارات السيارات .

لم تكن أعمارهم تزيد عن ثماني سنوات أو تسع . وكنتُ أعرف الكثيرين منهم من مدرسة وي-وِن . كلهم مُنحوا ملابس عمل متماثلة ، الأزياء الاصطناعية البيضاء المائلة إلى الصُّفرة الترابية نفسها التي نلبسها نحن ، وساروا نحونا بالسرعة التي تستطيع أن تحملهم بها سيقانهم القصيرة . أبقاهم قائدان راشدان في الطابور ، واحدٌ في الأمام ، وواحد في الخلف . وكان لكل منهما صوت قوي يصحح به حركة الأولاد بلا توقف ، لكنهما لم يوبخاهم ، وإنما أصدرا التعليمات بدفء وحنان ، لأن الأولاد لم يكونوا يعرفون مطلقاً إلى أين يذهبون ، بينما الكبار يعرفون .

سار الأولاد والبناتُ يداً بيد ، في أزواج متطابقة ، الأطول مع الأقصر ، والأكبر يعتَنون بالأصغر . ساروا في مشية غير متساوقة ، غير منظمة ، لكن الأيدي انضمت بقوة كما لو أنها ملتصقة معاً . ربما صدرت إليهم تعليمات مشددة بأن لا يفلتوها .

كانت أنظارهم مثبتة علينا ، وعلى الأشجار ، فضوليةً ، وقد تجعدت أنوفهم قليلاً ، وصوَّبوا رؤوسهم نحونا . بدا كما لو أنهم يتواجدون هنا للمرة الأولى ، حتى مع أنهم نشأوا جميعاً في هذا الحي ، ولم يعرفوا أي طبيعة أخرى غير هذه الصفوف غير المنتهية من أشجار الفاكهة ،

أمام ظلال الغابة المتضخمة الهائلة في الجنوب . نظرَت فتاة قصيرة إليّ لوقت طويل ، بعينين كبيرتين متقاربتين قليلاً . رمشَت بضع مرات ، ثم تنشقت بصوت عالٍ . كانت تمسك بيد ولدٍ نحيل . وتثاءب الولد بصوت عالٍ وبلا خجل ، ولم يرفع يده الطليقة ليغطي فمه ، بل إنه لم يكن يدرك أن فمه تمدد منفتحاً إلى فجوة متسعة . لم يكن يتثاءب تعبيراً عن الملل ؛ فهو أصغر كثيراً من أن يفعل . كان نقص الطعام هو الذي تسبب له بالإجهاد . وثمة فتاة طويلة واهنة تمسك صبياً من يده . سار متنفساً بثقل من خلال أنف محشو ، وفم مفتوح . سحبته الفتاة الطويلة وراءها وهي تدير وجهها إلى الشمس . حدَّقَت وغضَّنت أنفها ، لكنها أبقت رأسها في الوضع نفسه ، كما لو أنها تريد أن تحصل لنفسها على بعض اللون ، أو ربما أن تستجمع القوة .

كانوا يصِلون كل ربيع ، هؤلاء الأولاد الجُدد . هل كانوا صغاراً هكذا في العادة؟ هل هم أصغر سناً هذه المرة؟

كلا ، إنهم بعمر الثامنة . كما كان حالهم دائماً . أنهوا تعليمهم المدرسي ، أو عهدَ المدرسة . . . حسناً ، تعلموا هناكَ الأعداد وبعض الحروف ، لكن المدرسة فيما عدا ذلك كانت مجرد نوع من التخزين المنظَّم للصغارِ فحسب . التخزين والإعداد للحياة هنا . تمارين في الجلوس بسكونٍ لوقت طويل . *اجلسوا بثبات . بثبات كامل ، نعم هكذا* . وتمرين لتطوير المهارات الحركية الدقيقة . كانوا يحيكون السجاد منذُ عمر الثلاث سنوات . كانت أصابعهم الصغيرة مناسبة بشكل مثالي للعمل في تكوين تلك الأنماط المعقدة . تماماً كما هي مثاليةً للعمل هنا .

مرّ الأطفال بنا ، وقد أداروا وجوههم إلى الأمام ، نحو الأشجار . ثم واصلوا المسير في اتجاه حقل آخر . تعثر الولد الذي بلا أسنان قليلاً ، لكن الفتاة الطويلة أمسكت بيده بإحكام حتى لا يقع . لم يكن الآباء والأمهاتُ هنا ، لكن الأولاد اعتنوا ببعضهم بعضاً .

اختفى الأولاد أسفل الطريق الذي صنعته الإطارات ، وغرقوا بين الشجرات .

«إلى أين يذهبون؟» ، سألَت امرأة من الطاقم .

«لا أعرف» ، أجابت أخرى .

«ربما إلى 49 أو 50» ، قالت ثالثة ، «لم يبدأ أحدٌ العملَ هناك بعد» .

تلوّت معِدتي وتحولَت إلى عُقدة . إلى أين يذهبون ، إلى أي حقل يتجهون ، هي أمورٌ لا تُحدِث أي فرق . كان ما هم بصدد فعله هو الذي . . .

صعد صوت الصفارة قادماً من الثكنات . تسلقنا الأشجار ثانية . قصفَ قلبي ، لكنني لم أشعر بكثير من السوء . لم يصبح عمر عمل الأولاد أصغر بعد . وما يزال وي-وِن ، بعمر الثالثة . بعد خمس سنوات سيصبح في الثامنة . بعد خمس سنوات فحسب . وعندئذٍ سيأتي دوره . كانت للأيدي العاملة هنا قيمة أكبر من أي مكان آخر . الأصابع الصغيرة ، المعتادة مُسبقاً على حياكةِ السجاد ، المدربة على المهارات الحركية الدقيقة كلَّ يوم في المدرسة ، حتى أصبحت مصقولةً ومعدّة تماماً لأداء هذا النوع من العمل .

وجود المرء بعمر ثماني سنوات هنا في العراء ، كل يوم ويوماً بعد يوم ، يجعل الأجسام الصغيرة تتصلّب في الأشجار . لم يعُد ثمة عُذر

حتى للطفولة مثلما كان حالنا ، زملائي وأنا ، حينَ سُمح لنا بارتياد المدرسة حتى سن 15 عاماً .

لا حياة للطفولة .

ارتجفت يداي وأنا أرفع اليد التي تحمل الغبار الثمين . علينا جميعاً أن نعمل حتى نجلب الطعام . وحتى نجلب الطعام ، كنا نأكل أنفسنا . كان على الجميع أن يُساهموا ، حتى الأطفال . لأنه ، مَن سيحتاج إلى التعليم بينما تتلاشى مخازن القمح؟ بينما تتضاءل حصص الطعام شهراً بعد شهر؟ عندما يذهب المرء إلى النومِ جائعاً في المساءات؟

استدرتُ حتى أصل إلى الأزهار التي خلفي ، لكن حركاتي أصبحت عصبية تماماً . اصطدمتُ بغصن لم ألاحظه ، وفقدتُ توازني فجأة وملتُ بقوة إلى الجهة الأخرى .

وذلك تكفل بالأمر . صوتُ الانقصاف الذي نكرهه . صوتُ انكسار غصن .

جاءت المُشرفة سريعاً نحوي . نظرت فوقاً إلى الشجرة وقدَّرت الأضرار ولم تقل أي شيء . بسرعة كتبت شيئاً على قطعة من الورق قبل أن تغادر .

لم يكن الفرع كبيراً ولا قوياً ، لكنني أعرف أن ذلك لن يُحدِثَ فرقاً ، وأن كامل الدخل الإضافي الذي كسبتُه هذا الشهر يمكن أن يتلاشى . النقود التي ينبغي أن تذهب إلى الصندوق المعدني الصغير في خزانة المطبخ ، حيث ندَّخر كلَّ يوان استطعنا توفيره .

أخذتُ نفَساً . لا يجب التفكير كثيراً في الأمر . لا أستطيع فعل شيء سوى الاستمرار . رفعتُ يدي ، وغمستُ الفرشاة في حبوب اللقاح ، وحركتها بحذر نحو الأزهار ، ومسحت عليها كما لو أنني نحلَة .

تجنبتُ النظر إلى ساعتي . أعرف أن ذلك لن يساعد . كنتُ أعرف أن المساء يصبح أقرب فقط مع كل زهرة أحرك فرشاتي عليها . والساعة الوحيدة التي أقضيها كل يوم مع طفلي ، تلك الساعة الصغيرة كانت كل ما لدينا . وفي تلك الساعة الصغيرة ربما أستطيع أن أصنع فرقاً . أن أزرع في ابني بذرة ربما تعطيه الفرصة التي لم أنلها مطلقاً أنا نفسي .

وليام

مارفيل، هيرتفوردشاير، إنجلترا، 1852

كل شيء من حولي أصفر . أصفر بلا انتهاء . الاصفرارُ يمتد من فوقي ، من تحتي ، ومن حولي . ويُعميني . كان اللون الأصفر حقيقياً تماماً . لم يكن شيئاً أتخيله ، وإنما جاء من القماش الديباجي الذي ثبتته زوجتي تيلدا على الجدران عندما انتقلنا إلى هنا قبل بضع سنوات . كان لدينا الكثير من سعة الحال في ذلك الوقت . كان محلي الصغير لتجارة البذور في شارع مارفيل الرئيسي يزدهر . وكنت ما أزال مُلهَماً ، معتقداً أن بوسعي تدبر أمر الجمع بين العمل وبين ما يعني لي شيئاً حقاً ، أبحاثي في العلم الطبيعي . لكن ذلك كان منذ فترة طويلة . قبل وقت طويل من أن يصبح لدينا عدد كبير من الذريّة . وقبل وقت طويل من ذلك الحديث الأخير مع البروفسيور رام .

لو أنني كنتُ أعرف نوع الألم الذي يسببه القماشُ الأصفر ، لما قبلتُ بالتعايش معه مطلقاً . لم يكتفِ الأصفر بالبقاء في مكانه هناك على القماش . إذا أغلقتُ عينيّ ، أو تركتهما مفتوحتين ، وجدتُهُ دائماً هناك ، مُستفزّاً ومثيراً للحنق ، في كلِّ شيء . كان يتبعني إلى نومي ولا يتركني أفلتُ أبداً . كان مثل ضوء الشمس الذي ينسلُّ من بين الأوراق في الغابات . وظلَّ اللون يجبرني على العودة إلى هناك ، إلى غابة طفولتي . وهناك في الداخل ، عميتُ عن رؤية بقية العالَم .

أجبرتُ عينيَّ على البقاء مفتوحتين، لم أُرِد الذهاب إلى هناك ثانية. أرغمت نفسي على البقاء حاضراً، وعلى الاستماع.

كان الوقت متأخراً بعد الظهر، وسمعتُ أصوات قعقعة الأواني وحلقات الموقد وهي تُنقل فوق الفرن. ربما كان صوت الطعام الذي يُجهَّز هو الذي أيقظ معدتي وجعلها تلتوي في عُقد. انهرتُ، وانطويتُ في وضع الجنين.

نظرتُ من حولي. ثمة قطعة غير ممسوسةٍ من الخبز وشريحة من لحم الخنزير المجفف، موضوعتان على طبق بجوار كوب ماء نصف فارغ. متى أكلتُ آخر مرة؟

جلستُ نصفَ جلسة، وتناولتُ كأس الماء. جعلته يجري عبر فمي وأسفل حلقي، محاولاً أن أغسل به طعم الشيخوخة.

كانت ملوحة لحم الخنزير نتنةً على لساني؛ وكان الخبز قاتماً وثقيلاً. لكن الطعام وجد طريقه إلى معدتي التي استقرت الآن.

لم أستطع أن أجد وضعاً مريحاً في السرير. كان ظهري مثل فقاعة واحدةٍ كبيرة، وقد تهرأ وركاي حتى العظم مِن طول الاستلقاء على جانبي. وثمة تهيُّجٌ في ساقيّ، ووخز.

أصبح البيت صامتاً فجأة. هل غادروا جميعاً؟

لكنَّ صوتَ غناء تصاعد فجأة قادماً من الحديقة.

«اسمع الملائكة تُبشِّر بالغناء

المجدُ للملك الوليد».

هل سيحلّ عيد الميلاد قريباً؟

في السنوات الأخيرة، شرعت الجوقات المختلفة في المنطقة في الغناء عند أبواب الناس خلال فترة عيدِ القدوم، ليس من أجل المال أو الهدايا،

وإنما من أجل روح عيد الميلاد ، فقط لجلبِ البهجة للآخرين . كان هناك وقت وجدتُ فيه ذلك جميلاً ، عندما كانت هذه العروض الصغيرة تستطيع أن تشعل ضوءاً في داخلي لم أكن متأكداً من أنه موجود . هكذا كنتُ أشعر حيالها منذ زمن بعيد .

سالت الأصواتُ العذبَةُ المشرقة قادمةً في اتجاهي مثل المياه الذائبة :

«السلام على الأرض وطفل الرحمة ،
تصالَح الربُّ مع الخُطاة» .

وضعت قدمي على الأرض . بدت الأرض تحت باطن قدمي صلبة بشكل غير اعتيادي . كنتُ أنا نفسي الطفل الرضيع ، الوليد الجديد الذي لم تعتد قدماه على ملمس الأرض بعد ، وإنما صُنِعتا فقط للرقص على رؤوس الأصابع . هكذا تذكرتُ قدميّ إدموند ، بمشط قدم عالٍ وليِّن فقط ، متقوس من الأسفل مثلما هو في الأعلى . كنتُ أقفُ وهما في يديَّ ، وأنظر وأحسُّ فقط ، كما يفعل المرء مع ابنه البكر ، حتى مع أنني سأصبح شيئاً آخر بالنسبة له ، *«سوف أكونُ شيئاً مختلفاً بالنسبة لكَ»* ، شيئاً مختلفاً تماماً عما كانه أبي بالنسبة لي . هكذا كنتُ أقف وأنا أحملهُ حتى تخطفه تيلدا مني بذريعة إطعامه أو تغيير الحفاضات . تحركت قدماي ، قدما الطفل الرضيع ببطء في اتجاه النافذة . كل خطوة توجِع . والنافذة كبُرت أمامي ، ضخمةً وبيضاء .

ثم رأيتهن . رأيتُ السبعَ جميعاً . لم يكنَّ جوقةً غريبة عن القرية . كنَّ بناتي أنا . الأربع الأطول في الخلف ، والثلاث الأقصر في الأمام .

وقفنَ في ملابسهن الشتائية الداكنة . في المعاطف الصوفية ، مفرطة الضيق والقصيرة كثيراً أو الكبيرة كثيراً ، بتلك الرقع التي تتزايد بلا

توقف، بينما يختفي النسيج الأصلي الرث خلف الشرائط والجيوب الرخيصةِ المضافَةِ في أماكن غريبة. والأغطية الصوفية البنية، الزرقاء الغامقة أو السوداء المحاطة بالدانتيل الأبيض، أطّرت تلك الوجوه الشاحبة الشتائية. وتجمدت مقاطع الأغنية في الهواء، أمامهن.

لكم أصبحنَ نحيلات، بناتي، كلُّهن.

أظهر طريقٌ مرسوم في الثلج خطَّ سيرهنّ، حيث انحفرت مواطئ أقدامهن في الثلج العميق. لا بد أنهن خُضن فيه أعلى كثيراً من الركبتين وتبللن. شعرتُ بملمس جوارب الصوف المبتلة على الجِلد العاري، والبرد الصقيعي وهو يشق طريقه صاعداً من الأرض عبر بواطنِ أحذيتهن الرقيقة - لم يكن لدي أيٍّ منهن أكثر من هذا الحذاء الوحيد.

مشيتُ أقربَ إلى النافذة، وفي داخلي نصفُ توقع بأن أرى أناساً آخرين في الحديقة، جمهوراً للجوقة، تيلدا، أو ربما أحداً من الجيران. لكن الحديقة كانت فارغة. لم يكنَّ يغنين لأحد. كُنَّ يغنين لي.

«إنه يجلب الضوء والحياة للجميع

يقوم، والشفاء في جناحيه...».

كلُّ نظراتهن تركزت بعناية على نافذتي، لكنهنّ لم يكتشفن وقوفي هناك بعد. كنتُ أقف في الظلال، في الجزء الخلفي من الغرفة، وقد أشرقت الشمس وحيدة على زجاج النافذة، ولذلك ربما كُنّ يرين فيه انعكاس السماء والأشجار فحسب.

«ولِد ليوقظ أبناء الأرض

ولِد ليَهبَهم ولادة ثانية».

سرتُ خطوةً واحدةً إضافية أقربَ إلى النافذة.

كانت شارلوت ، ابنتي الكبرى بعمر 14 عاماً ، تقف في النهاية البعيدة . تركزت أنظارها على النافذة ، لكنها كانت تغني بجسدها كلّه . ارتفع صدرها وهبط بالتزامن مع اللحن . ربما كان هذا كلّه فكرتها ، من أوله إلى آخره . كانت دائماً تغني ، وتشقّ طريقها في دروب الطفولة بالدندنة بينما تنغمس في حل الواجبات المدرسية أو تنحني على الأطباق . دمدمة لحنية رخيمة ، كما لو أن النغمات الناعمة شكلت جزءاً من تحركاتها .

كانت هي التي اكتشفتني في النافذة أولاً . أضاء نورُ وجهَها . لكزَت دوروثيا ، التي نضجت قبل الأوان في سن 12 عاماً . وسرعان ما انحنت دوروثيا على أوليفيا ، ابنة الأحد عشر ربيعاً ، التي أدارت عينيها المفتوحتين على اتساعهما إلى أختها التوأم إليزابيث . لم يكن في التوأمين أي نوع من التشابه في المظهر ، وإنما في المزاج فقط . كلاهما رفيقتان لطيفتان ، بكماوان مثل عمودين - لم تستطيعا فهم الحساب ، حتى لو غُرست الأرقام مثل المسمار في جبهتيهما .

أمامَهن ظهرت ململةٌ في الصف . كانت البناتُ الصغيرات أيضاً على وشك اكتشافي . ضغطت مارثا ذات السنوات السبع على ذراع كارولين . وكارولين ، التي كانت دائمة النكد لأنها أرادت أن تكون هي أصغر البنات ، دفعت بقوة جورجيانا الصغيرة ، التي كانت تود لو أنها لم تكن هي الأصغر . لكنهن لم يُفصحنَ عن تلك البهجة العظيمة لله في الأعلى ، لم يسمحن لأنفسهن بذلك ، ليس بعد . فضح اضطرابٌ خفيف في الغناء فقط أنهن رأينني . ذلك ، والابتسامات الواهنة ، بالمدى الذي سمح به الغناء والأفواه المفتوحة على شكل دائرة .

اندفعت كتلةُ جذَلٍ صبيانيةٌ من صدري وإلى حلقي . لم يكن غناؤهن سيئاً . لم يكن سيئاً أبداً . بناتي الصغيرات . توهجَت الوجوه النحيلة ، ولمعَت العيون . لقد رتّبنَ هذا كله من أجلي أنا فقط .

والآن اعتقدن أنهن نجَحن . تمكنَّ من انتزاع ذلك - أخرجن الوالِد من السرير . وعندما تنتهي الأغنية ، سوف يسمحن للبهجة بالانطلاق . سوف يركضن بجذَل ، بأقدام خفيفة على الثلج المتساقط حديثاً إلى المنزل ليحكينَ لي عن معجزتهن الخاصة المصنوعة منزلياً . *لقد غنينا له وشفيناه* ، سوف يهتفن بابتهاج . *لقد غنينا لبابا جيداً وشفيناه!* سوف يردد مزيج متنافر النغمات من الأصوات المتحمسة في الممرات ، والذي سيرتد إليهن عن الجدران . *قريباً سيعود . قريباً سيكون معنا مرة أخرى . لقد أريناه الرب ، عيسى - الذي وُلد من جديد . اسمعوا ملائكة البشارة وهم يغنون ، المجد للملك الذي وُلِد من جديد . يا لها من فكرة عبقرية مذهلة حقاً هي الغناء من أجله ، لتذكيره بالجمال ، برسالة عيد الميلاد ، بكل شيء نسيه وهو طريح الفراش ، بذلك الشيء الذي نسميه المرض ، وإنما الشيء الذي يعرف الجميع أنه كان شيئاً مختلفاً تماماً ، ولو أن ماما تمنعنا من الحديث عنه . مسكين بابا ، إنه ليس بخير ، إنه نحيل كالشبح ، لقد رأينا ذلك ، عبر شق الباب المفتوح ونحن نتسلل قربه ، نعم ، مثل شبح ، جلد وعظام فقط ، واللحية التي تركها تنمو ، مثل المسيح المصلوب ، أصبح التعرف عليه صعباً . لكنه سيعود معنا قريباً مرة أخرى ، قريباً سيتمكن من العمل مرة أخرى . مرة أخرى ستعود الزبدة إلى خبزنا وتأتينا معاطف الشتاء الجديدة . هذه هدية عيد ميلاد حقيقة حقّاً . لقد ولد المسيح في بيت لحم!*

لكن كلّ ذلك كان كذبة . لم أستطع أن أعطيهن تلك الهدية . لم أكن أستحق هتافاتهن . جذبني السرير في اتجاهه . ارتجفَت ساقاي ، لم تكن قدماي المولودتان من جديد قادرتينِ على حملي وإبقائي قائماً . انعقدَت معدتي مرة أخرى . صرَّت أسناني ، وأردتُ أن أسحق تلك الكتلة في حلقي . هكذا ، انسحبتُ ببطء من النافذة . وفي الخارج هدأ الغناء . لن تحدُثَ أي معجزة اليوم .

جورج

تل الخريف، أوهايو، الولايات المتحدة الأميركية، 2007

التقطتُ توم من المحطة في أوتَمن . لم يكن قد عاد إلى المنزل منذ الصيف الماضي . لم أعرف السبب ، ولم أسأل . ربما لأنني لا أستطيع أن أحتمل سماع الجواب .

كانت رحلةً لنصف ساعة بالسيارة إلى المزرعة . لم نقل الكثير . استراحت يداه في حضنه فقط ونحن في طريقنا إلى البيت ، وجلسَ شاحباً ، نحيلاً وصامتاً . استلقت حقيبته عند ساقيه . اتّسخَت . لم تكُن أرضية الشاحنة الصغيرة قد نُظِّفت منذ اشتريتها . والأوساخ التي تجمعت من العام الماضي أو ربما قبل ذلك ، أصبحَت غباراً على الأرضية في الشتاء . وانسابت الرطوبة المتخلفة من ذوبان الثلج عن حذاء توم إلى الأسفل واختلطت بالغبار على الأرضيّة .

كانت الحقيبة جديدة ، مادتها قاسية . اشتُريت بالتأكيد من المدينة . وثقيلة . تفاجأتُ بثقلها عندما رفعتها عن الأرض في محطة الحافلات . أراد توم أن يأخذها بنفسه لكنني أمسكتُ بها قبل أن تسنح له الفرصة ، لم يبدُ وكأنه كان يعمل كثيراً بالضبط منذ آخر مرة رأيته فيها . لم أظنّ أنه في حاجة إلى أي شيء آخر سوى الملابس . كان قادماً إلى البيت ليقضي إجازة لأسبوع واحدٍ فقط . وكانت معظم أشيائه قد عُلِّقت مُسبقاً على مسمار في الردهة . معاطفه ، وأحذيته ، والقبعة بغطاء الأذنين . لكنه جلب كما يبدو

حِملاً من الكتب معه . يبدو أنه اعتقد أنه سيكون هناك الكثير من الوقت لهذا النوع من الأشياء .

وجدتُه واقفاً في انتظاري عندما وصلت . وصلَت الحافلة مبكراً ، أو ربما كنتُ أنا الذي وصلتُ متأخراً . كان عليّ أن أزيح الثلج في الفناء قبل مغادرتي إلى محطة الحافلات ، ربما كان هذا هو السبب .

«لا يهُمُّ يا جورج . إنه يرفَع رأسَه فوقاً بين السحب على أي حال» ، قالت إيما التي وقفت تراقبني وهي ترتجف ، وقد احتضن ذراعاها صدرَها .

لم أُجِب . يجبُ أن أجرف الثلج . انهار الثلجُ مثل الأوكورديون ، خفيفاً وطازجاً . ولم أتعَب ، حتى أنني لم أسفح قطرة عرَق واحدة على ظهري .

واصلَت النظر إلي .

«كأنكَ تظنُّ أنّ الرئيس بوش نفسَهُ قادمٌ للزيارة» .

«يجب أن يزيح أحدٌ الثلج هنا . أنتِ لا تفعلين» .

رفعتُ عينيّ عن الثلج . رأيتُ بقعاً بيضاء أمام عيني . ابتسمت تيلدا ابتسامتها الملتوية . ولم أستطع سوى أن أبتسم بالمقابل . كنا نعرف بعضنا منذ أيام المدرسة ، ولا أعتقد أن يوماً واحداً مرَّ دون أن نتبادل هذه الابتسامة بالضبط .

لكنها مُحقة . لقد بالغتُ في تجريف الثلج . ما كان الثلج سيبقى على أي حال ، فقد شهدنا عدة أيام دافئة ، وأشرقت الشمس وذاب الثلج في كل مكان . كان تساقط هذا الثلج مجرد الرمق الأخير من فصل الشتاء ، وسوف يذوب ويختفي من المشهد في غضون بضعة أيام هو الآخر . ثمَّ بالغتُ وحلقتُ بعيداً عندما نظفتُ المرحاض اليوم أيضاً .

المنطقة خلف المرحاض ، حتى أكون دقيقاً . لم يكن ذلك سلوكاً عادياً بالضبط من طرفي . أردت فقط أن يكون كل شيء مُهندماً ونظيفاً ، الآن وهو يعود إلى المنزل أخيراً . الآن عندما سيرى الفناء الذي جُرِفَ منه الثلج حديثاً ، والمرحاض النظيف ، لن يلاحظ كيف تقشّر الطلاء عن الجدار الجنوبي حيث تسطع الشمس ، أو أن المزراب أصبح فالتاً يتأرجح في رياح الخريف .

عندما غادرَنا توم ، كان مسفوعاً وقوياً ، وشغوفاً ، لأنه بمجرد أن احتضنني طويلاً آنذاك ، شعرتُ بالقوة في أعلى ذراعيه وهو يعانقني . فكرتُ بالآخرين الذين وصفوا كيفَ يصبحُ أولادهم أكبر وأكبر كل مرة يرونهم فيها ، وكيف تأخذكَ المفاجأة عندما ترى أولادكَ مرة أخرى بعد مرور بعض الوقت . لكن هذا لم يكن واقع الحال مع توم . الآن تقلّص . كان أنفه أحمر ووجنتاه بيضاوين ، وكتفاه ضيقَين . ولم يُساعد أيضاً أنه بدا مرتجفاً ومنحنياً ، مثل حبة كمثرى ذابلة . لم يتوقف ارتجافه ونحنُ نعود بالسيارة إلى البيت ، لكنه جلس هادئاً مثل كائنٍ نحيل هزيل في المقعد بجواري .

«كيف كان الطعام»؟ سألتُ .

«الطعام؟ تعني في الكليّة؟

«كلا ، في المرّيخ» .

«هاه»؟

«طبعاً في الكلية . هل كنتَ في أيٍّ مكان آخر مؤخراً»؟

هبط رأسُه بين كتفيه مرة أخرى .

«أعني ذلك بالضبط . . . تبدو سيء التغذية بعض الشيء» ، قلتُ .

«سيء التغذية؟ أبي ، هل تعرف حتى ما يعنيه ذلك»؟

«آخر مرة راجعتُ فيها الأمر ، كنتُ أنا الذي يدفعُ رسومَك الدراسية ، لذلك لا حاجة إلى أن تردَّ عليَّ بهذه الطريقة» .

صمَت . لفترة من الوقت .

«لكنَّ كل شيءٍ على ما يُرام ، إذن» ، قلتُ أخيراً .

«نعم ، كلُّ شيء على ما يُرام» .

«إذن ، أنا أحصلُ على مقابلٍ لنقودي»؟

حاولتُ أن أبتسم ، لكنني رأيتُ من زاوية عيني أنه لم يكُن يضحك . لماذا لم يضحك؟ كان يستطيع أن يحاول مجاراة النكتة ، وكان يمكن أن نطرد بالضحكِ تلكَ الكلمات المحرجة ، وربما كنا لنخوضَ في حديثٍ لطيف لبقية الرحلة .

«بما أن وجباتكَ مدفوعة الثمن ، ربما كان يجب أن تأكل أكثر قليلاً» ، غامرتُ بالقول .

«نعم» ، كانت كل ما قال .

ظهر شيءٌ من الضيقِ في داخلي . أردتُه أن يبتسم فقط ، لكنه جلس هناك بهذه الجاذبية حجرية الوجه . من الأفضل عدم قول شيء . أن أمسك لساني . لكن شيئاً ما كان يدفعني إلى الكلام .

«لم تكن تستطيع الانتظار حتى تبتعدَ ، أليس كذلك»؟

أصبح غاضباً الآن؟ هل يمكن أن نعود إلى ذلك الجدالِ مرة أخرى؟ كلا ، تنهد وحسْب .

«أبي» .

«نعم . أنا أمزح فقط . مرة أخرى» .

ابتلعتُ بقية كلماتي . عرفت أنني يمكن أن أقول قدراً كبيراً من الأشياء التي ربما أندم عليها إذا واصلتُ الكلامَ الآن . ما كان يُفترض بي أن أبدأ بهذه الطريقة ، ليس عندما يكون قد جاء أخيراً .

«أعني فقط» ، قلتُ ، وأنا أحاول أن أخفض صوتي . « . . . كنتَ تبدو أسعد حالاً عندما غادرتَ مما أنتَ الآن» .

«أنا سعيد . أتفهمُني»؟

«أفهمُك» .

نهاية القصة . كان سعيداً . سعيداً جداً . سعيداً جداً حتى أنه يقفز إلى الأعلى والأسفل من فرط السعادة . لم يكن يستطع الانتظار حتى يرانا ، ويرى المزرعة مرة أخرى . لم يفكر بأي شيء آخر منذ أسابيع ، بوضوح .

تنحنحتُ ، ولو أن حنجرتي لم يكن بها شيء . جلس توم هناك فقط ، بيديه الهادئتين . ابتلعتُ غُصة ، ثمة شيء يجلسُ هناك في حلقي ، ضاغطاً . ما الذي آملُ فيه؟ أن تحولنا بضعة أشهر قصيرة فقط إلى أصدقاء؟

احتضنَت إيما توم بذراعيها لوقت طويل . بدت أمورهما صافية الآن كما كانت في السابق ، وهي ما تزال تستطيع بوضوح أن تعصُره وتدفعه من دون أن يُمانع .

لم يُلاحظ الفناء المجروف جيداً . كانت إيما محقة بشأن هذا . لكنه لم يهتم بشأن الطلاء الذي يتقشّر عن الحائط أيضاً ، وكان ذلك شيئاً جيداً . . .

كلا ، ليس جيداً . لأنني أردته حقاً أن يلاحظ الأمرين . أن ينغمسَ في العمل بحماسٍ الآنَ وقد عاد أخيراً إلى المنزل . أن يتحمل المسؤولية .

قدَّمت إيما طبق رغيف اللحمِ مع الذرة ، بكميات كبيرة في أطباق خضراء ، وأشرقَت الذرة الصفراء زاهية وتصاعدَ البخار من صلصة الكريما . لم يكن في الطعام أي عيب ، لكن توم أكل نصف حصته فقط ، ولم يمسَّ اللحم . يبدو أنها لم تكن لديه شهية لأي شيء . لم يكن في المكانِ ما يكفي من الهواء النقي ، وكانت تلك مشكلة . سوف نفعل شيئاً بشأن ذلك الآن .

سألَت إيما وتطفَّلَت . عن الكلية . المدرِّسين . عن صفوفه . أصدقائه ، البنات . . . ولم تحصل على الكثير من الإجابة عن السؤال الأخير ، ليس بالضبط . لكن الحديث بينهما تدفق بنعومة مع ذلك ، كما كان حالُه على الدوام . حتى مع أنها سألت أكثر مما أجابت .

كان بينهما دائماً شيءٌ خاص ، هؤلاء الاثنين . لم تكُن الكلماتُ تعلُق بينهما . ولم يكُن التقاربُ بينهما في حاجة إلى أي جهد . لكنّها هي الأم ، بطبيعة الحال .

وقد استمتعت بذلك ، كانت وجنتاها حمراوين ورديتين ، وأبقت عينيها على توم كل الوقت ، ولم تستطع أن تبقي أصابعها بعيدة عنه ، بعد أن تراكمت أشهرٌ من الحنين إليه في يديها .

بقيتُ هادئاً معظم الوقت ، وحاولتُ أن أبتسمَ عندما يبتسمان ، وأضحكَ عندما يضحكان . بعدَ فشل محادثة السيارة ، لم يكن الأمر يتحمَّل أي مجازفة . كنتُ أبحث عن أي مناسبة لبدء ما يدعى حديث الأب لابنه بدلاً من ذلك . وسوف تأتي . سوف يبقى هنا لأسبوع .

استمتعتُ بالوجبة فحسب ، وأفرغتُ طبقي ، على الأقل ثمة أحد هنا يعرِفُ كيف يقدِّر الطعام الجيد . ارتشفتُ الصلصة مع قطعة لحم ، ووضعت فضيّاتي متصالبة على الطبق ، ونهضتُ .

لكن توم همّ بالنهوض هو أيضاً ، حتى مع أن طبقه ما يزال نصف ممتلئ . «شكراً لكم» .

«يجب أن تأكلَ الطعامَ الذي أعدته لكَ والدتُك» ، قلت . وحاولت أن أبدو مرحاً ، لكن العبارة ربما خرجت حادة قليلاً .

«لقد أكلَ الكثير حقاً» ، قالت إيما .

«لقد عملتِ ساعات في تحضيرِ هذا العشاء» ، كانت تلك مبالغة مني ، بالمعنى الدقيق للكلمة .

جلَس توم ثانية . رفَع شوكته .

«إنه مجرد رغيف لحم» ، قالت إيما . «لم يتطلب إعدادُه كل هذا الوقت» .

أردتُ أن أعترض . لقد عملَت بجدّ ، لا شكَّ في ذلك . كانت متحمسة للغاية لوجود توم في البيت مرة أخرى . استحقَّت بالتأكيد أن يعرفَ ذلك .

«أكلتُ شطيرةً في الحافلة» ، قال توم ، لطبقِه .

«ملأتَ معدتكَ مباشرة قبل أن تعود إلى البيت وتأكلَ من طبخ أمك؟ ألم تفتقده؟ هل تناولتَ رغيف لحم أفضل منه في أي مكان آخر»؟

«أكيد يا أبي ، الأمر فقط أنه . . .» . وصمَت .

تجنبتُ النظر في اتجاه إيما ، عرفت أنها تحدِّق فيَّ بشفاه مزمومة وعيونٍ تشير لي بأن أتوقف .

«!الأمرُ فقط ماذا»؟

دفعَ توم طعامه قليلاً على طبقه . «لقد توقفتُ عن أكلِ اللحم» .

«ماذا»!

«الآن ، الآن» ، قالت إيما بسرعة وشرعت في التنظيف .

ظللتُ جالساً . وقعَت قطعة الأحجية في مكانها . «لا عجبَ أنك هزيل» .

«لو أنَّ الجميع نباتيون ، لكان هناك قدر أكبر من الطعام يكفي لكل سكان العالم» ، قال توم .

«لو أنَّ الجميع نباتيون» ، قلدتُه وحدقتُ فيه من فوق حافة كأس مائي . «لطالما أكلَ البشر اللحم» .

كانت إيما قد كدَّست الأطباق وأواني التقديم في كومة طويلة . ارتجفَت بغضب .

«رجاءً . أنا على يقين من أن توم فكَّر بهذا الأمر بعناية» ، قالت .

«لا أصدقُ ذلك» .

«أنا لست النباتيَّ الوحيد بالضبط» ، قال توم .

«نحنُ نأكلُ اللحمَ في هذه المزرعة» ، قلتُ ووقفت بشكل مفاجئ حتى أن مقعدي وقع على الأرض .

«الآن ، الآن» ، قالت إيما مرة أخرى وهي تُنظف الطاولة بحركات مهتزة . أرسلت واحدةً أخرى من نظراتها الحادة في اتجاهي . لم تقل نظرتها «اصمت» هذه المرة . قالت «إخرس» .

«ليسَ الأمر كما لو أنك تعمل في تربية الخنازير» ، قال توم .

«ما دخلُ هذا بالمسألة»؟

«أيّ فرقٍ لديكَ إذا كنتُ لا آكلُ اللحم؟ طالما أستمرُّ في أكل العسل»؟

ضحكَ ضحكةً مكبوتةً . بودّ؟ كلا ، بوقاحة بعض الشيء .

«لو أنني كنتُ أعرفُ أن الذهاب إلى الجامعة سيجعلكَ هكذا لما أرسلتُك أبداً» . ندمتُ على كلماتي بينما أتحدثُ ،لكنني لم أستطع إبقاءَها في داخلي أيضاً .

«بالطبع كان يجب أن يذهب الصبيُّ إلى الكلية» ، قالت إيما .

بالطبع ، كان ذلكَ واضحاً مثل الليلة الأولى من موسمِ الصقيع . على الجميع أن يذهبوا إلى الكلية .

«لقد حصلتُ على كل التعليم الذي أريدُه هناك في الخارج» ، قلتُ ولوحتُ بيدي بغموض ، محاولاً أن أشير إلى الشرق حيث يقع الحقل الذي توجد فيه بعضُ خلايا النحل ، لكنني اكتشفتُ متأخراً أنني كنتُ ألوِّح في اتجاه الغرب .

لم يتكلَّف توم حتى عناءَ الرد .

«شكراً لك» .

نظفَ الطاولة وراءه بسرعة واستدار إلى إيما .

«سوف أهتمُ أنا بالبقية . اذهبي فقط واجلسي» .

ابتسمَت إيما له . ولم يقل أحدٌ أيَّ شيء لي .

تجنباني كلاهما : انسلَّت هيَ خارجة إلى غرفة الجلوس والصحيفة ، وهو وضع على خصرِه مئزراً ، فعل ذلكَ حقاً ، وشرع في غسل الأواني .

كان لساني قد جفّ . أخذتُ رشفةَ ماء ،لكنَّ ذلك لم يُساعد كثيراً .

دارا كلاهما من حولي ، وكنتُ أنا الفيلَ في الغرفة . سوى أنني لم أكن فيلاً . كنتُ ماموثاً . جنساً منقرضاً مِن الكائنات .

تاو

«إذا كانت لديَّ ثلاث حبات من الأرز ، ولديكَ اثنتان ، ووضعناها كلها معاً ، كم يكون المجموع»؟

أخذتُ ثلاث حبات أرز من طبقي ووضعتها في طبق وي-وِن ، الذي كان فارغاً مسبقاً .

كانت وجوهُ الأطفال في الحقول ما تزال معي : الفتاة طويلة القامة التي تميل بوجهها نحو الشمس ، والولد الذي تمدد وجهه منفتحاً في تثاؤبةٍ طويلةٍ غير مقصودة . كانا صغيرَين جداً . وأصبحَ وي-وِن كبيراً جداً فجأة . سوف يصبح قريباً بمثل عمرهما . في أجزاء أخرى من البلاد هناك مدارس لقلة مختارة . لأولئك الذين سيصبحون قادة ، أولئك الذين سيتحملون المسؤولية . الذين يكونون بمنأى عن الحاجة إلى العمل هناك . لو أنه يبرَع بما فيه الكفاية فقط ، ويتميز كواحد من الأفضل في سن مبكرة . . .

«لماذا هناك ثلاث حباتٍ لكِ واثنتان فقط لي»؟ نظرَ وي-وِن إلى حبات الأرز وعبس .

«لدي اثنتان إذن ، ولديك أنتَ ثلاث» ، بدلتُ حبات الأرز في طبقَينا . «كم يصنع ذلك عندما نضعها معاً»؟

وضع وي-وِن كلَّ قبضته القصيرة على الطبق ، وحركها فيه كما لو أنه يرسم بأصابعِه .

«أريدُ المزيد من الكاتشب» .

«أوه ، وي-وِن» ، سحبت يده بحزم ، كانت دبِقة بعد تناول الوجبة . «يجب أن نقول : هل يمكن أن تعطيني المزيد من الكاتشب»؟ تنهدتُ ، وأشرتُ إلى حبات الأرز مرة أخرى . «اثنتان لي ، وثلاث لك . ثم يمكننا أن نَعُد . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة» .

مسح وي-وِن وجهه بإحدى يديه ، راسماً خطاً من صلصة الطماطم على خدِّه . ثم مدّ يده إلى الزجاجة . «هل يمكن أن تعطيني مزيداً من الكاتشب»؟

كان يجبُ أن أبدأ في وقت أبكر . كانت هذه الساعة الوحيدةُ هي كل ما نقضيه معاً كل يوم . لكنني غالباً ما أهدرتها ، وأنفقتُ معظم الوقت على الأكل وتذكُّر الأوقات الماضية المريحة . كان ينبغي أن يكون قد أحرز تقدماً أكبر الآن .

«خمسُ حبات من الأرز» ، قلتُ . «خمس حبات أرز . أليس كذلك»؟

كفّ عن محاولة الوصول إلى زجاجة الطماطم ورمى نفسه في مقعده بقوة جعلَت أرجل الكرسي تضرب الأرض بقوة . كثيراً ما تصرف على هذا النحو ، بحركات كبيرة دراماتيكية . عنيف . هكذا كان دائماً منذ وُلد . وقانع . بدأ المشيَ متأخراً ، ولم يكن ينطوي على ذلك الفوَران اللازم في داخله ، كان قانعاً بأن يظل جالساً على مؤخرته ، مبتسماً لكل مَن يتحدثُ إليه . وكان هناك الكثيرون الذين يريدون أن يفعلوا ذلك ، لأن وي-وِن كان من نوعِ أولئك الأطفال الذين يبتسمونَ بسهولة .

تناولتُ الزجاجة التي تضم المادة الحمراء وسكبتُ شيئاً منها في طبقه . ربما يمكنُ أن يتعاون الآن . «أنتَ هناك ، تفضل» .

«نعم! كاتشب»!

أخذت حبتَي أرز جافتين أخريين من الوعاء على الطاولة .

«انظر هنا . لدينا حبتان إضافيتان . كم يصبح المجموع الآن»؟

لكنَّ وي-وِن أصبح منشغلاً بالأكل . وانتشرت صلصَة الطماطم في كل مكان حول فمه الآن .

«وي-وِن؟ كم يساوي ذلك»؟

أفرغَ طبقه مرة أخرى ، ونظر إليه بُرهة ، ورفعه بين يديه . بدأ بإصدار أصوات هادرة ، كما لو أنه طائرةٌ عتيقة الطراز . كان يحبُّ كل أنواع المركبات . كان مهووساً بالطائرات العمودية ، والسيارات ، والحافلات ، وكان يزحف على الأرض لساعات وهو يصنع الطرق ، والمطارات ، والممرات لمركبات النقل .

«وي-وِن ، أرجوك» . أخذتُ الطبق بسرعة منه ووضعته بعيداً عن متناوله . ثم واصلت الإشارة إلى حبات الأرز الباردة الجافة .

«انظر هنا . خمسة زائد اثنان . كم يصبح ذلك إذن»؟

ارتجف صوتي قليلاً . غطيتُ ذلك بابتسامةٍ لم يلاحِظها وي-وِن ، لأنه كان يحاول الوصول إلى الطبق .

«أريده! أريد الطائرة! إنها لي» .

تنحنح كوان . كان في غرفة الجلوس يشربُ كوباً من الشاي وقد وضع قدميه على الطاولة ، وهو ينظر إليَّ من فوق كوبه ، مسترخياً بوضوح .

تجاهلتهما كليهما وشرعتُ في العد . «واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، و . . . سبعة»! ابتسمتُ لوي-ون ، كما لو أن هناك شيئاً غير اعتيادي في حبات الأرز السبع . «كلها معاً تصبح سبعة . صحيح؟ هل ترى؟ واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة» .

أردتُ هذا فقط . لو أنه فهم هذا لهدأت ، ثم يستطيعُ بعد ذلك أن يلعب . خطوات طفل ، كلَّ يوم .

«أريده»!

مدَّ يديه البدينتَين إلى أقصى حد يستطيعه .

«يا صغير ، يجب أن يبقى هناك» ، ارتفعَ صوتي . «سوف نقوم بالعدِّ الآن ، أليس كذلك»؟

أطلقَ كوان تنهيدة مسموعة نادرة ، وقف وجاء لينضم إلينا . وضع يده على كتفي . «إنها الساعة الثامنة» .

تلويتُ منفلتةً من قبضته .

«لن يؤذيه إذا ظلَّ مستيقظاً خمسَ عشرة دقيقة أخرى» ، قلت ورفعتُ أنظاري إليه .

«تاو . . .» .

«يستطيع تحمل 15 دقيقة» ، واصلتُ وأنا أحدق فيه .

بدا مرتبكاً . «ولكن لماذا»؟

أشحتُ بأنظاري بعيداً ، ولم أستطع أن أجبر نفسي على التفسير ، على أن أحدثه عن الأولاد في الحقل . كنتُ أعرف ما سيقول على أي حال . إنهم لم يكونوا كباراً ويصبحوا أصغر . إنهم صغار كما هو حالهم دائماً . كانوا في الثامنة من العمر في العام الماضي أيضاً . هكذا هي

الأمور، وهكذا كانت منذ العديد من السنين. ولو أنه واصل، لكان سيقول كلمات كبيرة جداً حتى تبدو وكأنها لا تنتمي إليه: *يجب أن نكون سعيدين لأننا نعيش هنا. كان يمكن أن تكون الأمور أسوأ. كان يمكن أن نعيش في بكين. أو أوروبا. يجب أن نحقق أفضل فائدة من هذا الوضع. أن نعيش هنا والآن. وأن نستغلّ كل ثانية*. عبارات، ليس من النوع الذي يمكن أن يُستخدم بخلاف ذلك، مثل شيء قرأه في كتاب، لكنه يقولها بإيمان. لقد آمن فعلاً بتلك الكلمات.

ملّس كوان على رأس وي-وِن الخشن. «أريدُ أن ألعبَ معه»، قال بهدوء ولطف.

تلوّى وي-وِن في مقعده المرتفع والكبير جداً عليه، لكنه جلس هناك بأمان محشوراً فيه، ولم يستطع أن يهرب من مدرستي المنزلية. مدَّ يده نحو الطبق. «أريده، إنه لي»!

لم ينظر كوان إليّ، وإنما قال لوي-وِن فقط بنفس الصوت المنضبط: «لا يمكن أن تأخذه. ولكن، أتدري؟ يمكن أن تكون فرشاة الأسنان طائرة أيضاً». ثم حمل وي-وِن وسار في اتجاه الحمّام.

«كوان... ولكن...».

نقل وي-وِن بسهولة من ذراع إلى أخرى بينما يسير إلى الحمّام، متظاهراً بأنه لم يسمعني، واستمرَّ في الدردشة مع وي-وِن. حمل ابنه كما لو أن وزنه لا شيء - بينما كنتُ أنا أشعر بأن وزن الطفل يصبح ثقيلاً مُسبقاً.

بقيتُ جالسة. أردتُ أن أقول شيئاً، أن أحتج، لكن الكلمات لم تخرج. إنه على حقّ. كان وي-وِن مُنهكاً. وكان الوقت متأخراً.

يجب أن يوضع في السرير قبل أن يصبح مُجهداً أكثر من اللازم ويرفض النوم . كنت أعرف أنه مهيأ لذلك . ثم يستطيع أن يظل مستيقظاً حتى بعد موعد نومنا نحن . وسيبدأ الحمق ، فيُفتح باب غرفة النوم ويُغلَق ، ثم يدخل علينا مرة وأخرى ، ويستجدي الضحك ، تعالوا وأمسكوني . ويتبع ذلك الحنق والغضب ، والعويل ، والاحتجاجات الجامحة . هكذا كان وي-وِن . هكذا هم الأولاد في الثالثة من العمر .

مع ذلك . . . لم أتذكر أنني تصرفتُ على هذا النحو وأنا طفلة . تعلمتُ القراءة عندما كنتُ في الثالثة . والتقطتُ الحروف بمفردي ، وفاجأتُ المعلمة عندما قرأتُ بمهارة قصص الخيال لنفسي ، وإنما ليس للأطفال الآخرين أبداً . بقيتُ بعيدة عنهم . وكان والداي متفرجين مندهشين على الهوامش ، وتركاني أقرأ قصصاً خيالية بسيطة للأطفال ، ولم يجرؤا أبداً على أن يتحدياني بقراءة نصوص أخرى . لكنهم لاحظوا في المدرسة . وأعطتني المعلمات الفرصة لأقرأ الكتب عندما يكون الآخرون في الخارج ، وزودنني بما لديهن من برامج التعليم ، والنصوص ، والأفلام المتقطعة التي جاء معظمها من الزمن الذي سبق «الانهيار» ، من الزمن الذي سبق سقوط الديمقراطيات ، وقبل اندلاع الحرب العالمية التي تبعت ذلك ، عندما أصبح الطعام سلعَة نادرةً توهَب لقلة مختارة . جاءت من زمن كان فيه إنتاج المعلومات هائلاً جداً حتى لم يعد أحدٌ يملك القدرة على مراقبتها بعد ذلك . كانت آثار الكلمات تمتد بعيداً جداً حتى مجرة درب التبانة . تتسع بحجم سطح الشمس ، مكوَّنة من الصور ، والخرائط ، والرسوم التوضيحية . زمن مربوط بفيلم ، زمن مشهديّ لملايين الحيوات البشرية . جعلت التكنولوجيا كل شيء متاحاً . كانت الوفرة هي

عقيدة ذلك العصر . وكان البشر يستطيعون الوصول في كل وقت إلى هذه المعلومات بوسائل اتصال لا تني تزداد تقدُّماً .

لكن «الانهيار» أثَّر أيضاً على الشبكات الرقمية . في غضون ثلاث سنوات تفككت تلك الشبكات تماماً . وأصبح كل ما تركه البشر هو الكتب ، وأقراص الفيديو الرقمية المتقطعة رديئة الجودة ، وأشرطة رقمية متهالكة ، وأقراصاً مدمجة مخدوشة تضم برمجياتٍ هالكة عفا عليها الزمن ، وشبكة هواتف أرضية قديمة سرعان ما تدهورت هي الأخرى .

التهمتُ الكتبَ القديمةَ ذات الصفحات مثنية الأطراف والأفلام المتقطعة . قرأتُ وتذكرتُ كل شيء ، كما لو أن الكتب والأفلام تركت طبعة دقيقة في ذاكرتي .

كنت أخجلُ من معرفتي لأنها لم تصنع لي أيَّ فرق . حاولت عدة معلمات التحدث مع والديّ عن كم كنتُ طفلة موهوبة ، لديها قدرات ، لكنهما كانا يبتسمان خلال تلك المحادثات بخجل ، ويفضلان أن يسمعا عن الأشياء الطبيعية ، مثل ما إذا كان لي أيُّ أصدقاء ، إذا كنتُ جيدة في الركض ، التسلق ، في الفنون والحرف اليدوية ؛ أي كل المجالات التي لم أكن ناجحة فيها . لكن خجلي خفَّ تدريجياً بسبب جوعي للتعلم . درستُ اللغة بعمق ، وتعلمتُ أن كل شيء أو شعور ليست له كلمة أو وصف واحد ، وإنما العديد من المفردات والأوصاف . وتعلمتُ عن تاريخنا . عن الموت الجماعي لحشرات التلقيح ، عن ارتفاع مستوى المحيطات ، وارتفاع درجات الحرارة ، عن حوادث الطاقة النووية ، وعن القوى العظمى السابقة ، الولايات المتحدة وأوروبا ، التي خسرت كل شيء في غضون بضع سنين ، ولم تستطع التكيف وأصبحت تعيش

الآن في فقر مدقع ، بعدد سكان مختزل إلى مجرد شذرة مما كان ، وإنتاج غذائيّ مقتصر على الحنطة والذرة . بينما هنا ، في الصين ، استطعنا نحنُ أن نتكيّف . كانت «اللجنة» ، أعلى هيئة في الحزب ، وحكومة بلدنا الكفؤة ، قد قادتنا خلال فترة «الانهيار» بيد قوية ومجموعةٍ من القرارات التي لم يفهمها الناس في كثير من الأحيان ، وإنما لم يكن لديهم الوقت للتساؤل عنها . كل هذا تعلمتُه . وأردتُ أن أواصل فحسب . أن أحصل على أكثر وأكثر . أردتُ أن أمتلئ بالمعرفة ، وإنما من دون أن أتأمل كثيراً فيما تعلمتُ .

لم يكُن حتى صادفت طبعة رثة من كتاب *«النحّال الأعمى»* حين توقفتُ . كانت الترجمة من الإنجليزية خرقاء وبلا أي فن ، لكن الكتاب حيرني مع ذلك . كان قد نُشر في العام 2037 ، قبل بضع سنوات من أن يصبح «الانهيار» حقيقة ولا يعود بالإمكان العثور على حشرات التلقيح بعد ذلك على وجهِ الأرض . اشتريتُ الكتابَ لكي أريهِ لمعلمتي ، وتقاسمتُ معها صور خلايا النحل والمخططات التفصيلية للخلايا . كان النحل هو الذي اهتممتُ به أكثر ما يكون . ملكةُ النحل وأطفالها ، والأخيرون ليسوا أكثر من يرقات صغيرة في أقراص الخلية ، وكلّ ذلك العسل الذهبي الذي أحاطت النحلات نفسها به .

لم تكُن المعلمة قد رأت الكتاب من قبل . توقفَت عند الفقرات الغنيةِ في النص لتقرأها لي بصوت عالٍ . قرأَت عن المعرفة . عن تصرف المرءِ ضد غرائزه ، عن السبب في أننا نريد أن نعرف أكثر ، عن كيف أننا حتى نعيش في الطبيعة ، ومع الطبيعة ، فإن علينا أن ننأى بأنفسنا عن

الطبيعة في دواخلنا . عن قيمة التعليم . لأن هذا هو ما يدور التعليم حوله حقاً ، تحدِّي الطبيعة في نفس المرء .

كان عمري ثماني سنوات حينذاك ، ولم أفهم سوى جزءٍ صغير من هذا فحسب . لكنني فهمتُ تقديرَ معلمتي للمحتوى ، فهمتُ أن الكتاب حرَّكها . وفهمتُ ذلك الجزء عن التعليم . بلا معرفة نحن لا شيء . بلا معرفة نحن حيوانات .

بعد ذلك أصبحتُ أكثر تركيزاً . لم أرد أن أتعلَّم فقط لمجرد التعلُّم ، وإنما أردتُ أن أتعلم لأفهم . وسرعان ما تقدمتُ أبعدَ من الآخرين في صفي وكنتُ أصغر طالبة في المدرسة تصبح «رائداً صغيراً» في الحزب ، وسُمحَ لي بارتداء «الوشاح» . كان هناك نوع من الفخر المبتذل في هذا . وحتى والداي ابتسما عندما ربطتُ قطعة القماش الحمراء حول عنقي . لكن القراءة جعلتني أولاً وقبل كل شيء ، أكثرَ غِنى . أكثر غِنىً من الأولاد الآخرين . لم أكن جميلة ، ولا رياضية ، ولا جيدة بالعمل بيديَّ ولا قوية . لم أستطع أن أتميز في أيّ واحدٍ من الحقول الأخرى . وفي المرآة ، حدقت فيَّ فتاةٌ خرقاء . كانت العينان صغيرتين جداً نوعاً ما ، والأنف كبيراً جداً نوعاً ما . ولم يكشف الوجه العادي عن شيء مما تحمله صاحبته - شيءٍ ذهبي ، شيء يجعل كلَّ يوم مفرد قميناً بأن يُعاش . كان يُمكن أن يكون ذلك الغنى وسيلة للإفلات .

قبل سن العاشرة كنتُ قد حدَّدتُ الاحتمالات . كانت هناك مدارسُ في أجزاء أخرى من البلد ، على بعد رحلة يوم واحد ، والتي ستقبلُني عندما أبلغ الخامسة عشرة ، العمر الذي يفترض أن أبدأ العمل عندَه حقاً هناك في الحقول . ساعدتني مشرفة المدرسة على معرفة كيف

أتقدم بطلب . ظننت أنني سأنال فرصة جيدة في القبول . لكن ذلك سيكون مكلفاً . تحدثتُ مع والديَّ ، لكنني لم أصل إلى شيء ، أصبحا قلِقَين ، ونظرا إليّ كما لو أنني مخلوق غريب لا يفهمانه ، أو حتى لا يحبانِه . وحاولت مُشرفةُ المدرسة التحدث معهما أيضاً ، ولم أعرف أبداً ما قالته ، لكن التأثير الوحيد الذي أحدثَه ذلك هو أنه جعل والدَيَّ أكثر عناداً . لم تكن لديهما نقود ، ولم يكونا على استعداد للتوفير .

كنتُ أنا الطرفُ الذي عليه أن يستسلم ، كما اعتقدا ، كنتُ الشخص الذي عليه أن يهدأ ، ويتوقف عن «التشبثِ بأحلام حمقاء» . لكنني لم أستطع ذلك . لأن ذلك كان أنا . وما سأكونه على الدوام .

استيقظتُ على صوت ضحك وي-ون . ضحكَ بصوت عالٍ ، ضحكاً مغرِّداً في الحمّام ، وضخَّمت الحيطانُ هناك الصوت . «كلا ، أبي! كلا»!

ضحكَ بينما يدغدغه كوان ويقبِّلُ بطنه الطريَّ ويصنع صوتاً بشفتيه .

وقفتُ . وضعتُ طبق الطعام في حوض الغسيل . مشيتُ في اتجاه باب الحمام ووقفتُ هناك أستمع . وعندما سمعتُ ضحك وي-وِن ، شعرتُ بحافز لتسجيله ، حتى أتمكنَ من تشغيله له عندما يكبرُ ويكتسبُ صوتاً عميقاً .

لكن ذلك الخاطر لم يجعلني أبتسِم .

وضعتُ يدي على المزلاج ، ودفعتُ الباب وفتحتُه . كان وي-وِن مستلقياً على الأرض بينما خلع كوان أحد ساقي سرواله . وتظاهر بأن البنطال يقاومُ ويقاتل ضده ، ولم يرد أن يُنزع .

«هل تستطيع أن تُعجِّل قليلاً؟» قلتُ لكوان .

«أعجِّل؟ هذا مستحيل مع هذا السروال العنيد»! قال كوان ، وضحكَ وي-وِن .

«الآن ، ها أنتَ تغيظه فقط» .

«اسمَع أيها السروال ، يجب أن تتوقف الآن عن العبث» .

ضحكَ وي-وِن أكثر .

«إنه يصبح جامحاً جداً» ، قلتُ . «سيكون من المستحيل وضعُه في السرير» .

لم يُجِب كوان ، ولم ينظُر نحوي ، لكنه تبعَ تعليماتي . خرجتُ وأغلقتُ الباب خلفي . وفي المطبخ غسلتُ الأطباق بسرعة .

ثم تناولتُ قلماً وورقة . 15 دقيقة قصيرة إضافية ، يمكنُه أن يتحمَّل هذا القدر .

وليام

عادة ما تجلسُ هناك ، بجانب سريري ، رأسُها منحنٍ على كتاب ، تقلّب الصفحات ببطء ، وتقرأ بتركيز . كان عمر ابنتي شارلوت 14 عاماً ، وكان ينبغي أن تشغلها أشياء كثيرة أخرى غير السعي إلى رفقتي الخرساء . ومع ذلك ، أصبحَت تأتي مرّاتٍ أكثر تكراراً . كنت أميِّز الليلَ من النهار من وجودها ، ومن قراءتها الدائمة .

لم تمُر تيلدا اليوم . أصبح قدومُها لزيارتي أكثر ندرة الآن ، بل إنها لم تعد تُحضر طبيب العائلة إلى هنا بعد الآن . ربما وصلَت النقود حقاً إلى نهايتها .

لم تقل تيلدا أي كلمة عن رام أبداً . كنتُ لأعلَم ، حتى لو أنها تحدثَت عنه وأنا أغطُّ في أعمقِ غفواتي . كان اسمه يستطيع أن يوقظني ويُعيدَني من البُعد . ربما لم تستطع أن تجمعَ الأمور معاً ، ولم تفهم أبداً أن حديثنا آخر مرة التقينا فيها ، وضحكتَه ، هي التي جلبتني إلى هنا ، إلى هذه الغرفة ، إلى هذا السرير .

كان هو الذي طلب مني أن أذهب إليه . لم أعرف لماذا أراد أن يقابلني . لم أكن قد ذهبتُ لرؤيته منذ عدة سنوات ، وخضتُ معه محادثات إلزامية مهذبة خلال المناسبات النادرة التي التقينا فيها في المدينة – محادثات كانَ هوَ يجلبها دائماً إلى نهاية .

كان الخريف في ذروته عندما ذهبتُ لزيارته . وأصبحت الأوراق خليطاً كثيفاً من الألوان ، أصفر صافٍ ، بني دافئ ، وأحمر قانٍ ، قبل أن

تنجح الريح في انتزاعها من غصونها وإجبارها على النزول إلى الأرض والفناء . كانت الطبيعة تضجُّ بالفواكه ، والأشجار مثقلة بالتفاح ، والخوخ الغضّ ، والكمثرى التي يقطرُ منها السُكّر . والتراب لم يكُن مفلوحاً بعد ، لكنهُ مليء بالجزر الناضر ، والقرع والبصل والأعشاب العطرية على جانب الحقل . كان كل شيء ناضجاً للقطاف ، للأكل . كان بوسع المرء أن يعيش خلواً من الهّم هناك ، كما لو في جنة عدن . خطت قدماي بخفة على تلك الأرض وأنا أسير للقائه ثانية ، لقضاء بعض الوقت في التحاور معه كما يجب ، كما كنا نفعل قبل وقت طويل جداً في السابق ، قبل أن أصبحَ أباً للعديد من الأطفال ، وقبل أن يأخذ دكان البذور كل وقتي .

استقبلني على الباب . كان ما يزال يحتفظ بتسريحة شعره المقصوص ، وما يزال نحيلاً ، مشدوداً وقوياً . ومضَ بابتسامة سريعة خاطفة . لم تدم ابتساماته طويلاً أبداً ، لكنها كانت تنثُّ الدفء مع ذلك ، ثم دعاني إلى مكتبه المليء بالنباتات والأحواض الزجاجية . وفي العديد منها لمحت برمائيات ، وضفادع مكتملة النمو وأخرى صغيرة ، ناشئة في مرحلة الشرغوف ، كما افترضت . كان كل انتباهه موجهاً إلى هذا الحقل من العلوم الطبيعية . وعندما أتيت لرؤيته بعد انتهاء اختباراتي قبل ثمانية عشر عاماً ، كنتُ آمل أن أدرس الحشرات ، خاصة التي تعرض شكلاً متطوراً من التنظيم الاجتماعي ، الحشرات التي تعمل معاً مثل كائن واحد تقريباً - كائنٍ فائق . هناك كان موطن شغفي ، بالنحل الطنان ، بالدبابير ، باليعاسيب ، بالنمل الأبيض والنحل . لكنه اعتقد أن هذا يجب أن يأتي لاحقاً ، وسرعان ما أصبحتُ أنا الآخَر منخرطاً بنشاط مع هذه المخلوقات التي بَين بَين ، التي امتلأ بها هذا المختبر ،

مخلوقات لم تكُن حشرات ، ولا أسماك ، ولا ثديات بعد . كنتُ مجرد مساعد بحث له ، ولذلك لم أستطع أن أعترض . كان العمل معه شرفاً في حدِّ ذاته ، وعرفتُ أنه كان لذلك معنياً من تلاميذه بإظهار الامتنان والتبجيل أكثر من إنجاز التكليفات . حاولت أن أتكيف مع موطن افتتانه ، وتوقعت أنه عندما يحين الوقت ، عندما أكون مستعداً ، فإنه سيسمح لي بتخصيص الوقت لمشاريعي الخاصة . لكن ذلك اليوم لم يأتِ أبداً مع ذلك ، وسرعان ما أصبح واضحاً لي أنَّ عليّ بدلاً من ذلك إجراء بحثي الخاص في أوقات فراغي ، وأن أبدأ بالأساسيات ثم أسيرَ بعملي قُدماً ببطء . لكنه لم يكن لدي أيُّ وقت من هذا القبيل أيضاً ، ليس قبل تيلدا ولا بعد تيلدا .

قدَّمت مدبرة المنزل البسكويت والشاي . شربنا من أكواب رشيقة نحيلة كادت تختفي بين أصابعنا ، من طقم شاي كان قد اشتراه بنفسه في واحدة من رحلاته الكثيرة إلى الشرق الأقصى في السنوات التي سبقت استقراره هنا في هذه القرية .

بينما نرتشف الشاي ، حدَّثني عن عمله . عن البحث الذي يجريه ، عن آخر محاضراته العلمية ، وعن مقالته التالية . وبينما أستمع ، كنتُ أهز رأسي ، وأطرح الأسئلة ، معتنياً بصياغة كلماتي بطريقة مؤهلة ، ثم أستمع مرة أخرى . ركزتُ نظراتي عليه ، وأردتُ أن يقابلها . لكنه لم ينظر إليّ كثيراً ، ودارت نظراته بدلاً من ذلك في أرجاء الغرفة ، على القطع الفنية ، كما لو أنها هي التي يتحدث إليها .

ثم غرق فجأة في الصمت ، ولم يُسمع أي صوت سوى الريح التي تنتزع الأوراق المصفرة من الأشجار هناك في الخارج . أخذت رشفة من

الشاي . صعدَت السخونة إلى خدودي ووضعتُ الكوب بسرعة . لكنه لم يلاحظ أي شيء كما يبدو ، وجلس هناك بهدوء فحسب ، دون أن يوليني أيَّ اهتمام إضافيّ .

«اليوم ذكرى ميلادي» ، قال أخيراً .

«آنا آسف . . . لم تكن لديَّ أي فكرة . . . لكنني أتقدم إليك بأطيب التمنيات القلبية»!

«هل تعرفُ كم هو عمري»؟ أدار عينيه باتجاهي .

ترددتُ . كم يمكن أن يكون عمره؟ كبيرٌ جداً . فوق الخمسين بكثير . ربما أقرب إلى الستين؟ تململتُ ، مُدركاً فجأة كم هي الغرفة دافئة ، وتنحنحتُ . كيف يجب أن أجيب؟

عندما لم أقل شيئاً ، خفضَ أنظاره . «هذا ليس مهماً» .

هل خاب أملُه؟ هل خيبتُ أملَه؟ مرة أخرى؟

مع ذلك ، لم يعبِّر وجهه عن شيء . وضعَ كوب شايه ، وتناول قطعة بسكويت ، لكن هذا شيءٌ دنيوي جداً ، قطعة بسكويت ، حتى مع أن الحديث الذي كنا على وشك الشروع فيه لم يكن أي شيء سوى دنيوي . وضع البسكويتة في الصحن .

لم يأكلها ، وإنما تركها هناك فقط . كانت الغرفة هادئة بطريقة غير مريحة . كان ينبغي أن أقول شيئاً ، إنه دَوري الآن .

«هل ستحتفل»؟ سألتُ وندمتُ على الفور . يا له من سؤال أحمق ، كما لو أنه كان طفلاً!

وهو لم يتنازل بالإجابة . جلس هناك والصحنُ في يده ، لكنه لم يأكل ، وإنما نظر فقط إلى قطعة البسكويت الصغيرة الجافة . حرك

أصابعه، وانزلقت قطعة البسكويت في اتجاه حافة الصحن، لكنه عدّله بسرعة، منقذاً البسكويتة من السقوط في اللحظة الأخيرة، ووضع الصحنَ من يده.

«كنتَ طالباً واعداً»، قال فجأة.

سحبَ نفَساً، كما لو أنه على وشك قول شيء إضافي، لكنه لم يقل شيئاً.

تنحنحتُ. «نعم»؟

عدَّل جلسته. «عندما أتيتَ إليَّ كانت لديَّ توقعات كبيرة». ترك يديه تتدليان على جانبيه، وجلس هكذا فقط، مستقيماً. «حماسُكَ القوي وعاطفتك هما اللذان أقنعاني. بخلاف ذلك لم أكُن أخطط لتوظيف مساعد».

«شكراً لكَ يا بروفيسور. هذه كلمات إطراء كبيرة».

أقام ظهرَه، وجلس منتصباً تماماً كما لو أنهُ تلميذٌ هو نفسه، وحدق بي بسرعة. «لكنَّ شيئاً ما حدثَ... لك»؟

انقبضَ صدري. سؤال. كان ذلكَ سؤالاً. ولكن، كيف ينبغي أن أجيب؟

«هل حدث ذلك سابقاً بحلول الوقت الذي قدمتَ فيه محاضرتَك عن سوامردام»؟

مرة أخرى نظر بسرعة إلي؛ وجّه إليَّ تحديقتَه التي تكون في العادة مضطربة جداً، بثبات هذه المرة.

«سوامردام؟ لكن ذلك حدث قبل سنوات كثيرة مضت». قلتُ بسرعة.

«نعم ، بالضبط . قبل سنوات كثيرة . . . وكان عندئذٍ حين التقيتَ بها»؟

«تعني . . . زوجتي»؟

أكد صمتُه سؤالي . نعم . التقيتُ تيلدا هناك ، بعد المحاضرة . أو بالأحرى : قادتني الظروف إليها . الظروف . . . كلا ، كان رام هو الذي قادني إليها . كانت ضحكته ، سخريته هي التي جعلتني أنظرُ في الاتجاه الآخر ، أنظرُ في اتجاهها .

أردتُ أن أقول شيئاً عن ذلك ، لكنّني لم أجد الكلمات . بقيت صامتاً ، وهو انحنى أماماً فجأة ، وتنحنح وقال بصوت ضعيف . «والآن»؟

«الآن»؟

«لماذا جلبتَ أطفالاً إلى العالَم»؟

قال التعليقَ الأخير بصوت أعلى ، بصوتٍ كاد ينكسر . الآن أصبح يحدق بي بثبات ، بلا ارتعاش ، وقد انبثقَ صقيع من داخله .

«لماذا . . . .»؟ أدرتُ وجهي بسرعة ، غير قادر على مقابلة نظرته ، والصلابة التي في عينيه . «حسناً . . . إنه ما يفعله المرء . . .» .

أراح ذراعيه على ركبتيه ، وبدا في الوقت نفسه وديعاً ومتساهِلاً . «إنه ما يفعله المرء؟ حسناً ، ربما يكون فعلاً ما يفعله المرء . ولكن لماذا أنتَ؟ ماذا لديك لتعطيه لهم»؟

«أعطيه لهم؟ الطعام ، الملابس» .

رفع صوته فجأة . «لا تتحدث عن عملك المتعثر في تجارة البذور ذاك»!

جلس مرة أخرى فجأة ، كما لو أنه أراد أن ينأى بنفسه عني ، ولفَّ يديه في حضنه .

«كلا . . .» . ناضلتُ ضد الطفل الخائف ابن العشر سنين في داخلي ، وحاولت أن أظلَّ هادئاً ، لكنني لاحظتُ أنني أرتجف . وعندما تمكنتُ أخيراً من الحديث مرة أخرى ، كان صوتي عالي النبرة ومُرغَماً . «أود كثيراً أن أفعل . لكن الأمر هكذا ببساطة . . . كما يمكنك ، يا بروفيسور ، أن تفهم . . . ليس هناك ما يكفي من الوقت» .

«هل تريدني أن أقول؟ أنه أمر مقبول تماماً»؟ وقفَ على قدميه . «مقبول أنك لا تستطيع أن تجد الوقت»؟ وقف هناك على الأرض أمامي ، تحرك بضع خطوات أقرب ، كبُر ، أصبح كبيراً جداً وقاتماً . «مقبول أنك لم تنهِ بعدُ كتابة مادة بحثٍ واحدة؟ مقبولٌ أن رفوف كتبك مليئة بالكتب التي لم تُقرأ؟ مقبول أنني أنفقتُ كل هذا الوقت عليكَ وأنك لم تنجز في الحياة بعد أكثر مما ينجزُه الخنزير المتوسط»؟

تعلقت الكلمة الأخيرة مرتجفة في الهواء بيننا .

خنزير . هذا ما كنتُهُ بالنسبة له . خنزير .

نهضَ احتجاج ضعيف في داخلي . هل أنفقَ حقاً كل هذا الوقت عليَّ ، أم أنني كنتُ أولاً وقبل كل شيء مجرد مُريدٍ مخلص لمشاريعه؟ لأنَّ ذلك كان بالضبط ما أردته فعلاً ، أن أرث أبحاثه ، وأن أبقيها حية . أن أبقيه على قيد الحياة . لكنني ابتلعتُ كلماتي .

«هذا ما تريد أن تسمعه؟ صحيح»؟ قال ، بعينين فارغتين مثل البرمائيات التي تحدق فينا من الأواني الزجاجية . «أنَّ هذا طبعُ الحياة؟ أنها الحياة ، يجب أن أقول ، التي يعيد المرء إنتاجها ، أن تكون له ذرية ، حياة تضع غريزياً حاجاتهم أولاً ، أنهم أفواه يجب إطعامها ، أن المرء يصبح مزوِّداً ، أن الفكر يتنحّى ليفسح الطريق للطبيعة . أنه ليس خطؤك .

وأن الوقتَ لم يفُت تماماً بعد»؟ حدَّق بي حتى الإيلام . «أهذا ما تريد سماعه؟ أن الأوان لم يفُت بعد؟ أن زمنكَ سوف يأتي»؟

ثم ضحكَ فجأة . تلك الضحكة الصغيرة القاسية ، بلا بهجة ، وإنما المليئة بالازدراء . كانت وجيزة ، لكنها ظلت في داخلي . تلك الضحكة نفسها ، مثل السابق .

صمَت ، لكنه لم ينتظر إجابتي . كان يعرف أنني لا أمتلك القوة لقول أي شيء . سار فقط إلى الباب وفتحه . «للأسف ، يجب أن أطلبَ منك المغادرة . لديَّ عمل أقوم به» .

تركني دون أن يقول وداعاً ، وجعل مدبرة المنزل ترافقني إلى الخارج . عدتُ إلى كتبي في البيت ، لكنني لم أتناول أياً منها . بل إنني لم أستطع تحمل مجرد النظر إليها ، وإنما زحفت إلى سريري وبقيتُ هناك ، بقيتُ هناك بينما يتجمع الغبار على كتبي . . . كل النصوص التي أردتُ مرة أن أقرأها وأفهمها .

كانت ما تزال قابعة هناك ، في حالة من الفوضى على الرفوف ، بعضُها كعبُها بارزٌ أكثر من غيرها ، مثل صف من الأسنان غير المنتظمةِ على الرف . أبقيتُ نفسي بعيداً عنها ، ولم أستطع تحمل رؤيتها . رفعَت شارلوت رأسها ، وأدركت أنني كنتُ مستيقظاً ووضعَت الكتاب من يدها بسرعة .

«هل أنتَ عطشان»؟

نهضَت ، ووجدَت قدح ماء ومدّت يدَها به لي .

أدرتُ وجهي بعيداً .

«كلا» . سمعتُ الحدة في صوتي وسارعت لأضيف.. «شكراً لك» .

«هل تريدُ أي شيء آخر؟ قال الطبيب . . .» .
«لا شيء» .
جلسَت مرة أخرى ، ونظرَت إلي عن كثب ، كما لو أنها تدرسني .
«إنكَ تبدو أفضل . أكثر يقظة» .
«لا تكوني سخيفة» .
«حقاً . أنا أعني هذا» . وابتسمت . «إنك تجيبُ على الأقل» .
امتنعتُ عن قول أي شيءٍ آخر ، لأن أي خطبة أبوية من طرفي ستعززُ الانطباع بأنني تعافَيت . بدلاً من ذلك جعلتُ الصمتَ يؤكد العكس ، وانزلقت تحديقتي بعيداً عنها ، كما لو أنني لم أعُد ألاحظها .
لكنها لم تستسلم ، وإنما ظلت واقفة إلى جانبي ، وهي تعقد إحدى يديها في الأخرى ، وتفركُهما قليلاً ، ثم تطلقهما مرة أخرى ، حتى خرجَت أخيراً به ، بما يثقل قلبها بكل وضوح .
«هل تخلَّى الله عنك ، يا أبي»؟
تخيلوا لو أنّ الأمر بهذه البساطة ، لو أنه كان شيئاً يتعلق بربنا . إذا فقد المرء إيمانه ، فإن هناك علاجاً بسيطاً : جِدهُ مرة أخرى .
عندما كنت تلميذاً ، أغرقتُ نفسي في الإنجيل كلَّ الوقت . كنتُ أضعه دائماً إلى جانبي وآخذه معي إلى السرير كلَّ مساء . وظللتُ أبحث عن الصلة بينه وبين مجال عملي ، بين العجائب الصغيرة في الطبيعة وبين الكلمات الكبيرة على الورق . وكنتُ أتوقفُ كثيراً عند كتابات بولس الرسول ، ولا أستطيع أن أحصي عدد الساعات التي جلست فيها أدرس رسالة بولس إلى الرومان ، لأن الكثير من أفكاره الأساسية فيها ، كانت هي الأقرب إلى اللاهوت ، وفقاً للقديس باول . *«بعد أن تتحرروا من*

الخطيئة، فإنكم تصبحون عبيداً للبِرِ» . ما الذي عناه ذلك؟ أنَّ الذي يكون أسيراً ربما يكون هو الشخص الوحيد الحرُّ حقاً؟ أن فِعل الشيء الصائب يمكن أن يكون سجناً، نوعاً من الأسر، لكننا أُرينا الطريق. لماذا لم نستطع أن نتدبَّر الأمر إذن؟ ليس حتى عندما نلتقي مع مخلوقات الرب، التي هي في ذاتها شأن محيِّرٌ حتى أنَّه يخطف أنفاسك، لو أن البشر نجحوا في فعل الشيء الصحيح.

لم أجد الجواب أبداً، وأصبحتُ أستخرج المجلد الأسود الصغير مرات تزداد ندرة. وأصبَح يجمع الغبار على الرفّ هو أيضاً إلى جانب الكتب الأخرى. ما الذي يمكن أن أقوله الآن؟ أن ما يُدعى فراش مرضي، كان عادياً جداً وأحقر من أن تكون له صلة بالخالق؟ أن جوهره يمكن أن يوجد فقط في داخلي؛ في اختياراتي، وفي الحياة التي عشتها؟

كلا. ربما في يوم آخر، وإنما ليس اليوم. ولذلك امتنعتُ عن الردِّ عليها، وهززت رأسي بضعف فقط وتظاهرتُ بأنني غفوت.

جلسَت معي حتى هبط السلام والهدوء على المنزل تحتنا في الطابق الأسفل. استمعتُ إلى الأوراق وهي تُقلَّب، كانت تقرأ بسرعة، وصوت ردائها الحريري يهمس عندما تغير وضعها من حين لآخر. كانت مقيدة بوضوح إلى الكتب، تماماً كما كنتُ مقيداً إلى السرير، حتى مع أنها حكيمة بما يكفي لتعرف أفضل. كانت تعلم أن الكتب مضيعة للوقت بالنسبة إليها؛ لن تستفيد أبداً من المعرفة على أي حال، ببساطة لأنها ابنة وليست ابناً.

لكنّها قوطعت على حين غرة. انفتح الباب، وانطبعَت خطواتُ أقدام سريعة على الأرضية.

«أأنتِ هنا»؟ صوت تيلدا الصارم ، وبلا شك نظرتها الحازمة بنفس المقدار على شارلوت . «إنه وقت النوم» ، واصلَت ، كما لو أن المعلومة في حد ذاتها كانت أمراً . «يجب أن تغسلي أطباق العشاء . وإدموند مصاب بالصداع ، لذلك أريدكِ أن تضعي بعض ماء الشاي عليه» .

«حاضر ماما» .

استطعت أن أسمع أقدام شارلوت على الأرضية عندما وقفَت ، وصوتَ الكتاب وهو يُوضع على الطاولة ، وخطواتها الخفيفة وهي تتحرك في اتجاه الباب .

«تصبح على خير يا أبي» .

ثم اختفت . وحل محل صفائها صوتُ خطوات تيلدا السريعة . مشت إلى الموقد ، وبحركات فظة عالية الصوت وضعَت فيه مزيداً من الفحم . فعلت ذلك بنفسها الآن ، فقد أُمِرت الخادمة المسكينة بالعثور على عمل آخر منذ وقت طويل ، والآن تعاني تيلدا يومياً من اضطرارها إلى العناية بالتدفئة بنفسها ، وهي معاناة فعلت القليل لتخفيها ، نعم ، بل إنها أكّدت عليها بمرافقة كل تحركاتها بإطلاق التنهدات والآهات .

عندما انتهت أخيراً ، وقفَت هناك فحسب . لكنّني حظيتُ بلحظة صمت واحدة فقط قبل أن تبدأ بعزف أوركستراها الأبدية . لم أحتج إلى فتح عينيّ لأعرف أنها تقف هناك بجانب دفء الموقف ، سامحة لدموعها بأن تسيل بحرية . لقد رأيت ذلك عدداً من المرات من قبل ، ولا يمكن أن أخطئ الصوت . ورافقَت طقطقةُ الفحم

خطبتها العصماء. تكوَّرتُ، ووضعتُ أذنيَّ على الوسادة في جهد لكبت الصوت، وإنما بلا أي نجاح يُذكَر.

مرت دقيقة، دقيقتان، ثلاث.

ثم استسلَمت في نهاية المطاف واختتمَت مرثاتها بنشقةٍ من أنفها. ربما فهمَت أنها لم تكن تصل إلى أيٍّ مكان اليوم أيضاً. والمخاط الذي دفأته حرارة جسدها اندفع خارجاً من أنفها، بأصوات شخير عالية، ميكانيكية تقريباً. كانت دائماً على هذا النحو، مشحَّمة جيداً، سواء كانت تبكي أم لا. إلا هناك، في الأسفل. هناكَ كان جافاً وبارداً إلى حد يُرثى له. ومَع ذلك أعطتني ثمانية أطفال.

سحبتُ الغطاء فوق رأسي، وأردتُ أن أسد الطريق على الصوت.

«وليام»، قالت بحدة. «أستطيعُ أن أرى أنك لستَ نائماً».

حاولتُ أن أبقي تنفسي هادئاً.

«أستطيعُ أن أرى ذلك».

بصوت أعلى الآن، ولكن ما مِن سبب للتحرك.

«عليك أن تسمع هذا»، أخذَت نفَساً عميقاً إضافياً. «لقد اضطررتُ إلى جعل ألبرتا تذهب. والآن، المحلُّ فارغ، اضطررتُ إلى إغلاقه».

ماذا؟ لم أستطع منع نفسي من الانقلاب. المحل أُغلِق؟ فارغ. ظلام. المحل الذي يفترض أن يوفر لقمة العيش لكل أولادي؟

لا بد أن تكون قد لاحظَت حركتي، لأنها أصبحت أقرب الآن. «اضطررتُ أن أطلب من صاحب المتجر قرضاً اليوم». كان صوتها ما يزال مختنقاً بالدموع، كما لو أنها ستشرع في أي دقيقة بالتزمير مرة

أخرى . «المشتريات كلُّها كانت بالدَّين ، حدَّق فيَّ هكذا ، بشفقة . لكنه لم يقل شيئاً . إنه رجل نبيل ، بعد كل شيء» .

ابتلع النشيج الكلمة الأخيرة .

رجل نبيل . على عكس رجُلِكِ حقاً . الذي ربما لم يُثِر أيَّ إعجاب عظيم من العالم المحيط ، خاصة من زوجتي ، حيث أستلقي ، بلا قبعة ولا عكاز ، ولا نظارة بعين واحدة ولا أخلاق . نعم ، تخيلوا ؛ كانت لدي مثل هذه الأخلاق السيئة حتى أنني تركتُ كل عائلتي في عوز وبلا حيلة .

والآن أصبحت الظروف أسوأَ بكثير . المحل أُغلِق ، ولن تستطيع عائلتي تدبر أمورها من دوني لوقت طويل ، مع أنه كان من الضروري تماماً بالنسبة لهم جميعاً أن تستمر العمليات اليومية . لأنها البذور ، والتوابل والزهور المجففة هي التي تضع الطعام على المائدة لهم جميعاً .

كان علي أن أنهض ، لكنني لم أستطع ، لم أعُد أعرف كيف . أصابني السرير بالشلل .

وتيلدا ، أيضاً ، استسلمَت بشأني اليوم . أطلقَت تنهيدَةً عميقة مرتعشة . ثم نشقَت بأنفها مرة واحدة أخيرة ، ربما لتتأكد من أن كل قطرة صغيرة مفردة من المخاط غادرت منطقة الأنف والأذن والحنجرة .

أنَّ الفراش واشتكى عندما استلقت إلى جانبي . بدت فكرة أنها استطاعت أن تتقاسم سريراً واحداً مع أطرافي القذِرةِ غير المغسولة التي تفوح منها رائحة العرق ، أكثر مما أستطيع فهمه . وقال ذلك بشكل أساسي كلَّ شيء عن مدى عنادها .

ببطء أصبح تنفسها أكثر هدوءاً ؛ وأخيراً أصبح ثقيلاً وعميقاً ، تنفساً يُحرضُه نوم صادقٌ موثوق ، مختلفٌ تماماً عن تنفسي .

انقلبتُ ، تموَّج الضوء المنبعث من الموقد على وجهها ، وتمدَّدت ضفائرها الطويلة على المخدة ، متحررة من العقدة المشدودة في شكل كعكة على مؤخرة رأسها ، وغطت شفتُها العليا شفتَها السفلى ، ومنحتها مظهراً عنيداً ، مثل امرأة عجوز بلا أسنان . استلقيتُ هناك أراقبُها ، وحاولت أن أتلمَّس طريقي عائداً إلى ما كنتُ قد أحببته ذات مرة ، ما رغبته ذات مرة ، لكن النوم غلبني قبل أن يحدثَ ذلك .

جورج

كانت إيما مُحقة بشأن الثلج . بحلول اليوم التالي ، شرع في الذوبان في كل أنحاء المكان ، وأخذ يسيلُ ويتقاطر حتى لا يمكنكَ أن تسمع أي شيء آخر . وسفعت الشمس الحارقة ألواح المنزل ، جاعلة اللون على الحائط الجانبي أكثر سطوعاً . زحفَت درجات الحرارة صاعدة باطراد ، لتصبح دافئة بما يكفي لانطلاق رحلة تغوُّط النحل الجماعية . إنها كائنات نظيفة ، ولن تخفف عن نفسها في الخلية . ولكنها ، عندما تشرق الشمس أخيراً ، تطير وتفرغ أمعاءها بعيداً . كنتُ في الحقيقة قد أملت ذلك ، أن يُرخي الشتاء قبضته الآن بينما توم في المنزل . لأنه عندئذٍ يمكن أن يخرُج معي إلى الخلايا وينظف الألواح السفلية . كنتُ قد أعطيت ريك وجيمي يوماً إجازة ، حتى يتاح لنا أنا وتوم أن نعمل معاً . ولكننا لم نذهب ، كما تبين ، حتى يوم الخميس ، قبل ثلاثة أيام فقط من اضطراره إلى العودة .

كان أسبوعاً هادئاً . دُرنا واحدُنا حول الآخر ، هو وأنا . وظلت إيما بيننا ، تضحك وتثرثر كالعادة . كانت تضع قلبها وتركيزها بوضوح في العثور على الطعام الذي يناسب توم ، لأنها لم تكن هناك نهاية لعدد وجبات السمك التي استطاعت أن تتذكّرها ، ولكمِّ الأسماك «المثيرة» و«اللذيذة» التي لفتت انتباهها فجأة في قسم البضائع المجمدة في المتجر . وتوم ، انحنى على طبقه وكشط آخر قطعة فيه شكراً وامتناناً ، وكان «مسروراً جداً بكل هذا الطعام الطيب» .

ولكن ، كلما استُهلكت وجبة سمك أخرى ، كان يظل عادة جالساً إلى طاولة المطبخ ، يقرأ بقَلقٍ كتاباً سميكاً ، وينقر بشكل محموم على لوحة مفاتيح الحاسوب أو ينغمس بالكامل في لوحة كلمات متقاطعة يابانية يسميها «سودوكو» . وربما لم يدُر في خلده أنه يمكن أن ينتقل إلى أي مكان آخر ، أنَّ النهارَ في الخارج أصبح غارقاً فجأة بشعاعات الشمس ، كما لو أن أحداً ما ركَّبَ هناكَ مصباحاً بالغ القوة .

وجدتُ أشياء لأفعلَها ، كنتُ أعرف بطبيعة الحال كيف أبقي نفسي مشغولاً أنا أيضاً . بل إنني في أحد الأيام قدتُ السيارة إلى أوتَمن واشتريت طلاء للمنزل . وبينما كنتُ أقف هناك وأطلي الجدار الجنوبي ، شعرتُ بالشمس وهي تحك مؤخرة رأسي . وعرفت أننا نستطيع اغتنام الفرصة للقيام برحلة إلى خلايا النحل . لم أكن في حاجة حقاً إلى تنظيف الألواح السفلية بعد ، لكنها الفرصة الأخيرة لتوم ، ولذلك لم يكن ثمة ضرر في البدء بقليل من الخلايا . كان النحلُ قد خرج منها منذ بعض الوقت ، وانهمك بجمع حبوب اللقاح عندما تكون الشمس مشرقة .

وهو استمتع بذلك . كان يخرج دائماً معي . كنا ، أنا وجيمي ، قد نظفنا فتحات الطيران عدة مرات خلال الشتاء ، لكننا تركنا جزءاً من ذلك للنحل نفسه ، ولذلك كانت دائماً مناسبة خاصة أن نخرُجَ ونتجول بين الخلايا للمرة الأولى بعد الشتاء .

رؤية النحل مرة أخرى ، الأزيز المألوف ، كان ذلك مناسبة بهيجة للاجتماع معاً ، مثل احتفال لمّ شمل حقيقي .

«أحتاجُ مساعدة في الألواح السفلية» ، قلت .

كنتُ مرتدياً ملابسي مُسبقاً للخروج ، ووقفت هناك بأحذيتي المطاطية والأوفرهول ، وسط الغرفة ، وكانت ساقاي قلقتين تتململان ، كنتُ أتطلع إلى ذلك . كنتُ قد طويت الغطاء الواقي ورفعته عن وجهي ، أستطيع أن أرى أفضل على هذا النحو . كما أخذتُ معدات إضافية أيضاً ، وحملتها بكلتا يدي .

«في هذا الوقت المبكر»؟ سأل ولم يرفع أنظاره . كان بطيئاً وأكثر كسلاً من دبس السُكَّر . جلس هناك فقط ، شاحباً تماماً في وهج ضوء الحاسوب المحمول وأصابعه على لوحة المفاتيح .

لاحظتُ فجأة كيف حملتُ رداء النحال وغطاء الوجه ممدودين إليهِ كثيراً بعض الشيء ، كما لو أنني سأعطيه هدية لا يريدها . دفعتُ بهما تحت ذراعي ووضعت اليد الأخرى على فخذي .

«المكانُ يتعفن تحت النحل . أنت تعرف ذلك . لا أحد يحب أن يعيش في الوحل . لن تحبَّ ذلك أنتَ أيضاً ، حتى مع أن غرف نوم الطلبة معروفة بأنها ليست الأنظف على الإطلاق» .

حاولتُ أن أضحك ، لكنَّ الصوت خرج أقرب إلى النقيق . وكانت إحدى يديَّ أيضاً قد استقرت في زاوية غريبة . أبعدتها عن وركي . وظلت متدلية بلا عمل إلى جانبي ، وبدت فارغة . حككتُ جبهتي لأمنحها شيئاً تفعله .

«لكنكَ عادة تنتظر أسبوعَين إضافيين» ، قال .

رفع أنظاره الآن . وحدقَت عيناه الجميلتان فيَّ .

«كلا . لا أفعل» .

«أبي» .

رأى أنني أكذب . نظر إليّ وقد رفعَ أحدَ حاجبيه ، كان هناك شيء تهكميٌّ فيه .

«الجو دافئ بما يكفي» ، سارعتُ إلى القول . «سوف نستخرج قليلاً منها فقط . سوف تُعفى من البقية . سوف أهتم بأمرها مع جيمي وريك في الأسبوع القادم» .

حاولتُ أن أعطيه الرداء والقبعة مرة أخرى ، لكنه لم يقبلهما . لم يُصدر في الأساس أي إشارة على التحرك ، وإنما انحنى على حاسوبه فحسب .

«أنا في منتصف إنجاز مهّمة للكلية» .

«ألستَ في إجازة»؟

وضعتُ الأدوات أمامه على الطاولة . حاولتُ أن أحدق فيه بحزم ، وتركت عيني تقولان أنه من الأفضل أن يقدّم المساعدة الآن بعد أن قرر أخيراً أنه يستطيع تكلف عناء القيام بزيارة لنا .

«أراكَ في الخارج بعد خمسِ دقائق» .

كانت لدينا 344 خلية ، 324 ملكة ، كلّ منها مع مستعمرتها الخاصة ، موزّعةً في أماكن مختلفة في كل أنحاء المنطقة ، ونادراً ما تكون أكثر من 20 خليّة في كل واحد من الأماكن . لو أننا نعيش في ولاية أخرى ، لكنا وضعنا ما يصل إلى 70 خلية في موقع واحد . وقد عرفت مربيَ نحل في مونتانا ، جمعَ ما يقرب من 100 خلية في المكان نفسه . كانت المنطقة خصبة جداً بحيث كان على النحل أن يطير بضعة أمتار فقط ليحصل على كل شيء يحتاجه . أما هنا ، في أوهايو ، فلم تكن

الزراعة متنوعة بما يكفي . ثمة ميلٌ بعد ميلٍ من الذرة وفول الصويا . وثمة وصول قليل إلى الرحيق ، الذي لا يكفي النحل ليعيش عليه .

كانت إيما قد طلت الخلايا ، كلها ، على مدى السنوات ، بألوان الحلوى . الوردي ، والفيروزي ، والأصفر الفاتح ونوع من اللون الأخضر الفستُقيّ ، بطريقة مصطنعة مثل الحلويات المحلاةِ بالإضافات . ظنَّت أنها ستبدو احتفالية . وبالنسبة لي ، كان الأمر سيّان لو أنها ظلت بيضاء فقط ، مثل السابق . كان أبي يطليها دائماً بالأبيض ببساطة ، وأبوه وجدُّه من قبله . كانوا يقولون أن ما في الداخل هو الذي يهم - كان أهم شيء هو إبقاء كل شيءٍ على ما يُرام داخل الخلية . لكن إيما اعتقدت أن النحل يحب الخلايا على هذا النحو ، وأن ذلك يجعلها أكثر شخصية . من يعرف ، ربما كانت على حق! وكان عليّ أن أعترف بأن رؤية الخلايا الملونة الموزعة في أنحاء المشهد ، كما لو أن عملاقاً ألقى بحلوياته هناك ، منحتني دائماً شعوراً دافئاً في الداخل .

بدأنا بالمرج الواقع بين مزرعة مينتون ، والطريق الرئيسي ، ونهر ألاباست الضيق ، الذي لم يكن على الرغم من اسمه الفخم يذهب بعيداً كثيراً في الجنوب ، ولم يكن أكثر من مجرد مجرى نهر ناشِف . هنا كنتُ قد جمعتُ الأغلبية . 26 مستعمرة نحل . بدأنا العمل على خلية وردية مُدهشة . كان من المفيد أننا اثنان . رفع توم الصندوق بينما قمتُ أنا بتغيير اللوح . أزلتُ اللوح القديم المليء بالحطام والنحل الميت من الشتاء ، ووضعت في مكانهِ واحداً جديداً ، نظيفاً . كنا قد استثمرنا في الألواح السفلية الحديثة ذات الشاشات وصواني التهوية القابلة للإزالة في العام الماضي . وكان ذلك مكلفاً ، لكنه استحقَّ العناء . تحسنَت دورة

الهواء وأصبح التنظيف أسهل . وقد تخلى معظم مربي النحل الذين يعملون بهذا النطاق الصغير عن فكرة تغيير الألواح السفلية هذه المرة ، لكنني لم أكن أؤمن بترك الأمور على علاتها . كانت نحلاتي في طريقها إلى الازدهار .

تجمع الكثير من الحطام على اللوح السفلي أثناء فصل الشتاء ، لكنَّ كل شيء خَلا ذلك بدا جيداً . كنا محظوظين ، فقد ظلت النحلات هادئة ، وطار القليل منها إلى فوق . كان من الجيد رؤية توم هناك . عملَ بمهارة وسرعة ، وقد عاد إلى حيث ينتمي . في بعض الأحيان أراد أن يحني ظهره ، لكنني أوقفته .

«ارفع بساقيك» .

عرفتُ الكثير من الناس الذين انتهى بهم المطاف بانزلاق غضروفي وتشنجات وما لا نهاية له من متاعب الظّهر ، لأنهم يرفعون بشكل خاطئ . يجب أن يبقى ظَهر توم معافىً للعديد من السنوات ، وأن يتحمل الآلاف من الرفعات .

استمر في العمل بلا استراحة حتى وقت الغداء . لم نقل الكثير ، بضعَ كلمات فحسب ، وفقط عن العمل . «توقفْ هنا ، نعم هكذا ، جيد» . ظللتُ أنتظر أن يطلب استراحة ، لكنه لم يأتِ على ذكرها . وعندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصف ، أصبحت معدتي تهدر ، ولذلك كنتُ أنا الذي اقترحت أن نأكُلَ لُقمة .

جلسنا على الحافة المسطحة لصندوق السيارة ودلّينا أرجلنا . كنتُ قد جلبت معي ترمساً كاملاً من القهوة وبعض السندويتشات . كان الخبز الاسفنجي قد امتص زبدة الفول السوداني ، وأصبحت الشرائح دبقة ،

لكن من الغريب كيف يصبح مذاق كل شيء رائعاً عندما يكون الهواء نقياً وعندما يعملُ المرءُ في الهواء الطلق . لم يقل توم أي شيء . لم يكن بالتأكيد شخصاً يحب الحديث الصغير ، ابني هذا . ولكن ، إذا كان هذا هو ما يفضله ، فلا بأس بذلك بالنسبة لي . لقد جعلته يخرج معي إلى هنا ، وهذا هو الأهم . أملتُ فقط أن يكون مستمتعاً بالأمر قليلاً ويشعر بأن من الجيد أن يكون هنا مرة أخرى .

أنهيتُ طعامي وقفزت هابطاً على الأرض للعمل مرة أخرى ، لكن توم كان ما يزال يكدح . كان يتناول قضمات بحجم لقيماتِ الطفل ويحدق باهتمام في الشطيرَة ، كما لو أن هناك شيئاً خطأً فيها .

ثم فجأة باح بذلك .

«لدي أستاذ إنجليزية جيد جداً» .

«لا بأس بذلك» ، قلت وتوقفت . حاولتُ أن أبتسم ، حتى مع أنه كان هناك شيء في الطريقة التي قال بها هذا الشيء العادي تماماً ، والذي أصابني بألم في معدتي .

«هذا جيد» .

تناول قضمة أخرى . مضغ ومضغ ، غير قادر على الابتلاع كما يبدو .

«إنه يشجعني على أن أكتبَ أكثر» .

«أكثر؟ أكثرَ من ماذا»؟

«يقول إنه . . .» .

صمَت . وضع الشطيرة ، وشدَّ قبضته على كوب القهوة ، لكنه لم يشرب . كان ذلك عندما لاحظتُ للمرة الأولى أن يدَه تهتز قليلاً .

«يقول إن لديَّ صوت» .

صوت؟ هراء أكاديمي . أجبرتُ نفسي على ابتسامة ، لم أستطع أن أتكلف عناء أخذ هذا على محمل الجد .

«كنتُ أستطيعُ أن أخبرَكَ بهذا منذ وقت طويل» ، قلت . «خاصة عندما كنتَ صغيراً . كان صوتك عالياً وحاداً . حمداً لله على أن صوتك تغير . لم يحدُث هذا في أي وقت قريب» .

لم يبتسم للنكتة . وإنما جلس هناك فقط ، غارقاً في الصمت .

هرَبت الابتسامة من شفتي . أراد أن يقول شيئاً ، لا شك في ذلك . جلسَ هناك مثقلاً ببعض القضايا المشتعلة في دماغه ، وتكوّن لدي شك قوي بأنها شيء لم أرد أن أسمعه .

«من الجيد أن الأساتذة راضون عنك» ، قلتُ أخيراً .

«إنه يشجعُني حقاً على أن أكتب أكثر» ، قال توم بهدوء ، مع تأكيد على كلمة حقاً . «قال إنني أستطيع أن أتقدم لمنحة دراسية أيضاً ، وإنني أستطيع أن أستمر في ذلك» .

«تستمر»؟

«دكتوراه» .

ضاق صدري ، وانغلَق حلقي ، وكنتُ أذوق النكهة الحادة لزبدة الفُستُق في فمي ، لكنني لم أتمكن من البلع .

«هل هذا صحيح؟ وإذن ، قال لكَ ذلك» .

هزّ توم رأسه .

حاولتُ أن أبقي صوتي هادئاً . «كم هو عدد السنوات التي تحتاجها واحدة من تلك الدكتورات»؟

حدق في الأسفل ، في أطراف حذائه فقط ، دون أن يجيب .

«إنني لا أصبح أصغر سناً بشكل خاص» ، واصلتُ . «الأشياء لا تسيرُ وحدها هنا» .

«كلا ، أعرف ذلك» ، أجاب بهدوء . «لكن لديك مساعدة فعلاً»؟

«جيمي وريك يأتيان ويذهبان كما يريدان . إنها ليست مزرعتهما . كما أنهما لا يعملان مجاناً» .

شرعتُ في العمل مرة أخرى ، رفعتُ الألواح المتسخة ووضعتها على سطح الشاحنة المنبسط . ضربَت عوارض الإطارات معدن المسطح برنة وقحة . نعم في الحقيقة ، كنا قد سمعنا من الأساتذة من قبل كيف أن توم جيد مع الكلمات . كان يحصل على «أ» دائماً في الإنجليزية ، ولم يكن هناك شيء خطأ في رأسه بالتأكيد . لكنها ليست الإنجليزية هي التي كانت في أذهاننا عندما أرسلناه إلى الجامعة . كان يفترض أن يتعلم الاقتصاد والتسويق ، أشياء من هذا القبيل ، وتحضير المزرعة للمستقبل . توسيع وتحديث العمليات وجعلها أكثر كفاءة . وربما إنشاء موقع إلكتروني مناسب . كان هذا نوع الأشياء التي يفترض أن يتعلمها . هذا هو السبب الذي جعلنا نبخل وندخر من أجل تعليمه ، منذ كان طفلاً صغيراً . لم نسمح لأنفسنا حتى بقضاء عطلة حقيقية واحدة في كل تلك السنوات ، ولا مرة واحدة . كل شيء ذهب إلى حسابِ الكلية .

ما الذي يعرفه أستاذ الإنجليزية حقاً؟ ربما جلسَ هناك في مكتبه المترَب في الكلية ، المليء بالكتب التي يتظاهر بأنه قرأها ، وشربَ الشاي

بجرعات كبيرة وقد ارتدى وشاحاً وهو هناك في الداخل يشذب لحيته بمقص تطريز ، بينما يقدم نصيحة «جيدة» للأولاد الصغار ، الذينَ صادف أنهم جيدون في الكتابة ، من دون أن يعرف الهُراء الذي يبدؤه .

«نستطيعَ أن نتحدثَ أكثر عن هذا لاحقاً» ، قلت .

لكننا لم نخُض في ذلك الحديث أبداً . غادرَ قبل أن تتسنى لنا الفرصة . قررتُ أن «لاحقاً» هذه هي شيء بعيد المنال . أو ربما كان هو الذي قرر ذلك . أو ربما إيما . لأننا لم نتواجد وحدَنا أبداً في نفس الغرفة ، توم وأنا ، ولا في مناسبة واحدة ، طوال بقية الفترة التي أمضاها في البيت . هدلَت إيما حولنا مثل حمامة ، وهي تتنقل مسرعة ، تخدُم ، وتنظف ، وتتحدث وتتحدث عن لا شيء على الإطلاق .

كنتُ متعباً جداً خلال تلك الأيام . وسقطتُ نائماً على الأريكة كلَّ الوقت . كانت لدي قائمة طويلة من المهام التي يفترض أن أنجزها ، وخلايا قديمة تحتاج إلى صيانة ، وطلبات تحتاج إلى متابعتها . لكنني لم أكن أمتلك النباهة والمبادرة . كان الأمر كما لو أنني أسير مع حُمى خفيفة كل الوقت ، حتى أنني قستُ درجة حرارتي . تسللتُ إلى الحمام ووجدت ميزان حرارة في قاع خزانة الإسعافات الأولية ، أزرقَ فاتحاً عليه دمية دب ، كانت إيما قد اشترته لتوم عندما كان صغيراً . ينبغي أن يكون الأمر سريعاً بشكل خاص ، كما قالت التعليمات ، حتى لا يتم إزعاج الطفل أطول مما ينبغي . لكن الميزان يجبُ أن يبقى هُناك في الداخل فترة طويلة بما يكفي بالتأكيد . استطعت أن أسمع إيما تهدل وتوم يجيب من وقت لآخر في مكان أو آخر في المنزل . وهناك كنتُ ، بالحافة المعدنية الباردة في مؤخرتي ، والتي كانت قد أُدخلت في مؤخرة ابني مئات المرات

بالتأكيد . لم تكن إيما من ذلك النوع الذي يفكر مرتين عندما يتعلق الأمرُ بقياس درجة حرارته ، ومع ذلك شعرتُ مرة أخرى بعيني تنغلقان وأنا أنتظرُ العلامة الرقمية التي ينبغي أن تخبرني بأن جسدي على ما يرام وكما ينبغي أن يكون ، ولو أنني شعرت كما لو أنني ركضتُ في مراثون طويل .

ما إن تأكدتُ أخيراً أنني غير مصاب بحُمى ، حتى ذهبتُ واستلقيت أيضاً على أي حال ، دون أن أقول شيئاً . دعهُما يواصلان .

تواصل الهديلُ إلى أن أصبح جالساً في الحافلة . وعندئذ ، بينما هو في الداخل ، التصق وجهه على النافذة وارتسم شعور بالارتياح على كل أنحاء سحنتِه ، وهي صمتَت أخيراً .

عندئذٍ ، وقفنا هناك ولوَّحنا بيدينا ، تلقائياً كما لو أننا نعمل بالبطاريات ، والأيدي ترتفع وتنخفض صعوداً وهبوطاً ، صعوداً وهبوطاً ، في تزامُن كامل . أصبحت عينا إيما لامعتين ، أو ربما كانَ ذلك بسبب الريح فحسب ، لكنها لم تبكِ لحُسن الحظ .

انطلقت الحافلة إلى الطريق ، وأشرق وجه توم علينا بخفوت ، وأصبحَ أصغر وأصغر . ذكّرني فجأة بمرة سابقة أخرى عندما غادرَ مبتعداً عني في حافلة . في تلك المرة أيضاً ، أومضَ وجهُه بخفوت وهو يحدِّقُ فيّ بارتياح . وإنما بخوفٍ أيضاً .

هززتُ رأسي . أردتُ أن أتخلص من الذكرى .

أخيراً اختفَت الحافلة خلفَ الزاوية . أنزلنا أيدينا بانسجام ، ووقفنا هناك نراقب النقطة التي اختفت فيها ، كما لو أننا أحمَقين بما يكفي لنعتقد بأنها يمكن أن تعود فجأة .

«حسناً ، حسناً» ، قالت إيما ، «انتهى الأمر» .

«انتهى الأمر؟ ماذا تعنين»؟

«إننا نأخذهم فقط على سبيل الإعارة» ، وجفَّفت دمعةً حرضتها الريح من عينها اليُسرى .

خطر لي أن أطلِق رداً حاداً ، لكنني تغاضيتُ عن ذلك . كان لدي احترام كبير لتلك الدمعة . ولذلك استدرتُ وسرت في اتجاه السيارة .

سارت ورائي بتثاقل . وبدت كما لو أنها أصبحت أصغر حجماً أيضاً .

جلستُ خلف المقود ، لكنني لم أستطع تشغيل المحرك . كانت يداي مخدورتين ، كما لو أنهما أُنهكتا تماماً مع كل ذلك التلويح .

وضعَت إيما حزام الأمان ، كانت دائماً دقيقة في ذلك ، واستدارت في اتجاهي .

«ألن تقود»؟

أردتُ أن أرفعَ يدي ، لكنَّ ذلك لم ينفع .

«هل تحدثَ معكِ عن الأمر»؟ قلتُ لمقودِ السيارة .

«ماذا»؟ سألَت إيما .

«عما يخطط لعمله؟ للمستقبل»؟

صمتَت لوهلة . ثم خرجَت العبارات ، بهدوء .

«إنك تعرفُ تماماً أنه يُحبُّ أن يكتب . لطالما فعل» .

«أنا أحبُّ حرب النجوم . لكنني لم أصبح ـ جيدي ـ مع ذلك» .

«لديه موهبة خاصة ، بكل وضوح» .

«هل تدعمينه؟ هل تظنين أن خطته حكيمة؟ ذكية حقاً؟ اختياراً جيداً للوجهة»؟ أدرتُ وجهي إليها ، وقوّمتُ رقبتي ، وحاولتُ أن أبدو حازماً .

«أنا أريده أن يكونَ سعيداً فقط» ، قالت بخنوع .

«أنت تفعلين» .

«نعم ، أفعل» .

«لم تفكري بكيفَ سيعيش أيضاً؟ كيف سيكسبُ عيشَه في نهاية المطاف»؟

«قال الأستاذ أن لديه ما يقدِّمه» .

جلسَت هناك بتحديقتها الكبيرة المفتوحة ، صادقةً تماماً ، لم تكن غاضبة ، وإنما بذلك النوع من الإيمان الذي لا يتزعزع بأنها على حق .

ضغطتُ على مفاتيح السيارة في يدي ، ولاحظتُ فجأة أن ذلك يؤلم ، لكنني لم أستطع إفلاتها .

«هل فكرتِ بما سنفعل بالمزرعة ، عندَ ذلك»؟

ظلت صامتة . لفترة طويلة . نظرَت بعيداً ، عبثَت قليلاً بخاتم زفافها ، وسحبته إلى أعلى فوق المفصل الأول في أصبعها . وانكشَف الشريط الأبيض من بشرتها تحته ، العلامة التي تركها الخاتم الذي ما يزال هناك منذ 25 عاماً .

«اتصلَت نيلي في الأسبوع الماضي» ، قالت أخيراً ، للفراغ ، وليسَ لي . «لديهم الآن درجات حرارة الصيف في مرافئ الخليج . 21 مئوية في الماء» .

ها هو ذلك يعود مرة أخرى . مرافئ الخليج . يطفو ، حتى مع أن اسم ذلك المكان للتطوير العقاري يضربني مثل حصاة في الرأس كلّ مرة تذكره .

كان روب ونيلي من أصدقاء طفولتنا . ولسوء الحظ ، انتقلا إلى فلوريدا . ومنذ حدث ذلك ، ظلا مصدر مضايقة شرسة لنا ، ليسَ فقط بدعوتنا لزيارة ما يسميانه واحة في ضواحي تامبا ، وإنما يقولان أيضاً أن علينا الانتقال إلى هناك نحن أيضاً . واستمرت إيما في أن تريني إعلانات جديدة عن المنازل في «مرافئ الخليج» . رخيصة حقاً . وموجودة في السوق منذ وقت طويل . نستطيع أن نجد صفقة حقيقية . رصيف وحمام سباحة ، بيوت مجدَّدة حديثاً ، شاطئ مشترك وملاعب تنس ، كما لو أننا سنحتاج إلى ذلك ، نعم ، يبدو أن هناك حتى دلفينات وعجول بحر تعومُ وترش الماء من حولها ، تماماً خارج بابك الأمامي . من يحتاجُ إلى ذلك؟ عجول بحر؟ وحوش بشعة .

تفاخرت نيلي وروب مثل المجانين . صنعا الكثير من الأصدقاء الجدد هناك ، كما قالا . وذكرا أسماء عشوائية : لوري ، مارك ، راندي ، ستيفن . لم تكُن هناك نهاية لهذا . كل أسبوع يتناولان غداء يوم الأحد في مركز المجتمع ، غداءً كاملاً بخمس دولارات فقط ، مع الفطائر ، ولحم الخنزير المقدد ، والبيض والبطاطا المقلية . وهما يحاولان الآن دفعنا إلى القدوم ، كلنا ، نعم في الحقيقة ، كانا في الحقيقة يُزعجان أناساً كثيرين غيرنا ، ربما أرادا أن يأتي كل سكان أوتَمن إلى الجنوب . لكنني كنتُ أعرف ما كان هذا كلُّه من أجله حقاً . كانا يشعران بالوحدة هناك عند قناة الماء العميقة . كان ذلك عيشاً بائساً بعيداً جداً عن العائلة والأصدقاء ، وأن

يكونا قد فرّا من كل شيء ظلّ حولهما طوال حياتهما . وإلى جانب ذلك ، الصيف في فلوريدا ، حيث لا يمكنك أن تكون أقرب من ذلك إلى جهنم ، دبقٌ وحار ومروع ، مع قدوم عواصف رعدية مجنونة عدة مرات في اليوم . وحتى مع أن الشتاء ربما يكون لا بأس به ، بدرجات حرارة صيفية وليس الكثير من المطر ، مَن هو الذي يريد أن يعيش بلا شتاء حقيقي؟ من دون الثلج والبرد؟ كنتُ قد قلتُ هذا لإيما مرات كثيرة ، لكنها لا تريد أن تستسلم . ظننت أن علينا الشروع في وضع خطط مناسبة ، خطط لشيخوختنا . لم تستطع أن تفهم أنني فعلتُ ذلك بالضبط . أردتُ أن نترك وراءنا شيئاً مهماً ، إرثاً ، بدلاً من الجلوس هناك في منزل عطلات متهدّم يستحيل بيعه . نعم في الحقيقة ، قمت ببعض القراءة عن أحوال سوق المنازل في فلوريدا في تلك الأيام . أنجزتُ فروضي المنزلية . ووجدتُ أسباباً جيدة لكي لا تُباع تلك المنازل في أول نهاية أسبوع تعرض فيها ، كما يمكن القول .

ولكن ، كانت لديَّ خطة أخرى . بعض الاستثمارات الجديدة . المزيد من خلايا النحل ، الكثير من الخلايا . شاحنات . مقطورات . عاملون بدوام كامل . خطط لعقد اتفاقيات مع المزارع في كاليفورنيا ، وجورجيا ، وربما فلوريدا .

وخطة لتوم أيضاً .

كانت خطة جيدة . واقعية . رزينة . قبل أن يعرف ، ستكون له زوجة وأطفال . وعندئذٍ سيكون شيئاً جيداً أن يكون والده قد وضع له خططاً مناسبة ، وأن تكون المزرعة في حالة عمل جيدة ، وقد تمّ الحفاظ

عليها جيداً ، وأن يكون قد تمَّ تكييف المؤسسة مع العالم الحديث ، وأن يكون توم قد عمل هنا فترة طويلة بما يكفي ليعرف أسرار الحِرفة كلَّها ، من الداخل إلى الخارج . وأنه ربما يكون هناك بعض المال في البنك . كانت تلك أوقاتاً مضطربة غير أكيدة . وأنا خلقتُ الأمن . أنا وحدي خلقت الأمان للعائلة . مستقبلاً . لكنه لا يبدو أن أحداً فهم ذلك .

تعبتُ من مجرد التفكير في ذلك ، في الخطة . في السابق ، كانت تعطيني الطاقة لأعمل بشكل إضافي ، أما الآن ، فقد بدت الطريق إلى الأمام طويلة ومتعرجة مثل درب موحل وعر في مطر الخريف .

لم أستطع أن أحملَ نفسي على أن أجيب إيما . وضعتُ مفاتيح السيارة في فتحة التشغيل ، كان المفتاح مبقّعاً بالعرق وصنعَ علامة حمراء على راحة يدي . كان عليّ أن أقود الآن ، قبل أن أنام . لم ترفع عينيها ، وقد خلعت خاتم زواجها وكانت تحك بأصابعها الشريط الأبيض على الجِلد . لم تستطع أن تغويني ، لكنها أرادت بنفس المقدار أن تضَع حياتنا كلها تحت الخطر .

تاو

«هلا أطفأتِ المصباح»؟ قال كوان وهو يستدير ليواجهني ، شاحباً بسببِ النعاس .

«أريد فقط أن أنهي قراءة هذا» .

واصلتُ مع الكتاب القديم عن التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة . كانت عيناي متقرحتين ، لكنني لم أكن أرغب في النوم بعد . لم أرِد أن أنام ، وأستيقظَ وأكون مضطرة إلى الخروج والدخول في يوم جديد .

تنهَّد إلى جانبي . سحبَ غطاء السرير على رأسه لكي يحجب الضوء . ومرت دقيقة . دقيقتان .

«تاو ، أرجوكِ . في ستِّ ساعات يجب علينا أن نستيقظ» .

لم أُجِب ، لكنني فعلتُ ما طلب فقط .

«ليلة سعيدة» ، قال بهدوء .

«ليلة سعيدة» ، قلت وأستدرتُ لأواجه الجدار .

كان النوم قد بدأ يأخذني عندما شعرت بيديه تزحفان تحتَ قميص نومي القصير . استجبتُ لهما بفعل غريزي ، عاجزةً عن الامتناع عن الاستمتاع بمداعباته ، لكنني حاولت أن أدفعهما بعيداً في الوقت نفسه . ألم يكُن متعباً؟ لماذا طلب مني أن أطفئ الضوء إذا كان هذا ما يريده؟

اختفت يداه ، لكن تنفسه كان ما يزال ضحلاً . ثم تنحنح ، كما لو أن في ذهنه شيء . «كيف . . . كيف سارَت الأمور هذا اليوم»؟

«ماذا تعني»؟

«لقد نسيتِ أيَّ يوم يكون» .

«كلا ، لم أنسَ» .

لم أقل إنني أملتُ بأن يكون قد نسيَ هوَ حتى لا أضطر إلى خوض هذا الحوار .

حكَّ شعري ، بحنان الآن ، وليس بإغواء . «هل كنتِ على ما يرام» .

«كل سنة يصبحُ الأمر أسهل قليلاً» ، قلتُ ، لأن هذا كانَ حتماً ما أراد سماعه .

«جيد» .

ربتَ على شعري مرة أخرى ، ثم عادت يده فاختفت تحت بطانيته .

تموج الفراش قليلاً عندما انقلب ، ربما على بطنه ، هكذا كان يحب أن ينام . ثم غمغم بـ«ليلة سعيدة» مرة أخرى . وبالحكم من نوعية الصوت ، فإنه انقلب بحيثُ يوليني ظهره . وسرعان ما نام بعمق .

لكنني استلقيتُ مستيقِظة في السرير .

خمسُ سنوات .

خمسُ سنوات مرت منذ رحلَت أمي .

كلا ، لم ترحَل ، وإنما أُرسِلَت بعيداً .

مات والدي عندما كان عمري 19 عاماً . كانَ عمرُه أكثر قليلاً من 50 عاماً ، لكن جسده كان أكبرُ عُمراً بكثير . الأكتاف ، الظهر ، المفاصل ، كلها كانت بالية بسبب كل تلك السنوات من العمل في

الأشجار . كان يتنقل بثقل أكبر مع مرور كل يوم . وربما كان دمه يدور بطريقة أكثر سوءاً أيضاً ، لأنه عندما أصيب ذات يوم بشظية خشب في يده ، لم يلتئم الجرح .

أجَّل طلب المساعدة لوقت طويل جداً ، وهو الرجل الذي كان عليه . وعندما تلقى الطبيب موافقة على إعطائه المضادات الحيوية في نهاية المطاف ، حتى مع أن والدي كان في الحقيقة مُسناً جداً على إعطائه الأولوية لتلقي هذا النوع من العلاج باهظ الثمن ، كان الوقت قد تأخر مُسبقاً .

تعافَت أمي بسرعة مدهشة بعد وفاته . قالت كل الأشياء الصحيحة ، وكانت متفائلة . كانت ما تزال شابة ، وتحدثَت وابتسمت بشجاعة ، وكانت لديها حياة طويلة ما تزال أمامها . بل إنها ربما تلتقي برجل آخرَ ذات يوم .

لكنها كانت مجرد كلمات . لأنها سرعان ما رفرفت بعيداً ، بالطريقة التي تطير بها البتلات عندما ينتهي موسم الإزهار . كانت هناك رياح في نظرتها ، عصية على الإمساك .

سرعان ما كفَّت عن الحضور إلى العمل في الحقول . وبقيت في البيت فحسب . أصبَحت نحيلةً مسبقًا ، والآن أصبحت لا تأكل شيئاً تقريباً . وشرعت في الشهيق ، والسعال ، وأصبحَت تنام أكثر وأكثر ، وسرعان ما أصيبت بالتهاب رئوي .

ذات يوم عندما أتيتُ لأتفقدها لم تفتح الباب . قرعتُ الجرس عدة مرات ، لكن شيئاً لم يحدث . كان لدي مفتاحٌ إضافي استخرجته وفتحتُ به الباب .

كانت الشقة مرتبة ونظيفة ، وكل ما تبقى كان أثاثاً قديماً يعود للأسرة . كانت كل أشيائها قد اختفت ؛ الوسادة التي تستخدمها لإسناد ظهرها على الأريكة ، وشجرة البونساي التي ترعاها بحرص ، والشرشف المطرز الذي كانت تحبُّ أن تطويه وتفرده على فخذيها ، كما لو أنها تشعر بقشعريرة خاصة هناك .

في ذلك المساء نفسه عرفتُ أنها أُرسِلت إلى الشمال . كانت على ما يرام ، كما أكد لي المشرف الصحي في المقاطعة ، وأعطاني اسمَ دار الرعاية . عرضوا لي فيلماً مُصوَّراً من هناك . غرف واسعة مشرقة وجميلة ، سقوف عالية ، وموظفون مبتسمون . لكنني عندما طلبتُ إجازة حتى أستطيع أن أذهب وأزورها ، قيل لي إن عليَّ الانتظار حتى ينتهي موسم الإزهار .

بعد بضعة أسابيع ، وصلتني الأخبار بأنها رحلَت .

رحلَت . كانت هذه هي الكلمة التي استخدموها ، كما لو أنها نهضَت من السرير وغادرت في واقع الأمر . حاولتُ أن لا أفكر بكيف كانت أيامها الأخيرة . مخنوقة بالسعال ، محمومة ، خائفة ووحيدة . فكرتُ بأنها لا بد أن تكون قد ماتت على هذا النحو .

ولكن ، لم يكن هناك شيء أستطيع أن أفعله . قال كوان ذلك أيضاً . لم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله . قال هوَ ذلك مرة تلو المرة ، وواصلتُ أنا قوله لنفسي أيضاً .

حتى أنني كدتُ أصدقُه .

وليام

« . . . إدموند»؟

«مساء الخير يا أبي» .

وقفَ وحيداً بجوار سريري . لم تكن لديّ فكرة عن الفترة التي قضاها في الغرفة . كان قد أصبح شخصاً آخر ، أكثر طولاً ، وأنفُه - آخر مرة رأيته ، كان أكبر بكثير . عادة ما تنمو الأنوف وحدها مستقلة عن بقية الأعضاء عند الصغار ، وتقفز أماماً أمام بقية الجسم ، لكن أنفَه ناسبَ الآن وجهَه ، بعد أن نمت تقاطيعه واستقرت في مكانها حوله . أصبح وسيماً ، بجمالٍ طالما كان كامِناً فيه ، أنيقاً ، وإنما يرتدي ملابسه بإهمال ، وقد تدلى وشاح أخضر زجاجي بشكل فضفاض من حول عنقه ، كانت أطرافه طويلة بعض الشيء ، كان مناسباً ، لكنه جعل من الصعب رؤية لون عينيه . وفوق ذلك كله كان شاحباً . ألم يكن يحصل على قسط كافٍ من النوم؟

إدموند ، ابني الوحيد . ابن تيلدا الوحيد . لم يكن قد مضى طويل وقت قبل أن أفهم أنه كان لها ، كليةً وتماماً . منذ يوم التقينا ، أعلنَت أن أعظم أمنياتها هي أن يكون لها ولد ، وعندما وصل في العام التالي ، تحققت دعواتها . أصبحت دوروثيا وشارلوت ، والبنات الخمس الأخريات اللاحقات ، مجرد ظلال له . بأحد المعاني ، كنتُ أفهمها . سبَّبت لي البنات الستُّ صداعاً مستمراً . عويلهن الشرس المتواصل ، صراخهن ،

أنينهن ، بكاؤهن ، ضحكهن ، ركضهن ، سعالهن وشهيقهن ، ناهيك عن الثرثرة - بتلك الطريقة التي تستطيع بها الفتيات الثرثرة ، كنَّ ثرثارات بطريقة لا هوادة فيها- كل هذه الأصوات أحاطت بي منذ اللحظة التي أنهض فيها حتى أذهب إلى الفراش ، وليس ذلك فحسب - كن يواصلن طوالَ الليل أيضاً . هناك دائماً طفلة تبكي بسبب حلُم ، دائماً واحدة تأتي متسللة على رؤوس أصابعها بلا رداءٍ سوى ثوب النوم ، وقد ركلت جواربها من قَدميها في نومها ، بحيث تدب قدماها الحافيتان برفق على ألواح الأرضية الباردة ، ثم تزحف إلى السرير مصدرة صوتاً أو آخر ، بعضَ الهمهمات البائسة ، أو طلباً شبه عدواني للسماح لها بأن تنحشر بيننا على السرير .

بدا من المستحيل أن يكُن هادئات ، وبذلكَ من المستحيل أن أعمل ، من المستحيل أن أكتُب . لقد حاولتُ حقاً ، لم أستسلم على الفور ، كما اعتقدَ رام .

لكن ذلكَ كان بلا فائدة . رغمَ أنني أغلقت باب غرفتي بعد إعلام كل العائلة بوضوح كامل بأن على بابا أن يعمل ، وأن عليهم إبداء الاحترام ، حتى مع أنني ربطتُ وشاحاً حول رأسي حتى لا أسمع الضوضاء ، أو ملأت أذني عن آخرهما بالصوف ، حتى عندئذٍ كنتُ أسمعهن . لم تكُن ثمة فائدة . على مر السنين ، أصبحَ هناك وقت أقل لي لكي أعمل ، وسرعان ما أصبحتُ ليسَ أكثر من تاجر بسيط ، يناضل ليطعم بطون البنات الصغيرات الشرهة بلا انتهاء ، والتي لم تكِن لها قيعان . كانَ على عالم الطبيعة أن يتنحّى جانباً ، ليأتي في محلِّه تاجر بذور في منتصف العمر ، بأقدام متعبة من الساعات التي يقضيها خلف

طاولة المتجر، وحبالٍ صوتية صدئة من الأحاديث الصغيرة الأبدية مع الزبائن، وبأصابعَ تعُد بلا نهاية النقود التي لم يكن هناك ما يكفي منها أبداً. كل ذلك بسبب الضوضاء التي تصدرها البنات الصغيرات.

وقف إدموند ساكناً تماماً، متجمداً. في السابق كانَ جسمه مثل البحر بجوار شبه جزيرة، حيث تلتقي الرياحِ والأمواج وتتصادم واحدتها بالأخرى، فوضوية، جامحة. ولم يكن ذلكَ الجموحُ الذي لا يهدأ في جسده فقط، وإنما في روحه أيضاً. لم تكن هناك أنظمة في داخله. في دقيقة يعرضُ جانبه الحسن، ويجلب دلواً من الماء لمجرد أن يكون لطيفاً، وفي الدقيقة التالية يفرغ الدلو على الأرضية بترتيب، كما فسَّر ذلك هو نفسه، ليصنعَ بحيرة. لم يكن للتأنيب تأثير عليه. إذا رفعنا أصواتنا، كان يضحك فقط ويركض مبتعداً. دائماً يركض، كان ذلك هو ما نتذكره به، القدم الصغيرة، لا يهدأ أبداً، دائماً يركض هارباً من كارثة ما أو أخرى يكون قد استحضرَها، من الدلو المقلوب، إلى فنجان خزف مكسور، إلى حياكة نقض خيطانها. وكلما حدث ذلك، وكثيراً ما حدث، لم يكن لدي خيار سوى القبض عليه، والإمساك به بقوة بينما أسحب حزامي من عرى بنطالي. أصبحتُ أكره صوت هسيس الجلد على النسيج وخشخشة مشبك الحزام المعدني عندما يضرب ألواح الأرضيَّة. كان الكرب مما سيتبَع أسوأ تقريباً من الضربات الفعلية. إحساس ملمس الجلد على يديّ ومشبك الحزام، كنتُ أمسكه بإحكام - لم أكن أضرب أبداً بهذه الطريقة، ليس مثل أبي الذي كان دائماً يرفع مشبك الحزام المعدني في الهواء بحيث يضرب بقوة. كنتُ أمسكه بإحكام، حتى أنه حفر في راحة يدي وتركَ خلفه كدمات. الجَلدُ على الظهر العاري، والعلامات

الحمراء التي تزهر على الجلد الأبيض، مثل عروق الكرمة المتلوية. في الأولاد الآخرين، كانت تلك البقع الحمراء تساعد على تهدئتهم، وظلّت ذاكرة العقاب في وعي الطفل بحيث يتجنب في المرة التالية ارتكاب خطأ ما. لكنها لم يكن لها هذا التأثير على إدموند. كان الأمر كما لو أنه لم يفهم أن كل تصرفاته الطائشة تعيده ثانية إلى الحزام، أنّ هناك صلة بين البحيرة على أرضية المطبخ والضربات اللاحقة التي تلقاها. لكنها كانت مسؤوليتي مع ذلك أن أستمر وآمل بأنه عميقاً في داخله لاحظ حبي، وفهمَ أنه لم يكن لدي خيار. كنتُ أؤدبه، وبذلك كنتُ أباً. ضربته بينما تتراكم الدموع في صدري، بينما عرقي يسحُّ ويداي ترتجفان، أردتُ بالضرب أن أخرج ذلك الهياجَ الذي لا يهدأ من داخله، لكن ذلك لم يساعد أبداً.

«أين الآخرون»؟ سألتُ، لأن البيت بدا هادئاً بشكل غريب.

ندمتُ على ذلك على الفور. ما كان ينبغي أن أسأل عنهم. ليسَ عندما جاء أخيراً ليراني. ليسَ عندما أصبحنا أخيراً أنا وهو فقط.

تمايلَ إدموند قليلاً بينما يقفُ هناك، كما لو أنه يناضل ليحافظ على توازنه، لم يعرف على أيِّ ساق يجب أن يريح وزنه.

«في الكنيسة».

وإذن، إنه يوم الأحد.

حاولت أن أجلس في السرير. رفعتُ الغطاء قليلاً. ضربَتني رائحة جسدي أنا نفسي. متى استحممتُ آخرَ مرة؟

لكنه إذا لاحظ أي شيء، فإنه لم يُظهر ذلك.

«وأنت»؟ قلت. «لماذا بقيتَ في البيت»؟

بدا ذلك أشبهَ باتهام . في حين كان يجب أن يكون - شكراً لك .

لم ينظر إلي ، وإنما حدق في السقف فوق رأس السرير .

«كنتُ . . . كنتُ آمل أن تتسنى لي فرصةُ الحديث معك» ، قال أخيراً .

هززتُ رأسي ببطء ، بينما أجاهِدُ لمنع وجهي من فضح مدى سروري الهائل بزيارته .

«جيد» ، قلت . «أنا أقدر رؤيتك كثيراً جداً . . . وكنتُ آمل أن تأتي منذ وقت طويل» .

حاولتُ أن أجلس ، ولكن كان الأمر كما لو أن هيكلي العظمي لم يعد يستطيع أن يستقيم ، ولذلك دعمتُ نفسي بوسادة . كان ذلك في حد ذاته جهداً هائلاً . قاومتُ رغبة في سحب البطانية إلى ما فوق كتفيَّ لأخفي الرائحة . استطعتُ بالكاد أن أحتمل الرائحة أنا نفسي . كيف لم ألاحِظها من قبل ، كم كنتُ في حاجة ماسة إلى استحمام؟ رفعتُ يديَّ إلى وجهي . الذقن الخفيفة كبقايا الزرع ، التي لم تكن أبداً كثيفة بشكل خاص ، تمكّنت الآن من النمو إلى لحية شعثاء بطول عدة سنتمترات . لا بد أنني بدوت أشبه برجل الكهف .

حدق في أصابع قدمي ، التي كانت تطلٌ من تحت البطانية . كانت أظافري طويلة وقذرة . سحبتُ قدميّ سريعاً لأخفيها عن الأنظار وجلستُ في السرير .

«إدموند ، أخبرني ، فيمَ تفكر»؟

لم تلتق عيناه بعيني ، ومع ذلك ، لم يكن لديه أي حياء عندما سلَّم رسالته .

«لعل الوالد يستطيع أن يخرجَ من السرير سريعاً»؟

صعدت بقعة من الخجل إلى خديَّ . تيلدا طلبَت . والبنات طلبن . والطبيبُ طلب . لكن إدموند لم يسبق له أن أتى إلى جانبي من قبل .

«أنا سعيدٌ بلا نهاية بحضورك» ، قلتُ بصوت على حافة الانكسار . «أودُّ كثيراً أن أفسِّر» .

«تفسِّر»؟ سحبَ إحدى يديه من تحتِ وشاحه . «لا أحتاج إلى أي تفسير . أريدُك أن تنهض فقط» .

ماذا كان يفترض بي أن أقول؟ ماذا كان يتوقع مني؟ ربتُّ بيدي على الفراش ، بإيماءة دعوة صغيرة . «اجلس يا إدموند . دعنا نتحدث قليلاً . ماذا كنتَ تفعل في الفترة الأخيرة»؟

لم يتحرك .

«أخبِرني عن واجباتك المدرسية . بالرأس الجيد الذي تمتلكه فوق كتفيك ، أفترض أن الأمر كله إبحار سلس»؟

كان يستعدُّ لفصل الخريف ، عندما سيلتحق بالمدرسة في العاصمة . كنا قد بخلنا وادخرنا من أجل مدرسته ، والآن أصبح شبه مستعد أخيراً . شعرت بطعنة مفاجئة في صدري . رسومه الدارسية ، هل يمكن أن تكون تيلدا قد أنفقَت منها ، الآن وأنا راقدٌ هنا على هذا النحو»؟

«أفترض أنه لا شيء تغير . خطط المدرسة تسير كما في السابق»؟ سألتُ بسرعة .

هز رأسه موافقاً بلا حماس ظاهر . «أنا أعمل عندما أجد الإلهام» .

«جيد . الإلهام حافز مهم» .

مددتُ يدي إليه . «تعال واجلس . دعنا نجري حديثاً مناسباً الآن . مرَّ وقت طويل حقاً» .

لكنه وقف هناك فقط . «عليّ . . . عليّ أن أنزل إلى الطابق السفلي» .

«بضعَ دقائق فقط»؟ حاولتُ أن أبقي صوتي متماسكاً .

عبث بوشاحه ، ولم ينظر إلي . «سوف أذهب لأدرس» .

كنتُ مسروراً بأنه يعمل ، ومع ذلك ، يستطيع بالتأكيد أن يضحِّي ببعض الوقت الإضافي ، الآن وقد جاء أخيراً .

«أريد أن ألمَسَك فقط» ، قلت . «للحظة فقط» .

أفلتت تنهيدة غير مسموعة تقريباً من شفتيه ، لكنه جاء إليَّ في الوقت نفسه . أخيراً جلس بجانبي ، وتردَّد لحظة ثم أعطاني يده .

«شكراً لك» ، قلت بهدوء .

كانت يده دافئة وناعمة . كانت تشع بالحياة ، وأصبحَت رابطاً بيننا ، كما لو أنَّ دمه العفيّ جرى في جسدي . أردتُ فقط أن أجلس هكذا ، لكنَّ قلقه الظاهِر لم تكن تخطئه العين . لم يستطع أن يبقي ذراعيه هادئتين ، كان يغير الوضع ، ورفَّت قدماه .

«آسف يا أبي» . ووقف فجأة .

«كلا ، لا حاجة بك إلى الاعتذار . أنا أفهم . عليكَ طبعاً أن تعمل» .

أطرق . كانت عيناه مثبتتين على الباب . أراد فقط أن يبتعد ، أن يتركني مستلقياً هنا وحدي مرة أخرى .

خطا بضع خطوات، ثم توقف وحده، كما لو أنه تذكر شيئاً واستدار ثانية.

«ولكن يا أبي . . . ألا تستطيع على الأقل أن تحاول إيجاد الإرادة لتخرج من السرير»؟

ابتلعتُ ريقي. كنتُ أدين له برد مناسب.

«ليس الأمر أنني أفتقر إلى الإرادة . . . إنه . . . الشغف يا إدموند».

«الشغف»؟ رفع رأسه، ويبدو أن الكلمة حركت شيئاً في داخله. «إذن عليك أن تجده مرة أخرى»، قال بسرعة. «وأن تسمحَ له بأن يحركك».

اضطررتُ إلى الابتسام. كانت كلمات كبيرة من ذلك الجسد الأخرق.

«إننا لا شيء بلا شغف»، اختتم كلامه برزانة لم أسمعها منه من قبل.

لم يقل أيَّ شيء آخر. غادر الغرفة فقط، وكان آخر انطباع وصلني منه هو صوت خطواته على ألواح الأرضية هناك، والتي تلاشت في اتجاه الأدراج ثم إلى الأسفل وبعيداً. لكنني ظللتُ أشعر بأنني لم أكن أقرب إليهِ في أيّ وقتٍ من قبل.

كان رام على حق؛ لقد نسيت شغفي وسمحتُ لنفسي بأن تستهلكني التفاهات. لم أكشف عن أي حماس في عملي، وهو السبب الذي جعلني أخسر رام. لكن إدموند ما يزال هنا، وما يزال بوسعي أن أجعله يرى، أن أجعله فخوراً. بتلك الطريقة يمكن أن نصبح أقرب. من خلال الشرف الذي أستطيع أن أجلبه لاسم العائلة، سوف تزهر علاقتنا

وتطرح الثمار . بهذه الطريقة ربما أستطيع أن أجد طريق عودتي أيضاً إلى رام ، بحيث يمكن أن نجتمع ثلاثتنا بعد كل شيء : الأب ، والابن ، والمعلم .

انقلبتُ على جانبي . ألقيت البطانية عن جسدي ذي الرائحة الكريهة الفظيعة ، ثم خرجت من السرير . للأبد هذه المرة .

جورج

كنتُ أبني خلايا النحل في الحظيرة . هذا ما أعمله غالباً في هذا الوقت من السنة . بينما الربيع يستجمع العزم ، والطبيعة توشك أن تنفجر بالخضرة ، والجميع يتحدثون عن كم ذلك جميل . وبينما أراد الجميع أن يكونوا في الخارج فقط ويستمتعوا به ، كنت أظل في الداخل تحت طقطقة مصابيح الفلورسنت وأواصل الطرقَ كما لو أنني ممسوس . هذه السنة أكثر من أي وقت مضى . لم نتحدث أنا وإيما كثيراً منذ رحل توم . بقيتُ معظم الوقت في الحظيرة . ولأكون صادقاً ، كنت خائفاً من فتح حوار معها . كانت أفضل في الكلام مني ، هذا هو واقع الحال دائماً مع النساء ، وفي معظم الأحيان كانت تحصل على ما تريد . كما كانت أيضاً على حق في كثير من الأحيان ، بمجرد أن تكون لدي الفرصة لأفكر في الأمر . ولكن ليس هذه المرة . كنتُ أعرف هذا القدر .

وهكذا ، كان هذا هو سببُ وجودي في الحظيرة . من الصباح حتى الليل . أصلحتُ الخلايا القديمة ، وصنعتُ أخرى جديدة . ليس خلايا قياسية ، ليس في هذه العائلة . كان لدينا تصميمنا الخاص . وقد تدلّت الرسومات على جدار غرفة الطعام ، في إطارات . كانت إيما هي التي فعلَت ذلك . كانت قد وجدَت الرسومات في صندوق ملابس في العلية ، حيث ظلت مطروحةً هناك لأن الجميع في عائلتي كانوا يعرفون الأبعاد عن ظهر قلب على أي حال . الصندوق الحقيقي من أيام الهجرة إلى أميركا ، كان يمكن أن يباع بسهولة إلى محل أنتيكات بقدر جيد من النقود . لكنه كان

من اللطيف الاحتفاظ به هناك في الأعلى ، كما ظننتُ . إنّهُ يذكرني بالمكان الذي أنحدر منه . وقد سافر الصندوق عبر البحر من أوروبا ، عندما وضعت أول فرد من عائلتي قدميها على التراب الأميركي . امرأة واحدة وحيدة . وكل شيء نبع منها ، من هذا الصندوق ، ومن الرسومات .

كان ورقُ الرسومات المصفرُّ الهش على وشك الانهيار إلى قطع ، لكنَّ إيما أنقذته بالزجاج والإطارات الذهبية الثقيلة . بل إنها تأكدت من تعليق الرسومات في مكان غير معرض لأشعة الشمس المباشرة .

لم أكن أحتاج إليها على أي حال . فقد بنيت هذه الخلايا مرات عديدة حتى أنني أستطيع أن أفعل ذلك وأنا معصوب العينين . كان الناس يضحكون علينا لأننا نبني الخلايا بأنفسنا ، ولم أعرف أيَّ مربي نحل آخرين يبنون خلاياهم بأنفسهم . كان ذلك يستغرق وقتاً طويلاً . لكننا دائماً فعلنا الأمور بهذه الطريقة . كانت هذه خلايا نحلنا . لم أتحدث عن ذلك بصوت عالٍ ، ولم أرد أن أتبجح ، لكنني كنتُ متأكداً أن النحلات كُن أسعد حالاً في خلايانا من الصناديق القياسية التي تُنتج بكميات كبيرة . ولذلك ، يستطيعُ الناس أن يضحكوا كما يشاؤون .

كانت المعدات جاهزة وتنتظر في الحظيرة إلى جانب ألواح عطِرة جديدةٍ من الخشب .

بدأتُ بالصناديق . قطعتُ فتحات بالمنشار الكهربائي وألصقتُ الألواح معاً بمطرقة مطاطية . مضى العمل بسرعة ؛ كان عملاً له نتائج منظورة . أخذَت الإطارات وقتاً أطول . عشر إطارات لكل صندوق .

كان الشيء الوحيد الذي نشتريه جاهزاً هو عازل الملكة المعدني ، ذي الفتحات بمساحة 4.2 سنتمتراً لضمان أن تبقى الملكة في داخل الخلية ، وأن تستطيع النحلات العاملات الدخول والخروج بحرية . كانت هناك حدود .

أبقاني العمل مستيقظاً وطرد عني النوم . هنا في الخارج ، في الحظيرة الباردة حيث حلّقت نشارة الخشب مثل نُدف الثلج في الهواء ، لم يغلبني النوم بالطريقة التي يفعلها في الداخل . وإلى جانب ذلك ، كان من المستحيل النوم مع الصوت الغاضب للمنشار الكهربائي . عادة ما كنتُ أضع واقيات للأذنين ، لكنني نزعتهما الآن ، وتركتُ الصوت يملأ رأسي . ثم لم يكن هناك متسع لعمل الكثير من أي شيء آخر .

لم ألاحظ إيما وهي تدخل . ربما كانت واقفة هناك تراقبني لوقت طويل ، أو أنها قضت ما يكفي من الوقت لتضع واقي الأذنين على الأقل . عندما استدرتُ لأجلب المزيد من القوالب الخشبية ، اكتشفتها . وقفَت هناك فقط بواقيات أذنين صفراء كبيرة على أذنيها . وكانت تبتسم .

أطفأتُ المنشار .

«مرحباً»؟

أشارت إلى واقيات الأذنين وهزت رأسها قليلاً . لم تسمَع ما قلت . وقفنا هناك هكذا . وقفَت هناك تبتسم . لا يمكن أن أخطئها ، تلك الابتسامة . كان انقطاع الطمث موضوعاً كبيراً في تلك الأيام ، وكانت النساء يهمسن عندما يعتقدن أننا لا نسمع ، عن تلكَ الومضات الحارة الخاطفة ، التبول ، التعرق الليلي - ونعم ، في الحقيقة ، حيث نلاحظ ذلك نحن أيضاً : انخفاض الرغبة الجنسية . لكن إيما كانت كما كان

حالها دائماً . والآن وقفت هناك مرتدية واقيات السمع ولم يكن من الصعب معرفة ما تريد .

كان ذلكَ منذ وقت طويل ، طويل علينا . ليسَ منذُ قبل أن يأتي توم إلى المنزل . أصبحنا نخجل من ذلك وهو في المنزل ، ونخاف أن يسمع ، كما لو أنه ما يزال طفلاً ينام في غرفة نومنا معنا . أصبحنا نهمِسُ كل مرة نذهب فيها إلى السرير . تحركنا بحذر ، واستلقينا مباشرة تحت اللحاف وقلبنا بهدوء صفحات كتابينا . وبعد ذلك ، بعد أن غادر ، لم يأت هذا الأمر ببساطة . حتى إنني لم أفكر فيه .

وضعَت ذراعيها حولي ، وقبلتني في الفم ، وعيناها مغلقتان .

«لا أعرف . . .» ، قلت . كان جسدي متصلباً وبطيئاً . «أنا متعبٌ قليلاً» .

لكنها ابتسمَت وأشارت إلى غطاء الأذنين مرة أخرى فقط .

حاولتُ أن أزيلهما ، لكنها أبعدَت يدي .

وقفَت هناك على هذا النحو . أمسكتُ بيدها . ظلَّت الابتسامة ملتصقة على وجهِها .

«حسناً» .

تناولتُ زوجاً من واقيات الأذن أيضاً . «أهكذا تريدين الأمر»؟

لسببٍ أو لآخر دبّت فيَّ الحياة . لم يكن ذلكَ هادئاً ، ولا يكون هناك هدوء أبداً عندما تغلق سمعيكَ عن كل شيء في الخارج ، هسيس الدماغ ، وهسيس الأنفاس ، ونبض القلب ، كل ذلك يغزوك .

تبادلنا القبل ، كان لسانُها ناعماً ، وفمُها مفتوحاً ودافئاً . سحبتها إلى الأعلى على طاولة النجارة . أصبح رأسها بمحاذاة رأسي . كان الهواء بارداً ،

وكانت أصابعي مثل رقاقات الثلج على بشرتها . جفلَت ، ولكنها لم تبتعد . حاولتُ أن أنفخ على أصابعي ، لكنني لا أظن أن ذلك ساعد كثيراً ، لأنها ارتعشَت عندما حاولت دفع أصابعي تحت سترتها . استلقَت على الطاولة ، بينما تدلت قدماها على الأرض . قبلتها على بطنها وهي سحبَت رأسي إلى الأسفل . انتفضَ جسدها عندما لامس لساني تلك البقعة . ربما تأوهَت ، لكنها إذا فعلت فإنني لم أسمَع .

ثم استلقينا كلانا على الطاولة . كانت هي في الأعلى . ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ، كان البرد شديداً على مثل ذلك . وكانت ألواح الطاولة قاسية جداً على كتفيّ .

بعد ذلك نزعَت غطاء الأذنين ، ولبست سروالها ودست فيه قميصها . وقبل أن أستطيع قول أي شيء كانت قد ذهبَت .

وتركت خلفها دفء جسدها ، معلقاً في الهواء فوق طاولة النجارة .

«مرافئ الخليج» . ها هي تعود مرة أخرى . مرافئ الخليج . لا تريد الكلمات أن تذهب ، وإنما استمرت بالعبث في رأسي . مرافئ الخليج . معجونة ، مثل العجين ، مخالج الرفيء ، مفارئ الجليخ ، خلائج الفريء ، هززت رأسي بقوة ، أردت أن أتخلص منها ، لكنها تشبثت بقوة هناك ، مجارئ الفليج ، مفالج الجريء . . .

الطقسُ حار هناك الآن . تفقدتُ تقرير الأحوال الجوية بالأمس ، من دون أن تلاحظ إيما . لا أعرف لماذا ، وجدتُ نفسي أبحثُ عن توقعات الطقس الوطنية على شاشة التلفاز وجلست هناك أنتظر أن تظهر تامبا . رأيتُ أنه ليس ثمة الكثير من هطول الأمطار في هذا

الوقت من العام . ثمة بردٌ مجمِّد خام ما يزال هنا ، لكن حلم الصيف كان قد وصل مُسبقاً إلى هناك . حياة الليل . الشواء . الدلافين . أبقار البحر .

مرافئ الخليج .

علقَت الكلمات بشكل دائم ، كان التخلص منها مستحيلاً . ولذلك بقيَت هناك .

كانت شيئاً ، إيما . كنتُ محظوظاً بها . بغضِّ النظر عما يحدث . لن يتغير هذا ، حتى لو أننا كُنا انتقلنا فعلاً إلى فلوريدا .

تاو

وأخيراً جاء «يوم الراحة» في نهاية المطاف ، مثل كل عام . لم يتم إعلامنا حتى المساء السابق بأن «اللجنة» قررت أن للمواطنين الحق أخيراً في يوم عطلة . وجاء الإعلان الرسمي على لسان لي زيارا ، قائدة اللجنة ، وهي امرأة تقدم دائماً آخر قرارات اللجنة لنا ، على الراديو ، أو على شاشات المعلومات المتضررة . كان صوتها المحايد الخالي من العاطفة يظلُّ هو نفسه ، بغض النظر عما إذا كانت الرسالة جيدة أو سيئة . كان التلقيح قد انتهى ، كما قالَت الآن ، وموسم الإزهار على وشك الانتهاء . ويستطيعون أن يكافئونا بذلك ، كما قالت . نحن ، المجتمع ، يمكن أن نكافىء أنفسنا .

كنا ننتظر هذا اليوم منذ أسابيع ، وقد مر أكثر من شهرين منذ أخذنا عطلة آخر مرة . وفي حين أصبحت الأوتار في أسفل أذرعنا أكثر وأكثر التهاباً من حركة الدهن المتكررة بالفرشاة ، وبينما أصبحت أيدينا وأكتافنا أكثر وأكثر تصلباً وكلّت أقدامنا على الدوام من الوقوف ، فإننا عمِلنا وانتظرنا .

لمرة واحدة استيقظتُ بغير صوت المنبه . دفأَت الشمس وجهي ، واستلقيتُ في السرير وعيناي مغلقتان ، وأنا أستشعر كيف ترتفع الحرارة ببطء في الغرفة . ثم تمكنت أخيراً من فتح عينيَّ والنظر من حولي . كان السرير فارغاً . كان كوان قد نهض مسبقاً .

ذهبتُ إليه في المطبخ . كان يتناول كوبَ شاي وينظر خارجاً إلى الحقول ، بينما يلعب وي-وِن على الأرض . كنتُ هادئة تماماً ، ثمة يوم

من الراحة لنا جميعاً ، كما تقرَّر . وحتى وي–وِن كان يلعب بهدوء أكثرَ من المعتاد . كان يقود دمية سيارة صغيرة على الأرض ويصدِر فرقرة خافتة .

رقبته الناعمة ، والشعر القصير المقصوص ، والأصابع الصغيرة تمسك بالسيارة ، والفم يئز بكثافة حتى أن قليلاً من البصاق تناثَر من بين شفتيه . حماسه . ربما يستطيع أن يجلس على هذا النحو لساعات ، ويخلق طرقاً هناك على الارض بكل المركبات التي لديه ، مدناً مليئة بالحياة .

جلستُ بجانب كوان ، أخذتُ رشفة من شايه . كان بارداً تقريباً ؛ لا بد أنه كان يجلسُ هنا لوقت طويل .

«ماذا تريد أن تفعل»؟ قلتُ أخيراً . «كيف تريدُ أن نقضي يومنا»؟

أخذ رشفة أخرى من الشاي ، رشفة صغيرة فقط ، كما لو أنه يدَّخره .

«حسناً . . . لا أعرف . . . ماذا تريدين»؟

وقفتُ . كان هو يعرفُ ما يريد أن يفعل ، سمعته مُسبقاً وهو يتحدث مع بعض زملاء العمل عن كل شيء سيحدث في مركز المكان الصغير الذي يسميه البلدة ، وكان مطعم صغير قد أقيم في الساحة ، موائد طويلة وترفيه .

«أريد أن نقضي اليوم مع وي–وِن» ، قلتُ بجدية .

«ضحك بهدوء» . «وأنا كذلك» .

لكن عينيه لم تقابلا عينيّ .

«لدينا الكثير من الساعات . نستطيعُ أن نفعل الكثير . أودُّ حقاً أن أعلِّمه الأرقام» . قلتُ .

«أمم» . النظرة التي ما تزال مراوغة ، كما لو أنه رضخ ، حتى مع أنني أعرف أنه يفعلُ العكس .

«أنتَ سألتني عما أريد أن أفعل» ، قلتُ . «هذا ما أريده» .

وقف على قدميه ، ثم مشى إليّ ووضع يدَه على كتفي ، ودلَّكه بلطف . مساج مقنع ، يحاول أن يصيب نقطة ضعفي ، كان يعرف أنني حتى لو استطعتُ أن أقاومه لفظياً ، فإنني نادراً ما استطعتُ ذلك جسدياً .

تملصتُ من قبضته بلطف ، لَن يفوز . «كوان . . .» .

لكنه ابتسم لي فحسب ، وأمسكَ يدي . سحبني باتجاه النافذة ، ووقف خلفي بينما ترك يديه تنزلقان من كتفي كل المسافة نزولاً نحوَ يدَيّ .

«انظري إلى الخارج» ، قال بنعومة وشبكَ أصابعه بأصابعي .

حاولتُ أن أتحرر بلطف ، لكنه أمسك بي بقوة . «انظري إلى الخارج» .

«لماذا»؟

ضمني بهدوء إليه ، وفعلتُ كما طلب . كانت الشمس تشرق . كانت تثلج بتلّات بيضاءَ هناك في الخارج . كانت الأرض مغطاة . طافت البتلات في الهواء ، متحوله إلى اللون الأبيض في ضوء الشمس . كانت صفوف أشجار الكمثرى بلا نهاية . أصابتني كمية الأزهار البيضاء بالدوار . كنتُ أراها كل يوم ، كلّ شجرة على حِدة . لكنني لم أكن أراها بالطريقة التي فعلتها اليوم . كلّها معاً .

«أعتقد أن علينا أن نرتدي ملابسنا ونذهبَ إلى البلدة . نلبس ، ونخرج ونحصل على شيء جيد نأكله» . كان صوتُه دمثاً متسامحاً ، كما لو أنه اتخذ قراراً بأن لا يغضَب .

حاولتُ أن أبتسم ، وألتقي به في نصف الطريق ، لم أستطع أن أبدأ هذا اليوم بجدال . «ليسَ البلدة ، أرجوك» .

«ولكن ، هناكَ يوجد الجميع» .

أراد أن ينضمَّ إلى الطابور ، كما فعلنا كل يوم . سحبتُ نفَساً .

«ألا نستطيع أن نفعل شيئاً ما ، نحنُ الثلاثة فقط»؟

رفع زاويتي فمه في محاولة لرسم ابتسامة . «لا فرق لدي . طالما أننا سنخرج» .

التفتُ إلى النافذة مرة أخرى ، نحو الزهور ، البحر الأبيض . لم نكُن وحدنا أبداً في الخارج هناك .

«ربما يمكننا أن نتمشى هناكَ فقط»؟

«هناك؟ إلى الحقول»؟

«هُناك ، في الخارج» ، حاولتُ أن أبتسم ، لكنه لم يرد بابتسامة .

«لا أعرف . . .» .

«سيكون ذلك جميلاً . نحن الثلاثة فقط» .

«لقد اتفقتُ تقريباً على أن ألتقي أحداً . . .» .

«وبذلكَ لا يكون علينا أن نسير كل هذه المسافة الطويلة مع وي-وِن . سيكون جيداً له أن نوفر عليه ذلك ، هذه المرة فقط»؟

وضعتُ يدي على أعلى ذراعه ، في لفتة حنون ، وأحجمتُ عن قول أي شيء إضافي عن الدَّرس . لكنه استطاع أن يرى ما في نفسي .

«والكتُب»؟

«يمكننا أن نأخذ بعضها معنا؟ لا أحتاج أن أفعلَ ذلك طوال اليوم» .

التقت نظراته أخيراً بنظراتي . بدا مستاءاً ، وإنما مع ابتسامة صغيرة .

وليام

وقفتُ بجانب المكتب. كان موضوعاً بجوار النافذة، حيث الضوء أفضل، في المكان الأكثر مناسبة في الغرفة والأكثر مسرَّة قطعاً. لكنني لم أجلس هناك منذ شهور.

استقرَّ كتاب وحيدٌ على الطاولة. هل كان إدموند هو الذي وضعه هناك بينما كنتُ نائماً؟

كانت الأوراق مصفرّة، وقد غطت طبقة رقيقة من الغبار قمته، وبدا ملمس الغطاء الجلدي البُني جافاً وهشاً تحت أصابعي. الآن تعرفتُ إلى العمل، كنتُ قد اشتريته في العاصمة عندما كنتُ طالباً. في ذلك الوقت، ضحيتُ بسرور بوجبة منتصف النهار لمدة أسبوع في مقابل شراء كتاب جديد. لكنني لم أقرأ هذا الكتاب بالتحديد، ربما أكون قد اشتريته قرب نهاية فترتي كطالب. كان من تأليف فرنسوا هوبر، ومنشوراً في إدنبيرغ في العام 1806، قبل نحو 45 عاماً، بعنوان: *مشاهدات جديدة في التاريخ الطبيعي للنحل*.

كان كتاباً عن النحل، عن الخلية، والتكوين الاجتماعي، حيث كل فرد، كل حشرة صغيرة تكون خاضعة للكل الأعظم.

لماذا اختار إدموند هذا الكتاب؟ لماذا هذا الكتابَ بالتحديد؟

تناولتُ نظارتي، ومسحتُ الغبار عنها بقميصي، ثم جلست. كان الشعور بكرسي المكتب على ظهري أشبه بلقاء صديق قديم.

صرّت الأغلفةُ احتجاجاً عندما فتحتُ الكتاب. قلبتُ بحذر صفحةَ العنوان ثم شرعتُ في القراءة.

كنتُ أعرف قصة فرنسوا هوبر من أيام دراستي، لكنني لم أدرس حقاً نظرياته بعمق. كان قد ولد لأسرة سويسرية حسنة الحال في العام 1750. وقد أمَّن الوالد الثروة للعائلة، وعلى العكسِ منه، لم يضطر فرنسوا الصغير إلى العمل، ولكن كانت لدى عائلته توقعات واضحة بأن عليه أن ينغمس في المساعي الفكرية، بحيث يُبرر بهذه الطريقة مكانتَهُ على هذه الأرض. كان عليه أن يبتكر شيئاً، شيئاً يضع اسمه واسم عائلته على كل لسان وشفة؛ كان يفترض به أن يدونهما في كتب التاريخ. وبذل فرنسوا قصارى جهده لإرضاء والده. كان ولداً ذكياً وقرأ الأعمال الصعبة حتى عندما كان صغيراً. كان يستيقظ في الساعات الأولى من الصباح، مختبئاً خلف كومة من الكتب مفرطة السماكة، ويقرأ حتى تحترق عيناه وتفيضان، حتى تشعا من الألم. وأخيراً، أصبح ذلك كثيراً جداً عليه، والضغط كبيراً جداً، ولم تستطع عيناه أن تستوعبا المزيد. لأن الكتب لم تقده إلى حقبة من التنوير، وإنما قادته إلى الظلام الدامس.

عندما بلغ عمره 15 عاماً، أصبح شبه أعمى. وتم إرساله إلى الريف، وقيل له أن يستريح وأن لا يُجهد نفسه، واستطاع أن يساعد ببعض العمل البسيط في المزارع، وهذا كل شيء.

لكن فرنسوا الصغير لم يستطع أن يستريح، لأنه لم يستطع نسيان التوقعات التي كانت قد عُلقت عليه ذات مرة، وكان عقله مصمماً بطريقة جعلته لا يرى عماه كعائق، وإنما كفرصة، لأنه حتى مع أنه لم

يعد يستطيع أن يرى ، فإنه ما يزال يستطيع أن يسمع حوله ، من كل الجهات ، صوتَ الحياة نفسها . الطيور تغني ، والسناجب تثرثر ، والريح تهب عبر الأشجار ، والنحل يطنُّ ويدندن .

وحاز الأخير بالتحديد اهتمامه .

بدأ عملَه العلمي ببطء ، والذي أصبح الأساس للكتاب الأول الذي أحمله بين يديَّ . وبمساعدة قيِّمة من تلميذه المخلص الذي يحمل الاسم نفسه ، فرانسوا بيرنين ، بدأ برسم مخطط لمراحل الحياة المختلفة لنحل العسل .

كان الاكتشاف المهم الأول الذي أحرزاه يتصل بالإخصاب نفسه . لم يسبق وأن فهم أحد في السابق كيف تحمِل الملكة ؛ لم تتم مشاهدة العملية أبداً من قبل ، ولو أن علماء مختلفين في فترات مختلفة كانوا قد أجروا دراسات ملاحظة متحمسة للحياة في الخلية . لكن هوبر وبرنين فهما ما كان مهماً ، لم تكن عملية الإخصاب تحدث هناك في الداخل ، وإنما في الخارج . كانت الملِكات المولودات حديثاً يغادرن الخلية ، ويطرن بعيداً ويكون هناك ، في تلك الرحلات ، حيث يحدُث ذلك . وكانت الملكة تعود ، مليئة بالحيوانات المنوية من الذكور ، وإنما مغطاة أيضاً بأعضائهم التناسلية ، التي تمزقت وانفصلَت عنهم في العملية . أما كيف استطاعت الطبيعة أن تطلُب مثل هذه التضحية الغريبة من ذكر النحل ، فكان سؤالاً لم يجد هوبر جواباً عنه قط . أما أن الطبيعة طالبت في الحقيقة بأعظم تضحية على الإطلاق ، الموت ، فأمرٌ لم يتم اكتشافه حتى وقت لاحق ، وربما لم يفهم هوبر أبداً هذا الأمر بالتحديد أيضاً ، ربما كان ذلك شيئاً يصعب على هوبر الأعمى أن

وليام

يستوعبه ، أنَّ واجب ذكر النحل الوحيد في الحياة كان التناسل ، وأن يموت وهو يفعل ذلك .

لم يدرس هوبر النحل من خلال الملاحظة فقط ، وإنما فعل كل ما يستطيع لتحسين أوضاعه . وعكف على بناء نوع جديد من خلايا النحل .

للعديد من السنوات ، كان اتصال الناس بالنحل مقتصراً على قطاف العسل من الخلايا الطبيعية ، من أقراص العسل هلالية الشكل ، التي يبنيها النحل بنفسه على الأغصان أو في التجاويف . ولكن مع مرور الوقت ، أصبح بعض الناس مهووسين بذهَب النحل حتى أنهم أرادوا أن يربوه مثل الحيوانات الأليفة . وبُذلت محاولات لبناء خلايا نحل فخارية ، وإنما بنجاح قليل ، ثم تم تطوير خلايا النحل المصنوعة من القش ، والتي كانت الأكثر شيوعاً في أوروبا في زمن هوبر . وهي ما تزال سائدة في منطقتي ، مندغمةً كجزء من الحياة البرية في الحقول وعلى جوانب الطرق . لم أكن قد فكرت سابقاً أبداً بهذه الخلايا ، ليسَ قبل الآن ، في اشتباكي مع كتاب هوبر ، لأن فيها عيوبها ونواقصها . كان من الصعب فحص ومراقبة الداخل في خلية القش ، وعندما يحين أوان قطف العسل ، كان يجب أن يُعصر ليخرج من أقراص العسل ، بحيثُ يتم تدمير البيض واليرقات في هذه العملية ، وبحيث لا يكون العسل نقياً . ناهيك عن أنَّ أقراص العسل نفسها ، بيت النحل ، كانت تُدمر .

لقطاف العسل ، كان من الضروري بعبارات أخرى حرمان النحل من أسس بقائه ..

عكَف هوبر على تغيير هذا الوضع . طوَّر خلية من الأسهل قطافُ عسلِها . كانت تنفتح مثل كتاب تشكل فيه كل واحدة من أوراق الكتاب إطاراً لليرقات والعسل : خلية الإطار المتحرك .

درستُ صور خلية هوبر في الكتاب ، والإطارات ، وتصميم الخلايا الجميل بصرياً ، وإنما الأخرق تماماً عملياً . يجب أن يكون من الممكن تطوير هذا أكثر ، والتوصل إلى حل يكون أفضل ، بحيث يمكن القطاف من دون إيذاء النحل وحيث يستطيع المربي أن يتفحص ما يجري بفعالية أكبر ويبقي عينه على الملكة ، واليرقات والإنتاج .

فجأة لاحظتُ أنني أرتجف من الإثارة . كان هذا ما أردته ، كان هذا هو مكمَن شغفي . لم أستطع أن أرفع أنظاري عن الرسومات ، عن النحل . أردت أن أدخل إلى هناك . إلى داخل الخلية!

تاو

«واحد ، اثنان ، ثلاثة - اقفز»!

تعقبنا الأخاديد التي صنعتها الإطارات عبر الحقول . مشى وي-وِن بين كوان وبيني . كان يرتدي وشاحي الأحمر القديم حول عنقه . كان يحبُّه ، وأراد أن يرتديه كل يوم ، لكنَّه سُمح له بذلك فقط عندما لا يستطيع أحدٌ آخر أن يرى . كان قد مُنح لي كجائزة وشارة للتكريم ، وليس للارتداء كلباس . لكنني أحببتُ أنه يرتديه ، ربما يلهمُه ، ويجعله يريد أن يحصل على وشاحٍ خاص به ذات يوم .

كان وي-وِنً يمسِك بيدينا وطلبَ أن نرفعه إلى الأعلى في الهواء في قفزات طويلة إلى الأمام . «أكثر . أكثر» . كان الوشاح يطير إلى أعلى فوق وجهه ، ويكاد يغطيه تقريباً ويخفيه ، وكان هو يدفعه إلى جانب بلا تفكير .

«انظروا»! هتفَ مرة ومرة أخرى وأشار بيده . «انظروا»! الأشجار ، والسماء والزهور . كان الخروج إلى هنا جديداً عليه ، وكانت الحقول بالنسبة لهُ في العادة مكاناً يُشاهد من النافذة ، قبل أن يُجبر على الخروج من الباب ليذهب إلى المدرسة في الوقت المحدد أو يُحمَل إلى السرير في المساء .

كنا سنسيرُ لنصعد تلة ليست بعيدة عن الغابة ونأكلَ هناك . كنا نستطيع أن نراها من منزلنا ، ولم تكن تبعد أكثر من 300 متر ، ولذلك لم تكن هذه مسيرة طويلة لوي-وِن ، وكنا نعرف أننا سنحصل فوقاً من هناك على مشهد رائع لكل من المدينة والحقول . كنا قد حزمنا الأرز

المقلي والشاي وبطانية وعلبة من الخوخ ادخرناها ليوم خاص جداً . ثم سنستخرج عندئذٍ قلماً وورقة ، ونجلسُ في الظل ونعمل . أمِلت أن أتمكن من تعليمه الأعداد حتى العشرة . سوف يكون ذلك أسهل اليوم . كان وي-وِن مستريحاً جيداً . وكذلك كنتُ أنا .

«واحد ، اثنان ، ثلاثة - اقفز»!

رفعناه في الهواء مرة أخرى ، ربما للمرة الخامسة أو السادسة .

«أعلى» ، صاح .

التقَت نظراتنا المهزومة قليلاً فوق رأسه . ثم رفعناه مرة أخرى . ما كان ليتعبَ أبداً من ذلك ، وكنا نعرف هذا . كان في طبيعة الطفل بعمر الثلاث سنوات أن لا يتعب أبداً . وكان معتاداً على تحصيل ما يريد .

«تخيل عندما لا نَعودُ له وحده» ، قلت لكوان .

«سوف يكون ذلك صعباً عليه» ، قال وابتسَم .

كنا قريبين جداً الآن ، على بعد بضعة أشهر أخرى فقط ، وعندئذٍ سيكون لدينا المال الكافي . كل نقودنا الإضافية ذهبت إلى صندوق القصدير المتداعي في الثلاجة . وعندما نثبِتُ وجود كمية كافية من المدخرات ، سوف نتلقى التصريح . كان المطلوب 36.000 يوان ، وكان لدينا الآن 32.000 . كان الأمر ملحاً ، لأننا قريباً سنصبح مُسنّين جداً ، كان حدُّ الأعمار المسموح هو 30 عاماً ، وكنا كلانا بعمر 28 .

وي-وِن سيصبحُ له شقيق . يفترض أن ذلك سيكون صدمة . الاضطرار إلى المشاركة .

حاولتُ أن أفلِتَ يدَه .

«الآن تستطيعُ أن تمشي لوحدِك قليلاً ، يا وي-وِن» .

«لااااا»!

«نعم . قليلاً فقط . إلى تلك الشجرة هناك»! وأشرتُ إلى شجرة على بعد 50 متراً .

«أي واحدة»؟

«تلكَ التي هُناك» .

«لكنها جميعاً نفس الشيء» .

لم أتمكن من منع نفسي عن الابتسام . كان على حق . نظرتُ إلى كوان . ضحِكَ لي ، لم يكن غاضباً لأننا هنا ، لكنه بدا في الحقيقة راضياً بهذا الحلِّ الوسط . كان ، مثلي ، مصمماً على أن يكون هذا اليوم يوماً جيداً .

«احمليني»! قرفَصَ وي-وِن والتصقَ بساقي .

حررتُ نفسي منه .

«انظر ، أمسك يدي» .

لكنه واصلَ النحيب .

«احمليني»!

ثم فجأة كان يطير في الهواء ، بينما رفعَه كوان بسهولة ليستقر على كتفيه .

«انظر ، الآن يمكن أن أكون جَملاً وأنت تستطيعُ أن تكون الراكب» .

«ما هو الجمَل»؟

«سأكونُ حصاناً إذن» .

صهَلَ كوان وضحك وي-وِن . «يجب أن تركض ، يا حصان» .

خطا كوان بضع خطوات، لكنه توقف. «كلا، ليس هذا الحصان. هذا حصان عجوز ومُتعب، ويريدُ أيضاً أن يمشي مع الحصانَةِ ماما».

«الفرس»، قلت. «إنها لا تُدعى الحِصانة ماما. إنها فرس».

«حسناً، الفرس».

واصلَ المشي وهو يحملُ وي-وِن على كتفيه. مدَّ يده إلى يدي ومشينا يداً بيد بضعة أمتار، لكنَّ وي-وِن تأرجح بقوة فوقاً هناك، بحيث سارع كوان ليمسكَ به مرة أخرى. وتمايل جسد وي-وِن كله مع كل خطوة يخطوها، وأبقى رأسه عالياً، ونظر حوله واكتشفَ فجأة أنّه كسِبَ مكانةً جديدة كُليةً.

«أنا الأطول»!

ابتسم لنفسه، سعيداً فقط بقدر ما يعرف طفلٌ في الثالثة كيف يكون.

وصلنا قمة التلة. كانَ المشهد ممتداً أمامنا. صفوف من الأشجار، مستقيمةً كما لو رُسمت بمسطرة، مزهرةً، أشبه بكرات قطن متماثلة على خلفية التربة البنية، حيث شرع العشب توّاً بالنَّبت من خلال أوراق أشجار العام الفائت المتعفنة.

تمدَّدت الغابة الواسعة الظليلة على بعد مائة متر فقط. قاتمةً ومفرطةَ النمو. لم يكن أيُّ شيء لنا هناك، وهذه الأماكن أيضاً سوف تُزرع الآن.

استدرتُ. إلى الشَّمال، كانت أشجار الفاكهة ممتدّة من هنا إلى الأفق. خطوط طويلة مزروعة، شجرة بعد شجرة بعد شجرة. كنت قد قرأت عن رحلات يقوم بها الناس، في الأوقات الخوالي، السُّياح. كانوا يسافرون ليروا مناطق كهذه في الربيع، ويقومون بالرحلة فقط ليروا أشجار

الفاكهة المزهرة . هل كان ذلكَ جميلاً؟ لا أعرف . كان العمل . كل شجرة مفردة كانت عشرات الساعات من العمل . لم أستطع أن أنظر إليها من دون التفكير بأنها ستصبح قريباً مليئة بالفاكهة وسيكونُ علينا أن نتسلقها مرة أخرى . وسوف نقطف بالأيدي بنفس الانتباه مثلما فعلنا عند التلقيح ، ونلفُّ كل حبة كمثرى في ورقة بعناية فائقة ، كما لو أنها مصنوعة من الذهب . كمّاً هائلاً من الكمثرى ، والأشجار ، والساعات ، والسنين .

ولكن ، لا بأس ، إننا في الخارج هنا اليوم . لأنني أردتُ أن نكون .

فرش كوان البطانية على الأرض . وأخرجنا عُلب الطعام . أكل وي–وِن بسرعة وأراقَ طعامه . كان دائماً في عجلة من أمره في أوقات الوجبات ، وظنَّ أن الطعام ممل ، كان انتقائياً صعب الإرضاء ، ويأكل القليل ، حتى مع أننا كنا نجلس دائماً هناك منتظرين بحصصنا ، جاهزين لإعطائه المزيد إذا ما أراد .

لكننا عندما فتحنا علبة الخوخ ، هدأ ، ربما لأننا كنا هادئَين أنا وكوان . وضعناها بيننا . أصدَر مفتاح العلب صوت كشط على المعدن بينما يلويه كوان حول العلبة . طوى الغطاء إلى جانب ونظرنا في الفاكهة الصفراء . كانت رائحتها عذبة . استخرجتُ خوخة بعناية بالشوكة ووضعتها في طبق وي–وِن .

«ما هذا»؟ سأل .

«خوخة» ، قلتُ .

«لا أحبُّ الخوخ» .

«لن تعرف ذلك حتى تذوقه» .

انحنى على الطبق وغمس لسانه فيه ، وتذوق النكهة لوهلة . ابتسم . ثم التقطها مثل كلب جائع ، وذهبت الخوخة كاملة في فمه دفعة واحدة ، وسال العصير من زوايا فمه .

«أهناكَ المزيد»؟ سأل ، وما يزال فمه ممتلئاً .

أريتُهُ العُلبة . كانت فارغة . واحدة لكل منا ، وهذا كل شيء .

«لكنكَ تستطيعُ أن تأخذَ حبتي أيضاً» ، قلت ومررت الخوخة إليه .

رمقني كوان بنظرة مهزومة . «إنك تحتاجينَ حصتك من فيتامين سي أيضاً» ، قال بلطف .

هززتُ كتفي . «إنه يجعلني أريد أكثر فقط . تماماً كما لو أنني لا آخذ شيئاً» .

ابتسم كوان لي . «حسناً» . ثم جعل هو أيضاً خوخته تنزلق إلى طبق وي-وِن .

في دقيقتين فقط ، كان وي-وِن قد أكلها كلها . وقفَ على قدميه ثانية ، وأراد أن يتسلق الأشجار . وكان علينا أن نوقفه .

«الأغصان قد تنكسر» .

«أريدُ ذلك»!

فتحتُ الحقيبة باحثةً عن القلم والورقة .

«أظن أننا نستطيع بدلاً من ذلك أن نجلسَ هنا ونلعبَ بالحساب قليلاً» .

قلَب كوان عينيه ، ولم يبدُ أنَّ وي-وِن سمعَ ما قلت .

«انظروا! قارِب» . كان يُمسك بعصا .

«هذا رائع» ، قال كوان . «وهناك بحيرة» . وأشار في اتجاه بركةٍ من الطين على بعد مسافة قصيرة .

«نعم»! قال وي-وِن وولى هارباً .

أعدتُ القلم والورقة إلى الحقيبة دون أن أقول شيئاً ، وأدرتُ ظهري لكوان . عبث بشعري وأفسدَ ترتيبه . «اليوم طويل» .

«لقد انتهى نصفه تقريباً» .

«تعالي إلى هنا» ، سحبني إلى أسفل إلى البطانية . «فكري بكم هو رائع الاستلقاء هنا فقط هكذا . الاسترخاء» .

ابتسمتُ رغماً عني . «حسناً . . .» .

أخذ يدي وشد عليها . شددتُ على يده بدوري . وهو شد أيضاً . ضحكنا كلانا . لم يكن الخلاف المعتاد موجوداً في أي مكان .

انقلبتُ على ظهري . وتمددتُ تماماً ، دون أي خوف من أن يأتي أحد ما ويأمرني بإنهاء الاستراحة . أعماني ضوء الشمس . أغلقتُ إحدى عينيّ ، وفقد العالَم عُمقه . امتزجت السماء الزرقاء المشرقة بالأزهار البيضاء على الأشجار فوقَنا . أصبحَت السطح نفسَه . استرقت الشمس النظر من بين كل بتلّة . وإذا نظرتُ إليها طويلاً بما يكفي ، كانت الأمامية والخلفية تتبادلان الأماكن . كما لو أن السماء غلالة زرقاء مشبوكة مثقّبة على ستارة بيضاء .

أغلقت عينيّ كلتيهما . استطعتُ أن أشعر بيد كوان تستريح في يدي ، هادئة تماماً . كان يمكن أن نتحدث . كان يمكن أن نمارس الحب . لكن أياً منا لم يرِد أن يفعل أي شيء سوى الاستلقاء على هذا

النحو . في الأسفل عند بركة الوحل استطعنا أن نسمع وي–وِن يطرطق ، كان القارب يجيء ويغدو .

بعد فترة ترتب علي أن أغيِّر وضعي . كانت عظام أكتافي تحفر في الأرض . شرع أسفل ظهري يؤلمني قليلاً . انقلبتُ على جانب وأسندتُ رأسي على ذراعي . كان كوان قد أغفى بطبيعة الحال ، وكان يشخر شخيراً طفيفاً . ربما يستطيع أن ينام أسبوعاً كاملاً ، إذا أُعطيَ الفرصة . كان دائماً نحيلاً جداً ، وشاحباً جداً ، وكان جسمه يعمل كل الوقت على عجز . كان يحصل على نوم أقل مما يحتاج ، وطعام أقل مما يستهلكه تمثيله الغذائي . مع ذلك ، أبقى نفسه مستمراً ، عمل أياماً أطول مما فعلتُ ، لكنه لم يكن أبداً غير راضٍ . نادراً ما اشتكى .

لكَم كانَ الهدوء غامراً هناك . . . بلا عاملاتٍ حولي ، كان الهدوء حتى أكثَرَ وضوحاً . حتى قيادة وي–وِن للقارب توقفت . لا ريح بين الأشجار . فقط صوتُ الغياب ، والفراغ .

جلستُ . أين أنا؟ استدرتُ نحو بركة الوحل . استلقت هناكَ وحيدة في ضوء الشمس . والتمع الماء الموحل البني .

وقفتُ .

«وي–وِن»؟

لم يُجب أحد .

«وي–وِن ، أينَ أنت»؟

لم يستطع صوتي أن يصل أكثر من بضعة أمتار ، وابتلعَه الصمت .

مشيتُ بضع خطوات بعيداً عن البطانية ، حتى أحصل على رؤية كاملة للمشهد .

لم يكُن في أيٍّ مكان تمكن رؤيته .

«وي-ون»؟

استيقظَ كوان على صراخي ، وقف على قدميه وبدأ يمسح المشهد هو الآخر .

«هل تستطيعُ أن تراه»؟

هز رأسه .

كان عندئذٍ فقط حين ضربتني الدهشة من كَم هي المنطقة واسعةٌ بلا انتهاء . من أن كلّ شيء بدا متشابهاً . حقلٌ بعد حقل من أشجار الكمثرى . وليس هناك شيء آخر يمكن الاستدلال به فيها سوى الشمس والغابة . وطفل بعمر ثلاث سنوات وحدَه هناك . . .

أسرعنا هابطين إلى البركة . تمدَّدت العصا متمايلة على سطح الماء .

«إذا مشيتِ أنتِ إلى هناك ، سأذهبُ أنا من هناك»؟ كان صوتُ كوان في الحقيقة غير مُستثار .

هززتُ رأسي .

«ربما تجول مبتعداً إلى مكان ما دون تفكير» ، قال كوان . «لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيراً» .

أسرعتُ عبر الحقل ، أخبُّ في الأرض غير المستوية ، على طول الأخاديد التي صنعتها الإطارات باتجاه الشمال . نعم ، لا بد أن يكون قد مشى مبتعداً . ربما عثر على شيء أو آخرَ مثيرٍ حتى أنه لم يلاحظنا ونحن ننادي .

«وي-وِن؟ وي-وِن»؟

ربما كان محظوظاً جداً ووجدَ حيواناً صغيراً ، حشرة . أو ربما جذع شجرة بدا مثل تنّين . شيئاً أوقفه ، وجعله يدخل في أحلام اليقظة ، وينسى كل شيء حوله ، ويتعلم شيئاً . دودة أرض . عش طير . عش نمل .

«وي-وِن؟ أين أنت؟ وي-وِن»؟

حاولتُ أن أبقي صوتي هادئاً ومرِحاً ، لكنني سمِعتُ كم بدا حاداً وواخِزاً .

في البُعد ، استطعتُ أن أسمع نداءات كوان . «وي-وِن؟ هلَو»؟

كان صوتُه هادئاً . ليسَ كصوتي . تشبثتُ به . حاولتُ أن أنادي بالهدوء نفسه . إنه هنا . طبعاً إنه هنا . كانَ يجلسُ ويلعب وضاع في عالمه الخاص .

«وي-وِن»؟

أحرقَت الشمس ظهري .

«وي-وِن؟ يا صغير»؟

بدا كما لو أن درجة الحرارة ارتفعت بشكل كبير .

«وي-وِن! أجبني يا حبيبي»!

صوت أنفاسي . كان غير منتظم . خشناً . استدرتُ واكتشفت أنني ركضتُ عدة مئات من الأمتار بعيداً عن التلة . من المستحيل أن يكون قد ابتعد هذه المسافة . بدأتُ في الركض عائدة ، لكنني غيرت المسار ، وتحركت بالتوازي مع أخدود الإطارات الذي كان على بعد أمتار قليلة .

تذكرتُ أنه يرتدي الوشاح الأحمر . كان وي-وِن يرتدي الوشاح الأحمر . يجب أن تكون رؤيته سهلة . بين الأرض البنية ، والعشب الأخضر والبراعم البيضاء ، يجب أن يبرز الوشاح بقوة .

«تاو! تاو! تعالي إلى هنا»! صوتُ كوان. غير مألوف وحاد.

«هل وجدتَه»؟

«تعالي إلى هنا»!

غيرتُ اتجاهي وركضتُ نحوه. شيءٌ ما كان يضغط على حنجرتي، مع كل نفَس أسحبه أصبح التنفس أكثر صعوبة، كما لو أن الهواء لم يصل إلى رئتيّ.

لمحتُ كوان بين الأشجار. ركض في اتجاهي من الغابة. وانداحت الغابة هائلة ومظلمة خلفه. هل جاء من هناك؟ هل اختفى وي-وِن في الداخل هناك؟

«أهناك شيء خطأ؟ هل حدث شيء»؟ شق صوتي طريقه خارجاً بجهد، مخنوقاً، متوتراً.

واستطعتُ أن أراه جيداً. ركضَ كوان في اتجاهي، وجهُه متجمد، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما. كان يحمل شيئاً في ذراعيه.

الوشاح الأحمر.

فردة حذاء واحدة تخفق بالتزامن مع خطواته وهو يركض، ورأس طفل أسود متدلٍ من بين ذراعيه.

جريتُ إلى كوان.

أفلت مني صوت ضعيف، أطلقتُ صرخة خامدة.

لأنَّ وي-وِن كان يناضل من أجل التنفس. كان وجهه أبيض تحت شعره الأسود. والعينان نظرتا إليَّ، تتوسلان المساعدة. هل انكسرَ فيه شيء؟ هل جُرح؟ هل ينزف؟ كلا.

بدا كما لو أنه مشلول .

قال كوان شيئاً ،لكنني لم أسمع الكلمات ، رأيتُ شفتيه تتحركان ، ولكن لم يصلني أيُّ صوت .

لم يتوقف كوان ، وإنما استمر في الركض .

صرختُ بشيء ما . *الأشياء . أشياؤنا!* كما لو أنها مُهمة . لكن كوان لم يتوقف . ركضَ فقط وهو يحمل وي-وِن في ذراعيه .

تبعتُه . تبعتُه هو والطفل إلى المنازل ، نحو المساعدَة .

الحذاء يخفق . والريح تمسك بالوشاح الأحمر .

ركضنا كل الطريق إلى المدينة . أبقيتُ عينيّ على طفلي ، على وي-وِن ، كانت عيناه واسعتين وخائفتين . لكنني لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى الركض .

ناديتُ اسمَه مرة بعد مرة .

لكنّه لم يعُد يُصدر الآن أي رد فعل .

قلّت المقاومة في جسدِه . كم كانت المسافة التي قطعناها؟ هل كانت فعلاً طويلة هكذا؟

أخيراً ظهر أولُ البيوت في المشهد أمامنا . لكننا أتينا من الجهة الأخرى ، من الجهة المقابلة للمدخل . كانت طريق المرآب مألوفة تماماً حتى أننا لم نلاحظ الفرق .

صمْت . أين ذهبَ الجميع؟

أخيراً رأينا شخصاً . امرأة مُسنة . في طريقها إلى الخروج . كانت بملابس الخروج . لاحظتُ ذلك . كانت تلك المرأة تضع أحمر الشفاه

وترتدي فستاناً . «توقفي» ، صرخ كوان . «توقفي ، النجدة ، ساعدينا» . بدَت المرأة مرتبكة . ثم اكتشفَت الطفل .

وصلت سيارة إسعاف في بضع دقائق . وبينما جاءوا يقودون تصاعدَ الغبار ملتفاً من الطريق الجافّ واستقر في شعر وي-وِن ، وعلى حذائه ، وفي رموش عينيه . جاء أفراد يرتدون ملابس بيضاء يركضون . رفعوه بحذر من ذراعي كوان وأخذوه معهم . تدلت ذراعه بارتخاء ، هاربةً من قبضة واحد من الأشخاص في الملابس البيضاء . كان ذلك آخر شيء رأيناه . قادونا أنا وكوان إلى السيارة ، ولكن ليس في الخلف معه ، وضعونا في الأمام . ذكّرنا أحد ما بربط أحزمة الأمان .

أحزمة الأمان . لماذا نحتاج إليها؟

•

جورج

استيقظتُ قبل ساعة و 22 دقيقة من انطلاق جرس المنبه . كانت أغطية الفراش عرِقة . ألقيتُ عني اللحاف ، لكنني عرفت أن من المستحيل أن أغفو مرة أخرى . كان ذلك يوم مراقبة جودة الخلايا ، الفحص الأول بعد الشتاء . كثيراً ما كنتُ أنام بشكل سيئ قبل هذا اليوم ، كان ذهني يهيمُ بعيداً إلى داخل الخلايا . شمع العسل ، الألواح واليرقات اعتقلَت أفكاري . لم تكن لدي أي فكرة عما سأجده عندما أفتحها ، وكنت قد خبرت موتاً شتائياً لما يقرب من 50 في المائة . وذلك الشعور ، عندما تكتشف أنه ليس هناك يرقات ولا ملكات نحل في نحو نصف الخلايا ، مريع . لكن هذا الشتاء كان طبيعياً ، ولا شيء يستحق الذكر هناك . لم يكن بارداً أو دافئاً بشكل خاص ، وما من سبب ليكون أيُّ شيء خارجاً عن المألوف .

مع ذلك ، كنتُ أرتجف وأنا أقفُ في انتظار ريك وجيمي . طلبتُ منهما الحضور إلى هنا قبل الساعة 7:30 . أردتُ فقط أن نبدأ . كنتُ لأفضل لو بدأتُ مسبقاً ، لكنه شيءٌ اعتدناه بطريقة ما نحن الثلاثة ، أن نبدأ هذا اليوم الأول من مراقبة الجودة بالالتقاء هنا في الفناء ، حيث تقال الأشياء المناسبة ، ويتم شرب الأشياء المناسبة .

وصل ريك أولاً ، كما هو الحال دائماً . كان طويلاً ونحيلاً ، ليس بشكل جميل ، وإنما متناسب مع ذلك ، وبدا شبيهاً قليلاً بجيمس ستيورات ، وإنما من دون ذلك الوجه الذي يحمل ملامح المنتصر . أنف

طويل حاد ، وعينان غائصتان عميقاً في جمجمته ، وشعر خفيف ، على الرغم من أنه لم يصل حتى إلى عمر 30 عاماً . ناضل هابطاً من السيارة . كان ريك دائماً يتحرك عشر مرات أكثر مما يحتاج إلى أن يفعل في الحقيقة ، بغض النظر عما يقوم به ، وكان جسده كله منظماً بشكل سيء . لكنه كان شغوفاً . تلقى دورةً زراعيةً عن طريق البريد ، وقرأ كثيراً ، كُلَّ الوقت . مهما يكن ما نحن بصدد عمله ، كان ريك يعطينا خلفية عنه . عن التاريخ . والنظريات . كان ذلك أشبه بإسقاط قطعة نقدية في آلة . كان الرجل راوية حكايات مؤتَمن . حلُم بامتلاك مزرعة خاصة به ، ولكن والحق يقال ، كان يجب أن يحلم بالجلوس وراء مكتب واستخدام دماغه .

وقفَ هناك يؤرجح ذراعيه ؛ كالعادة ، لم يستطع أن يقف ساكناً .

«إذن . . .» ، قال .

«إذن» ، قلتُ أنا .

«نعم . . . هل لديكَ أي أفكار عن كيف هي الأمور»؟

«كلا . . . جيدة؟ بخير . لا سبب للتفكير بخلاف ذلك» .

«كلا . . . لا سبب» .

غضّن جبهته ، ومسحَ على شعره الخفيف . « . . . حسناً» . كان يحك رأسه بكلتا يديه الآن ، حتى أنك تظن أنه مقمّل . «إنكَ لا تعرف أبداً» .

«كلا . إنكَ لا تعرف أبداً . ولكن مع الشتاء الماضي . . .» .

«نعم ، بوضوح . . .» .

«نعم» .

«ولكن، عندئذٍ كانت هناك تلك الاختفاءات».
«آه، تلك».
تصرفتُ كما لو أنني لم أفكر في الموضوع. لكنني كنتُ قد فعلتُ بطبيعة الحال، أبقيتُ نفسي على عِلم. حتى صحيفة *تايمز تريبيون* ذكرت تلك الانهيارات الغامضة في المستعمرات التي عانى منها مربو النحل هناكَ في الجنوب. في نوفمبر، أبلغ شخص في فلوريدا عن خلايا نحل أصبحَت فارغة فجأة. كان اسمه ديفيد هاكينبيرغ. وفجأة أصبح الجميع يتحدثون عما حدث في مزارعهم. ومنذ ذلك الحين، استمرت الأخبارُ والتقارير في القدوم كل الوقت من فلوريدا، وكاليفورنيا، وأوكلاهوما وتكساس.
كانت القصة ذاتها في كل مرة. خلايا معافاة في لحظة، طعام كافٍ، يرقات، وكلُّ شيء على ما يُرام تماماً. ثم، في مسألة أيام فقط، في غضون ساعات، تصبح الخلية فارغة. النحلاتُ تختفي، هاجرة يرقاتها نفسها، تاركةً كل شيء. ولا تعود إليها أبداً.
النحل حيوانات نظيفة. إنها تطير بعيداً لتموت، ولا تنتظر أن تترُك بقاياها وراءها لتلوث الخلية. ربما كان ذلك ما فعلته. لكن الملكة بقيت دائماً مع مجموعة صغيرة من النحل الصغير. النحلات العاملة تركت الأمَّ وصغارها، تركتهم ليموتوا وحدهم في الخلية. كان ذلك مخالفاً لقوانين الطبيعة.
لا أحد عرف لماذا حدَث ذلك حقاً. عند أول مرة سمعت عن الأمر، ظننتُ أنه بسبب سوء تربية النحل. أنَّ هذا الهاكلينبيرغ لم يبذل العناية المناسبة لنحلِه. وقد التقيت بالعديد من المربين على مر

السنين ممن يلقون اللوم على آخرين عندما يكونون هم الذين يستحقون اللوم حقاً . السكّر قليل جداً ، الدفءُ كثير جداً ، البرد كثير . لم تكن بالضبط فيزياء الكمّ هي التي نعمل بها . ولكن بعد فترة ، أصبحت هناك الكثير جداً من القصص ، متشابهة جداً ومفاجئة جداً . كان هذا شيئاً آخر .

«ذلك فقط في الجنوب» ، قلتُ .

«نعم . إنهم يُجرون عمليات تربية أكثر كثافة هناك» ، قال ريك .

في تلك اللحظة ، تدحرجَت شاحنة جيمي الخضراء داخلةً الفناء . خرج من الشاحنة بابتسامة كبيرة . بينما كان ريك قلِقاً ، ويفكر كثيراً ، كان جيمي ذلك النقيض البسيط المبتهج . لا حركة واحدة أكثر من اللازم ، ولا دورة واحدة للعجلات في دماغه لم تكن ضرورية بالتأكيد . لكنه عمِل بجدّ ؛ وكان عليك أن تعترف له بذلك .

كان ما يفتقر إليه جيمي في الداخل يعوِّض عنه في الخارج . كان وسيماً على طريقة طلاب المدرسة الثانوية . أشقر ، بغرة كثيفة ، وذقن مشقوقة ، وأفكاك قوية ، وكله بالمقادير الصحيحة . كان ينبغي أن يرتدي زي كرة القدم على مدار الساعة . كان يعتني جيداً بمظهره أيضاً . دائماً بملابس مكوية ومرتبة . لكنه لم يكن من الواضح لمن يرتب نفسه ، لم تكن هناك أي امرأة أبداً في الصورة .

كان يحمل في يده سخاناً . واحداً جديداً للمناسبة . لاحظتُ ذلك . وقد عكَس معدن الترمس اللامع ضوء الشمس لثانية ، وأعماني للحظات ، إلى أن حملَه بزاوية أخرى .

أخرج كلٌّ منا كوبه . كان جيمي قد أحضرها قبل بضع سنوات . أكواب صياد صغيرة خضراء من المحل الخارجي في سوق «كيه-مارت» ،

والتي يمكن ضغطها وطيها لتصبح مسطحة . ضغطنا أنا وريك الأكواب لنفتحها في اللحظة نفسها ومددناها لجيمي . ومن دون كلمة فتح الترمس .

«حبوب قهوة طازجة» ، قال وسكَب .

كنتُ الأول .

«كولومبيا ، بنكهة حبات بنٍّ سوداء محمصة» .

كان يمكن أن تكون من نوع القهوة سريعة التحضير بدلاً من ذلك ، ولم أكن لأهتم . القهوة هي القهوة . ولكن ، بالنسبة لجيمي ، ربما كانت القهوة هي أكبر اقتراب له من الفن . كان يشتري حبوب البن على الإنترنت . ويجب أن تكون طازجة ، في رأيه ، ويبدو أن القهوة المطحونة سلفاً تُعتبر من عمل الشيطان . ثم يجب أن تُقطَّر القهوة بدرجة الحرارة الصحيحة . كانت درجة الحرارة المناسبة هي «الألف والياء» . ولتحقيق ذلك ، استثمر في شراء ماكينة قهوة أوروبية ، آلة بالتنقيط علقت في الجمارك لأسابيع قبل أن يستطيع أخيراً جلبها إلى البيت .

رفعنا الأكواب الثلاثة وقرعناها معاً . تصادم البلاستيك الطري بلا صوت تقريباً . ثم أخذ كل منا رشفة .

عندئذٍ ، جاءت اللحظة التي ينبغي أن نمتدح فيها القهوة ، ونقولَ عنها شيئاً ذكياً . كان ذلك جزءاً من الروتين . ومن أجل المظاهر قرفصتُ ، وأنا أُديرُ القهوة في فمي ، مثل خبير نبيذٍ ما .

« . . . غنية . . . . مليئة» .

«أمم» ، قال ريك . «أستطيع تذوق طعمِ التحميص ، نعم» .

هز جيمي رأسه باقتناع . ونظر إلينا بترقب ، مثل طفل في الرابع من يوليو . منتظراً المزيد .

«نعم سيدي ، لا شيء مثل القهوة عندما لا تكون فورية» ، قلتُ .

«أفضل قهوة هذا العام» ، قال ريك .

مرة أخرى هزَّ جيمي رأسه . «فقط اشترِ لنفسك مطحنة وتأكد من الحصول على حبوب بنٍّ جيدة . حتى أنتما تستطيعان أن تصنعاها في البيت» .

دائماً كان يقول ذلك ، وكان يعرف جيداً أننا لن نقوم أبداً بجر مطحنة قهوة فوق عتبات بيوتنا . في البيت كانت إيما هي التي تُعِد القهوة . وكانت تفضل القهوة المجففة المجمدة . وفي الفترة الأخيرة حاولَت مع نوع ممل وباهت مثل ماء جلي الأواني ، والذي تضيف إليه الحليب المجفَّف والسكر ، لكنني تمسكت بالقهوة السوداء .

«هل تعرفون أن أول إشارة إلى القهوة جاءت في قصة عمرها 1500 سنة من أثيوبيا»؟ قال ريك .

«لا تمزح ، لا تقُل ذلك» ، قال جيمي .

«هذا صحيح ، كالدي الراعي . اكتشف أن الأغنام تتصرف بشكل غريب بعد أن تأكل نوعاً من التوت الأحمر . لم تكن تستطيع أن تنام . وأخبرَ راهباً عن ذلك» .

«هل كان هناك رهبان في أثيوبيا قبل 1500 سنة»؟ قلتُ .

«نعم»؟

نظر إليّ بارتباك ، بنظرة مترددة قليلاً .

لوَّح جيمي بيديهِ من الهوامش . «بالطبع كان هناك رهبان» .

«لم يكونوا مسيحيين بالضبط؟ أعني . . . إثيوبيا ، أليسَ ذلك في أفريقيا ، في ذلك الوقت . . .»؟

«بغض النظر . اهتمَّ الراهب بالأمر . كان يناضل ليظل مستيقظاً خلال صلواته ، ولذلك أخذ يصبُّ الآن الماء الساخن على حبات التوت ويشربها . لاحِظوا! قهوة» .

هز جيمي رأسه برضا . لقد أجرى ريك بعض البحث ، وكان ذلك تشريفاً لقهوته .

شربنا . وسرعان ما بردت القهوة في هواء الربيع . كانت الرشفة الأولى مُرة وفاترة . ثم اتجه كل منا إلى سيارته وقادها في اتجاه خلايا النحل .

كانَ عندما وضعتُ يدي على عجلة القيادة حين لاحظت كم كنتُ متعرقاً . التصقت راحتاي بجِلد المقود ، وكان عليّ أن أجففهما على بنطال العمل الذي أرتديه ، حتى أستطيع أن أمسك جيداً بالمقود ، بينما التصق قميصي بظهري أيضاً . لم أكن أعرفُ ما هو آتٍ . كنتُ أخشاه .

كانت المسافة مجرد بضع مئات من الياردات على طريق ترابية وعرة ، وقد اهتزت السيارة مع يديَّ ، ثم وصلنا إلى المرج بجانب نهر ألاباست .

خرجتُ من السيارة ، واضعاً يديّ خلف ظهري لإخفاء الارتجاف . كان ريك يقف هناك مُسبقاً ، متقافزاً بعض الشيء . أراد أن نبدأ . وكان جيمي خارج سيارته أيضاً . وصوَّب أنفه نحو الشمس ، يتشمم .

«لكم هو الطقس دافئ»! أغلق عينيه، وبدا أنه لم يكن يخطط للتحرك بوصة واحدة، وخاصة للبدء في المهمة التي لدينا.

«دافئ بما يكفي». مشيتُ بسرعة في اتجاه الخلايا. كان من المهم أن أضربَ مثالاً. «ربما نستطيع أن نبدأ أيضاً».

تفقدتُ لوح الطيران، ومدخلَ الخلية الأولى المطلية بالأخضر الفستقي. اشتبك اللون بشكل صارخ مع العشب النابت من الأرض تحته. كان اللوح مليئاً بالنحل، كما يُفترض فيه أن يكون. رفعتُ الغطاء. نزعتُ القماشة في الأعلى. توقعتُ الأسوأ، لكن كل شيء كان على ما يرام في الأسفل هناك. لم أر الملِكة، لكنني وجدت الكثير من البيض هناك، ويرقات من جميع المراحل. ستة إطارات ممتلئة. تستطيع هذه الخلية أن تبقى كما هي. كان ثمة ما يكفي من الحياة هناك بحيث لا حاجة إلى جمعها بواحدة أخرى.

استدرتُ لأواجه جيمي. أومأ برأسه في اتجاه الخلية التي كان قد فتحها.

«كلُّ شيء على ما يرام هنا».

«وهنا أيضاً»، قال ريك.

انتقلنا إلى الخلايا التالية.

بينما كانت الشمسُ تضرب والخلية تلو الخلية تُفتح ويتم التحقق منها، استطعتُ أن أشعر بكيف أخذَ جسمي يجف، بطريقة جيدة. أصبحَت يداي جافتين ودافئتين، وفصَل قميصي نفسَه عن ظهري. في بعض الأماكن كانت هناك مشكلات بطبيعة الحال. كان ينبغي الجمع بين بعض خلايا النحل، وفي بعض الأماكن لم نجد ملِكة. ولكن، لا

شيءَ خارج المألوف . بدا كما لو أن الشتاء كان رفيقاً بها . كما لو أن الرائحة الكريهة الناجمة عن الإبادة الجماعية أبعدَ إلى الجنوب لم تصل إلى هنا . كان هذا مناسباً فحسب . لقد تلقّت الخلايا عناية جيدة . لم يكن بها عوَز لأي شيء .

تجمعنا لتناول الغداء . جلسنا على كراسي الحديقة الصدئة وتناولنا شطائر مبللة بالعرق في الشمس . وكنا نحن الثلاثة ، لسبب أو لآخر ، صامتين صمتَ القبور . حتى لم يعد ريكي يقوى على ضبط نفسه بعد .

«هل سمعتُم عن كيوبيد والنحل»؟

لم يُجب أيٌّ منا . مجرد قصة أخرى . لم نشعُر أننا في حاجة كبيرة إليها ، كما لاحظتُ .

«هل سمعتُم بها»؟ سأل مرة أخرى .

«كلا» ، قلت . «إنك تعرف جيداً أننا لم نسمع عن كيوبيد والنحل» . قال جيمي ساخراً .

«كان كيوبيد نوعاً من إله الحب» ، قال ريك . «وفقاً للرومان القدماء» .

«الرجل صاحبُ السهام» ، قلت .

«ييه ، هذا هو . ابن فينوس . كان يبدو مثل طفل كبير يتجول بقوس وسهام . وعندما تضرب السهام الناس ، فإن العاطفة تستيقظ» .

«مقرف ، ألا يبدو إله الحب الذي يبدو مثل طفل شيئاً منحرفاً قليلاً»؟ قال جيمي .

ضحكتُ ، لكن ريك نظر إلي نظرة قذرة .

«هل تعرفُ أنه كان يغمس السهام بالعسل»؟
«لا أستطيع أن أقولَ أنني أعرف ، كلا» .
«أنا لم أسمع حتى بكيوبيد نفسه» ، قال جيمي . «قبل الآن» .
«نعم في الحقيقة ، كان يغمسُها في العسل ، الذي يسرقه» ، قال ريك وشد جسده بحيث أصدر المقعد زعيقاً .
كان يجب أن نطلق ضحكات مكتومة بسبب الضوضاء العالية . وإنما ليس ريك . أراد أن يواصل .
«وهكذا ، تجوَّل ذلك الطفل وسرق العسل من النحل . أخذ خلايا كاملة . حتى حدث ذات يوم . . .» . وتوقف بطريقة درامية . «حتى ضاقت النحلات ذرعاً ذات يوم وهاجمته» . ترك الكلمات تتعلق في الهواء . «وكان كيوبيد واضحاً وعارياً ، بطبيعة الحال ، كما هو حالُ الآلهة في تلك الأيام . وقد أصابته اللسعاتُ في كل مكان . أعني كلَّ مكان» .
«لقد استحقَّ ذلكَ بطريقة ما» ، قلتُ .
«ربما كذلك ، ولكن تذكَّر أنه كان مجرد ولد صغير . ركضَ إلى أمه ، فينوس ، لتعزيه . صرخ وكان مندهشاً من أن شيئاً صغيراً مثل النحلة يمكن أن يسببَ له الكثير من الألم . ولكن ، أتظنون أن أمه عزّته؟ كلا . لقد ضحكَت فقط» .
«ضحكَت»؟ قلت .
«نعم ، - أنت صغيرٌ أيضاً» ، قالت . «لكنِ سهامك يمكن أن توقع أيضاً ألماً أكبر من لسعةِ النحلة» .
«واو ، » قلت . «ثم ماذا؟ ما الذي حدث»؟

«فقط . لا شيءَ أكثر» ، قال ريك .

حدقنا أنا وجيمي فيه .

«كانت هذه كل القصة»؟ قال جيمي .

هز ريك كتفيه . «نعم . ولكن الكثير من اللوحات رُسمت عنها . فينوس تقف هناك فقط . جميلة ، منتصبة ، ببشرة خزفية وبتقاطيع الجسد الرائعة . وهي عارية أيضاً . وطفلها يقف إلى جانبها ويبكي ، بألواح شمع العسل في يديه ، بينما النحل يلسعه» .

ارتجفتُ .

«يا لها من أم» ، قال جيمي .

«يمكنك أن تقول هذا أيضاً» ، قال ريك .

أخيراً حلَّ الصمت مرة أخرى . طرفتُ بعينيّ ، محاولاً إخراج صورة الطفل الباكي ، متورماً من لسعاتِ النحل ، من رأسي .

دفأَت الشمس رقبتي . كان ذلك ما تسميه إيما باليوم الجميل . حاولتُ أن أشعر بالضبط بكم هو جميل . كم كان ذلك عظيماً ، أن تشرقَ الشمس على هذا النحو . لأن الشمس تعني العسل . بدا أنها ستكون سنة جيدة . وتعني السنة الجيدة بعض النقود في المصرف . والنقود في المصرف تعني إمكانية استثمارها في المزرعة . هكذا يجب أن تكون الأمور . من يحتاج إلى فلوريدا على أي حال؟ سوف أقولُ لها ذلك هذا المساء : من يحتاجُ إلى فلوريدا على أيِّ حال؟

تاو

كان الوقت ليلاً ، لكننا لم نكُن نائمَين . بالطبع لم نكن نائمَين .

اعتقدنا أننا نتجهُ إلى المستشفى المحلي الصغير في بلدتنا ، لكنهم أرسلونا بدلاً من ذلك إلى المستشفى الكبير في شيرونغ . كان يغطي حاجات المقاطعة كلها . لم يقل لنا أحد لماذا تم إرسالنا إلى هناك . غيَّرت سيارة الإسعاف التي بلا سائق الاتجاه عندما كنا في منتصف الطريق إلى هناك . وبما أننا كنا نجلس في الأمام ، لم يكن هناك أحد يمكن أن نسأله .

وضعونا في غرفة للمرافقين . من وقت إلى آخر سمعنا أناساً يمرون في الممر المجاور ، لكنهم لم يفتحوا الباب أبداً ، وبدا أننا سنحتفظ بالغرفة لأنفسنا فقط .

وقفتُ بجوار النافذة . كنا نطلُّ على منطقة وصول الطوارئ . كانت تقع في الوسط بين المباني ؛ وقد امتدت منها خمسة أذرع واطئةٍ في كل الجهات . كان هناك ضوء في بعض النوافذ ، وإنما ليس فيها كلها . كان هناك جناح كاملٌ مظلمٌ . كان المستشفى قد بني لزمن آخر ، زمن فيه عدد أكبر بكثير من الناس الذين عاشوا في المقاطعة مما فيها الآن . في بعض الأحيان رأيتُ السيارات وهي تأتي إلى المدخل ، بل إن طائرة عمودية هبطت هناك ذات مرة . لم أستطع تذكر آخر مرة رأيت فيها طائرة عمودية . لا بد أن ذلك حدث منذ سنوات كثيرة ماضية ، ولم تعُد تُستعمل بعد ذلك ، لأنها تستهلك الكثير من الوقود . كانت شفرات مراوحها الدوارة تثير الهواء ، جاعلة معاطف أفراد الطاقم الطبي البيضاء ترتفع ، كما لو

أنهم على وشك الإقلاع والطيران . انفتح الباب ونزلت منه امرأة ورجلان يرتديان البدلات . لم يبدُ أيٌّ واحد منهم مريضاً ، لكنهم ساروا نحو المدخل الرئيسي ، كما لو أنهم في عجلة من أمرهم .

في بعض الأحيان ، كان صوتُ صفارة الإنذار يرتفع عندما تصلُ سيارة ، عالياً ومتكاسلاً . ثم يظهر بعد ذلك عددٌ أكبر من أفراد الطاقم الطبي ، ويقفون في صف استقبال . وكان المريض يُحمَل على عجل من السيارة وإلى المستشفى بينما يعمل الأطباء والممرضات عليه . كذلك كان الحال أيضاً عندما وصلنا . لكننا لم نره . حدث ذلك بسرعة كبيرة . كان وي-وِن قد حُمل مسبقاً عندما سُمح لنا بالخروج من سيارة الإسعاف . رأينا ظهور أفراد الطاقم الصحي وهي تختفي مع نقالة . ربما كان يستلقي عليها ، لكنني لم أستطع أن ألمحه ، كانت الظهور في المعاطف البيضاء تعترض الطريق . حاولتُ أن أركض خلفهم ، وأردتُ فقط أن أراه . لكن الباب كان مغلقاً ومؤمناً بالأقفال .

بقينا واقفَين خارج المدخل . مددتُ يدي لكوان ، لكنه كان يقف بعيداً جداً . لم أستطع الوصول إليه . أو أنه ربما لم يكُن يريد أن أصِلَ إليه .

ثم انفتح البابُ وخرج رجلان بملابس بيضاء . أطباء؟ ممرضون؟ أمسكا بنا بلطف من الذراع وطلبا منا مرافقتهما .

تبعتهما بكل أسئلتي . أين هو وي-وِن؟ ما الذي أصابه؟ هل هو مجروح؟ هل سيُسمح لنا قريباً برؤيته؟ لم تكن لديهما إجابات . قالا فقط أن ابننا ، قالا «ابنكما» ، ربما لم يكونا يعرفان حتى اسمه ، هو في أيدٍ أمينة . سوف تكون الأمور بخير . ثم جلبانا ووضعانا هنا فقط ، واختفيا .

كنتُ واقفةً على هذا النحو لساعات عندما انفتح الباب أخيراً ودخلَت طبيبة . عرَّفت نفسها بأنها الدكتورة هيو ، وأغلقت الباب خلفها ، من دون أن تقابل نظراتنا .

«أين هو؟ أين وي-وِن»؟ سألت . خرج صوتي من مكان ما ، بعيد .

«لا يزالون يعملون على ابنكما» ، قالت المرأة ومشت أبعد إلى داخل الغرفة .

كان شعرُها رمادياً ، لكن وجهها كان ناعماً ، وخالياً من التعبير .

«اسمه وي-وِن» ، قلت . «هل أستطيع أن أراه»؟

خطوتُ خطوة نحو الباب . يجبُ أن تأخذَني إليه . يجب أن يكون ذلك ممكناً . ليس من الضروري أن أصلَ إليه وأقفَ بجانبه ؛ مجرد الوقوف خلف نافذة زجاجية سيكفي ، طالما يكون بإمكاني أن أراه .

«يعملون عليه . ماذا تعنين»؟ قال كوان .

رفعَت رأسها ونظرَت إليه ، بينما تجنبَت ملاقاة نظراتي:

«إننا نفعل كل ما في وسعنا» .

«سوف يعيش ، أليس كذلك»؟ سأل كوان . «إننا نفعل كل ما نستطيع» ، كرَّرت بلطف .

رفع كوان يده إلى فمه . وعضَّ على أصابعه . انتابتني رعشة برد مفاجئة .

«يجب أن تسمحوا لنا برؤيته» ، قلت . لكن الكلمات بدت باهتة تماماً -حتى أنها اختفت تقريباً .

لم تجِبني ، وإنما هزت رأسها بلطف فحسْب .

لا يمكنُ أن يكون هذا صحيحاً . لا بد أن يكون هناك خطأ . كل شيء حدث كان خطأ . لم يكن هو الذي يتمدد هناك . ليسَ وي-وِن . إنه في المدرسة ، أو في البيت . هذا طفل آخر ، سوء فهم .

«يجب أن تثقا بنا» ، قالت الدكتورة هيو بهدوء وجلست . «وفي الأثناء ، أريدُ منكما أن تُجيبا عن بعض الأسئلة» .

هز كوان رأسه وجلسَ في مقعد .

أخرجَت قلماً وورقة وتهيأت لأخذ الملاحظات .

«هل مرضَ ابنكما أبداً من قبل»؟

«كلا» ، أجاب كوان بطاعة واستدار ليواجهني . «هل فعل؟ هل تتذكرين ما إذا كان قد مرِض»؟

«كلا . مجردُ التهاب في الأذن» ، قلت . «والإنفلونزا» .

كتبَت بضع كلمات على قطعة الورق . «لا شيءَ خارجاً عن المألوف»؟

«كلا» .

«أي التهابات تنفسية أخرى؟ ربو»؟

«لا شيء» ، قلتُ بحزم .

استدارت الدكتورة هيو لتواجه كوان مرة أخرى .

«أين ، بالضبط ، كانَ عندما وجدتماه»؟ انحنى كوان إلى الأمام ، كما لو أنه أراد أن يحمي نفسه من أسئلتها .

«بين الأشجار ، بالقرب من الحقل 458 . تماماً بجوار الغابة» .

«وماذا كان يفعل»؟

«كان هناك . ملقىً على الأرض . شاحباً . متعرقاً» .

«وكنتَ أنتَ الشخص الذي وجدَه»؟

«نعم ، كان أنا» .

«كان خائفاً جداً» ، قلت . «كان مرعوباً جداً بشكل لا يصدق» .

هزت رأسها .

«كنا قد أكلنا الخوخ ، واصلتُ . كنا قد جلبنا الخوخ . أكلَ العلبة كلها» .

«شكراً لك» ، كتبَت شيئاً مرة أخرى على ورقتها الصغيرة .

ثم استدارت إلى كوان مرة أخرى ، كما لو أنه الشخص الذي لديه الإجابات . «هل تظنُّ أنه جاء من الغابة»؟

«لا أعرف» .

تردَّدت . «ماذا كنتم تفعلون هناك»؟

انحنى كوان إلى الأمام مرة أخرى . أرسلَ إليَّ نظرة ، فارغة ، نظرة لم تشفَّ عما يفكر فيه .

تصاعد التوتر ، وأصبح التنفُّس صعباً . لم أكن قادرة على الإجابة . أبقيت عيني عليه ، وحاولت أن أتضرع ، أن أجعله يغطي على الحقيقة . أن يقول أنها كانت فكرتنا معاً أن نذهب إلى هناك ، ربما حتى فكرته هو ، عندما كانت في الحقيقة فكرتي أنا وحدي .

كان خطئي أننا كنا في الخارج هناك .

لم يستجِب كوان لنظرتي ، واستدار فقط نحو الطبيبة وأخذ نفَساً عميقاً . «كنا في الخارج» ، قال . «أردنا أن نقضي يوم عطلتنا بعمل شيء مُبهِج» .

ربما لم يكن يعتبرني مسؤولة ، ربما لم يكُن يلومني . واصلتُ مراقبته ، لكنه لم ينظر في اتجاهي . لم يكشِف عن شيء ، لا إجابات ، لكنه لم يوجه أيضاً أية اتهامات .

وربما كانت تلكَ هي ماهيّة الأمر . ربما كان ذلك هو الحقيقة . كنا معاً في هذا ، معاً في الوجود هناك . كان قراراً اتخذناه معاً ، اتفاقاً ، تسوية ، وليس فكرتي أنا فقط .

لم يبدُ أن الدكتورة هيو تلاحظ أيَّ شيء بيننا – نقلت نظراتها فقط من واحدِنا إلى الآخر ، متعاطفة ، أكثرَ من مجرد محترفة .

«أعِدُ بأن أعود قريباً عندما تتوفر لدي المزيد من المعلومات» .

أخذتُ خطوة إلى الأمام .

«ولكن ما الذي حدَث؟ ما الذي أصابه»؟ أصبح صوتي مرتجفاً الآن . «لا بد أنكِ تعرفين شيئاً إضافياً»؟

هزَّت المرأة رأسها ببطء فقط ، ولم تكن لديها إجابات .

«حاوِلا أن ترتاحا قليلاً . سأرى إذا كان بإمكاني أن أرسِلَ بعضَ الطعام» .

اختفَت خارج الباب ، وتُركنا واقفينَ هناك .

تعلقَت ساعة حائط في الردهة . مر الوقت بقفزات غير منتظمة . في بعض الأحيان عندما أنظر إلى الساعة ، أجدُ أنَّ 20 دقيقة قد مرت ، وفي أحيان أخرى ، 20 ثانية فقط .

ظلَّ كوان كل الوقت في الجانب الآخر من الغرفة . وبغضِّ النظر عن مكان وقوفي ، كان دائماً بعيداً . لم تكن تلك رغبته هو فقط ، وإنما رغبتي أنا بنفس المقدار . كان من المستحيل تجاوز ذلكَ الشيء الكبير

بيننا . وفي وجه هذا ، تحولنا كلانا إلى جليد رقيق ، مثل أولى غلالات الجَمَدِ الرقيقة التي تتشكل على سطح البرك في الخريف ، والتي تتحطَّم عند أخف لمسة .

أخذتُ رشفة ماء . كان مُراً ، ماءً من الخزان ، ماءً ظل دائماً راكداً .

كان الظلام قد حل . لم يشعل أيٌّ منا الضوء . لماذا نحتاج إلى الضوء؟ مرّت ساعة منذ كانت الطبيبة هنا .

تفقدتُ الممر مرة أخرى . ولكن ، لم يكن هناك أحد على طاولة الممرضين .

واصلتُ المشي في الرواق ، لكنني وجدتُ أبواباً مغلقة . وضعتُ أذني على واحد منها ، فلم أسمع أي شيء . أغرقَ طنينٌ كثيف ينبعث من جهاز التكييف كل شيء آخر .

جورج

وصلنا الخلايا التي بجوار مزرعة ساتيس . أخذتُ الخلايا القريبة من الطريق الرئيسي . لمحتُ جيمي وريك ، يشقان طريقيهما عبر الحقل . كنتُ متعباً ، وإنما ليسَ إلى حد الإجهاد . عرفتُ أنني سأنام كما لو أن أحداً سحب القابس مني في الليل .

كنتُ على وشك رفع الغطاء عن آخر خلية عندما ظهر غاريث . غاريث غرين .

ظهرَت شاحنته نصف المقطورة في المكان . وتبعتها ثلاث شاحنات مشابهة أخرى . وعندما رآني ، توقف . توقف حقاً . واضطرت الشاحنات نصف المقطورة التي خلفه إلى الانتظار في الصف ، إلى الوقوفِ هناك بينما المحركات دائرة والشمس تشع على الزجاج الأمامي ، وأن تنتظر غاريث فحسب . ربما لم تكن هذه هي المرة الأولى .

خرج من القُمرة بابتسامة متكلفة كبيرة على وجهه ، ونظاراتٍ شمسية عاكسة رياضية ، وبشرة مسفوعة . كان يرتدي قبعة خضراء زاهية خُطت عليها كلمات *شاطئ كليرووتر، عطلة الربيع* 2006 . ربما اشتراها في موسم التنزيلات في الجنوب . أحبَّ غاريث عملَ الأشياء بكلفة رخيصة ، وإنما فضل أن يكون ذلك بطريقة لا يلاحظها الناس ، لأنه أحبَّ أيضاً أن يشعر الناس بالإعجاب . تركَ الباب مفتوحاً والمحركَ دائراً .

«إذن . كل شيء جيد هناك»؟

أشار برأسه في اتجاهي أنا وخلاياي ، الموضوعة على مسافات غير منتظمة عبر الحقل . لم يكن هناك الكثير منها . بدَت متفرقة وموزعةً بشكل جميل .

«تبدو على ما يرام» ، قلت . «شتاء جيد . لم نفقد الكثير» .

«جيد . جيد . سعيدٌ لسماعِ ذلك . ونحن أيضاً . ليس الكثير من الفساد» . استخدم غاريث دائماً كلمة فساد عن النحل . جعلها تبدو كما لو أنها نباتات . محاصيل مزرعة .

أومأ برأسه نحو المشهد . «سوف نتوقفُ هنا الآن . الكمثرى» .

«ليسَ التفاح؟»

«كلا . إنها الكمثرى هذا العام . حصلنا على مزرعة أكبر . لدينا مزيد من النحل الآن ، كما تعلم . مزرعة هدسون صغيرة جداً علينا» .

لم أُجِب . هززتُ رأسي ثانية .

وهو هزَّ رأسه أيضاً .

وقفنا هناك نهزُّ رأسينا ، بينما ذهبت نظراتنا في اتجاهات متعاكسة . مثل زوج من التماثيل ، من النوع الذي كان لدي عندما كنتُ صغيراً ، حيث يكون الرأس فالتاً ويحتاج إلى دفعة صغيرة فقط ليبدأ في التحرك ، ويهزُّ نفسه ويهُزُّ وهو يحدق في الفراغ .

اختتم بإيماءة أخيرة برأسه في اتجاه الشاحنات . «كانت على الطريق لوقت طويل الآن . سيكون من الجيد وضع كل شيء في مكانه هنا» .

تتبعتُ نظرته . خلية بعد خلية ، كلها جاهزة مبنية مُقدَّماً ، من البولسترين الرمادي ، كانت مربوطة بإحكام بأنصاف المقطورات

ومغطاة بمادة شبكية خضراء . وقد أغرقَ هدير المحركات أزيز كل النحل في الداخل .

«كاليفورنيا ، هل أنتم قادمون من هناك»؟ قلت . «كم ميلاً هي المسافة من هناك»؟

«أنتَ بعيد كل البعد» . وضحك . «كاليفورنيا كانت في فبراير . اللوز . انتهى الموسم منذ وقت طويل . الآن عائدون من فلوريدا . الليمون» .

«الليمون . نعم» .

«والبرتقال قرمزي اللب» .

«نعم» .

البرتقال قرمزي اللب . كلا ، لم يكن البرتقال العادي جيداً بما يكفي لغاريث .

«كنا نقود طوال 24 ساعة» . واصل غاريث . «وهو شيء صغير مقارنة بالرحلة التي قطعناها قبل ذلك . من كاليفورنيا إلى فلوريدا . كانت تلك قيادة جديَّة . المرور عبر تكساس وحده يستغرق نحو 24 ساعة . هل لديك أي فكرة كم تلك الولاية واسعة»؟

«كلا . لا يمكن أن أقول أنني فكرت أبداً في ذلك» .

«واسعة . أوسع ولاية لدينا . أعني ما عدا ألاسكا» .

«صحيح» .

كانت خلايا غاريث الأربعة آلاف على الطريق على مدار العام ، ولا تستريح أبداً . الشتاء في الولايات الجنوبية ، الفلفل في فلوريدا ، اللوز في كاليفورنيا ، والعودة إلى البرتقال ، أو البرتقال القرمزي الذي يبدو أنه جديد هذا العام- في فلوريدا ، ثم شمالاً لثلاث أو أربع محطات في مسار

الصيف . التفاح أو الكمثرى ، التوت البري ، القرع . وكانت تتواجد في البيت هنا في يونيو . عندئذٍ يدرُس الموقف ، على حد تعبيره ، ويحسب خسائره ، ويجمع الخلايا ، ويجري الإصلاحات .

«بالمناسبة ، قابلتُ روب ونيلي هناك» ، قال .

«صحيح»؟

«ماذا يدعى ذلك المكان – قرية الخليج»؟

حسناً حسناً . كان هناك إذن . فيما يُسمّى الفردوس .

«مرافئ الخليج»!

«آه ، اللعنة! سمعتَ عنها أيضاً! مرافئ الخليج ، نعم . يجب أن ترى البيت الجديد . مباشرة على القنال . حصلا لنفسيهما على دراجة مائية . أخذني توم في جولة . صدق أو لا تصدق أننا شاهدنا الدلافين» .

«دلافين ، تقول . ليسَ عجول بحر»؟

كلا . عجول بحر؟ ما ذاك»؟

«كان روب ونيلي يتفاخران بهذا . أنَّ لديهم عجول بحر تسبح مباشرة خارج منزلهم» .

«واو . كلا . لم أر أي عجول . على أي حال ، لديهم مكان جيد هناك . مكان جميل» .

«هكذا سمعت» .

قام شخص ما في إحدى الشاحنات وراءه بإطفاء المحرك . بنفادِ صبر . لكن غاريث تجاهل الأمر . هكذا كان . أصبحت قدماي مخدورتين . لكنه وقف هناك بهدوء وحسب ، وبدا كما لو أنه لن ينتهي أبداً .

«وأنت» ، خلع نظارته ونظر إليَّ . «أي رحلات مخططة»؟

«نعم» ، قلتُ . «رحلات أكثر من كافية . سنذهب في غضون بضعة أسابيع . ماين» .

«توت بري ، كالعادة»؟

«نعم ، التوت البري» .

«وإذن ، سوف نراك ، ربما . لديّ ماين هذا العام أيضاً» .

«لا تقل ذلك . نعم ، حسناً ، نراك إذن» . حاولتُ أن أفتعل ابتسامة وأنشرها على شفتي .

«مزرعة وايت هيل ، أتعرفُ أين هي»؟ حكَّ رأسه تحت قبعته ، أصبحت يده خضراء تحت ضوء الشمس الذي ينفذ من خلَل النسيج .

«كلا» ، قلت . كانت أكبر مزرعة ضمن أميال في المنطقة . الجميع ، حتى أصغر طفل ، نعم ، حتى كلُّ كلب مفرد ، يعرف أين هي .

ابتسم ، ولم يجِب ، عرفَ بكل تأكيد أنني أكذب . ثم استدار أخيراً ليواجه الشاحنة مرة أخرى ، حيّا بوضع يده على قبعته ، وغمز بوقاحة في وجهي ، ودخل سيارته .

حجبت سحابة الغبار ضوء الشمس بينما يختفون .

كنا نرتاد المدرسة معاً ، غاريث وأنا . كانَ شخصاً كسولاً . يأكل كثيراً ويعمل قليلاً ، يعاني من الأكزيما . لم تكن الفتيات مهتمات به . ولا نحن الفتيانُ ، أيضاً . لسبب أو لآخر ، أحبَّني على الفور . ربما لأنني لم أستطع أن أحمل نفسي على شتمه كل الوقت . استطعت أن أرى أن فيه إنساناً في الداخل . كانت أمي تلح على ذلك كل الوقت . يجب أن تكون لطيفاً مع الجميع ، خاصة أولئك الذين ليس لديهم الكثير من

الأصدقاء . وكان غاريث بلا شك من تلك الفئة ، فئة الناسِ الذين بلا كثير من الأصدقاء .

هكذا كانت أمي . كان من المستحيل أن يكون المرء قاسياً حقاً عندما يكون لديكَ صوتُها في رأسك كل الوقت . بل إن أمي جعلتني أدعوه إلى المنزل بضع مرات . وظنَّ غاريث أن دعوتَه إلى العشاء في مزرعة هي شيءٌ من خارج هذا العالم . أخذَنا أبي إلى خلايا النحل في الخارج . طرح غاريث الأسئلة ، بفضول وتطفل . كان أكثر اهتماماً بكثير من اهتمامي أنا بها في أي وقت ، أو أنه أعطى الانطباع بأنه كذلك على الأقل . وكان والدي سعيداً بالشرح ، بطبيعة الحال .

لحسن الحظ ، في المدرسة الثانوية فقدنا الاتصال . أو أنه أصبح من الأسهل أن نبقى بعيدين فحسب . تكوَّن لدي انطباعٌ بأن غاريث دفن نفسه في المدرسة والعمل . كان لديه عمل بدوام جزئي في محل للمعدات ، وشرع مُسبقاً في ادخار المال في ذلك الحين . ومع الوقت ، اختفت الأرطال الزائدة في جسمه ، ويبدو أنه حصل لنفسه على واحد من تلك المصابيح الشمسية التي ساعدت في شفاء الإكزيما ، ونتيجة لذلك أصبحت بشرته ذهبية قليلاً على الدوام . ويجب أن أعترف بأنها لم تبدُ سيئة كثيراً .

كما تمكن أيضاً من العثور لنفسه على فتاة جميلة لطيفة . وبعد إنهاء المدرسة ، اشترى قطعة أرض ، وما كنتَ لتعرفَ أنه بدأ بتربية النحل . وقد ازدهرت العمليات ، ويبدو أن غاريث كان يمتلك موهبة في ذلك . توسَّع ، وحصل على المزيد من الخلايا . والفتاة أنجبت أولاداً ، أكثرَ جاذبية من غاريث ، بلاِ أكزيما على أي منهم . والآن أصبح شخصاً

مهماً . واحداً من الأهم في البلدة . كان يتجول أيام الأحد وأفراد عائلته مربوطون بأمان في سيارة ألمانية فارهة رباعية الدفع . وكان عضواً في النادي الريفي ، ويدفع 850 دولاراً حتى تستطيع كل عائلته الوقوف هناك في المرج وتضربَ الكرات في كل أنواع الطقس ، وبالتأكيد ، استفسرتُ عما يكلفه ذلك .

كما أنه استثمر أيضاً في المكتبة الجديدة . وأخبرَت لوحة نحاسية لامعة كل مَن يهتم بقراءتها ، وكان هناك الكثيرون الذين يفعلون ، بأن المجتمع المحلي يشكرُ بعمق مؤسسة «المناحل الخضراء»على كَرَمِها عندما بُنيت المكتبة .

انتقام الفاشلين ، هذا ما كان عليه الأمر . والبقية منا ، أولئك منا الذين لم يكونوا فاشلين بشكل خاص ، وإنما شعبيين بما يكفي في المدرسة ، أصبح عليهم أن يجلسوا على الهوامش ويشاهدوا كيف يتمرغ غاريث في المزيد من الدراهم مع كل عام يمر .

يعرفُ كل شخص عمل بالنحل أن النقود الحقيقية لا تكمُن في العسل ؛ لم تأتِ أرصدة غاريث من العسل . كانت النقود الحقيقية تأتي من التلقيح . لم تكن للزراعة أيُّ فرصة من دون النحل . ميلٌ بعد ميل من أشجار اللوز المزهرة أو أجمات التوت البري ؛ لم تكن كلُّها تساوي قرشاً ما لم يقم النحل بنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى . يستطيع النحل أن يتنقل أكثر من بضعة أميال في اليوم . عدة آلاف من الأزهار . ومن دونه تكون الأزهار عديمة النفع مثل المتسابقات في مسابقة لملكة الجمال . من الجميل أن تنظرَ إليها ، طالما أنها حية ، لكنها بلا قيمة على المدى البعيد . الأزهار تذبل ، وتموت إذا لم تحمل الفاكهة .

استثمرَ غاريث في التلقيح من اليوم الأول . كانت نحلاته دائماً مثل مستعمرة متنقلة . دائماً على الطريق . وقد قرأتُ أن ذلك يجعل النحل متوتراً ، وأنه ليس جيداً له ، لكن غاريث زعم أن النحل لا يلاحظ أي شيء ، وأنه يزدهر تماماً ، مثل نحلي .

ربما كان بالضبط لأن غاريث جاء إلى المهنة من الخارج أنه استثمر في ذلك الحقل . لقد فهم أين تتجه الأشياء ، وأن مزارع العسل الصغيرة ، مثل مزرعتي ، التي ظلت تُدار بنفس الطريقة -أكثر أو أقل- على مدى أجيال ، لم تضع النقود بالضبط في المصرف ، لم تفعل ذلك من قبل ، ومن المؤكد أنها لا تفعله الآن . كان كل استثمار صغير مفرد مجرد محاولة ، وقد عشنا تحت رحمة البنك المحلي الودود ، الذي لم يكن دائماً متشدداً عندما يتعلق الأمر بتسديد دفعات القرض في الموعد ، ووثق بأن النحل سينجز المهمة هذا العام أيضاً ، ووثق بي عندما قلتُ أن أنواع العسل المخفَّف الرخيصة التي تأتي من الصين ، وتباع على أنها عسل وتأتي بكميات أكبر بمرور كل عام ، لم تُحدث فرقاً ، وأن أسعار العسل ستظل بالضبط كما كانت دائماً ، وأن فرص الحصول على عوائد ثابتة كانت جدية ، وأن الطقس الذي يصبح أقل قابلية للتنبؤ به باطراد ليس له تأثير علينا ، وأننا نستطيع ضمان مبيعات جيدة في الخريف . وأن النقود سوف تنصب وتتدفق ، كما هو الحال دائماً .

كان هذا كله أكاذيباً . وهو السبب في أنني اضطررتُ إلى إعادة تنظيم عملي . أن أصبح مثل غاريث .

وليام

«هل تريدني أن أفعلَ ذلك»؟ سألَت تيلدا. وقفَت على الباب بأدواتِ الحلاقة ومرآة في يديها.

«يمكنُ أن تجرحي نفسكِ بالموسى» أجبتها.

هزت رأسها. كانت تعرف، مثلما أعرف أنا، أنها لم تكن في أي وقتٍ ثابتةَ اليدين بشكل خاص.

بعد قليل دخلَت ومعها وعاء من الماء، وبعض الصابون وفرشاة. وضعَت كل ذلك على الطاولة الجانبية، وسحبتها بعد ذلك قرب السرير، حتى تكون لدي زاوية عمل جيدة. وأخيراً وضعَت المرآة هناك. وقفَت تنتظرُ بينما أرفعُها. هل كانت قلقة من كيفيةِ ردةِ فعلي؟

كان رجلاً آخر هو الذي حدّق فيّ من المرآة. كان ينبغي أن أرتعب، لكنني شعرت فقط بالعجب. كان صاحب المتجر اللطيف قد ذهَب. وكان الرجل الذي حدَّق فيَّ شخصاً آخر، شخصاً اختبر شيئاً. فكرة متناقضة، لأنني كنتُ مستلقياً في السرير لأشهر ولم أختبر أي شيء سوى أفكاري التافهة الخاصة. ومع ذلك، لم يقل الانعكاس في المرآة أي شيء عن هذا. ذكَّرني الرجل الذي يحدِّق بي بشخصٍ مُرتحل في محيط، والذي عاد بعد أشهر في البحر، أو ربما برجل مناجم عاد صاعداً بعد مناوبةٍ طويلة، أو عالِم في الطريق إلى

البيت عائداً من رحلة بحث طويلة مثيرة في الغابة . كانت ملامح رجل المرآة محدَّدة بدقة ، نحيلةً ، تصلَّبت إلى حد الأناقة . لقد عاش حياة .

«هل لديكِ مقص»؟

نظرت تيلدا إليّ بارتباك .

«لا أستطيعُ أن أبدأ بالموسى ، هناكَ أكثر مما يجِبُ» .

هزَّت برأسها وفهمت .

سرعان ما عادت بمقص خياطة . كان صغيراً بشكل غريب ، صُنع لأصابع النساء الرفيعة ، لكنني استطعت أن أقص الأسوأ من هذا النمو الأشعث .

ببطء غمستُ الفرشاة في الماء وفركتها على الصابون . تكونت رغوةٌ بعبق نباتِ العرعر الطازج .

«أين الموسى»؟ نظرتُ حولي . وهي وقفَت هناك فقط ويداها مطويتان أمام مئزرها وعيناها مثبتتان على الأرض . «تيلدا»؟

أخيراً ناولتني الموسى الذي كان في جيبها . ارتجفَت يدُها قليلاً ، كما لو أنها لم ترِد أن تعطيه لي بالضبط . أخذته وشرعتُ في الحلاقة . احتكَّ الموسى بجِلدي . بدَت الشفرة بحاجة إلى شحذ .

وقفَت تيلدا تراقبني .

«شكراً لكِ . يمكنكِ أن تذهبي الآن» ، قلتُ لها .

لكنها بقيت . كانت نظراتها مسلطة على يدي ، على الموسى . فجأة فهمتُ ما الذي يقلقها ويجعلها تقف هناك . تركتُ يدي تسقط .

«أليست إشارة صِحيَّة أنني أحلق»؟

كان عليها أن تُفكِّر ، كِالعادة .

«أنا ممتنة جداً لأن لديك الطاقة لتفعل هذا» ، أجابت أخيراً ، لكنها ظلّت واقفةً هناك ببساطة .

إذا كان أحد ليفعل شيئاً من هذا القبيل ، فإن المسألة ستكون العثور على وسيلة تعطي الانطباع بأنّ الوفاة حدثت لأسباب طبيعية تماماً . بتلك الطريقة سوف أُعفي إدموند من الحرَج . ولديّ عدة إجراءات في ذهني - كان لديَّ الكثير من الوقت لتخطيطها- لكن تيلدا لم تعرف ذلك بطبيعة الحال . افترضَت فقط أنها إذا تركتني وحيداً في الغرفة بأداة حادة ، فسوف أغتنمُ الفرصة ، كما لو أنها الفرصة الوحيدة . إلى هذا الحد كانت بسيطة .

لو أنني أردت أن أضع نهاية لكل شيء ، لكنت قد مشيتُ منذ مدة طويلة إلى الثلج في الخارج ، بملابس النوم فقط . ثم سيعثرونَ عليّ متجمداً حتى الموت في اليوم التالي ، والثلج في لحيتي ورموشي ، وسيكون موتي مجرد هذا : ضلَّ تاجر البذور طريقه في الظلام وتجمَّد حتى الموت ، هذا الروح الضعيفة البائسة .

أو بالفطر السام . كانت الغابات مليئة به ، وقد وجد البعض منه طريقه في الخريف الماضي إلى درج علوي في أبعد مكتب إلى اليسار في المحل ، مغلق بإحكام ، بمفتاح أستطيع أنا وحدي الوصول إليه . كان مفعول الفطر سريعاً ، في غضون بضع ساعات يصبح المرء كسولاً وثقيلاً ، ثم يفقد الوعي ، تعقبها بضعة أيام يتحطم فيها جسمه قبل أن ينهار . وسيعتقد الطبيب أن سبب الوفاة هو فشل في الأعضاء . لن يعرف أحد أنها بفعل ذاتي . أو الغرق . كان هناك تيار قوي في النهر خلف أملاكنا ، حتى في الشتاء .

أو مزرعة بليك للكلاب، حيث توجد سبعة كلاب وحشية تنهش الجدار. أو المنحدر الحاد في الغابات. كانت هناك الكثير من الاحتمالات، لكنني الآن هنا، أحلقُ لحيتي وليست لدي أدنى نيّة لتطبيق أي من هذه الأساليب، بما في ذلك موسى الحلاقة الذي أمسكه في يدي. ولأنني خرجتُ من السرير، فلن أفكر أبداً بمثل هذا المسار السلوكيّ أبداً. «لا تدعيني أبقيك هنا»، قلتُ لتيلدا. «أنا واثق أن لديكِ عملاً لتقومي به هناك».

أشرتُ نحو الباب، في إشارة إلى بقية المنزل، بمطالبه التي لا تنتهي -الغبار، والطبخ وغسل الملابس والأرضيات وكل الأشياء الأخرى التي تعتقد كل الوقت أنه يجب تنظيفها. هزت رأسها وغادرت أخيراً. كانت هناك أوقات عندما تشكّل لديَّ الانطباع بأن تيلدا ستكون أكثر مِن ممتنّة لو أنني أخذت شفرة حلاقة، أو ربما يفضل أن تكون سكين تقطيع اللحوم، وغرستُها في رقبتي وجعلتُ الدم يشخُب خارجاً من الشريان الرئيسي حتى لا يتبقى مني شيء سوى صدَفةٍ فارغة، شرنقة مهجورة، ملقاةٍ على الأرض. لم تقل أبداً مثل هذا القدر، لكننا أنا وهي كلانا لعنّا آلاف المرات تلكَ الشمس التي وجدت طريقها إلى أنفها بالتحديد في قاعة الاجتماعات قبل أكثر من 17 عاماً. كان يمكن أن تجدَ طريقها إلى العديد من الآخرين والأخريات، أو لا إلى أحدٍ على الإطلاق.

كان عمري 25 عاماً، وقد مرَّ عام تقريباً منذ وصلتُ إلى القرية. لا أعرف ما إذا كان هناك شيء في الطقس في ذلك الشهر، ربما كانت ريحٌ جافة تهب منذ وقت طويل على المنطقة، حتى أصبحَت شفتاها

حمراوين وجافتين وظلَّت ترطبهما باستمرار باللعاب ، أو تمضغهما سراً ، كما تفعل الفتيات الصغيرات لصنع أفواه مغرية . ولكن ، في ذلك اليوم المحدد ، لم ألاحظ بأي شكل أنها كانت تقريباً بلا شفتين . وأتذكر فقط أنني كنت في منتصف محاضرتي عندما رأيتها .

كنتُ مستعداً بشكل جيد للغاية . أولاً وقبل كل شيء بسبب رام . لم أرِد شيئاً أكثر من ترك انطباع مذهل عليه . كنت أعرف أنني محظوظ ؛ فقد تلقى الكثير من زملائي في الدراسة مهمات أقل إثارة للاهتمام بكثير . وباعتباري حديثَ التخرج ، استطعتُ أن أفي ببعض المطالب . أن أكون تحت جناح عالِم معروف جيداً كانت أفضل فرصة ممكنة للنجاح . وفي ذلك الوقت من حَياتي ، كان رام هو الشخص الوحيد الذي عنى شيئاً لي . من اللحظة التي عبرتُ فيها عتبةَ مكتبه ، اتخذتُ قراري : سوف يكون هو أكثر علاقاتي أهمية . لن يكون رفيق روحي ومرشدي فحسب ، وإنما أبي أيضاً . لم تعد لدي بعد ذلك صلات خاصة بي ، ولم تكن بي رغبة بإقامة أي صلات ، كان ذلك على الأقل ما قلته لنفسي مرة تلو الأخرى . ولكن ، تحت إشراف البروفيسور ، يمكنني أن أنمو وأزدهر . سوف يحوِّلني إلى ما أنا عليه حقيقةً .

في ذلك اليوم ، كنتُ مستعداً بشكل خاص بالنظر إلى افتقاري للخبرة . لم أكن قد قدمتُ أساساً أيَّ محاضرات من قبل . وعندما طلب مني رام تقديم مساهمة في أمسيته المتواضعة عن علم الحيوان لسكان منطقة ماريفيل ، اعتبرتُ ذلك شيئاً غير مهم في البداية . لكنه أخذ يكبر في داخلي بمرور الأيام في نهاية المطاف ، وتحوَّل إلى شيء لا يمكن السيطرة عليه تقريباً . كيف سيبدو الشعور؟ أن أقفَ هناك أمام الكثير من

الناس ، والكلُّ يستمعون إلى صوتي ، وانتباهُ الجميع متجه إليّ؟ على الرغم من أن الناس في القرية كانوا من نوعية أكثر بساطة من زملائي في الجامعة - كما يمكن أن نقول بلباقة ، فإنها محاضرة علمية . هل سأكون نداً للنهوضِ بهذه المهمة؟

لم يقتصر الأمر على حقيقة أنني سأكون بصدد تقديم محاضرة للمرة الأولى في حياتي فحسب ، وإنما المعنى الذي يمكن أن يشكله المضمون للآخرين هو الذين ملأني بالرعب . لم تكن العلوم الطبيعية موضوعاً مألوفاً لسكان القرية ؛ كانت نظرتهم إلى العالم قائمة على الكتاب المقدس ، الذي كان الكتاب الوحيد الذي يؤمنون به . وقد أذهلتني فكرة أنني سأنال الفرصة لأريهم شيئاً أكثر ، وأقيم الصلات بين الصغير والكبير ، بين قوة الخلق والخلق في حد ذاته ، أنَّ لدي الفرصة الآن لكي أفتح أعينهم وأغير نظرتهم إلى العالم ، نعم ، حتى إلى الوجود نفسه .

ولكن ، كيف أشرحُ ذلك بأفضل طريقة؟ أصبح اختيار العنوان مهمة هائلة ، جعلتني أدور في حلقة مفرغة . كان كل عنوان يبدو مهماً عندما يُنظر إليه من منظور العلوم الطبيعية . محاصيل الأرض ، واكتشاف أميركا ، والفصول . الكثير جداً من الخيارات .

في النهاية ، كان رام هو الذي اتخذ القرار . وضع يده الباردة على يدي النديّة وابتسم لحماسي المرتبك . «أخبرهم عن الميكروسكوب» ، قال . «الإمكانيات التي أعطاها لنا . معظمهم لا يعرفون حتى ما هو هذا الجهاز» .

كانت فكرة عبقرية ؛ ما كنتُ لأصل إليها أبداً من تلقاء نفسي ، وكان ذلك بالطبع هو ما حسم الأمور .

وصلَ اليوم الموعود ، مع هذه الريح الجافة والشمس المطلة من سماء مرتفعة . كنا غير واثقين إزاء كم من الناس سيأتون . كان بعض القرويين الأكبر سناً قد أشاروا إلى أن ما نفعله كان شيئاً فاجراً ، وأن المرء لا يحتاج إلى أي كتُب أخرى غير الكتاب المقدّس . لكن الفضول أغوى مخيلة الأغلبية على ما يبدو ، على الرغم من طقس أبريل القارس في الخارج . وكان حدَثاً خارجاً عن المألوف أن تستضيف مارفيل الصغيرة فعاليات كهذه .

سوف أقدم عملي أولاً ؛ هذا ما أراده رام . ربما أراد أن يتباهى بي ، كما لو كنتُ ابنه المولود حديثاً ، ربما كان ما يزال فخوراً بي في ذلك الوقت . وبعد بضع دقائق طويلة ، وارتجاف صوتي بالتزامن مع ركبتيّ ، عثرتُ على ثقتي . ضغطتُ على الكلمات التي كانت مُعدَّة بعناية كبيرة ، واكتشفتُ أنها تحمل معنىً ؛ أنها لم تفقد بالتأكيد مصداقيتها بينما تغادر الورق وتتوزع في الهواء بين الجمهور وبيني ، وإنما تستطيع أن تقطع كل الطريق إلى وجهتها .

بدأتُ بتلخيص التاريخ بسرعة ، وتحدثتُ بإيجاز عن العدسات المكثفة التي كانت تستخدم في كل الفترة وراءاً حتى القرن السادس عشر ؛ عن المجهر البصري المتطور المعقد الذي وصفه غاليليو في العام 1610 . ولإظهار أهمية المجهر في الممارسة ، قررت أن أخبرهم عن شخص معًين واحد . اخترت عالم الحيوان الهولندي جان سوامَردام . كان قد عاش في القرن السابع عشر ولم يحظَ أبداً بالاعتراف المناسب

عند معاصريه ، وكان فقيراً ووحيداً ، لكنه أصبح بالنسبة للأجيال التالية مَعلَماً حقيقياً في التاريخ الطبيعي ، ربما بالتحديد لأنه أقام الصلة بين الخلق وبين الابتكار في تلك المرحلة المبكرة .

«سوامردام» ، قلتُ ، وسمحت لأنظاري بأن تمسح الحشد . «لا تنسوا اسمه أبداً . لقد جعلنا عملُه نرى أن المراحل المختلفة من حياة الحشرة ، البيضة ، اليرقات والعذارى ، هي في الحقيقة أشكالٌ مختلفة من نفس الحشرة . طور سوامردام مجهراً مكّنه من دراسة الحشرات بالتفصيل . وخلال تلك الدراسات أنتج رسومات لا تشبه أي شيء آخر شاهدناه» .

وبإيماءة درامية باليد ، والتي تم التدرُّب عليها جيداً مُسبقاً ، سحبتُ رسماً توضيحياً كنتُ قد علقتُه خلفي .

«هنا يمكنكم رؤية رسم سوامردام لتشريح النحلة ، كما رسمَه في عمله *إنجيل الطبيعة*» .

سمحتُ لنفسي بوقفة درامية أيضاً ، وجعلتُ نظراتي ترتاح على الحشد ، بينما انشغلوا في تأمل الرسومات المفصلة بشكل غير عادي . وفي تلك اللحظة بالضبط ضربَت شمسُ الربيع في مرورها فوق سطح قاعة الجمعية النافذةَ على يساري ، وعبر شعاع وحيد من الشمس ، وانتشرَ في اتجاه صفوف المقاعد ، وسقط على شخص يجلسُ في أبعد نقطة إلى اليسار ، بجانبي صديقتين من الإناث : تيلدا .

بعد ذلك فهمتُ أن ذلك لم يكن مفاجأة بالنسبة إليها بقدر ما كان كذلك لي . كنتُ بطبيعة الحال في أذهان العديد من النساء الشابات ؛ العالم الطبيعي الشاب ، المتعلم في العاصمة ، والذي يرتدي الملابس الحديثة ، فصيح الحديث ، ربما القصير قليلاً ، وليس الأكثر رياضية . في

الحقيقة كنتُ قد بدأت أعاني مسبقاً من زيادة الوزن ، لكنني افتقرت إلى الصفات الجسدية ، وعوضتُ عن ذلك بالصفات الفكرية . كانت النظارات على أنفي وحدها شهادة على ذلك . كنتُ أضعها عادة مدفوعة إلى الأسفل قليلاً ، بحيث أستطيعُ أن أنظر بحكمة من فوق الإطار . وعندما حصلتُ عليها ، قضيتُ أمسية كاملة في العمل على تحديد الوضع المثالي للنظارات ، والعثور على البقعة من أنفي حيث تكون آمنة في مكانها ، والتي تجعل من الممكن في الوقت نفسه أن أنظُرَ إلى الناس مباشرة في العينين ، من دون الاضطرار إلى النظر من خلال العدسات الصغيرة البيضاوية ، مدركاً -كما كان حالي- أن العدسات المقعرة تجعل عينيّ تبدوانِ أصغر حجماً . وكنتُ أعرف أيضاً أن الكثير من النساء وجدن غرة شعري الكثيفة جذابة . وقد أبقيت شعري بطول متوسط بحيث يُبرزها على أفضل وجه . وربما تكون تيلدا قد راقبتني مسبقاً لوقت طويل ، وانشغلَت بتقييمي ، وقارنتني مع الشباب الآخرين في القرية . ربما رأت نوع الاحترام الذي كنتُ أُعامل به ، والانحناءات العميقة والنظرات المتواضعة ، المختلفة تماماً عما يُعامل به الشبان الآخرون الذين في دائرتها ، والذين ربما كانوا خشنين دائماً في لباسهم وسلوكهم ، ويُعامَلون وفقاً لذلك .

كانت ترتدي أفضل ملابسها ليوم الأحد ، شيئاً أزرق ، فستاناً أو ربما بلوزة ، والتي توافقَت جيداً مع صدرها . وعلى كلا جانبي وجهها المستدير ، انحدرت خصلات شعر لولبية نحو كتفيها ، بنفس تصفيفة الشعر التي تشبه الزي الرسمي ، التي اشتركت بها مع رفيقاتها الإناث ، والتي كانت تُشاهَد أيضاً على الكثير من النساء المتزوجات- حتى مع أن

المرء يظن أنهن يجب أن يكنّ قد تجاوزن الحاجة إلى ذلك النوع من العبث الصبياني بمظهرهن . ومع ذلك ، لم تكن الخصلات اللولبية ولا الملابس هي التي صنعت ذلك الانطباع فيّ . كان ما شقَّ شعاع ضوء الشمس طريقه إليه ، عبر الهواء الكثيف لقاعة الاجتماعات ، هو أنفٌ مستقيم وانسيابي بشكل غير عادي ، مثل رسم توضيحي في كتاب تعليمي عن التشريح . كان أنفاً كلاسيكياً ، والذي تولدت لدي رغبة فورية في رسمه ، ودراسته . أنف بشكل مناسب بالضبط لوظيفته . ولكن ، من جانب تيلدا ، لم يكن ذلك الأنف - للأسف- منسجماً مع وظيفته ، كما سأكتشف لاحقاً ، في أنه يظل دائم الاحمرار والسيلانِ وكأنه يعاني من نزلة برد أبدية . لكنه في هذا اليوم شخَص في اتجاهي ، لا لامعاً ولا محمرّاً ، وإنما مهتماً بشدة بي وبكلماتي ، ولم أستطع أن أبعِد عينيّ عنه .

أصبحَت الوقفة الدرامية طويلة جداً . وشرع الحضور في التململ بقلق ، وانتبهتُ إلى صوت النحنحة الطويل والمتأثر من رام ، الذي كان يقف خلفي . كان الرسم التوضيحي ما يزال معلقاً هناك ، متدلياً ومُهملاً .

سارعتُ إلى الإشارة إليه . «سوامردام أمضى خمسَ سنوات كاملة وهو يدرس الحياة الموجودة في خلية النحل . وفعلَ ذلك كله من خلال المجهر ، الذي أعطاه إمكانية إدراج كل تفصيل صغير مُفرَد . . . وهكذا هنا . . . هنا تستطيعون رؤية مبايض ملكة النحل . وخلالَ دراساته صمم سوامردام على أن ملكة نحلٍ واحدة هي التي تضع في الواقع البيض لكل الأنواع الثلاثة الأخرى منّ النحل - الذكور ، والنحلات العاملات ، والملكات الجديدة» .

حدق أفراد الجمهور فيّ ، بعضهم تلوى قليلاً ، ولم يبدُ أن أحداً يفهم . «كان هذا فتحاً في وقته ، حيث كان الكثيرون يظنون حتى ذلك الوقت أن ملك نحل ، بعبارات أخرى ذكَر نحل ، هو الذي يقود الخلية . ولكن ، بافتتان حقيقي ، وحماس عظيم حقاً ، أجرى سوامردام دراسات على أعضاء ذكر النحل . وهنا تستطيعون أن تروا النتائج» .

سحبتُ رسماً توضيحياً آخر .

«هذه هي الأعضاءُ الجنسية لذكر النحل» .

وجوهٌ خالية من التعبير هناك .

تحرك الجمهور بلا استقرار . بعضُهم وجهوا نظراتهم إلى ملابسهم للبحثِ عن خيط فالِت من نسيج ملابسهم بكل عناية ، بينما أظهر آخرون اهتماماً مفاجئاً بتشكيلات السحب غير المنتظمة في السماء في الخارج .

خطر لي فجأة أنهم ربما لم يفهموا ما تعنيه المبايض والأعضاء التناسلية ، وشعرتُ بأنني ملزم بمساعدتهم على الفهم . الآن جاء جزء المحاضرة الذي لم يكن أبداً جزءاً من القصة التي قالتها تيلدا لأولادنا ، والذي لم يتم الإتيان على ذِكرِه حتى ولو مرة واحدة منذ ذلك الحين بينها وبيني . لسنواتٍ أصابتني فكرة ما حدثَ هناك بشعور حارق بالخجل .

«المبايض هي نفس . . . أريدُ أن أقول ، أنها ، الجهاز التناسلي ، حيث يتم إنتاج البيض . . . الذي يصبح يرقات» .

عندما خرجَت تلك الكلمات ، أدركتُ فجأة ما تورطت فيه ، لكنني لا أستطيع التوقف الآن . «والأعضاء التناسلية هي بذلك

نفس ، ممم . . . الأعضاء التناسلية لذكر النحل . وهي ضرورية تماماً في عملية ، اهممم . . . إنتاج نحلات جديدة» .

ساد ذهول في الغرفة بينما يفهم الحاضرون ما كانت الرسومات التي ينظرون إليها تعرضه . لماذا لم أفهم ذلك بنفسي ، الأثر الذي سيخلفه الموضوع عليهم؟ بالنسبة لي ، كان ذلك جزءاً لا يتجزأ من العلوم الطبيعية ، لكنه كان بالنسبة إليهم شيئاً فيه خطيئة ، شيئاً يبقيه المرء لنفسه ، شيئاً لا يتحدث أبداً عنه . في عيونهم ، كان شغفي بذلك قذِراً .

لكن أحداً لم يغادر ، ولا أحدَ أوقفني . لو كان أحد قد فعل ذلك فقط! لكن الجلبة الخفيفة وحدها هي التي قالت أن الأمور تسير بشكل سيئ ، المؤخراتُ وهي ترتفع عن المقاعد الخشبية ، والأحذية وهي تحتك بالأرض ، والأصوات الخفيضة للحناجر التي يتم تنظيفها بالنحنحة . خفضَت تيلدا رأسها . هل كان وجهها يحمرّ؟ تجمدت النظرات المتبادلة بين رفيقاتها الإناث وهنّ ينظرن إلى بعضهن البعض بذهول . وأنا ، بالمغفل الذي أنا عليه ، واصلتُ ، على أمل أن تنقل بقية المحاضرة التركيز وتبعدَه عن الكلمات التي قلتها تواً إلى ما هو مهم فعلاً .

«كان قد خصَّص ثلاث صفحات كاملة لهذه الأشياء في عمل حياته ، *إنجيل الطبيعة* ، إذا أردتم . هنا نرى بعضاً من رسومه التوضيحية المفصلة بشكل لا يصدق للنحل الذكر ، الجهاز التنا . . . التناسلي» . كانت الكلمة ثقيلة في فمي . «المراحل المختلفة ، كيف تنفتح ، وتتكشف وإِحممم . . . تتوسَّع إلى إمكاناتها الكاملة» . هل قلتُ حقاً ذلك؟ أعلمتني نظرة عابرة إلى الجمع أن ذلك بالضبط هو ما فعلتُه .

أجبرتُ عينَيَّ على النظر إلى نصّ المحاضرة مرة أخرى، وواصلتُ القراءة، حتى مع أن الأمور سارت من سيئ إلى أسوأ فحسب.

«وصفَها سوامردام نفسه بأنها . . . وحوش بحر غريبة».

ضحكنَ الآن، السيدات.

لم أجرؤ على النظر إليهن. وأخرجتُ بدلاً من ذلك كتاب سوامردام واقتبستُ كلمات رائعة كنتُ أنا نفسي قد تأملتُها كثيراً، وتعلقتُ بالكتاب، وأمِلت أن الجمهور سيفهم الشغف الحقيقي الآن ويدركه أخيراً.

«لو أنَّ القارئ نظر إلى هذا البناء المدهش للأعضاء، فإنه سيكتشف فناً رائعاً، وسوف يفهم أن الله، حتى في أصغر الحشرات، حتى في أصغرِ أعضائها، خبأ معجزاتٍ هائلة».

غامرتُ بالنظر، وكان من الواضح للغاية أنني خسرت، لأن الوجوه التي حدقت بي كانت منزعجة في أفضل الأحوال، بل إن بعضها غاضب، وأخيراً فهمتُ، وأدركتُ تماماً ما فعلتُ. لم أنجح بأي معنى في إخبارهم عن عجائب الطبيعة؛ وقد وقفتُ هنا وتحدثت عن أخسِّ الخسيس، وفوق ذلك خلطتُ الله في كل ذلك.

لم أقل بقية القصة؛ أن سوامردام المسكين لم يتمكن من القيام بأي شيء آخر بعد هذا، وأن حياته المهنية انتهت، وطاردته دراسات النحل إلى دوامةٍ من التأملات الدينية، لأن كمال النحلة أرعبه وأصبحَ عليه أن يُذكِّر نفسه كل الوقت بأن الله وحده، وليس هذه الكائنات الصغيرة، هو الذي يستحق تحقيقاته وحبَّه واهتمامَه. في لقائه مع النحل، كان من الصعب الاعتقاد بأن هناك أي شيء في الوجود يمكن أن يكون أكثر

كمالاً ، ولا حتى الإله نفسَه . والسنوات الخمسة التي عاشها تقريباً داخل خلية النحل ، دمرته إلى الأبد .

لكنني أدركتُ هناك وعندئذٍ أنني لو قلتُ لهم ذلك ، فإنني لن أصبح موضوعاً للسخرية فحسب ، وإنما سأصبح شخصاً مكروهاً ، لأن المرء لا يمكن أن يشكِّكَ في العليّ القدير .

طويت مخطوطي ، بينما صعد الاحمرار إلى وجهي وتعثرتُ مثل ولد صغير وأنا أترجل عن المنصة . ورام ، الذي أردتُ أن أثير إعجابه أكثر من أي أحد آخر ، كان يناضل بوضوح لاحتواء ضحكته ، لأن وجهه كان متجمداً في ابتسامة غريبة . وقد ذكّرني بوالدي ، بوالدي الحقيقي .

صافحتُ العديد من أيدي العديدين الذين جاؤوا إليّ بعد انتهاء المحاضرة . لم يعرف الكثيرون منهم ماذا يقولون ، ولاحظت كيف كان الناس يهمسون من حولي ، بعضهم يحمحمون غير مصدقين ، وآخرون يظهر عليهم الغضب والصدمة . وقد انتشر الخجل من وجهي ، وانزلق عبر عمودي الفقري ، وزرع نفسه في ساقيّ ووجد تعبيره في ارتجاف لا تمكن السيطرة عليه ، والذي سعيت عبثاً إلى إخفائه عن المحيطين بي . ولا بدَّ أن رام قد شاهده ، لأنه أراح يده على كتفي وقال بهدوء : «لا بدَّ أن تفهم أنهم مسجونون في التفاهات . أنّهم لن يصبحوا مثلنا أبداً» .

لكن ذلك العزاء لم يساعد ، وإنما أكد فقط الفارق بينه وبيني ؛ ما كان ليختار أبداً أمثلة تسيءُ إلى ذائقةِ مستمعيه . كان يفهم ما يمكن أن يفهموه ، ويمتلك سيطرة على الميزان بيننا وبينهم ، ويفهم أن عالَم العِلم وعالم الكائنات البشرية كانا مكانين مختلفين . كما لو أراد أن يؤكد على ما قلتُ وعدم فهمي الواضح لفهم جمهوري ، ضحكَ فجأة . كانت تلك

أول مرة أسمع فيها ضحكته ، كانت قصيرة وواطئة ، لكنها أذهلتني على أي حال . استدرتُ ، ولم أكن قادراً على النظر إليه ، وقد حطّت ضحكته ثقيلة عليّ ، ونزعَت كل الأهمية من تعزيته ، ولسعتني بكثافة شديدة حتى أنني اضطررتُ إلى إدارة وجهي والابتعاد خطوة عنه .

وهناك كانت .

ربما كان الضعف ، وهشاشتي المخبأة بشكل رديء في ذلك اليوم ؛ لم أعد ببساطة ذلك الزائر الغامض الذي يعمل في شيء كبير وغير مفهوم هناك مع البروفيسور ، وقد مكّن ذلك تيلدا من أن تصبح هيَ في الأمام . لأنها لم تضحك . مدت يدًا مخبأة في قفاز وانحنت وشكرتني على المحاضرة الـ «إحمم . . . رائعة» . وفي الخلفية كانت مرافقاتها ما يزلن يضحكن . لكن الصوت خفَت ، وهنَّ اختفين ، ولم ألاحظ رام أيضاً ، وإنما تلك اليد فقط . أبقيتها في يدي لوقت طويل ، وأحسستُ بدفء البشرة ينبثق من خلال القفاز ، لكَم عادت إليّ قوتي من خلال هذه اليد . إنها لم تسخر مني ، ولم تضحك عليّ ، وكنتُ ممتنًا لها بلا حدود . التمعَت عيناها فوق الأنف الجديد ؛ كانتا واسعتين ، ومفتوحتين جداً على العالم والحياة ، وإنما أولاً وقبل كل شيء ، عليّ أنا . تصوروا ، عليّ! لم يسبق أبداً أن نظرت امرأة شابة إليّ على ذلك النحو ، كانت تحديقة أتاحت لي أن أفهم رغبتها في تسليم نفسها بشكل كامل ، وأن تعطيني كل شيء ، ولي أنا فقط ، لأنها لم تنظر إلى أيٍّ من الآخرين حولنا بالطريقة نفسها . هذه الفكرة جعلت ركبتيَّ تشرعان في الارتجاف مرة أخرى ، وأخيراً خفضَت أنظارها . كان الأمر

وليام

أشبه بقطع وتر حساس ، كان مؤلماً جسدياً ولم أكن أريد شيئاً أكثر من استئناف هذا الاتصال البصري بالعينين ونسيان العالم من حولي .

استغرق الأمر أشهراً حتى يتوقف الناس في القرية عن الحديث عن أدائي . وبينما كنتُ أقابَل في السابق بشكل حصري بالاحترام والاهتمام ، أصبح هناك الآن عدة أناس يشدون على يدي بقوة أكبر ، ويربتون على ظهري ، الرجال على وجه الخصوص ، ويتحدثون إليّ بنصف ابتسامة وسخرية رديئة الإخفاء . وأصبحت الكلمات تتوسع إلى كامل إمكاناتها ، وقد طاردني إنجيل الطبيعة ووحوش البحر الغريبة لسنوات . ولم ينسَ أحد سوامردام أبداً أيضاً ، وتم استخدام اسمه لاحقاً في العديد من السياقات المتنوعة للغاية . عندما تتزاوج الخيول في المرج ، يوصف ذلك بأنه «نشاط سوامَردامي» . والرجال الثملون الذين يُضطرون إلى قضاء حاجتهم في الحانة في المساء ، يقولون أنهم يريدون أن يخرجوا «لتطيير سوامردام» ، والطبق المميز للمخبز المحلي ، وهو فطيرة مستطيلة محشوة باللحوم ، سُمي فجأة «فطيرة سوامردام» بالتحديد .

من المدهش أن ذلك ضايقني قليلاً . فبإحدى الطرق ، كان تدهور مكانتي يستحق كلفتَه . أو أن هذا على الأقل ما ظننته عندما تزوجنا أنا وماتيلدا توكر بعد بضعة أشهر . وقد توفرت لي الفرصة طويلاً قبل ذلك لملاحظة شفتيها الضيقتين البريطانيتين بشكل نمطي ، بحلول الوقت الذي مشينا فيه على ممر الكنيسة . غامرتُ بسرقة قبلة خلال التمرين واكتشفت ، لخيبة أملي ، أنهما لم تكونا تملكان القدرة على الانفتاح مثل زهرة كبيرة سرية لزجة ، أو ربما مثل وحش بحر سوامردام الذي كنت أتخيله في آخر ساعات الليل . كانا فقط جافتين وقاسيتين كما بدتا .

وكان الأنف ، والحق يجب أن يُقال ، عُضواً كبيراً جداً . ولكن مع ذلك ، احمرَّ خداي عندما بارك الكاهن زواجنا . كنتُ أتزوج بعد كل شيء ، وأصبح حقاً جزءاً من حياة الكبار ، دون أن أفهم حينذاك أن النضوج ينطوي على سمات تجعل معظم أحلامي مستحيلة ، والتي أبعدتني قسراً عن عالم العِلم . لأن رام كان على حق ، مع أنني واصلت بعض المشروعات البحثية بنصف حماس ، فإنني كنتُ قد اخترتُ الخروج ، متخلياً عن شغفي بالانضباط .

لكنني كنتُ متيقناً تماماً ، مقتنعاً تماماً بأن تيلدا هي المرأة التي خُلقت لي . فتنتني رصانتها بشكل هائل ، كانت تفكر دائماً بعناية قبل أن تجيب عن سؤال . واعتدادُها بنفسها أيضاً ؛ كنتُ ممتلئاً إعجاباً بكيف تقف حقاً خلف ما تؤمن به ، وهي صفة نادراً ما يجدها المرء في النساء الشابات . وكان لاحقاً فقط ، وليس لاحقاً كثيراً ، فقط بعد بضعة أشهر من زواجنا ، عندما فهمت أنها تفكر في كل إجابة لوقت طويل جداً في الحقيقة لأنها لم تكن ذكية بشكل خاص ، وأدركتُ ماهيّة ذلك الاعتداد بما هي عليه حقاً : عنادٌ لا يُغلب . لم تكن تستسلم أبداً ، كما تبيَّن . أبداً .

لكن السبب الأكثر أهمية من كل شيء في أنني أردتُ الزواج منها كان شيئاً لم أكن لأعترف به حتى لنفسي ، وإنما الذي أستطيع الآن فقط ، في سرير مرضي ، أن أدركه ، بقدر إدراكي لكوني ما أزال بدائياً وهمجياً مثل طفل جشع شبِق بعمر عشر سنوات : حقيقة أنها كانت جسداً حياً ، طرياً . أنها كانتً لي ، أنها سوف تكون متاحة لي . أنني قريباً سأنال الفرصة لأضغط نفسي على جسمها ، وأمدده تحتي ، وألقي بجسدي عليه ، كما لو أنها أرضٌ بكر ندية .

لسوء الحظ ، لم يتكشف ذلك الجزء كما كنتُ قد تخيلته أيضاً ، وإنما جاء بدلاً منه شأنٌ مليءبالكثير من الأزرار والشرائط ، وأسلاك المشد ، وجوارب الصوف الشائكة ورائحة الإبطَين الحامضة . لكنني كنتُ مع ذلك منجذباً إليها بغريزة حيوان ، ذكر نحل . مرة وأخرى ، جاهزاً للتزاوج ، حتى مع أن آخر شيء كنتُ أريده هو الأولاد . مثل ذكر نحل ، ضحيت بحياتي من أجل التزاوج .

تاو

«إنهم يفعلون كل ما في وسعهم . قالوا إنهم يفعلون ما يستطيعون» . ملأ كوان إبريق شاي كانت ممرضة قد أعطته لنا بأوراق الشاي . وبيدين هادئتين صبَّ الشاي في كوب . كما لو أننا في البيت ، كما لو أنه يومٌ عاديّ .

يومٌ . ومساءٌ آخر . هل أكلتُ؟ لم أعرف . أحضروا لنا الطعام والشراب بانتظام . نعم ، تمكنتُ من ابتلاع شيء ما ، بضعَ ملاعق من الأرز ، والقليل من الماء ، حتى أوقِفَ قَرص معدتي . كانت بقايا الطعام قد تصلبت إلى كتلة باردة مطاطية في وعاء الألمنيوم . لكنني لم أنم . لم أستحم . كنت أرتدي الملابس نفسها مثل الأمس ، مثلما كنتُ قبل أن يحدثَ كل شيء . كنتُ قد تأنقت ، ولبستُ أجمل لباس أملكه ، بلوزة صفراء وتنورة تنسدِلُ حتى ركبتيّ . والآن كرهتُ ملمس النسيج الاصطناعي على جسدي ، كانت البلوزة ضيقة جداً تحت الذراعين والأكمام قصيرة جداً ، ولذلك ظللتُ أشدهما باستمرار .

«ولكن ، لماذا لا يقولون لنا أي شيء»؟

كنتُ واقفة . لم أجلس أبداً . وقفتُ ومشيت ، كما لو أنني أخوض ماراثوناً في الأسر . كانت يداي لزجتين ، بعرق بارد مستمر . والتصقت ملابسي بي . وأصبحَت هناك رائحة حولي ، رائحة لم يسبق لي أن شممتها من قبل .

«إنهم يعرفون عن هذا أكثر منا . علينا أن نثقَ بهم فحسب» .

أخذ كوان رشفة من الشاي . وملأني ذلك بالغضب . الطريقة التي شرب بها ، البخار المتصاعد من الكوب ، وكيف عامَ صاعداً تحت أنفه ، وصوت الارتشاف الخافت . كان ذلك شيئاً فعله قبل ذلك آلاف المرات . لكنه لا ينبغي أن يفعله الآن .

يستطيع أن يصرخ ، يصيح ، يؤنِّب ، يلقي اللوم علي . أما أن يجلس هناك على هذا النحو ، بالكوب بين يديه ، وهو يدفء نفسه به ، ويداه الهادئتان تماماً . . .

«تاو»؟ وضع الكوب فجأة ، كما لو أنه فهم ما أفكر فيه . «أرجوكِ . . .» .

«ماذا تريدني أن أقول»؟ حدقتُ في وجهه بصرامة . «شربُ الشاي لا يساعد ، هذا أكيد»!

«ماذا»؟

«كان ذلك مثالاً» .

«لقد فهمتُ ذلك» . أصبحَت عيناه تلمعان الآن .

إنه ابننا ، أردتُ أن أصرخ . وي-وِن! لكنني أدرتُ وجهي ، لم أستطع أن أحمل نفسي على النظر إليه .

صوتُ إبريق الشاي وهو يُرفع والشاي الساخن وهو يُصَب . وقفَ وسارَ في اتجاهي .

استدرتُ . هناك كان ، يمدُّ كوب شاي يتصاعد منه البخار لي ، بيد ثابتة .

«ربما سيساعد» ، قالِ بهدوء . «يجبُ أن تتناولي شيئاً» .

كوبُ شاي يُفترض أن يساعد الأمور . . . شُرب كوب من الشاي . هل هذه هي خطته؟ عدم فعل شيء ، والجلوس هناك فقط . بكامل السلبية ، بلا أيِّ إرادة للتغيير ، للسيطرة ، لفعل شيء ، أيِّ شيء .

مرة أخرى أدرتُ وجهي بعيداً . لم أستطع أن أقولَ كل ذلك . كان لديه الكثير من الميزة عليّ .

لم يكن الثقل بيننا متوازناً بالتساوي . لكنّه مع ذلك ، لم يلمني ، لم يضع المسؤولية علي . وقف هناك فقط ، حاملاً كوب الشاي ، ويده تمتد مستقيمة من جسده ، متصلبة بشكل غير طبيعي تقريباً . سحَب نفَساً ، ربما كان على وشك قول شيء آخر .

في تلك اللحظة فُتح الباب . دخلَت الدكتورة هيو . كانت قراءة تعبيرات وجهها مستحيلة . الندم؟ العزيمة؟

لم تلقِ التحية ، وإنما أشارت لنا فقط في اتجاه المدخل . «أرجو أن ترافقاني إلى مكتبي» .

تبعتُها على الفور . ووقف كوان هناك والكوب في يده ، كما لو أنه لم يعرف ما يفعل به .

ثم استجمعَ نفسه أخيراً ، ووضعه سريعاً على الطاولة ، وتراشق بعض الشاي على الحافة . لاحظ ذلك وتردَّد .

هل سيضيعُ الوقت في مسحِه؟ كلا . استقام بسرعة وجاء في إثرنا .

سارت هي أولاً ، لم ننظر أنا وكوان إلى بعضنا البعض ، يجب أن يبقى ذلكَ الشيء الكبير دون أن يُقال . أبقينا أنظارنا عليها فقط . كان ظهرها مُستقيماً في المعطف الأبيض . تحركَت بسرعة وخفة . كان شعرُها مضموماً في ضفيرة ذيل فرس وتأرجح كما لو أنه شعر فتاة صغيرة .

فتحَت باباً ودخلنا غرفة رمادية . غرفةً بلا شخصية . لم تكن فيها صورُ أطفال تزين الجدران ، وإنما هاتف فقط على المكتب .

«اجلسا ، رجاءً»

أشارت إلى مقعدين وسحبت كرسيَّها إلى الجانب الآخر من المكتب ، بحيث لا يفصل بيننا . ربما كان ذلك شيئاً تعلموه أثناء دراستهم ، أنَّ المكتب يعطيهم سلطة ، وعندما يتحدثون عن شؤون جدية ، فإن من الأفضل أن يقتربوا من نظرائهم من الكائنات البشرية بأكبر قدر ممكن .

كانت ستقول شيئاً خطيراً . فجأة تمنيتُ لو أنها جلست في مكان آخر ، ليس قريباً . وانحنيتُ إلى الخلف ، بعيداً عنها .

«هل يمكن أن نراه»؟ سألتُ بسرعة . وفجأة لم أجرؤ على طرح أسئلة أخرى . *كيف تجري الأمور ، ما الذي يحدث له ، ما الذي حدث لا بننا* ؟

نظَرت إليّ . «أخشى أنكما لن تتمكنا من رؤيته بعد . . . وللأسف ، تم إعفائي من المسؤولية عن ابنكما» .

«أعفيتِ من المسؤولية؟ ولكن لماذا . . .»؟

«عملنا على عدد من الفرضيات المتصلة بالتشخيص . ولكن . . . ما يزال الأمر غير واضح» . ارتعشَت نظرتها . «على أي حال ، الحالةُ معقدة جداً حتى أنها تقع خارج اختصاصي» .

انتابني شعور ضعيف بالغَوث . الكلماتُ الأسوأ لم تُستخدم . لم تقل رحَل ، مات ، توفي . قالت أن الوضع معقد ، وأن لديهم فرضيات . يعني ذلك أنهم لم ييأسوا ولم يتخلوا عنه .

«نعم . جيد . من الذي تولّى المسؤولية»؟

طار فريقٌ من بكين مساء أمس . سوف أعطيكما أسماءهم بمجرد أن أعرفها أنا نفسي .

«بكين»؟

«إنهم الأفضل» .

«وفي الأثناء»؟

« . . . طُلِب مني أن أخبركما بأن عليكما الانتظار . أن بإمكانكما الذهاب إلى البيت» .

«ماذا؟ كلا»!

التفتُّ نحو كوان . ألن يقول شيئاً؟

تململَت الدكتورة هيو في مقعدها . «إنه في أيدٍ أمينة» .

«لن نغادر من هنا . هذا ابننا» .

«طُلِب مني أن أقول لكما أن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن نعرف المزيد . ليس هناك شيء تستطيعان فعله هنا الآن . كانت حالة وي-وِن خاصة جداً» .

تصلبتُ . *كانت* .

سُمعت الكلمات بالكاد عندما فتحتُ فمي أخيراً .

«ما الذي تحاولين أن تقوليه»؟

نظرتُ إلى كوان ثانية طلباً للعون ، لكنه جلسَ بلا حراك . استقرّت يداه ساكنتين في حضنه . لم يكن سيطرح الأسئلة . استدرتُ لأواجهها مرة أخرى .

جاءت الكلمات من أعماق بعيدة في داخلي : «هل هو حيّ؟ هل وي-وِن حي»؟

انحنتْ إلى الأمام قليلاً ، سحبَت رقبتها ورفعت رأسها في اتجاهنا ، مثل سلحفاة تطل من قوقعتها . كانت عيناها مستديرتين ، متوسلتين ، كما لو أنها تلتمس منا أن لا نلح عليها بالأسئلة بعد ، ولم تعرض أي علامات على الإجابة .

«هل هو حيّ»؟

تردَّدت . «آخر مرة رأيته فيها ، كان . . . على قيد الحياة بوسائل اصطناعية» .

بجانبي شهَق كوان . رأيت أن خديه مبتلان ، لكن ذلك لم يهمّني .

«ما الذي يعنيه هذا؟ أنه لا يزال حياً ، هذا يعني أنه لا يزال حياً»؟

هزت رأسها ، ببطء .

حيّ . تشبثتُ بالكلمة . حيّ . كان حياً .

«وإنما ليس بلا مساعدة» ، قالت بصوت منخفض .

لم يكن ذلك مهماً . أرغمتُ نفسي على التفكير بأنه لم يكن مهماً . أهم شيء هو أنه ما يزال حياً .

«أريد أن أراه» ، قلت بصوت عالٍ . «لن أغادر حتى أراه» .

«أخشى أن هذا غير ممكن» .

«إنه ابني» .

«كما قلتُ لك . لم أعُد مسؤولة عنه» .

«لكنكِ تعرفين أين هو» .

«أنا آسفةٌ حقاً . . .» .

وقفتُ على قدميَّ فجأة . رفع كوان رأسه ، ونظر إليّ باندهاش . لم تلتقِ عيناي بعينيه . أدرتُ وجهي نحو الطبيبة .

«أريني أين هو» .

جورج

أرسلتُ ريك وجيمي إلى البيت نحو الساعة الخامسة . كانَ ثلث الخلايا فقط قد تبقى . وأستطيع إدارة ما تبقى بنفسي . لم أكن أستطيع أن أدفع لهما مقابل ساعات ليست ضرورية بالمعنى الدقيق للكلمة .

قرب غروب الشمس كنتُ قد انتهيت تقريباً . وفي الوقت نفسه تقريباً ، هاجمت الحقل أسراب من الذباب العنيد . أين كانَت خلال النهار ، لم تكن لدي فكرة . لكنها تظهر عند الغروب ، سحابات كبيرة منها ، من المستحيل التخلص منها . بدا كما لو أنها تحبُّ الناس ، لأنها كانت في كل مكان عليّ ، تتبع كل خطوة من خطواتي .

لم يكن هناك شيء يمكن فعله سوى العودة إلى البيت . وكنتُ في طريقي إلى السيارة عندما اتصل توم . لم أكُن قد حفظت رقمه على الهاتف ، بصراحة لم أعرف كيف ، لكنني ميزته .

«هاي ، بابا» .

«هاي» .

«أين أنت»؟

«لماذا تسأل»؟ قلتُ ضاحكاً .

«أنا . . . لا أعرف . . .» .

«اعتاد الناس أن يبدأوا المحادثات بـ - كيف حالك - ، والآن ، منذ الهواتف المحمولة ، أصبح الناس يسألون أين أنت» ، حاولتُ أن أشرح .

«نعم» .

«أنا في الخارج في الحقول . أقوم بمراقبة الجودة» .

«أوه . هل تبدو الأمور جيدة»؟

«رائعة» .

«جيد . جميلٌ سماع ذلك . هذا يسعدني» .

هذا يسعدني؟ بدت الكلمات غريبة في فمه . هل هذه كيفية بدايته الحديث؟

«ماذا تظنُّ أن ذلك يعني ، بالمناسبة»؟ سألتُ .

«يعني»؟

«عن المجتمع؟ أن نسأل بعضنا بعضًا أينَ ، بدلاً من كيف تسير الأمور»؟

«بابا . . .» .

«أنا أمزح ، توم» .

حاولتُ أن أضحك . وكالعادة ، لم يضحك في المقابل . صمتنا بضعَ ثوانٍ . ضحكتُ بصوت أعلى ، آملاً أن يساعد ذلك ، لكنني عندما كنت أقفُ هناك وفمي مفتوح فقط مثل أبواب الكنيسة يوم الأحد ، طارت ذبابة إلى داخل مصيدتي ، كلَّ الطريق إلى الداخل . وأستطيع أن أقسم أنها ضربت لهاتي . وقد دغدغَت شيئاً هناك بشراسة ، ولم أعرف ما يجب أن أفعل ، إذا كان يجب أن أحاول أن أسعلها إلى فوق أم أبتلعها إلى تحت ، ولذلك حاولت فعل الأمرين في الوقت نفسه . ولم ينفع .

«بابا» ، قال توم فجأة . «تعرفُ ذلك الشيء الذي تحدثنا عنه آخر مرة كنتُ فيها في البيت»؟

تملصَت الذبابة ودغدغَت الجزء الخلفي من حنجرتي .

«هل أنتَ هناك»؟

سعلتُ مرة أخرى . «نعم ، آخر مرة حضرت» .

صمَت لحظة .

«حصلتُ على منحة دراسية» .

استطعتُ أن أسمعه يستنشق الهواء . طقطق الخط بيننا ، كما لو أن إشارات الهاتف تعترض على محادثتنا كلها .

«لن أكلفكَ سنتاً واحداً ، يا أبي . لقد اعتنى جون بكل شيء» .

«جون»؟ كان صوتي أجشاً ، كانت الذبابة جيدة فالتصقت بحنجرتي .

«نعم . البروفيسور سميث» .

تنحنحتُ ، وسعلتُ بعنف ، ولكن لم تخرج الذبابة ولا الكلمات .

«هل تبكي يا أبي»؟

«أنا متأكدٌ بحق الجحيم أنني لا أبكي»!

سعَلتُ مرة أخرى . وأخيراً أفلتت الذبابة ، وانزلقت على لساني ، لكنها ظلَّت في فمي .

«كلا» ، قال .

صمتٌ آخر .

«أردتُ فقط أن أخبرك» .

«الآن أخبرتني» .

لا أستطيع أن أبصق الآن . سوف يسمَع ذلك .

«نعم» .

«نعم» .

«مع السلامة ، إذن» .

«مع السلامة» .

بصقة واحدة قوية واختفت الذبابة ،لم أرها في أي مكان . ولم أكن مهتماً كثيراً بدراستها أكثر من ذلك أيضاً .

وقفتُ هناك والهاتفُ في يدي . خالطتني رغبة قوية بضربه في الأرض ، وأن أرى هذه الألكترونيات الرخيصة التي جعلت من الممكن استقبال مثل هذه الأفكار السيئة حتى بينما المرء بعيد في الحقول ، وهي تتحطم وتطير في كل الاتجاهات . لكنني كنتُ أعرف أن الحصول على هاتف جديد هو شأن يسبب صداعاً جهنمياً . كما أنه سيكلف نقوداً . إلى جانب أنه لم يكن أكيداً أن الهاتف الخلوي يمكن حتى أن يتعطل ، كان العشب طويلاً ، ولينا مثل لحاف . وهكذا ، وقفتُ هناك فقط ، ويدي تمسك بالهاتف ، ومِذراةٌ مغروسةٌ في قلبي .

وليام

كنتُ في طريقي إلى الخروج من العمى ، وكنتُ آكل بشكل جيد وشرعت ببطء ، وإنما بثبات ، بممارسة الرياضة . كنتُ أستحم كل يوم ، وأطلب ملابس مغسولة حديثاً في كثير من الأحيان ، وأحلق ذقني مرتين في اليوم أحياناً . بعد تلك الأشهر التي أمضيتها مثل شامبانزي ملتحٍ ، أحببتُ نعومة وجهي ، والشعور بالهواء مباشرة على جِلدي .

قرأتُ حتى آلمتني عيناي . واستطعتُ أن أتحمل أكثر كلَّ الوقت ، كلماتٍ أكثر في اليوم ، وأقضي أياماً كاملةً على مكتبي ، محاطاً بكل كتبي ، مفتوحةً على الطاولة ، وعلى السرير ، وعلى الأرض .

قرأتُ سوامردام ؛ ما يزال بحثُه قوياً صلباً . درستُ خلية هوبر بالتفصيل ، إطاراته العملية المتحركة ، وطلبتُ أيضاً ما أصادفه على الطريق من النشرات والمجلات عن ممارسة تربية النحل . كان هناك الكثير منها ، كما تبيّن . بالنسبة للطبقة العليا أصبحت تربية النحل هواية لتزجيةِ الوقت في السنوات الأخيرة ، شيئاً يملأ به المرء الساعات الطويلة بين الغداء وشرب الشاي . لكن معظم تلك الكتب الإرشادية الصغيرة كانت مكتوبة بطبيعة الحال من أجل الإنسان العادي ، بلغةٍ بسيطة مع رسومات خطية بسيطة . وبالنسبة لشخص مثلي ، لم يستغرق تصفحها والفراغ منها وقتاً طويلاً . ووصفَت البعضُ منها تجارب مع الخلايا المصنوعة من الخشب ، بل إن البعض ظنّت أنها اكتشفت ما يجب أن يكون المعيار الجديد للخلية ، لكنَّ أياً منها لم يكن قد تمكن حتى ذلك

الوقت من ابتكار خلية تعطي المربي حقاً وصولاً إلى النحل وإشرافاً كاملاً عليه . ليس مثل الخلية التي أعرفُ أنني أستطيع صناعتها .

أصبحَت دوروثيا تزورني يومياً الآن . جاءت بخدَّين أحمرين مثل التفاح وأطباق صغيرة حضَّرتها بنفسها . يجبُ أن تكون تيلدا هي التي طلبت منها أن تفعل ذلك ، على أمل آن آكُل أكثر عندما أعرف أن طفلتي حضَّرت الوجبة بيديها . وهو افتراض يجب أن أعترفَ بأنها كانت محقة بشأنه . بدا الطعام جيداً بشكل مدهش ، وكانت دوروثيا بوضوح بصدد التحول إلى ربة منزل مناسبة . كما جاءت جورجيانا أيضاً بين الحين والآخر . مثل موجة كانت تندفع عبر الغرفة بصوتها الصبويّ الواخز وتمسحُ كل شيء أفكر فيه ، إلى أن تذهب فجأة مرة أخرى . وكانت شارلوت هي الأقل إزعاجاً ، حيث تضع أنفها الحاد بالباب وتسألُ في العادة عما إذا كانت تستطيع أن تستعير كتاباً ، واحداً لا أحتاجه أنا في تلك اللحظة . كانت تلتقط كتباً جديدة كلَّ الوقت ، وسوف تنتهي قريباً بالتأكيد من قراءة كلِّ شيء لديَّ ، كانت تقرأ بسرعة كبيرة .

لكنَّ إدموند لم يأتِ أبداً . في المساءات كنتُ أستطيع أن أسمع صوته قادماً من الطابق السفلي في بعض الأحيان ، أو من الحديقة ، أو حتى من الممر خارج غرفتي ، لكنه لم يمنحني أبداً متعَة حضوره .

أخيراً ، ذهبتُ أنا لرؤيته .

حدَثَ ذلك في أول المساء . كان السلام والهدوء قد عادا إلى البيت بعد شاي بعد الظهيرة . وسوف يمزقه الضجيج قريباً عندما تُقدَّم وجبة المساء ، لكنه كان صامتاً الآن .

طرقتُ بابه برفق . لم يُجب أحد . رفعتُ يدي في اتجاه المزلاج ، لكنني ترددتُ ، وأردتُ أن أعطيه الوقت . بدلاً من ذلك وضعت يدي على وجهي ، لأحكَّ الخد المحلوق بنعومة . كنتُ قد هيأتُ نفسي قبل أن أذهب ،لبست بنطالاً نظيفاً ،واغتسلتُ . تمنيت بقوة أن يرى هذه النسخة الجديدة مني ، وأن ينسى النسخة التي قابلها آخر مرة .

لم يأتِ إلى الباب ، وحاولتُ أن أطرقه مرة أخرى .

لا جواب .

هل أستطيعُ أن أدخل على كل حال؟ كانت تلك غرفته ، غرفته الخاصة . ولكن ، مع ذلك ، كنتُ أنا والده ، والبيت ، وبذلك غرفته أيضاً ، كانت كلُّها لي .

نعم ،أستطيع . إنه حقّي .

دفعتُ المزلاج بعناية إلى أسفل . انشق الباب وانفتح ، وبقي مواربا ، مُرحِّباً . كانت الغرفة في شبه ظلام ، وجاء الضوء الوحيد من المشهد الذي تغسله الشمس في الخارج .لكن الغرفة تواجه الشرق ولذلك لم تصل شعاعات الشمس المسائية إلى هنا .

دخلتُ واكتشفتُ مفتاحاً في الباب من الداخل . هل يقفلُ الباب في العادة؟ كان الهواء متجهماً ، برائحة تشبه المسك ، وشيءٍ آخر لم أستطع تحديده . وتناثرت الملابس بلامبالاة في كل مكان ، سترة فوق المقعد ، سروال وقميص على السرير . وفوق المرآة هناك وشاح ، نفس الوشاح الأخضر الزجاجي الذي كان يضعه عندما زارني . وعلى طاولته الليلية كانت أكواب وأطباق قذرة ، وهناك زوج من الأحذية غير المصقولة ملقى في وسط الأرضية .

وقفتُ هناك فحسب . وغمرني شعور بعدم الارتياح . هناك شيء خطأ في هذه الغرفة . ثمة شيء أو آخر ليسَ على ما يرام .

هل هو الفوضى؟

كلا . إنه صغير . وهو رجل . طبعاً ستكون غرفتُه هكذا . يجب أن أجعل واحدة من الفتيات الصغيرات تساعده في إبقائها مرتبة .

ليس الفوضى ، وإنما شيئاً آخر .

نظرتُ حولي . ملابس ، أطباق ، أحذية ، وكوب .

ثمة شيء ما كان مفقوداً .

فجأة عرفتُ ما هو .

مكتبُه . كان فارغاً . والرفُّ بجانب الجدار . فارغ .

أين ذهبت كل كتبه؟ أين هي مواد كتابته؟ كل شيء يحتاجه من أجل التحضير لدراسته .

«أبي»؟

استدرتُ . مرة أخرى ظهَر دون أن أسمعه .

«إدموند» . تملَّصتُ . هل يجب أن أخرج؟ كلا . لأن لي كلَّ حق في أن أكون هنا . كلَّ حق .

«نسيت شيئاً» . كان يتنفس بصعوبة وخداه متوردان ، كان بوضوح في الخارج . كان أنيق الملابس اليوم أيضاً ، ولو بعشوائية ، بسترة حمراء مخملية ، ومعطفٍ مفتوح ومنديل ملفوف حول عنقه . كان يحمل محفظة في يده ومشى بسرعة نحو الخزانة الصغيرة قرب الجدار القصير بجوار السرير . هناك صندوق صغير فوقها ، فتحه وشرع في تفتيشه . سُمع

صوت جلجلة القطع النقدية . فتح محفظته وأسقط بضع قطع نقدية فيه . ثم التفتَ أخيراً في اتجاهي .

«هل كنتَ تريدُ شيئاً»؟

لم يكن ساخطاً من سماحي لنفسي بدخول غرفته . بدا من الواضح أن ذلك لم يكن مهماً على الإطلاق .

«إلى أين أنت ذاهب»؟ سألتُ .

أشار إلى الفضاء ، في اتجاه لا شيء . «إلى الخارج» .

«أين هو هذا -الخارج-»؟

«أبي . . .» . وابتسم ، مستسلماً كما يبدو . لم أستطع تذكر آخر مرة رأيته يبتسم فيها ، وبالطبع لم يكن مديناً لي بأي تفسير .

«يجبُ أن تسامحني» ، ابتسمتُ له . «نسيتُ أنك لم تعد طفلاً» .

سار في اتجاه الباب مرة أخرى . خطوتُ خطوة إلى الأمام . هل كان مغادراً مسبقاً؟ ألا يستطيع أن ينتظر قليلاً ، حتى تكون لديه الفرصة ليراني ، أن ينظرَ إلي كما يجب ، ويلاحظَ كم كنتُ معافىً ، كم كنتُ مهندماً ، ومختلفاً تماماً عن الشخص الذي كنتُه آخر مرة تحدثنا فيها؟

تردَّد وتوقف . وقفنا هناك على جانبي الباب ، وانفتح ظلام بيننا . خطوتان وسيكون قد ذهب .

«هل يمكنني أن أسألك شيئاً»؟ قال .

«طبعاً . يمكنك أن تسألَ عن أي شيء في ذهنك» .

ابتسمتُ بترحاب . الآن ستكون هناك محادثة جيدة على الطريق ، ويمكن أن تكون هذه بداية لنا ، بدايةً لشيء جديد تماماً .

سحب نفَساً . «هل لديكَ أي نقود»؟

دُهشت . «نقود»؟

لوح بمحفظته وارتسم على وجهه تعبير مشوه . «خاوية تقريباً» .

«أنا . . .» . لم أتمكن من الإجابة . «أنا آسف» .

هز كتفيه . «سيكون عليّ أن أسأل أمي» .

ثم اختفى خارج الباب .

ذهبتُ إلى غرفتي ، شاعراً باكتئاب غريب . هل كنتُ مجرد مموِّنٍ في عينيه؟ هل كانت النقود هي كل ما يريده مني؟

جلستُ بجوار المكتب . كلا ، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك . لكن النقود . . . ربما تمثل له كل شيء يفتقر إليه . الفقر الذي عاشت فيه العائلة خلال الأشهر الأخيرة . . . كان غير مفهوم تماماً حتى أنه أثر عليه . بالنسبة له ، كان عدم وجود المال أوضحَ إشارة على أن والده مريض . أما أنني خرجت من السرير ، فكان كله جيداً وحسَناً ، لكنني لم أكن قد تدبرت بعد أمر شراء ما يحتاج إليه حقاً . كان شاباً . بالطبع كانت هذه الحاجة البسيطة العارضة هي الأكثر أساسية بالنسبة له . لكنه كان يجب أن يعطيني الوقت . لأن فكرتي يمكن أن تعطيه الشيء الذي يعرف أنه يحتاجه مباشرة وما سيفهم على المدى الطويل أنه هو الأكثر أهمية على الإطلاق .

غمستُ قلمي في المحبرة ورسمتُها على الورق . لم أكن أبداً ذلك الرسام البارع ، للأسف . كعالم حيوان ، تُشكل رسومات الملاحظات جزءاً مهماً من العمل ، لكنني مع ذلك أجبرتُ نفسي على العمل لتحسين أسلوبي على مر السنين ، والآن أصبحت أستطيع على الأقل أن استخدم القلم كأداة .

كانت لديَّ بعض الأفكار الغامضة التي يجب أن أدونها قبل أن تختفي . تصورتُ صندوقاً من الخشب ، بسقفٍ مائل . كانت خلايا السِّلال عضويةً في التصميم ، مثل عش ، ممتزجةً تقريباً بالقش المتموج في السهول . أردتُ أن أخلق شيئاً آخر ، بناءً متأسساً على الحضارة ، بيتاً صغيراً للنحل ، بأبواب ، وفتحات ، وإمكانية تفقده . يجبُ أن يكونَ من صنع الإنسان ، لأنَّ البشر فقط يمكنهم أن ينشئوا المباني المناسبة ، بناية يكون من الممكن مراقبتها ، والتي تعطي البشر ، وليس الطبيعة ، إمكانيةَ السيطرة .

رسمتُ لعدة أيام ، مقاييسَ رسومات للأجزاء المختلفة ، وتصورتُ كيف يمكن وضع الخلية قيدَ الإنتاج ، ووضعتُ كل طاقتي في التفاصيل . وفي الغضون ، عاشت العائلة حياتها الخاصة في البيت هناك خارج الغرفة . وأنا بالكاد منحتها أي اهتمام ، لكنني تلقيتُ مع ذلك زيارات يومية من جورجينا وتيلدا . وشارلوت .

ذات صباح ، جاءت مبكرة بشكل خاص . طرقَت الباب بهدوء ، كما هي عادتها .

في البداية لم أجِب ، كنتُ منشغلاً جداً بتفاصيل سقفِ خلية النحل .

طرقة أخرى .

«نعم» ، وتنهدتُ .

فُتح الباب . وقفَت هناك وقد وضعَت قدماً أمام الأخرى ، كما لو أنها تستجمع قوتها .

«صباح الخير يا أبي» :

«صباح الخير» .

«هل أستطيعُ أن أدخل»؟ كان الصوت هادئاً ،لكن نظرتها انخفضَت متردِّدة بشكّ في اتجاه الأرض .

«أنا أعمل» .

«لن أزعجك . أريد فقط أن أعيدَ هذا إليك» .

مدَّت كتاباً . أمسكَته بكلتا يديها ، كما لو أنه شيء قيّم . خطَت بضع خطوات على الأرض ، رفعَت رأسها ونظرت إليّ .

«كنتُ آمل أن نستطيع التحدُّث عنه قليلاً»؟

كانت عيناها خضراوين رماديتين ، متقاربتين . ليس كعيني تيلدا . بالمجمل ، كانت تتمتع بشبه قليل جداً بوالدتها .

«ضَعيه هنا» .

أشرتُ في اتجاه رف الكتب . بنظرة موحية ، واحدةٍ أملتُ أن تكون كافية لتعفيني من رفضِ طلبها مباشرة .

«نعم» . خفضت رأسها ثانية وذهبَت إلى الرف ووقفَت هناك .

فكرتُ أكثر في الأمر . كنتُ مشغولاً في الحقيقة ، ولكن ليسَ مِن سبب لأكون حاداً بنفس المقدار . «أنا وسطَ شيء ،لكني سأكون سعيداً بالحديث معكِ لاحقاً» ، قلت بما أملتُ أن يكون صوتاً لطيفاً .

لم تُجِب ، وإنما نظرت فقط إلى الكتاب الذي ما تزال تمسكُه بيديها .

«أين أضعُه»؟

«على الرف ، طبعاً» .

«نعم ، ولكن . . . أعني . . . أليسَ لديكَ نظام لها»؟

«كلا ، فقط ضعيهِ هناك» .

رفعَت أنظارها ، متحمسةً الآن .

«ربما أستطيعُ أن أرتبَها لك»؟

«ماذا»؟

«الكتب . أستطيعُ أن أرتبهَا بالحروف الأبجدية حسب المؤلف ، إذا أحببتَ» .

لم تكن تستسلمُ ، بوضوح .

«حسناً . . . نعم . . . لِمَ لا» .

ابتسمَت قليلاً ، انحنَت نحو الرف وجلسَت على الأرض . كان عنقها خطاً منحنياً بروعة ، وشعرها ملمومًا ببساطة ، من دون تجاعيد لولبية فوق الأذنين . لم يبدُ أنها تهتم بهذا النوعِ من الأشياء . قرفصَت ، وغيَّرت وضعَها ، ووجدَت بوضوح وضعاً مريحاً يمكن أن تبقى عليه فترة من الوقت . كان من الواضح أنها ستبقى هناك لبعض الوقت .

ثم شرعَت في العمل . عملَت بسرعة ، وكانت حركاتها دقيقة . والعناية التي عاملَت بها الكتب . . . كما لو أنها عصافير صغيرة تساعدها في العودة إلى العش .

انحنيتُ على الرسم مرة أخرى ، لكنني لم أستطع الامتناع عن النظر إليها . الحماس في حركاتها ، الدقة في التفاصيل ، التركيز ، الحرص ، كلُّ كتاب اصطفَّ تماماً بجوار الذي يليه . كانت تُجري أصبعها على أعقاب الكتب لتتأكد من أن لا يبرز واحد عن الصف . هكذا كنتُ أرتبها أنا نفسي ذات مرة . لا بد أن تكون قد لاحظت نظرتي لأنها استدارت فجأة وابتسمت . رددتُ على ابتسامتها بشكل عابر وأعدتُ انتباهي إلى عملي مرة أخرى ، مع الشعور غير المفهوم بأنني اكتُشِفت .

سرعان ما انتهت . استطعتُ أن أسمع أنها نهضَت على قدميها ، لكنني تظاهرتُ بأن ذلك لم يؤثر عليّ ، كما لو أنني كنتُ منغمساً جداً في عملي . لكنها لم تغادر الغرفة ، وإنما بقيت واقفة هناك فحسب .

رفعتُ رأسي . «شكراً لكِ» .

هزت رأسها رداً . لكنها لم تكن تنوي المغادرة؟ كان من المستحيل أن أعمل وهذا الظل من اللحم والدم يقفُ هناك متنفِساً فوقي .

«أنتِ . . . أنتِ على الرحب والسعة للجلوس» ، قلتُ ، أخيراً وسحبتُ مقعداً . كنتُ مديناً لها بهذا المقدار .

«شكراً لك» . سارعَت إلى الجلوس على حافة الكرسي .

استأنفتُ العمل مرة أخرى .

«ما هذا»؟ سألَت وأشارت إلى الرسم .

نظرتُ إليها . «ماذا تظنين»؟

«خلية نحل» ، أجابت بسرعة .

نظرتُ إليها مندهشاً . ثم أدركتُ أنها شاهدت بالتأكيد كل الكتيبات التي أرسلتُ في طلبها .

«هل ستقوم ببنائها»؟ سألَت .

«سوف أجعلها تُبنى» .

«ولكن . . . هل هذا هو أول شيء ستفعله»؟

«الأول؟ ألا ترين كلَّ الكتب التي قرأتها مسبقاً»؟ ولوحتُ من حولي .

«نعم» ، هو كلُّ ما قالته . ثم حدَّقت في يديها ، اللتين استراحتا مطويتين في حضنها .

تصاعد التوتر في داخلي . «ألم تقولي أنك ستظلين هادئة»؟

«اعذرني ، أنا هادئة الآن» .

«أستطيعُ أن أسمع العجلات تهدر في عقلك» .

«الأمر فقط أنه . . . .» .

«ماذا»؟

«لقد قلتَ دائماً أن على المرء أن يبدأ من الأساسيات» .

«إذن ، أنا قلتُ هذا»؟

نعم في الحقيقة . كنتُ قد فعلت . ليس لشارلوت مباشرة ، وإنما لإدموند ، عندما كان يجلس مع عمله الدراسي وأراد أن يبدأ مباشرة بأصعب الحسابات ، حتى مع أنه ما يزال لا يتقن عمليات الضرب البسيطة .

رفعَت أنظارها .

«كما تحدثتَ أيضاً كثيراً عن كيف يبدأ علم الحيوان دائماً بالملاحظات» .

«هل هذا صحيح»؟

«وقلتَ دائماً أن الأساس يكمن في الملاحظات . وبعد الملاحظات ، يأتي المنطق والحسابات» .

تكونَت عُصابة حول جبهتي وبدأت تضيق . كلماتي أنا في فمِ شارلوت . سأكون ملعوناً إذا لم تكُن على حق .

تاو

أخذتنا الدكتورة هيو معها . طابق إلى أعلى بالمصعد ، ثم ممر طويل . ثم هبوط آخر . سارت بسرعة ، وهي تلقي نظرة بين الفينة والأخرى من فوق كتفها ، ربما لم ترِد أن تُلاحَظ . تلقت تعليمات واضحة ، كما قالت ، لَن يزوره أحد . كان في جناح العزل ، حيثُ لا يُسمح لأحد بالدخول .

«ولكن» ، واصلَت الحديث لنفسها على الأغلب . «أنتِ الأم» . اختلسَت نظرة إلى كوان ، كما لو أنها تكتشفه للمرة الأولى ، وصحَّحت نفسها . «أنتما الوالدان . يجب أن يُسمح لكما برؤيته» . ارتعش صوتها عندما قالت ذلك ، كان التعاطف الجافّ من نوع تعامُل العمل الرسمي قد اختفى .

ما الذي ينتظرنا؟ وي-وِن في فراشِ المرض . شاحب . عيناه مغلقتان . الأوعية الدموية في جفنيه ، بارزة أكثر من المعتاد . الجسد الصغير ، الذي كان سابقاً ممتلئاً تماماً بالعناد والطاقة ، أصبح الآن هامداً تماماً . ذراعاه ممدودتان على جانبيه ، وقنينة بأنبوب في إحداهما . الذراعان اللذان كانا يلفان نفسيهما حول عنقي ، الخد الرطب الناعم ، الذي كان ينضغط على خدي ، كلها أصبحت محاطة بالآلات ، بالأجهزة التي تصدر أصواتاً متقطعة ، والشاشات المتلألئة . مُجدِبٌ ، أبيض . ووحيد؟

كان مسيراً طويلاً ، أم أنها سلكت طريقاً متعرجاً؟ كلما مررنا بأحد ، كانت تحني رأسها بكياسة وتُسرِّع خطوها قليلاً . وابتلَعنا المبنى . كما لو أننا في طريقنا إلى مكان بلا مخرج .

أخيراً توقفَت . وقفنا أمام باب معدني . نظرَت بسرعة حولها ، كما لو لتتأكد من عدم وجود أحد في الجوار ، قبل أن تضغط زراً . انفتح الباب مع صوت شفط . كان الباب مؤطراً بمطاط أسود مصبوب ، والذي جعله محكماً تماماً . خطونا فوق العتبة . كان صوت هسهسة أعلى يُسمع هنا ، نظام تكييف هواء يعمل بطاقته القصوى . تغيَّر ضغط الهواء . انغلق الباب وراءنا ، وسحبه الشفط إلى الإطار .

كنتُ أتوقع أن أرى أفراد الرعاية الصحية ؛ أناساً معقمين من الكادر الطبي ، لابسين الأبيض يتوافدون حولنا . أن أسمع أصواتاً صارمة ، سلطات ، يجب أن تذهبوا ، يجب أن تخرجوا ، هذه المنطقة خارج الحدود المسموحة . كنتُ قد حضَّرت الكلمات التي سأقولها . هيأتُ نفسي لأكون قاسية مع كوان . أستطعتُ أن أرى من عينيه أنه انسحَب مسبقاً ، وقفَ على جانب الدفاع ، لم يرِد أن يكون هناك ، في المنطقة المحظورة المحرَّمة .

لكن الممر أمامنا كان مهجوراً . والمهجع مهجوراً . مشينا إلى الداخل ، ودرنا حول زاوية . توقعتُ أن أرى طاولة طويلة ، قسم استقبال ، أطباء يمرون بنا مسرعين . ولكن لم تكن ثمة روح واحدة تمكن رؤيتها هنا أيضاً . قادت الدكتورة هيو الطريق . لم أرَ وجهها ، لكن خطواتها أصبحَت مترددة ، وأصبح سيرها أبطأ وأبطأ .

توقفَت أمام باب . كان هذا مصنوعاً من معدن لامع ، لا بصمات أصابع ، لا إشارات على الحياة ، كان لامعاً مثل مرآة . نافذة مستديرة في الوسط ، كوّة ، مثل التي على سفينة قديمة . حاولت أن أتطفل من خلالها ، لكنَّ أضواء السقف أشعت بحدة كبيرة ، وجعل الانعكاس المخضرُّ من المستحيل رؤية أيِّ شيء على الإطلاق .

«إنه هنا . هذا هو المكان الذي هو فيه» ، قالت .

وقفَت هناك ، بلا يقين . ثم تراجعَت .

«يمكنكما أن تدخلا وحدكما» .

وضعتُ يدي على الباب . كان المعدن بارداً بشكل غريب على جِلدي ، سحبتُ يدي على الفور للحظات . تركَت راحةُ يدي خلفها علامة رطبة وسط كل هذا التعقيم . ثم فتحتُه .

خطوتُ إلى غرفة خافتة الإضاءة . وشعرتُ بالكاد بأن كوان ورائي . استغرقتُ وقتاً لأعتاد على الظلام . وكدت أصدم رأسي بلوح زجاج امتد من الأرض إلى السقف على بُعد متر واحد فقط من الباب . خلفَه كانت غرفة مستشفى مفروشة ببساطة . خزانة . سرير . طاولة معدنية بجانب السرير . جدران عارية . سرير .

فارغ .

كان السرير فارغاً .

كانت الغرفة فارغة . لم يكُن هناك .

اندفعتُ خارجة إلى الممر مرة أخرى ، لكنني توقفت فجأة . هناك كانت الدكتورة هيو مع طبيب آخر . كانا يتحدثان بسرعة ويتهامسان . انحنى الطبيب الآخر عليها ، متوتراً وغاضباً . يؤنِّب .

جاء كوان في أعقابي ، وظل واقفاً هناك أيضاً .

«أين هو» ، قلتُ بصوت عالٍ .

استدار الطبيب نحونا وصمتَ فجأة . طويلاً ، نحيلاً ، شاحباً . بيدين قلقتَين دفع بهما في جيبي معطفه .

«ابنكما للأسف لم يعد هنا . تم إخراجه من المستشفى» .

«ماذا»؟

«تم نقله» .

«تم نقله؟ إلى أين»؟

«إلى . . .» . لم تلتق عيناه بعينيَّ . «بكين» .

«بكين»؟!

«كما ربما قيل لكما ، إننا ما نزال غير متأكدين من الشيء الذي أصاب ابنكما . ولذلك تقرر أنه سيكون بين أيدٍ أفضل مع فريق خاص» .

لم يقل كوان شيئاً . هز رأسه فقط .

«كلا» ، قلت .

«ماذا» . أخيراً نظر الطبيب إليّ .

«كلا . لا يمكنكم أن تبعدوه فقط» .

«إننا لم نبعده . لقد أرسلناه إلى أفضل الأخصائيين . يجب أن تكوني ممتنة . . .» .

«ولكن لماذا لم يقل لنا أحد أي شيء! لماذا لم يجعلونا نذهب معه»؟

الشيءُ نفسه مرة أخرى . أولاً أمي . والآن هو . أُخِذا مني ، من دون أي تفسير .

«في أي مستشفى هو»؟

«سوف يتم إعلامكم» .

«الآن»!

«لو أنكم تعودون إلى بيتكم فقط ، سوفَ نعطيكم المزيد من المعلومات قريباً» .

بلغت الأمور عندي مبلغَها . لم تعد لدي القوة لأكون عقلانية ، مسيطرة ، عاقلة . ارتفع صوتي ، وأصبح حاداً . «خذوني إلى ابني الآن! خذوني إليه»!

بخطوتين أصبحت بجانب الطبيب وأمسكتُ بكتفيه . «أريد أن أرى طفلي . هل تفهم»؟

اندفع الدم إلى رأسي ، وأصبح خداي مبتلّين ، حاولت أن أهزه ، وهو وقف هناك فقط ، غير مصدِّق .

ثم أمسك أحدهم بي بإحكام ، قيد ذراعيّ ، شلني ، وجعلني عاجزة تماماً مثلما كان هو نفسه . كوان ، مطيعاً الآن كما كان دائماً .

لم نتحدث ونحن في القطار إلى المنزل . استغرقَت الرحلة نحو ثلاث ساعات . وترتَّب علينا أن نبدل القطارات . وأن نمر عبر نقطتي تفتيش . وفحص بصمات الأصابع والكثير من الأسئلة . من نحن؟ أين نقيم؟ إلى أين نذهب؟ أين كنا؟ وأجاب كوان على كل الأسئلة بهدوء ؛ لم أستطع أن أفهم كيف فعل ذلك . كما لو أنه ما يزالُ هو نفسه . لكنه في نفس الوقت ، لم يكُن كذلك . قابلتُ نظرته مرة واحدة ؛ حدقَت فيّ عينان غير مألوفتين . أدرتُ وجهي .

قطعنا المسافة الأخيرة سيراً على الأقدام . كنا على بعد مئة متر فقط من منزلنا عندما لاحظنا المروحيات التي تحلق فوقنا . كان صوتُ القعقعة

يعلو ويهبط . في البداية اعتقدتُ بأنها فوق منزلنا مباشرة ، ولكننا عندما اقتربنا أكثر ، رأيت أنها تطير فوق الحقول ، فوق أشجار الكمثرى . فوقَ الغابة .

اجتزنا الزاوية ووقفنا . هناك ، أمام منزلنا ، حيث تبدأ الحقول ، وقف كلُّ زملائنا ، كلهم في أزياء العمل . كانوا قد أوقفوا عن عملهم ووقفوا بحياد في مجموعة صغيرة . بعضهم ما يزالون يحملون مقصات التقليم وسلال قصاصات الأغصانِ في أيديهم . كانوا هادئين ، ووقفوا هناك فقط ، ينظرون بدهشة إلى المنطقة أمامنا . وفي المدى استطعتُ أن أميز التلة حيث كنا قد تناولنا الغداء . وخلفها تقع الغابة البرية . كان الهواء فوق الأشجار ممتلئاً بالطائرات المختلفة ، وأمامنا ، عبَر جدار من الدبابات التي تتحرك بصمت ، جدارٌ بيننا وبين الحقل هناك . وخلف الدبابات كان الجنود يعملون . كانوا يقيمون سياجاً طويلاً من القماش المشمع الأبيض ، بطول عدة مئات من الأمتار . عملوا بسرعة وكفاءة ، ولم يقولوا أي شيء . سمعت فقط أصوات الارتطام بينما يدقون الأعمدة في الأرض . ووراء الجنود ، خلف السياج ، استطعتُ أن أميز أشخاصاً يرتدون بدلات تغطي كامل الجسد وخوذات . تحميهم من شيءٍ ما هناك .

جورج

لم أستطع النوم . كانت المذراة ما تزال تهتز في قلبي بعد محادثتي مع توم ، وخشخشَت كلماته في رأسي ، مرة أخرى ، وأخرى .*تلقيتُ منحة دراسية ، لن أكلفك سنتاً ، اعتنى جون بكل شيء .*

استلقت إيما بهدوء بجواري ، وتنفسَت بلا صوت تقريباً . كان وجهها ناعماً . بدَت أصغر عندما تكون نائمة . كان شيئاً وقحاً تقريباً ، أنها استطاعت أن ترقد هناك على هذا النحو وتنام فقط بينما أتمددُ أنا إلى جانبها هكذا وأعاني .

طرفَ ضوءُ مصباح في الخارج في الفناء . كان واحدٌ من مصابيح الأضواء الكاشفة على وشك أن ينطفئ ، أو ربما حدث خللٌ في الأسلاك . أصبح الخفقان أشبهَ بضوء ديسكو . ضوء قوي يومض عبر النافذة اخترق أجفاني . سحبتُ اللحاف فوق رأسي ، لكن ذلك لم يساعد ، وأصبح من الأصعب جلب الهواء إلى رئتيّ .

أخيراً نهضتُ ، حاولتُ أن أعدل الستائر ، وتمكنتُ من تغطية الشق على الجانب من حيث يدخل الضوء .

لكن ذلك لم يكن كافياً . ومضَ الضوء من خلال الستارة أيضاً . ربما كانت إيما محقة في أننا يجب أن نحصل على واحد من تلك الأشياء المقاومة للضوء التي تجعل التعتيم تاماً . كانت قد أرتني بعضها في مجلة ، وبدت مثل ستائر النوافذ العادية . لكن ذلك يجب أن يكون أفضل . الآن يجب إصلاح الضوء . الآن فوراً . ربما لن يحتاج إصلاحه إلى وقت

طويل ، عمل بسيط وسهل ، شيء يمكن إصلاحه بسرعة . كنتُ أحتاج في الحقيقة إلى إصلاح الضوء لكي أنام .

كانت ليلة دافئة . لم ألبس سترتي ، وخرجت فقط بالقميص الداخلي قصير الأكمام الذي كنتُ أرتديه في السرير . لن يراني أحد على أي حال .

كان المصباحُ معلقاً عالياً على الجدار ، وكان يجب أن أحضر سُلماً . ذهبتُ إلى الحظيرة ، وأنزلت أطول سلم عن الحائط ، ومشيت إلى الخارج ، وضعته في مكانه ، تأكدتُ أنه ثابت ، وتسلقت .

كانت القبة الزجاجية على المصباح جيدة وثابتة . لم تمكن زحزحتها . وكانت ساخنة أيضاً . دافئة بحيث استطعت فقط أن أمسكها ، وإنما ليس لوقت طويل . حاولتُ باستخدام قميصي ، أمسكتُ بالقبة داخل النسيج وأنا أديرها ، لكن ذلك لم ينفع . أخيراً خلعتُ قميصي .

ومضَت لمبةُ المصباح على فترات منتظمة ، بشكل متقطع . لن يفاجئني أن تكون هناك مشكلة في مفتاح التبديل . اعترضَت إيما كل مرة اشتغلتُ فيها بالكهرباء بنفسي . ولكن ، بصدق ، كان الكهربائيون يتقاضون منك الأجر فقط مقابل نظركَ إليهم . لا بد أنهم يكسبون الكثير من المال ، ربما كان ذلك ما يجب أن يمتهنه المرء . أو ربما كان ذلك ما يجب أن يكونَه توم . كان ذلك ليكون أفضل بكثير ، تعليمٌ قصير ، ودخل جيد . *منحة دراسية . لن أكلفك سنتاً واحداً . جون اعتنى بكل شيء .*

كان ذلك خيبة أمل ، وإنما ليس بما يكفي لتخيفني .

هناك كنتُ، عاري الصدر، مرتدياً سروالاً داخلياً قصيراً، وجوارباً وحذاء على قدمي، وأدير قبة مصباح قذرة. أخيراً ارتخَت. حملتُها هي والقميص في يدي اليسرى بينما حاولت أن أهاجم اللمبة.

«اللعنة»!

كانت ساخنة جداً حتى المقبض. ولذلكَ، ترتَّب علي أن أهبط مرة أخرى بالقبة، وأضعها على الأرض ثم أصعد السُلَّم ثانية. لحسن الحظ انفكّت اللمبة بسهولة. ولكن، خطر لي أنه إذا كانت المشكلة في الجهد الكهربائي، فربما يجب فك المصباح بأكمله، تجويف المقبض الذي يحتوى اللمبة كله. كان تركه على هذا النحو ينطوي على خطر التسبب بحريق. ربما لا يكون الأمر صعباً إلى هذا الحد.

عدتُ إلى الحظيرة لأجلبَ أدواتي. وصعدت السلم ثانية.

كنتُ أكره المفكات المصلبة. لم يتطلب الأمر أكثر من بضع دورات قبل أن يصبح الرأس المصلب للبرغي مجرد حفرة يدور فيها المفك، دون أن يتمسك بشيء. وكانت هذه البراغي الأربعة من النوع الصدئ العنيد بشكل إضافي. لكنني كنتُ أكثر عناداً. لا أستسلم، ليس ذلك النوع من الأشخاص، كلا يا سيدي.

انحنيتُ وواصلتُ الفك بكل قوتي.

أخيراً استخرجتُ البراغي الأربعة جميعاً. كان المصباح ما يزال متمسكاً بالجدار، مَطلياً معه ببقعة طلاءٍ حمراء. لكن بوسعي التعامل مع هذا القدر، قليل من المقاومة لا تخيفني. وهكذا، أمسكتُ به وهززتُه ونزعتُه.

أفلَت . وتدلت الأسلاك في أعقابه ، خارجة من الجدران مثل دود الأرض . لمستُ واحداً منها بإصبعي .

«اللعنة»!

لم تكن الصدمة قوية بما يكفي لتُفقدني توازني . ليس وحدَها . ولكنني كنتُ أحمل بيدي الأخرى المقبس والمفك . ولم يكن السلّم ثابتاً كثيراً أيضاً .

استلقيتُ على الأرض . لم أعرف إذا كنتُ قد فقدتُ وعيي عندما سقطت . كانت في ذهني صورة غائمة للسلم وهو يتأرجح وسط الهواء ، وأنا فوقه ، مثل شخصية كرتونية ما . بدأت أحس بالألم في بضعة أجزاء من جسدي ، كان يؤلمني كالجحيم .

استطعت أن أرى هناك في الأعلى الأسلاك وهي تزحف على طول الجدار ، نازلة إلى أسفل ، في اتجاهي . ركزتُ . جاءت لتستريح .

ثم ظهر وجه إيما . أشعثَ وشاحباً من أثر النوم .

«أوه ، جورج» .

«كان الضوء» .

رفعَت رأسها واكتشفَت الأسلاك خارجة من الفتحة في الجدار .

جلستُ ببطء . ببطء . استجاب جسدي ، لحسن الحظ . لم ينكسِر شيء . وكان مصباح الضوء معي في الأسفل . لقد فعلتها .

أشارَت في اتجاه السلم .

«هل تحتِّم أن تهتم بهذا في منتصف الليل»؟ مدَّت يدها نحوي ، سحبتني لأنهض . «ألم يكنِ هذا يستطيع الانتظار»؟

خطوت بضع خطوات . آلمتني قدمي ، لكنني حاولت أن لا أُظهِر كم تؤلم . كان ينبغي أن أكون مُحرجاً ، لكنني كنتُ مرتاحاً لأنني أصلحت الأمر . كنتُ شيطاناً عنيداً . ليس من النوع الذي ينسحب عندما يصبح الاستمرار صعباً .

ناولتني قميصي قصير الأكمام . وكنتُ على وشك أن أضعه من خلال رأسي .

«انتظر لحظة» .

شرعَت بنفض الأشياء عن ظهري . والآن لاحظت كم كنتُ قذراً . مغطى بالغبار والحصى من جواربي حتى فروة رأسي ، واليدان مليثتان بوحل أسود لزج من المصباح .

أزحتُ يديها وارتديت قميصي . واستطعت أن أشعر بكيف التصق عدد من الحصى بظهري ، وعلق بين جلدي والقطن الصيني المغسول . سوف يكون من المؤلم النوم عليه ، مثل السير بحصى في حذائك . لكن ما حدث حدث ، أصبحَ المصباح في الأسفل ، وهذا هو الشيء الأهم .

حملتُ السلّم وسرت نحو الحظيرة مرة أخرى . كان يجب أن أنهي ما بدأت .

«يجب أن أحضر الشريط اللاصق الكهربائي» ، قلت . «لا أستطيع أن أترك الأسلاك معلقة ومدلّاة على هذا النحو» .

«لكنك تستطيع أن تفعل هذا في الصباح»؟

لم أُجِب .

تنهدَت . «على الأقل دعني أطفئ لك التيار الكهربائي» .

التفتُّ . وهي حاولت أن تبتسم . هل كانت تسخر مني؟ لأنني نسيت أول وصية للكهربائي؟

«اذهبي ونامي» ، قلت فقط .

هزت كتفيها . ثم استدارت وسارت في اتجاه البيت .

«واسمعي ، إيما» ، قلت .

«نعم»؟ توقفَت . واستدارت نحوي .

استقمتُ ، واستجمعتُ قوتي .

«مسألة فلوريدا لن تحدث . لكي تعرفي . ليس لي . سيكون عليكِ أن تعثري على أحد آخر . أنا سوف أعيش هنا . لن يكون هناك مرافىء الخليج» .

وليام

وصلت خلية القش التي أوصيت عليها بعد ثلاثة أيام، ووجدتُ موضعاً لها في شبه ظل شجرة الحور الرجراج في الجزء الأسفل من الأملاك، في جزء الحديقة الذي سمحنا له بأن ينمو على هواه ويصبح برّيّاً. لن تكون في طريق أحد في هذا الجزء، لم يكن أحد من الأولاد يقضي الوقت هناك، وسوف يُسمح لي في الواقع بأن أعمل بسلام، وأصنع ملاحظاتي عن مستعمرة النحل، وآخذ الملاحظات وأرسم دون أن يقاطعني أحد. باعني مزارع من جنوب المدينة الخلية دون أن يرمش؛ ربما لأنني عرضتُ عليه سعراً، بدل أن أسأل كم يريد ثمناً لها. لم يحاول حتى أن يساومني، وإنما قبل على الفور، وهو ما أخبرني بأنني ربما كان يمكنني أن أحصل على الخلية بنصف السعر الذي عرضتُه.

شرح لي عن قطاف العسل، لكنني أوقفته. من الواضح أنني ليس من أجل العسل تكلفتُ عناء شراء الخلية.

حاكت تيلدا لي بدلة، لا تختلف عن بدلة المبارِز، من شرشف قديم أبيض. وترتّب عليها أن تنجزها في ثلاث مراحل، ربما غير قادرة على فهم أن قياساتي السابقة لم تعد تناسبني. وعلى يديّ، ارتديت زوجاً من القفازات المهملة التي تجعل الجلد يتعرق في الحقيقة، لكنها ضرورية تماماً للحماية.

عندئذٍ ، وقفتُ هناك ، تحت شجرة الحور ، والآن أصبحتُ أنا فقط والخلية ، أنا والنحل .

التقطتُ دفتر ملاحظات . كانت دراسات المراقبة مهمة دقيقة ، لكنها عادة ما منحتني المتعة ، لأنه هناك ، في المراقبة ، حيث بدأ كل شيء ، هناك حيث تأسس شغفي . كيف يمكن أن أنسى ذلك!

كنتُ على وشك كتابة الملاحظات عندما حدث لي شيء آخر . كم كنتُ بعيداً عن الممارسة بعد كل هذه السنوات التي مرت : كرسي .

بعد قليل عدت بمقعد بسيط ؛ متقطعَ الأنفاس ، كان العرق يجري تحت البدلة التي أصبحتُ أشعر بها الآن على جسدي ، كانت صغيرة نوعاً ما ، ضيقة تحت ذراعي وفي الساقين .

جلستُ وهدأتُ بالتدريج .

لم يكن هناك الكثير الذي تمكن رؤيته . غادر النحل الخلية وعاد ، ولم يكن هناك ما هو غريب في ذلك . كان في الخارج يجمع حبوب اللقاح والرحيق ، ويُحوِّل الأخير إلى عسل ، بينما يجلب غبار الطلع لإطعام اليرقات . كان ذلك عملاً دقيقاً وسلمياً ، منهجياً ، غريزياً ووراثياً . كان النحل جميعاً أشقاء ، لأن الملكة هي أمُّ الجميع ، هي التي أنجبتهم جميعاً ، لكنهم ليسوا خاضعين لها . إنهم خاضعون للكل ، للمجموع .

لذلك أحببتُ أن أرى الملكة ، لكن السلة غطت النحل وكل شيء يفعله في الداخل كان مخفياً .

بحذر رفعتها واختلست النظر إلى الداخل من الأسفل . اندفع النحل صعوداً وانتشر خارجاً في الهواء من حولي ، لم يكن مغرماً بأن يتم إزعاجه .

شاهدتُ أقراص العسل الممتلئة ، وذكر نحل أو اثنين ، ورأيتُ البيض واليرقات وانحنيتُ حتى أقرب . كان جِلدي يضج بالتوقع ، لأنني الآن بدأت ، أخيراً بدأت!

«وقت الطعام»!

جاء صوت تيلدا قاطعاً أزيز الحشرات وطارداً الطيور إلى الاختباء .

انحنيتُ على الخلية مرة أخرى . لم يكن ذلك يعنيني ، وجبات العائلة لم تكن جزءاً من حياتي ، لم أكن قد أكلتُ معهم منذ شهور . تدافعت البنات إلى المنزل ورائي ، واحدةً بعد الأخرى ، واختفينَ في الداخل .

«وقت الشاي»!

نظرتُ إلى تيلدا من تحت ذراعي . كانت تقف وسط الحديقة وتحدق فيّ ، بل إنها شرعَت الآن بالسير في اتجاهي .

أصدرَت شوكة جورجينا الصغيرة صريفاً على طبق فارغ .

«هش»! قالت تيلدا . «ضعي الشوكة من يدك»!

«أنا جائعة»!

وضعت تيلدا وشارلوت ودوروثيا الأطباق على المائدة . واحدًا للخضار ، واحدًا للبطاطا ، وسلطانية فيها سائل مائعٌ مثل ماء الغسيل ، يُفترض أن يشبه الحساء .

«هل هذا كل شيء»؟ أشرتُ إلى الأطباق التي قُدِّمت .

هزت تيلدا رأسها .

«أين اللحم»؟

«ليس هناك لحم» .

«والفطيرة»؟

«ليس لدينا زبدة ولا طحين للمعجنات» . حدقَت في وجهي بحزم .

«إلا إذا أردتَنا أن نأخذ بعضاً من نقود الدراسة» .

«لا . لا ، لن نمسَّ نقود دراسة إدموند» .

الآن فهمتُ فجأة لماذا أصرّت على أن أشارك في عشاء العائلة . كانت أكثر دهاءً مما ظننت .

نظرتُ حولي . كانت وجوه البنات النحيلة كلها تنظر في اتجاه الأطباق الثلاثة الكئيبة على الطاولة .

«إذن» ، قلت أخيراً . «إذن يجبُ أن نكون شاكرينَ على هذا الطعام الذي تلقيناه» .

طأطأتُ رأسي وصليت . بدت الصلاة خاطئة على لساني ، تلوتها بسرعة لكي أنتهي .

«آمين» .

«آمين» ، كرّرت الأسرة بهدوء .

من خلال النافذة ، استطعت أن أرى الخلية في المدى ، هناك في الحديقة . أخذتُ لنفسي جزءاً صغيراً من الطعام ، حتى أتمكن من العودة في أسرع وقت ممكن .

تلقت تيلدا أطباقَ السكب من بعدي ، ثم الأولاد ، واحداً بعد الآخر حسب العمر . سرني أن إدموند هو الأكبر سناً وُسمح له بأخذ حصته تماماً بعد تيلدا ، لأن الأولاد في ذلك السن يحتاجون إلى وجبات جيدة أربع مرات في اليوم . لكنه أخذ القليل ، وحدَّق في طعامه فقط . كان شاحباً ونحيلاً بشكل غير عادي ، كما لو أنه لم يشاهِد أبداً ضوء

النهار . وكانت يداه ترتعشان أيضاً ، وجبهته تتعرّق . ألم يكن على ما يُرام؟

أما البنات ، فالتهمنَ الطعام بشغف . لكنه لم يكن هناك ما يكفي لهن جميعاً . وعندما تلقت جورجيانا الصغيرة حصتها أخيراً ، لم يكن قد تبقى في الأطباق سوى بقايا .

دفعَت شارلوت واحدة من قطع البطاطا التي لديها في طبق أختها الصغيرة .

أكلنا بصمت . واختفى الطعام من أطباق البنات في بضع دقائق فحسب .

خلال الوجبة استطعتُ أن أشعر بنظرات تيلدا مسلطة عليّ . لم تكن بحاجة إلى قَولِ أي شيء . كنتُ أعرف تماماً ما تريد .

جورج

غادرتُ عند أول الضوء . أخذتُ بعض الشطائر في حقيبة وسخاناً مليئاً بالقهوة . وقدتُ السيارة كل الطريق بلا توقف . سبع ساعات متواصلة ، بلا وقفة واحدة . لم أكن قد رأيت إيما قبل أن أنطلق . بعد أن أصلحتُ الضوء ، غفوتُ نحو ساعتين على الأريكة . وهي كانت فوقاً في غرفة النوم ، ربما نائمة ، وربما لا . لم أستطع أن أحمل نفسي على الذهاب لتفقدها . لم يكن لدي الوقت . كلا . . . لم أجرؤ ، حتى أكونَ صادقاً .

آلمتني عيناي ، كانتا حمراوين بعض الشيء ، لكنني لم أكن في أي مكان قريب من النوم . لم تكلفني قيادة كل هذه الأميال شيئاً . قُدتُ متجاوزاً حد السرعة كثيراً كل الطريق ، لكنني لم أصادف الكثير من حركة السير ولا مصائد للسرعة . كانت الأمور ستكتمل لو أن قيادتي كلفتني رخصة القيادة .

في الساعة 12:25 تماماً ، وفق عقارب الساعة على لوحة القيادة ، ركنتُ السيارة في مكان عليه يافطة تقول «محجوز للبروفيسور ستيفنسون» ، لكنني لم أهتم . ستيفنسون هذا ، كائناً من يكون ، سيضطر إلى أن يجد لنفسه موقفاً آخر .

كانت مباني الكلية حمراء من الطوب ، بالطبع كانت كذلك ، فكل الكليات مصنوعة من الطوب الأحمر ، حتى مع أن الكلية ليست قديمة بشكل خاص ، لكنها بنيت لتبدو جليلة ، طويلة

وعريضة ، بنوافذ مؤطرة بإطارات بيضاء ، رُبما يُفترض أن تذكركَ بهارفارد ، أو واحدٍ من تلك الأماكن . أن تفرضَ الاحترام . لكنها لم تُخِفني .

لم آتِ إلى هذا المكان منذ أحضرنا توم إلى هنا في خريف العام الماضي . وضعناه في غرفة صغيرة سيتقاسمها مع ولد ياباني قصير يرتدي نظارة طبية . وانبعثت من الغرفة رائحة الجوارب القذرة والهرمونات . مساكين هؤلاء الأولاد ، ليس هناك أي مكان يمكنك أن تكون فيه وحيداً . لكنّ ذلك كان ، على ما يبدو ، جزءاً من الصفقة .

دخلتُ مسرعاً ، ومررتُ بصف طويل من اللويحات النحاسية التي تحمل أسماء المتبرعين للكلية . لحسن الحظ لم تكن «المناحل الخضراء» من بينها . كانت هناك خزائن عرض مختلفة تضم الكؤوس التي فاز بها طلاب الكلية في المنافسات المختلفة التي لا معنى لها ، إلى جانب صور لعمداء الكلية المتوترين . رجال ، كلهم . لم يكن هناك الكثيرين ، فقد بنيت الكلية في السبعينيات فقط ولا يمكنها أن تتباهى بتاريخ طويل بشكل خاص .

وصلتُ إلى غرفة كبيرة مستديرة بأرضية حجرية تردَّد عليها صدى خطواتي من الجدار إلى الجدار . شرعتُ في السير على رؤوس أصابعي ، لكنني عندئذٍ أوقفتُ نفسي . ليس لدي ما أعتذر عنه . لقد دفعت رسوم توم ولم يبدُ أنني أنتمي إلى هنا بالضبط . فعلياً ، كنتُ بأحد المعاني شريكاً في ملكية هذه الكلية .

سألتُ عن توم . بصوت عالٍ وواضح . من دون أي مقدمة .

كان الرجل على الطاولة هزيلاً له ضفائر، جلس ورأسه غارق في شاشة الحاسوب. فحص سجلاً من دون أن يتعطّف عليّ حتى بلمحة.

«لديه فترة حرة الآن»، قال.

واصل النقرَ على الحاسوب، وكان يلعب لعبة ما على الأرجح، وسط يوم العمل.

«الأمر عاجل»، قلتُ.

شخَر. لم يكن أداء عمله كما يبدو على رأس قائمة أولوياته.

«جرِّب المكتبة».

جلس توم منحنياً على بعض الكتب، وهو يتحدث بخفوت مع شخصين آخرين. فتاة سمراء، جميلة جداً، وإنما ترتدي ملابس تبعث على الحزن، وشاب بنظارات. كانوا بوضوح غارقين في المحادثة، يتمتمون بكثافة، لأنه لم يلاحظني حتى أصبحتُ أقفُ فوقه مباشرة تقريباً.

«بابا»؟!

قالها بهدوء، لأنه لا يسمح هنا، في معقل المعرفة هذا، بأن تستخدم صوتك.

رفع الآخران أيضاً أنظارهما. كلاهما بتعبير كما لو كنتُ ذبابة طنانة طارت إلى هنا عن طريق الخطأ.

ظننتُ أنه سيكون وحيداً، لسبب ما، جالساً هناك فقط وينتظرني، لكنه كان يعيش حياة خاصة له وحدَه، مع أناس لا أعرف شيئاً عنهم.

رفعتُ يدي في تحية ضعيفة.

«مرحباً شَريك».

ركلتُ نفسي على الفور. مرحباً شَريك؟ لا أحد يقول ذلك.

«أنتَ هنا»؟ قال.

«كُن متأكداً». جعلَ ذلك الأمور أسوأ فحسب. كُن متأكداً؟ ما هذه العبارة؟ لم أستطع أن أفكر بشكل مستقيم. أظن أنَّ ما خططتُ لقوله يجب أن ينتظر.

«هل حدَث شيء سيئ»؟ قفز على قدميه. «هل حدث شيء لماما»؟

«لا، لا. ماما جيدة مثل قوس الكمان. ها ها».

يا إلهي. كان من الأفضل لو أبقيتُ فمي مغلقاً.

أخذني خارجاً إلى ضوء الشمس. جلسنا على مقعد طويل. كان الربيع أوضح هنا مما هو في الديار، كان الهواء ثقيلاً ودافئاً. وقد انتشر الشُّبانُ حولنا في كل مكان. أولاد جامعة. الكثير من النظارات والحقائب الجلدية.

لاحظت أنه ينظر إليّ، لكنني لم أعرف فجأة من أين أبدأ.

«هل قطعتَ كل هذا الطريق إلى هنا لتتحدثَ فقط»؟

«يبدو كذلك».

«ماذا عن المزرعة؟ النحل»؟

«لن يذهبا إلى أي مكان... أعني لن يطيرا إلى أي مكان».

حاولتُ أن أضحك، لكن الضحكة خرجت خطأً وانتهى بها الأمر أشبه بسَعلة.

جلسنا بعض الوقت بصمت. استجمعتُ نفسي، تذكرت ما كنتُ قد خططتُ لقوله فعلياً.

«سوف أذهب إلى مقاطعة هانكوك في الأسبوع القادم. بلو هيل».

«أوه . أين هذا»؟

«في ماين . على بعد عشر دقائق فقط من المحيط . هل تتذكر أنك ذهبتَ إلى هناك معي»؟

«آه ، نعم . . . لا أعرف» .

«عندما كنتَ في الخامسة ، قبلَ المدرسة . ذهبنا نحن الاثنان فقط . نمنا في خيمة ، كما تعرف» .

«آه ، نعم ، تلك الرحلة» .

«نعم ، تلك الرحلة» .

صمَت .

«كانت توجد دببة هناك» ، قال أخيراً .

«لكن ذلك كان جميلاً» ، قلت ، بصوت عالٍ قليلاً .

«أما يزال هناك دِببة»؟

«ماذا»؟

«دِببة»؟

«كلا ، ليس بعد الآن» .

تذكرتُ فجأة عينيه الكبيرتين ، مستديرتين مثل الصحون في الظلام . عندما سمعنا صوت الدب من خلال قماش الخيمة .

«إنها تواجه الانقراض ، كما تعلم»؟ قال فجأة ، وقد عاد الاختيال إلى صوته مرة أخرى .

«ليسَ وحدها» . حاولت أن أضحك مرة أخرى . «والدُك العجوز أيضاً» .

لم يضحك .

سحبتُ نفَساً . يجب أن أقول ذلك ، الآن ، هذا ما أتيتُ إلى هنا لأجله .

«أتيتُ كي أطلب منك أن تذهب معي إلى ماين» ، قلت .

«ماذا»؟

«هل تريدني أن أقول ذلك مرة أخرى»؟

«الآن»؟

«يوم الاثنين . ثلاث شاحنات ، واحدة أكثر من السابق» .

«هذا جيد . إنك تتوسع»؟

«نحن نتوسع»؟

«لا أستطيع أن أذهب معك ، أبي . أنتَ تعرف هذا» .

«هناك عمل أكثر مما كان في السابق . عندما أتيت» .

«لدي اختبارات نهائية قريباً» .

«لا يجب أن يكون ذلك لأيام كثيرة» .

«لن أحصل على موافقة» .

«أسبوع واحد ، من الطراز الأول» .

«أبي . . .» .

ابتلعتُ ريقي . ذهب حديثي كله وضاع . الحديث الواضح الذي حضّرته كلَّ الطريق إلى هنا . كل الكلمات الكبيرة التي رتبتها ، مثل جنود معدنيين لامعين ، تحولت إلى سائل مصهور في عقلي . ميراث ، كنت سأقول ، هذا ميراثك . هذا هو أنت يا توم . النحل ، كنتُ سأقول ، مع وقفة دراميّة موحية ، هذا هو مكمن مستقبلك . اعطِ الأمر فرصة فقط . أعطِ النحل فرصة .

ولكن، لم تصل أي من هذه الكلمات إلى فمي.

«أستطيع أن أحصل لك على الإجازة، وأقول أن هناك شأناً عائلياً في حاجة إليك»، حاولت.

«لا أحد يحصل على إجازة لأمور كهذه».

«كم من الإجازات المرضية أخذتَ هذا العام؟ لا شيء»؟

«اثنتان... ربما ثلاثة».

«كما ترى. لا شيء تقريباً».

«لا أظن أن ذلك يهم».

«حسناً إذن، بحق الله، قل أنك مريض إذن. تستطيع بالتأكيد أن تدرس في أي مكان».

«إنها ليست الدراسة فحسب، يا أبي. يجب أن نسلّم أشياء، أوراق بحث».

«ألا تستطيع أن تفعل ذلك هناك»؟

«لا، أحتاج إلى كتب».

«خذها معك».

«كتب من المكتبة. هنا».

«إنه أسبوع واحد فقط، توم. فقط أسبوع واحد...».

«ولكن أبي. لا أريد».

رفع صوته الآن. فتاتان بشعر قصير ترتديان ملابس كان يجب أن تكون حكراً على الرجال، سراويل جينز وأحذية عسكرية عملاقة، مرّتا بنا، وهما تحدّقان بفضول.

«لا أريد» . قالها بطريقة أهدأ الآن . نظر إليّ بعينين جاحظتين ، على نحو لا يختلف كثيراً عن نظرات إيما . نظرة عادةً ما جعلتني أستسلم .

وقفتُ فجأة . لم أستطع أن أجلس هادئاً لثانية إضافية واحدة .

«إنه خطؤه ، أليسَ كذلك» .

«ماذا؟ خطأُ مَن»؟

لم أنتظر الجواب . وإنما اندفعتُ عائداً مثل العاصفة نحو جهنم الطوب الأحمر .

كان جناح الكلية يقع خلف الاستقبال .

«هيه ، إلى أين تذهب»؟

مررتُ بسرعة بصاحب الضفائر ، لم أكلِّف نفسي عناء الرد .

«هالوو»؟

نهض على قدميه ، لكنني كنتُ قد قطعت مسبقاً مسافة جيدة في الممر ، ومررتُ بمكتب إثر مكتب ، بعضها مفتوحة الأبواب . البروفيسور ولكينسون ، كلارك ، تشانغ ، لانغسلي . لمحتُ رفوفاً محملة بالكتب ، وإطارات نوافذ عميقة ، وستائر سميكة . لا شيء شخصيّ ، كل شيء يعبق برائحة المعرفة .

وسميث . ها هو ذا . بابٍ مغلق عليه لوحة نحاسية أيضاً . جعلني ذلك أعتقد بأن هناك مستقبلاً في النحاس . *البروفيسور جون سميث* .

اقترب صاحب الضفائر .

«إنه هنا» ، هتفتُ به ، ملاحظاً أنني أتنفس بصعوبة . «لقد وجدتُه» .

هز رأسه ، توقف ووقفَ هناك ، ربما لم يكن مسموحاً له أن يُدخِل الغرباء ، قبل أن يهز كتفيه ويعود متمهلاً إلى طاولة الاستقبال .

هل يجب أن أطرق الباب؟ مثل تلميذ سقيم يضع كتاباً مدرسياً تحت ذراعه؟

كلا . سوف أدخل مباشرة .

وقفتُ منتصباً ، وابتلعتُ ريقي بصعوبة . وضعتُ يدي على المقبض ودفعته إلى أسفل .

كان مُقفلاً .

بحق الجحيم .

في تلك اللحظة ، جاء شاب يمشي عبر الممر . حليق الذقن ، وبقصة شعر جديدة ، يرتدي سترة بقبعة وحذاء رياضياً . طالب .

«هل أستطيع أن أساعدك»؟

ابتسم ابتسامة واسعة . أسنان بيضاء ، معدلة إلى خط مستقيم . الكلّ يضعون أقواس التقويم هذه الأيام ، وبدوا جميعاً نفس الشيء ، كلُّ سحر الأسنان الخاصة انتهى .

«أنا أبحث عن جون سميث» ، قلت .

«هذا أنا» .

«أنت»؟

فوجِئتُ قليلاً . لم يكن بوضوح كما توقعت . من الصعب خوض مشاجرة مع هذا الشخص . بدا بريئاً بوضوح . مجردَ ولد .

«وأنت»؟ وابتسَم .

رفعتُ رأسي .

«أنا والد توم» .

«نعم» ، استمر في الابتسام ، ومدّ يده . «جميل أن أقابلك» .

أخذتُ يدَه . لم أستطع أن أرفضها بالضبط .

«جميل ، نعم . كثيراً» .

«هل ندخل»؟ قال . «أتوقع أن لديك شيئاً في ذهنك»؟

«لك أن تراهن على ذلك» . خرجت العبارة قاسية جداً .

«ماذا»؟

«لا يَهم» ، حاولت أن أطرد الانطباع بالابتسام .

«لا يهُم»؟

«نعم . أعني . . . لدي شيء في ذهني» .

فتحَ المكتب ودعاني إلى الدخول . استقبلتنا الشمس التي انسكبت من النوافذ ورسمَت شرحات واضحة في الهواء ، وسطعَت على صور مؤطرة خلف الزجاج . معظمها ملصقات . ملصقات أفلام . عودة إلى المستقبل ؛ إي تي ؛ حرب النجوم ، الفيلم الأول : قبل وقت طويل في مجرة بعيدة بعيدة . . . واو .

«اجلس أرجوك» . أشار إلى مقعد .

جلستُ . وكذلك فعل . على كرسيٍّ مكتبه . جعلني ذلك أقصرَ منه ، ولم أكن سعيداً بذلك .

«أوه ، آسف» .

وقفَ مرة أخرى ، وجلس في مقعد مقابلي . أصبحنا الآن على نفس الارتفاع . جلسنا في كرسيين متطابقين ، وكل ما ينقص كان كأس شراب .

«حسناً» . ابتسم مرة أخرى . «نعم ، ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟ أخبرني»؟

تململتُ. نظرتُ في الناحية الأخرى.

«ملصقٌ جميل». أشرتُ بذقني في اتجاه ملصق فيلم «حرب النجوم». حاولت أن أبقي صوتي هادئاً.

«أليس كذلك؟ أصليّ».

«لا تقل ذلك»!

«اشتريته من إي-باي عندما بدأتُ العمل هنا».

«كنتُ على وشك أن أقول: هل أنتَ كبيرٌ بما يكفي لمشاهدة هذا الفيلم»؟

ضحك. «شاهدتُه على الفيديو».

«هذا ما ظننتُه».

لكن لديّ كل الشخصيات. وسفينة الفضاء أيضاً. هل أنتَ من المعجبين»؟

«جنون مطلق، بحق الله». ها أنذا أعود إلى هذا ثانية. أعتقد أن عليّ مراقبة لغتي.

فجأة شرع في الغناء. اللحن الافتتاحي، بينما يلوّح بإصبع واحد في الهواء. اضطررتُ إلى إطلاق ضحكة مكتومة.

قاطع نفسه. «الأفلام لن تعود هي نفسها مرة أخرى».

«أنت محقٌّ في هذا».

جلسنا بصمت بعض الوقت. نظَر إليّ فحسب. وانتظَر.

وليام

فعلتُ كما أرادت تيلدا ، كما أمرَت نظرتها ، ولو أن كل خطوة في اتجاه المحل كانت تؤلم . كان المحلُّ قلعتي الخاصة ، مثل قلعة كانوسا ، للتكفير عن الذنب . خرجت مبكراً ، وكنتُ على الطريق قبل بزوغ الفجر . صاح ديكُ أجشّ الصوت من فناء خلفي . وسُمِعَ صوت دقّ معدني من دكان صانع سروج ، لكنني لم أرَ أحداً . كل شيء كان صامتاً في ورشة صانع العربات وصانع الساعات ومحلّ البضائع الجافة . والحانة ، المكان الخانق النتن الذي لم يسبق أن وطأته قدماي ، رقدت مغلقة عند نهاية الطريق . ثمة ضيف مخمور ، تعرفت إليه كواحد من أكثر الزبائن تردداً ، والذي لم يجد طريقه بوضوح إلى بيته وإلى سريره ، نامَ جالساً بدلاً من ذلك مستنداً إلى جدار . أدرتُ وجهي ؛ أيقظ مصيره مشاعر الاشمئزاز في داخلي . أن يفقد المرء السيطرة بهذه الطريقة ، أن يُسمح للكحول بأن تدير حياة المرء ، بأن تتولى القياد . . .

المخبز وحده كان مفتوحاً ، ورائحة الخبز الطازج المخبوز حديثاً ، والكعك ، وربما فطيرة سوامر أو اثنتين ، انتشرت خارجةً عبرَ كل شق صغير في المبنى ، حتى كادت تكون مرئية تقريباً . من حسن الحظ أن الخباز وابناه لا يزالون يعملون عميقاً في الداخل بجانب الفرن الكبير الساخن . لم يأتِ الوقت بعد لأخذ استراحة ؛ للخروج هنا إلى الشارع والاستمتاع بتدخين غليون من التبغ بينما يمر أول زبائن اليوم بالدكان . أو أن يكتشفوني .

في العادة لم أكن أفتح المحل قبل بعض ساعات إضافية لاحقاً، لكنني لم أتحمل فكرة أن أرى. لم أتحمل أن أُسأل أسئلة من النوع الجريء: حسناً الآن، إذا لم يكن ذلك الشاب. ماذا تعرف. إذن ما تزال على قيد الحياة؟ كنتَ مريضاً؟ لكن أحسن الآن؟ عدتَ لتبقى؟

كان المبنى المنخفض من الطوب الأحمر مظلماً ومغلقاً، والبقعة الصغيرة من الشارع أمامه مغطاة بأوراق الشجر من العام الماضي. رفعتُ يداً ثقيلة لإدخال المفتاح في القفل. معدن مقابل معدن، وصنع الصوت قشعريرة. لم أُرِد أن أدخل، عرفتُ ما ينتظرني في الأمام. دكان مغبر قذِر، وأيام وأيام من العمل لجعله لائقاً.

دفعتُ الباب. لم يكن عالِقاً، كان في العادة ينفتح بعد تردُّد، لكنني عندما وضعتُ كتفي عليه، انزلق منفتحاً بصمت على مفصلات مزيّتة جيداً، من دون الصريف القديم الذي كنتُ قد اعتدت عليه بمرور السنين. ذكّرتُ نفسي بأن تلك الفتاة التي كنتُ قد استأجرتها في لحظة ضعف، ابنة أخت تيلدا الضاحكة، الضاجّة، كبيرة الصدر، ربما تكون قد زيَّتت المفصلات. قدمت ألبرتا يدَين إضافيتين للمساعدةِ في منزل مليء بالأطفال، وكانت قد تجاوزت منذ فترة طويلة سن الزواج، وربما ناضجة أكثر من اللازم، حبة إجاص طرية جداً حتى أنها يمكن أن تقع قريباً على الأرض بثقل عصيرها الخاص. و كان والداها وألبرتا نفسها يدركون حدّ الألم رِقةَ حالها، مع أنه تبين أن العثور لها على شريك حياة مناسب وراغب ليست أسهل المهمات. أمِلوا في شيء من الدرجة الثانية، لكنها كانت بلا مَهر وليس لديها أي شيء آخر يمكن أن يجعلها جذابة بشكل خاص، سوى صدرها المميز. لكنها رُبما يجِب أن تُدان

على جهودها؛ ربما وضعَت نفسها بسهولةٍ مُفرطة في واجهة العرض. كانت ناضجة جداً للقطاف حتى أنها تصرفت كما لو أن كل شخص من جنس الذكور دخل إلى المحل جاءَ يقصدها. وباستثناء التلوي بطريقة مغوية على طاولة العرض والتباهي بعرض الشق الذي تفوح منه رائحة العرق الأنثوي غير السار بين نهديها لكل من يريد أن ينظر (ويشم)، فإنها لم تكن ترفع إصبعاً. ولم أستطع أن أتخيل أنها فعلت الكثير من أي شيء سوى أن تتصرفَ كسيّد في مدخل المحل بعد أن سقطتُ مريضاً حتى اضطرت تيلدا إلى ترحيلها. وبغضِّ النظر عما فعلت، فقد صنعت فوضى وجعلني حضورها الضاحك دائماً نصف مصاب بالدوار، في حالة نصف فوران بالحنق. رغبتها، هذا الافتقار إلى كبت الرغبة، وحقيقة أنها استطاعت حتى أن تسمح لنفسها بالتعبير عن هذه الرغبة... بصراحة.

المتجر يغرق في شبه ظلام. أشعلتُ بضع شمعات وتمكنت من إضاءة مصباح نحاسي. كان الداخل نظيفاً بشكل مدهش ومرتباً للغاية. الطاولة الكبيرة شبه خالية، باستثناء المحبرة، ودفتر الوصولات وميزان ثقيل من النحاس موضوع بأناقة على النهاية البعيدة. وكان مصباح السقف الضخم ملمعاً حتى الإشراق، واللمبة الزجاجية منظفة، والمصباح مملوءاً بالزيت وجاهزاً للاستخدام. في العادة كانت الأرض مغطاة بطبقة منسحقة من حبات الفلفل والملح التي تجعل السائر يشعر بها مع كل خطوة، لكنها الآن كُشِطت وأصبحت بالغة النظافة حتى أنك تستطيع أن ترى كل الخدوش، والمناطق الأكثر شحوباً في الخشب، حيث الأرض مهترئة بشكل خاص، مثل طريق تمتد من الطاولة إلى حائط الجوارير وخارجاً إلى المَخرَج. كانت تيلدا قد أخبرتني بأنها سمحت

لألبرتا بأن تعتني بالإغلاق في اليوم الأخير . لم تذكُر أن أحداً آخر دخل الدكان منذ ذلك الوقت . هل جاء أحدٌ ما إلى هنا رغم ذلك؟

مشيتُ إلى نافذة . كان الإطار حُرّاً من الغبار . لا ذبابة ميتة واحدة ، كما يمكن أن يتوقع المرء بعد كل هذا الوقت . وكان من السهل التنفس ، لم يكن الجو ثقيلاً وخانقاً ، وإنما تمت تهويته في وقتٍ قريب . انتقلتُ إلى الحائط المغطى بالأدراج الصغيرة ، ووضعت يدي على مبقض واحدٍ منها ، سحبتُ الدُّرج ونظرت فيه . كان نظيفاً بلا بُقع .

فحصتُ واحداً آخر . وجدت هذا الآخر نظيفاً أيضاً .

أحدٌ ما نفض الغبار . هل كانت ألبيرتا؟ حسب علمي تمت التوصية بها للعمل في قسم الأقمشة في محل السلع الجافة ، ولذلك اعتقدتُ أنها لم تمتلك الوقت ولا الرغبة في مساعدتي وسط كل ما يُسمى عملها المهم هناك .

بغض النظر عمَّن كان ، فإن كل ما استطعتُ أن أشعر به هو الراحة . كل شيء يلمع ، ولم يكن المحل جاهزاً للافتتاح فقط ، كان أنظف وأكثر ترتيباً من أي وقت سابق على الإطلاق .

ذهبتُ إلى غرفة المخزن ، وكانت في حدّ ذاتها قصة حزينة . كانت من حيث الوفرة مجدبةً تقريباً مثل صحراء . كنا قد نفدنا من بذور القمح والذرة ، بينما انخفضت كميات الملح والبهارات إلى النصف . وفي أدراج بصيلات الأزهار ، لم يكن هناك سوى بضع أوراق قليلة وجذور بيضاء وحيدة . كانت ألبيرتا قد أغلقت المحل عندما جاء أول الثلج . وبحلول ذلك الوقت كانت قد باعت بوضوح كل شيء لدينا من بصيلات الخريف ، حتى بعض النرجس المشكوك في صلاحيته ، والذي كان

راقداً هناك للعديد من السنوات . ولكن ، ما تزال هناك بعضُ بصيلات خريفية ودرنات لزراعة الدفيئات . في الحقيقة ، لم يكن الاختيار سيئاً على الإطلاق . انتابني شعور طيب وأنا أمسكها ، مثل مصافحة يد صديق قديم . ولكن لسوء الحظ ، كان الوقت متأخراً جداً في السنة على هذه ، متأخراً جداً على مرحلة ما قبل الزراعة داخل الأبواب ، وإذا زُرعت مباشرة في الأرض الآن ، فلن يكون لديها الوقت لتزهر قبل أن يزحف الصقيع والجليد مرة أخرى على التلال خلال ساعات الليل .

مع ذلك ، ترتَّبَ عليَّ أن أفتح المحل وأحاول بيع القدر الضئيل الذي لديّ ، وأجعل تيلدا ترى أنني أحاول على الأقل ، وبذلك أتخلص من إغاظتها المتواصلة ، حتى لو لبضعة أيام .

في الساعة الثامنة تماماً فتحتُ الباب وسمحتُ لأشعة الشمس بدخول المحل .

وضعتُ نبتَتي أضاليا في وعائين في الخارج ، كنتُ قد اقتلعتهما من الحوض في المنزل . وانحنتا بلطف في الريح وأضاءتا كامل قطاع الشارع بالأحمر والوردي والأصفر .

وقفتُ هناك ، في المدخل . كان المحل مشرقاً ومُرحِباً من خلفي . وقفتُ بفخر . كنت أكره كثيراً العودة إلى هنا ، إلى هذا المحل الذين شكّل عبئاً ، وتسبب لي بكتفين متصلبين ودوائر قاتمة تحت عنينيّ . لكنه كان الآن نظيفاً ومُرحِّباً ، مغسولاً ونظيفاً كما أحسستُ . كان المحل جاهزاً ، وأنا كنتُ مستعداً ، لأقابل القرية مرة أخرى ، وأنظر إلى العالم مباشرة في العين .

تكوّن طابور . يبدو أن القرية كلها اكتشفت أنني عدتُ من بين الأموات ، وفجأة أراد الجميع أن يشتروا بهاراتي المغبرة وبصيلات الزهور الجافة . كنتُ قد اعتنيتُ بإرسال بعض الطلبيات مُسبقاً في الصباح ، ولكن في الوقت الذي أصبحت فيه الشمس في أوجها ، أصبح من المستحيل فعل أي شيء آخر سوى انتظار الزبائن . ويفترض أن الوقت استغرق تلك الساعات القليلة فقط حتى يعلم الجميع . لم تكن المرة الأولى التي صُدمتُ فيها من سرعة انتشار القيل والقال في هذا المكان الصغير ، كان الأمر كما لو أن الثرثراتِ تتلقى المساعدة من عاصفة قريبة ، على الأقل عندما يكون شيء كبيرٌ فعلاً قد حدث . ومن الواضح أن شيئاً حدث الآن . كانت عودتي على ما يبدو من مستوى قيامة المسيح ، بالحكم من حجم الحشد .

سمعتُ الناس يتهامسون عني ، لكنه من المفاجئ كم كان ضيقي بذلك قليلاً . لأنهم لم يستقبلوني بابتسامات ساخرة وتعليقات حادة مثلما حدث بعد محاضرتي عن سوامردام ، وإنما بعيون محدقة ، ورؤوس منحنية ، وأيدٍ ممدودة بفضول منطوٍ على الاحترام . وذكّرتني لمحة من صورتي في إطار النافذة بالسبب . كان مظهري الجديد يفعل فعله حقاً . لم أعد صاحب متجر بارد . كان الوهن السمين قد اختفى . والرجل النحيل الحليق الأنيق ألهَم بالاحترام . كان مثيراً ، خاصاً ، ليس واحداً منهم . عرف القليل من الناس بيقين ما الذي أمرضني ، وإذا كانت لديهم شكوك ، فإنه ربما

يكون الخوف وليس السخرية هو الذي ملأهم . لأنني وقفتُ وجهاً لوجه مع الموت ، لكنني كافحت ونهضتُ من جديد .

كنتُ في وضع مثالي مريح . انصبَّت النقود عبر أصابعي . أحصيت وحسبتُ بسباق محموم ، بينما أثرثر مع الجميع ، وأتأكد من السؤال عن أحوال كل واحد منهم . *هل بارك الله زواج ابنتك ، فكتوريا -أليس هذا هو اسمها- بأولاد؟ ماذا عن المزرعة؟ كم مُهراً قلت؟ رائع! والمحاصيل؟ ماذا تعتقد ، هل يبدو أن المحصول سيكون وفيراً؟ ولكن ، بنيامين الصغير ، هل بلغ العاشرة ، وهل ما يزال حاد الذهن مثل سوط؟ سوف يصبح شيئاً مهماً ، ذلك الصبي .*

عندما أغلقتُ الباب في المساء ، فقد فعلتُ بحركة خفيفة دقيقة . في يدي حملت حافظة نقود منتفخة . وعلى الرغم من أن قدميَّ كانتا متعبتين من هذا الحظ الحسَن ، فإن السير بضعة أميال إلى البيت لن يكلفني كثير عناء . إنَّ كتبي تنتظرني هناك . سوف أعمل حتى منتصف الليل ، لأنني لستُ متعباً أبداً ، بل إن لدي طاقة إضافية . كنتُ قد فكرتُ بأن عليَّ أن أختار ، لكنني لم أستطع تدبُّر التعامل مع الأمرين ، الحياة والشغف معاً .

تاو

كان الوقت ليلاً وكنتُ مستيقظة مرة أخرى . لم يكن للنوم معنى ، ولا لأي شيء آخر . كنتُ في غرفة الجلوس وظهري مستندٌ إلى أحد الجدران . حنيتُ رأسي ونظرتُ إلى يديّ ، وضعتُ أطراف أصابعي على بعضها ، كانت الأظافر طويلة جداً . دفعتها تحت بعضها حتى الألم . تساءلتُ كم عليّ أن أدفعها حتى ينزَّ الدم .

كنتُ قد تمكنتُ من التعامل مع اختفاء ماما . كانت مريضة . وبدا الأمر كما لو أنها ذهبت إلى مكان جيد ، بدا جميلاً في الفيلم ، وآمناً . ولكن وي-وِن . . . احترقَت الدموع في صدري ، وضيَّقَت حلقي ، وكانت مؤلمة جداً جسدياً حتى أنني ناضلت لأتنفس . لكنني لم أدَعها تسيل .

لا أحد طلب منّا أن نذهب إلى العمل . ظهر المشرف على الفريق الذي أعمل فيه في اليوم التالي لعودتنا إلى البيت ، مع مشرف كوان . كان قد تم إعلامهما كليهما . أما من هو الذي أعلمهما فلم يقولا ، وأنا نسيت أن أسأل . وقفا يتمتمان بتلعثم خارج الباب ، لم يدخلا ، وقالا إن علينا أن نأخذ كل الوقت الذي نحتاجه .

لم نعرف إلى متى سيتركوننا في سلام .

في الأيام القليلة الأولى وصلت الهدايا إلى بابِنا . معظمها من الطعام . بضائع معلبة . زجاجة من الكاتشب الحقيقي . وحتى حبة كيوي . لم أكن أعرف أن أحداً لا يزال ينتج الكيوي بعد . ولكن لم يكن لها طعم . كما جمع أحد ما أيضاً بعض أشيائنا وعمل على إيصالها

إلينا . كل شيء كان هناك ، حتى علبة الخوخ الفارغة . أصابتني رائحتها بالغثيان .

في البداية ، استلقى كوان في غرفة النوم فقط . بكى عن كلينا . ملأ النشيج الشقة ، منتشراً عبر الغرف الضيقة . لكنني لم أستطع أن أدخل وأراه .

ثم نهض . مشينا حول بعضنا بصمت . انسربت الأيام ، عشنا في فراغ ، في شيء راكد ومغلق تماماً مثل الغرفة التي كان وي-وِن يرقد فيها . كان كوان ما يزال صامتاً . وأنا لم أكن قادرة على قول أي شيء ، لأنني لم أعرف كيف . ربما لم يكن يلومني ، ربما لم يفكر حتى بتلك الفكرة .

نعم .

التحديقة الفارغة . المسافة التي احتفظَ بها بعيداً عني كل الوقت . كان في السابق حميماً جسدياً ، والآن لم يكن جسدانا أبداً على مقربة . لكنه كان أكثر سلبية من أن يقول أي شيء . ربما لم يجرؤ . أم أنها كانت محاولة منهُ لحمايتي؟ لم أعرف .

لكنَّ هذا الشيء الذي بيننا ، كبُر حتى أصبح هائِلاً لا يُقهر . أبقى على مسافته مني ، لكنني لم أستطع أنا أيضاً أن ألمسه ، أتحدثَ إليه ، أصبح يصعبُ احتمال أن نظل في الغرفة نفسها تقريباً . كان يحركُ فيَّ الأفكار نفسها مرة تلو المرة . الكلمة نفسها . خطئي ، خطئي ، خطئي . هذا هو السبب في أن كل شيء يخصه أصبحَ مثيراً للاشمئزاز . جسده أصبح يصيبني بالاشمئزاز ، وكنتُ أمرض لمجرد التفكير بأنه يلمسني ، لكنني أخفيتُ ذلك بقدر ما أستطيع . لعبنا دور أسرة ، وإنما من دون الطفل . طبخنا الوجبات . نظفنا البيت . غسلنا الغسيل . كل الأيام

كانت متشابهة . كنا نصحو ، نرتدي ملابسنا ، نأكل قليلاً . نشرب الشاي . الشاي الأبدي . وننتظر .

ظللتُ أحاول الاتصال بالمستشفى . كنت دائماً الشخص الذي يفعل ذلك ، لأنه لم يمتلك حتى المبادرة للقيام بهذا القدر . لم أتحدث أبداً إلى الدكتورة هيو مرة أخرى ، وبعد بضعة أسابيع قيل أنها استقالت . ولم يقل الأطباء الآخرون أي شيء عن السبب .

كانت الإجابات نفسها بغض النظر عمّن أتحدث إليه : *لا نعرف أي شيء آخر . يجب أن تنتظري . بالطبع سنعثر لك على اسم . بالطبع . انتظري فقط أطول قليلاً . بضعة أيام فقط . سوف ننظر في الأمر . سوف نعود ونتصل بك . عليكِ أن تنتظري فحسب .*

على الرغم من حقيقة أننا أُعطينا كل وقت العطلة الذي ربما نحتاجه ، خرج كوان ذات يوم وهو يرتدي ملابس العمل بعد أن أخذَ حمّامه .

«الأمر سيّان» ، قال بهدوء .

فوجئتُ ، صُعِقت تقريباً ، ليس لأنه سيخرج ، وإنما من كَم كان متعافياً . ذلك ، التخلص منه ، أن أكون لوحدي ، استقبلتُ ذلك على أنه أول بقعة مضيئة في كل تلك الأسابيع الحالكة .

«هل الأمور على ما يُرام»؟ سأل .

«نعم ، اذهب فقط» .

«إذا كنتِ تظنين أن من الصعب أن تكوني وحدَك ، لست مضطراً لهذا» .

«لا ، لا بأس» .

لكنه ظل واقفاً هناك . تعلقت ملابسه فضفاضةً عليه ، أصبح حتى أكثر نحولاً من السابق . نظر إليّ فحسب . ربما توقع مني أن أقول شيئاً . أن أغضب ، أصرخ ، أنفجر فيه . ولكن لماذا توقع أن أدخل سورة غضب؟ هل أصبح ذلك أيضاً مسؤوليتي؟ حدقت عيناه الكبيرتان بي بتوسل ، وانفتح فمه الناعم قليلاً . أدرتُ وجهي ، غير قادرة على النظر إليه . ذلك الرجل الوسيم الذي كان يجعلني في السابق أنسى نفسي . الآن أردتُ فقط أن أجعله يبتعد عني بأسرع وقت ممكن .

«تاو»؟

«يجب أن تذهبَ إذا أردتَ أن تصل في الوقت المناسب قبل مناداة الأسماء» .

لم أنظر إليه . سمعتُ كيف عبَّ عدّة أنفاس ، ربما أراد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يعثر على الكلمات .

ثم اختفى . خطواته على الأرضية ، وصوت انغلاق الباب- وأخيراً تركني وحيدة في الشقة الفارغة .

ذهبتُ إلى غرفة النوم . على سرير وي-وِن ترقد منامتُه . التقطها وجلست هناك وأنا أحملها بين ذراعي . لم أرِد أن نغسلها . لقد ارتداها ليلتين فقط ، وكانت تنتظره على سريره . حتى يعود . بدا النسيج رقيقاً بين أصابعي ، أقمار مبتسمة على أرضية زرقاء . كانت ما تزال تحمل رائحة خفيفة لعرق الأطفال .

جلستُ على هذا النحو كل اليوم .

بعد ذلك بدأتُ بالتدريج بعكس نمط نومي . بينما نام كوان نومته اليدوية الثقيلة ، كنتُ مستيقظة في غرفة الجلوس . مشيت ووقفتُ هناك ،

ولم يكن قبل الفجر حتى أنهار في السرير . لم أستطع أن أستريح ؛ إذا جلستُ ، إذا استرخيتُ ، إذا نمت ، فإن وي-وِن سيذهب عندئذٍ ، إلى الأبد .

استدرتُ لأواجه النافذة . لدينا مشهد يواجه مباشرة السياج الأبيض الذي أحاط بالحقول . كان الحراس موزعين على مسافات منتظمة بطول 100 متر . استطعتُ أن أميز الصورة الظلّيّة للحارس الأقرب إليّ . كان يحدق في الفراغ ولم يتحرك . كنتُ مستعدة لأفعل أي شيء حتى أعرف الشيء الذي يحرسه .

كان السياج عالياً جداً حتى أننا لم نستطع أن نرى ما في الداخل ، ليس حتى من أسطح المنازل . كنتُ قد صعدتُ إلى هناك وحاولت . كانت هناك خيمة ممدودة فوق السياج ، والتي عبثت بها الريح باستمرار . خلال الأسابيع الأولى جاء عمال إلى هناك باستمرار لتأمينها بشكل أفضل . وفي كل يوم ظهر أناس يدفعهم الفضول لرؤيتها ، لكنهم أعيدوا جميعاً . كانت المنطقة محروسة بكثافة . وقد مشيت على طول السياج لأرى ما إذا كانت هناك أي فتحات ، أو أماكن يمكن أن يزحف المرء من خلالها ، لكن الحراس كانوا في كل مكان .

تحدث كوان عما يقوله الناس . أصبح على فريق العمل أن يعمل في حقل آخر الآن . على مسافة ميل سيراً على الأقدام من كل طريق ، وأصبح لدى الناس الكثير من الوقت للحديث . وهو سمعَهم . أصبحت التكهنات جامحة . للأمر علاقة بوي-وِن ، كل شيء حدث ، كما يظنون . السياج ، الإغلاق ، الجيش . يجب أن يكون الأمر كذلك ، لأننا كنا آخر أشخاص تواجدوا هناك . وكان وي-وِن في المستشفى . لكنهم

عندما أدركوا أن كوان يستمع ، صمتوا . وعندما يثقون بأنه لا يستمع ، يواصلون . كانت الثرثرات تدور حولنا الآن وبطبيعة مثيرة . أصبحنا هدف انتباه الجميع ولم يكن هناك شيء أستطيع أن أفعله .

لم نكن نعرف أكثر من القليل الذي يعرفونه . لقد حدث شيء لوي-وِن هناك ، وقد ذهب الآن . كان ذلك هو كل ما نعرفه .

فجأة لاحظتُ الحارس هناك . انهار بجوار السياج ، جلس وركبتاه مطويتان تحته ورأسه منغمس بلطف إلى الأمام . كان نائماً .

وليام

لم يكن بيضُ النحل يزيد عن 1.5 ملمتراً في الطول . واحدة في كل خلية ، بلون مائل إلى الرمادي على خلفية الشمع الأصفر . بعد ثلاثة أيام تفقس اليرقات ، وهي ، لأنها عادة ما تكون أنثى ، يتم إطعامها بإفراط مثل الطفل المدلل . ثم تأتي أيام النمو ، قبل أن تتلفع الخلايا بغطاء من الشمع . وهناك في الداخل ، تقوم بخلق الشرنقة ، وتحيط اليرقة بها ذاتها ، كلباس واقٍ ضد كل شيء وكل أحد . هنا ، وهنا فقط ، تكون وحيدة تماماً .

بعد 21 يوماً ، تزحف النحلة الشغالة من الخلية إلى الأخريات ، حديثة الولادة ، وإنما ليست جاهزة للعالَم بعد ، رضيعة ، لا تستطيع الطيران ، ولا تستطيع أن تأكل لوحدها ، وبالكاد تستطيع أن تتعلق على الألواح ، تحبو ، وتزحف ، وتبحث . لذلك تتلقى في الأيام الأولى مهمات بسيطة في الداخل وتتحرك في دائرة نصف قطرها قصير . تقوم بتنظيف صندوق الحضانة ، أولاً خليتها هي ، ثم أخريات ، ولا تعود وحيدة أبداً . هناك عدة مئات من الأخريات ، اللواتي يكنَّ في أي وقت بنفس مرحلة تطورها .

ثم يبدأ عملها كنحلة ممرضة ، ولو أنها ما تزال طفلة . إنها مسؤوليتها الآن أن تطعم النحلات التي لم تولد بعد . وفي الوقت نفسه تحاول أولى رحلات الطيران ، تختبر أجنحتها ، في المساء ، في الأيام ذات الطقس الجيد ، بحذر ، وتردد . تعثر على الطريق إلى خارج فتحة الطيران ،

وتقطع في النهاية رحلة قصيرة إلى الأعلى والأسفل أمام الخلية ، قبل أن تزيد المسافة بالتدريج بعيداً عن بيتها . لكنها ما تزال غير جاهزة .

ما تزال لديها مهمات في الخلية . تعتني بحبوب اللقاح التي تأتي ، وتنتج الشمع وتضطلع بمهمتها كنحلة حارسة . وفي الوقت نفسه ، تصبح الرحلات خارج الخلية أطول . إنها تهيئ نفسها . وقريباً ستكون جاهزة . قريباً .

ثم بعدئذٍ ، أخيراً ، تصبح نحلة جامعة مؤن . تختفي في الخارج وحدها ، وتكون حرَّة ، يحملها جناحاها من نبتة إلى نبتة ، حيث تجمع الرحيق الوردي الحلو ، وحبوب الطلع والماء ، ميلاً بعد ميل . تكونُ وحيدة هناك ، وإنما ما تزال جزءاً من المجتمع . فهي وحدها لا شيء ، مجرد جزء صغير جداً بحيث تكون غير مهمة ، لكنها مع الأخريات تكونُ كل شيء . لأنهن معاً يشكلن الخلية .

بدأَت الفكرة من العدم ، لكنها تطورت مثل النحلة نفسها . بدأتُ بالرسومات الأولية ، بضربات خفيفة بقلم الفحم على الورق ، بأبعاد غير دقيقة ، وتصاميم غامضة . ثم أصبحتُ أكثر جرأة ، فأخذتُ القياسات ، وحسبتُ ، وأصبحَت الخطوط أوضح ، وكنتُ أفرد كل مساحة الورق على الأرض . وفي النهاية تناولت قلماً وحبراً ، وأخيراً أخذت شكلاً أمام ناظريّ ، خطوطاً أكثر وضوحاً ودقة ، وقياسات دقيقة . وأخيراً ، في اليوم الحادي والعشرين ، أصبحت الخلية جاهزة .

«هل تستطيع أن تبني هذه»؟

نشرتُ الرسومات على طاولة كونولي البالية في الخارج. كانت الطاولة مليئة بالندوب والخدوش من سنوات عديدة مضت، وفوق ذلك لم تكن ثابتة تماماً. كنتَ لتظن أنه، من بين كل الناس، سوف يصرُّ على امتلاك أثاث متماسك كقطعة واحدة، لكن الأمر ربما يشبه قليلاً أولاد صانع الأحذية، ذوي الأحذية المهترئة... كل شيء في غرفة جلوسه هذه كان ملتوياً وغير متوازن: سرير بلا فراش في الزاوية، كرسي مكسور بجوار الموقد. ربما لم تكن لديه الطاقة لإصلاح مفروشاته، وبدلاً من ذلك ألقى بها إلى النار عندما تصبح عصية على الإصلاح. كانت الأرضية مليئة بنشارة الخشب، كما لو أنه جلب عمله معه إلى هنا، حتى مع أن لديه ورشة في غرفة مجاورة.

التقط واحدة من الرسومات. بدَت هشة في تلك اليد القوية. حملها فوقاً إلى الضوء في غرفة الجلوس الضيقة، تحرك خطوة أقرب إلى ثقب أنبوب في النافذة، حيث كانت إحدى الدفتين مكسورة وتحاذي الفتحة لوحاً مليئاً بالعقد. كان قد أُوصيَ به لي، أفضل نجار في المنطقة، كما قيل، لكن الأشياء التي تحيط به لم تكن مقنعة.

«الصندوق لا بأس به، ولكن لماذا يجب أن يكون له سقفٌ مائل»؟

«حسناً... إنه بيتٌ بعد كل شيء... مبنى... منزل».

«منزل»؟ قال متردداً. «إنه النحل هو الذي تتحدث عنه، صحيح»؟

لم أستطع أن أفسر له كل ذلك ، كان يجب أن آتي بسبب منطقي ، وأن أتحدث بلغته . «ذلك بسبب الماء . المطر . عندما تمطر ، سوف يسيل الماء عن السطح» .

هز رأسه ، هذه حجة يستطيع قبولها ، لأنها تتصل بالبناء ، وليس المشاعر .

«هذا يجعله أكثر تعقيداً . ولكن يجب أن تكون الأمور على ما يرام» .

ثم التقط رسم الداخل» .

«وهذا . . . إطارات»؟

«يُفترض أن تتدلى من أعلى . سيكون من الأفضل صنع عشرة لكل خلية ، لكننا يمكن أن نتدبر الأمر بسبعة أو ثمانية . يجب وصل قطعة شمع بهذه» .

نظر إليّ بتساؤل .

«شمعِ نحل . حتى يستطيع النحل أن يواصل البناء عليه» .

«حقاً»؟

«يبني النحل أقراص عسل قُطرية بطبيعته ، لكنني لا أريده أن يبني كما يريد ، وهو السبب في أنني أقوم بتعديل ظروف العمل» .

«حسناً» ، قال وحكّ أذنه ، وبدا أنه غير مهتم على الإطلاق .

«في الخلية ، سوف تساعدها الإطارات على صنع أقراص العسل في خط . أريد أن تكون لديَّ رؤية كاملة لظروف العمل من خلال الباب ، وأن أتمكن من إخراج أقراص العسل وإعادة وضعها . بهذه الطريقة سيكون من الأسهل العناية والمراقبة ، وأخيراً وليس آخراً ، حصاد العسل من دون إيذاء النحل» .

نظر إليّ بنظرة فارغة لحظة ، ثم درس الرسم مرة أخرى .

«لديّ الأفاريز» ، قال . «أما الجدران والسقف . . . أنا غير متأكد قليلاً بشأن المواد» .

«سوف أترك هذه التقديرات لك» ، قلتُ بكل الود الذي استطعت أن أجمعه . «هذا بعد كل شيء مجالُ عملك» .

«أنت محق في هذا» ، قال . «والأقراص . . . سيكون أمر أقراص العسل الموازية متروكاً لك» .

ابتسمَ للمرة الأولى ، ابتسامة عريضة غير متكلفة ، بينما يمد تلك اليد القوية . ابتسمتُ له في المقابل وصافحتُ يده . استطعتُ أن أتخيل مسبقاً قفصاً بعد قفص من خلايا سافيج القياسية وهي تُحمل من ورشة النجار وتُباع بربح جيد لكلينا . نعم ، إنَّ هذا ينطوي على كل وعد التعاون الرائع .

جورج

توالت شاحنات كيني إلى الفناء مع السعال المدوي لأنابيب العوادم. وتناثر الغبار من الإطارات واستقر في طبقة سميكة على المسطحات الفارغة، وأغرقت أصوات المحركات تماماً سقسقة الطيور الصغيرة مع اقتراب غروب الشمس. كنتُ قد استأجرتُ ثلاث شاحنات هذا العام. كنا نتحدث عن شاحنات عادية، للأسف، وليس نصف مقطورات من النوع الذي يستخدمه غاريث .وكانت هذه حطاماً صدئاً قديماً من الخارج، لا شيء يثير الإعجاب، ومن ناحية السعة لم تكن تتسع لأكثر من ثلاث خلايا ارتفاعاً وأربع عَرضاً. لكنها تحت غطاء المحرك خيول عمل موثوقة، بمحركات بسيطة جداً بحيث تستطيع إصلاحها أنت بنفسك إذا حدث شيء، وقد حدث شيءٌ دائماً، كل الوقت.

بدأنا تحميل الخلايا في شفق الغروب. لا يمكن عمل ذلك خلال النهار بينما يكون النحل في الخارج، ولذلك كان علينا أن ننتظر حتى تعود لقضاء الليل.

حلَّ الظلام. شغَّلنا المحركات حتى تضيء لنا الأنوار الأمامية المرج ونحنُ نعمل. كنا مثل المريخيين في بدلات بيضاء بقبعات وأغطية واقية للوجوه، داخلين خارجين من حزم أشعة مصابيح المركبات، كما لو أننا نأتي من كوكب غريب لنأخذ معنا مادة بيولوجية في الصناديق.

ضحكتُ ضحكة مكتومة لنفسي . كان ينبغي أن يرانا الآن ، البروفيسور ، صاحب السترة بغطاء الرأس .

تدفق العرق تحت بدلتي . كان عملاً شاقاً . كل خلية تزن عدة كيلوغرامات .

ولكن في العام القادم ، في العام القادم سوف تكون هناك شاحنة ، وربما شاحنة نصف مقطورة لائقة . كنتُ أدخر النقود ، وأملت أن تكون كافية للحصول على قرض بنكي آخر . لم أتحدث مع إيما عنها . كنتُ أعرف ما تفكر فيه . ولكن ، لكي تكسب نقوداً فإن عليك أن تنفق نقوداً . هكذا هي الأمور .

غادرنا بمجرد أن أصبحت الخلايا على المركبات . ليس هناك شيء ننتظره ولدينا رحلة طويلة أمامنا . ركبنا رجلين في كل مركبة ، وتبادلنا الأدوار في القيادة . أخذتُ سيارتي الخاصة . توم وأنا . ربما كان ذلك بسبب «حرب النجوم» ، ربما لأن توم نفسه قال إنه سيكتب عن الرحلة ، وأنها ستمنحه الإلهام . وصلَ على الأقل ، في المساء نفسه . مع موافقة كاملة من جون ، البروفيسور . عانق توم إيما ، لبسَ مئزره وخرج . ظلَّ مع النحل منذئذٍ . لم يقل الكثير . لم أستطع أن أرى وجهه . كان في الظل خلف الغطاء . لكنه عمل ، وفعل ما طُلب منه . بصَمت وبسرعة ، حتى أسرع من جيمي وريك . أردتُ أن أقول له ذلك ، أن أمتدحه ، لكنني لم أجد اللحظة المناسبة .

لم تكن هناك فرصة لذلك في السيارة أيضاً ، لأنه سحب سترته إلى أعلى في شكل حبة سجق ، واتكأ على النافذة وأغمض عينيه .

كان صبياً ، صبيِّي . نحيلاً قليلاً ، وإنما وسيماً . لا بد أن الفتيات تحبه؟ هل لديه صديقة؟ لم أعرف .

همهم المحرك بنعومة . وكان تنفس توم ناعماً بالقدر ذاته . لم تكن السيارات كثيرةً على الطريق ، وكنا نقابل سيارة ما مرة فقط كلَّ فترة طويلة . كان الطريق جافاً ، واحتفظنا بسرعة كبيرة ، وإنما ليس متهورة .

كان كلُّ شيء يسير حسب الخطة .

نمنا وقُدنا في نوبات . لم يقل أحد الكثير . كانت التلال المتدحرجة للمشهد تحيط بنا في كل مكان . مرت آلة في حقل على مسافة بعيدة . مثل حشرة عملاقة . هيكل الآلة ، خزان المبيدات الحشرية ، كان هائلاً ومستديراً ، ضم آلاف الجالونات ، وكانت له أجنحة طويلة دوارة تنشر المادة على الحقول في سحابة من القطرات الصغيرة .

كنتُ أبقي على نحلي بعيداً عن المبيدات . فهو يصيبها بالدوار ، وأدى دائماً إلى خسائر . لكن الكثيرين شرعوا في استخدام شيء جديد في السنوات الأخيرة . لم تعد المبيدات تُرش ، وإنما تُنشر في حُبيبات صغيرة على الأرض . كان ذلك أفضل وأكثر أمناً ، كما قيل . يستقر في التربة وتقوم جذور النبتة بامتصاصه ، ويدوم أكثر ، ويعمل لمدة أطول . لكنه كان سيئاً بنفس المقدار . كنتُ أود لو رأيت المزارعين يتمكنون من العمل بالطرقة القديمة ، أن تتمكن المحاصيل في الحقول من النجاة بنفسها ، من دون مساعدة المبيدات . لكنه بدا أن ذلك غير ممكن . تستطيع الآفات الحشرية أن تأكل حقلاً ناضجاً حتى الأرض في ليلة واحدة . كان هناك الكثيرون منا ، وأسعار الغذاء منخفضة جداً ، وكل شيء آخر باهظ الثمن لكل من يحاول المغامرة .

استيقظَ توم بجانبي . فتح السخان ، وصبَّ آخر القطرات ، وفجأة فكر فيّ .

«عفواً ، هل تريد البعض»؟

«لا ، شكراً» .

شرب في جرعتين . ولم يقل أي شيء آخر .

«حسناً ، حسناً» ، قلتُ . على الأغلب لأملأ الصمت .

لم يُجب . لم يكن هناك الكثير لقوله .

«إذن» ، قلت . «نعم» . ونظفتُ حنجرتي . «أي فتيات في الصورة؟ في الكلية» .

«لا ، ليس حقاً» ، قال .

«لا فتيات جميلات»؟

«لا واحدة أظنها جميلة» ، ضحك ولاحظتُ أنه في مزاج جيد للحديث .

«عليك أن تنتظر فقط» ، قلت .

«آمل أن لا أنتظر بطول ما انتظرتَ أنت وماما» .

إيما وأنا تزوجنا عندما كنا في الثلاثين . وكان أبي قد يئس مني منذ وقت طويل .

«يجب أن تكون ممتناً لهذا» ، قلت . «لقد وفر ذلك عليك الأشقاء الصغار الصاخبين . أنت لا تعرف كم كسبتَ من كونك ولداً وحيداً» .

«كان يمكن أن يكون الأشقاء شيئاً جميلاً ، أيضاً» ، قال توم .

«على الورق» ، قلت . إنه في الواقع جحيم . «وأنا أعرف ما أتحدث عنه» .

كان لديَّ ثلاثة إخوة . نتجادل ونتعارك من الصباح إلى الليل . كنت الأكبر وأصبحتُ شبه أب من عمر السادسة . وكنتُ سعيداً دائماً لأن توم كان ولداً وحيداً .

«على أي حال . عليك البدء أولاً بالعثور لنفسك على سيدة . ثم يمكنك أن تنجب الأولاد ، واحداً في كل مرة . أنت تعرف كيف يعمل ذلك . الطيور والنحل . أو أننا ربما لم نخض في هذا الحديث أبداً» .

«كلا ، ربما يمكن أن نخوض فيه الآن»؟ ضحك . «دعنا نسمع ذلك ، بابا . ما هي قصة الطيور والنحل»؟

ضحكتُ .

وضحكَ هو أيضاً .

دفأني ذلك من الداخل .

وليام

«إدموند»؟ طرقت باب غرفته .

الأيام القليلة الماضية ، بينما كنتُ أنتظر الخلية الجديدة ، أمضيتُها في الخارج لأتعرف على النحل ، أولاً بيدين مرتعشتين ، ثم بالمزيد والمزيد من اليقين . عثرتُ على الملكة ، كانت أكبر من النحلات الشغالة والذكور ، وعلّمتُها ببقعة صغيرة من الطلاء الأبيض على درعها . راقبتُ خلايا الملكة التي بُنيت ، لكنني دمرتها على الفور ، لم أستطع أن أغامر بتشكيل سرب جديد ، أن تأخذ الملكة القديمة أجزاء من المستعمرة معها وترحلَ كي تفسح مجالاً لملكة أصغر وذريتها . وبخلاف ذلك ، لم تقدم الخلية الكثير من المعرفة . فتحتها بعناية وحذر بالغَين ؛ أصبح النحل مستثاراً كل مرة . ما زلت لا أفهم كيف يمكن أن تضع الملكة نوعين من البيض ، للنحلات الشغالة والذكور . لكن ظروف العمل لم تكن هي الأفضل للملاحظة . افترضتُ أنه بمجرد وضع الخلية الجديدة في مكانها ، فإن دراسة هذه الأمور ستصبح أسهل بكثير .

كان هناك شيء واحد مؤكد على الأقل : إنها مستعمرة نحل نشيطة تعمل بجد هي التي أتعامل معها . كانت الخلية تصبح أثقل باطراد ، وجلبَت النحلات الرحيق وحبوب الطلع ، وكان العسلُ يتلألأ هناك مسبقاً ، ذهبياً داكناً ، حلواً سُكرياً ومغوياً .

صاحبتني شارلوت في كثير من الأحيان . راقبَت النحل بحماس كبير ، والتقطَت الخلية بيديها ، وزَنتها ، وراهنت على كمية النحل .

كانت تحملها بمهارة ، وتتفقد خلايا الملكة ، وتعثر عليها ، وتخرجها بيدها ، نعم ، كانت تجرؤ على القيام بذلك من دون قفازات ، ورأيت كيف كان النحل يصعد مهوِّماً إلى أعلى ، باحثاً عنها ، كما يفعل دائماً مع ملكته . وقد كبرت شارلوت هذا الصيف ، اكتسب جسدها الأخرق التقاسيم والمنحنيات ، واكتسب وجهها الشاحب اللون ، وأصبحت تنانيرها قصيرة غير محتشمة تقريباً ، وزحفت فوقاً إلى منتصف قصبة ساقها . ثوبٌ جديد ، كما فكرتُ ، هو شيء استحقته ، لكن ذلك يجب أن يكون في وقت لاحق ، لأن أشياءنا الأخرى الآن أكثر أهمية .

في بعض الأيام اضطررتُ للذهاب إلى المحل . وعندئذٍ كانت تساعدني هناك أيضاً ، تنظف وتغسل وتبقي البضاعة مرتبة ، وتكتب الأرقام حتى يُصدر سنّ القلم صريراً ، وتضيف ، وتطرح ، وتقيّم الأرباح .

لكن إدموند لم يشارك أبداً . ولم تكن التحضيرات لدراسته في الخريف تجري كما ينبغي ، كان ذلك واضحاً ، حتى لي ، ولو أنني نادراً ما قضيت الوقت مع العائلة . كانت الكتب التي احتفظ بها في زاوية معتمة من الصالون في طريقها إلى أن تصبح مغبرة تماماً مثلما كانت كتبي . وكان متعباً دائماً ، هرب منه اللون ، وغالباً ما يحبس نفسَه في غرفته ، وقد حل محل الحراك الذي لا يهدأ شيء رزين ، شيء بطيء ، خمولٌ نادراً ما شاهدتُه في الشباب .

الآن ، أمِلتُ مع ذلك أن يأتي ويجلس معي ، حتى أستطيع أن أشرح له عن خلية القش وأُريه بالتالي كم هوَ ابتكاري الخاص أكثر عبقرية . أردت أن أريه ما خلقه هو وكتابه فيّ ، وأملتُ أن أستطيع أن أوقظَ الشغف نفسه في داخله أيضاً .

«إدموند» ، طرقتُ الباب ثانية .

لم يُجِب .

«إدموند»؟

لم يحدث شيء .

ترددتُ ، ثم دفعتُ بحذر مقبض الباب .

مُقفل ، بطبيعة الحال .

انحنيتُ ، واسترقت النظر من خلال ثقب المفتاح ولاحظتُ أن المفتاح في الثقب من الداخل . لم يكن في الخارج إذن ، لقد حبس نفسه في الداخل .

قصفتُ الباب بالطرقات . «إدموند»!

أخيراً سمعتُ صوت خطوات على الأرض في الداخل وفُتح الباب بصرير صغير . طرفَ بعينيه وهو ينظر إليّ وإلى الضوء . كانت غُرته أطول ، وقد أنبت شارباً ناعماً فوق شفته العليا ، وارتدى قميصاً مجعَّداً ولا شيء آخر . كانت قدماه عاريتين على ألواح الأرضية وفوقهما سيقان كثيفة الشعر بشكل مدهش .

«أبي»؟

«آسف لأنني اضطررتُ لإيقاظك» .

هز كتفيه ، وخنقَ تثاؤبة .

«كنتُ آمل أن تخرَج معي» ، قلتُ . «هناك شيء أريد أن أريه لك» .

حدّق بي من عينين ضيقتين ناعستين . فرك ساقه بقدمه ، كما لو يدفئ نفسه ، لكنه لم يصدر أي ردّ فعل .

«أود كثيراً أن تفهم خلية القش» ، واصلتُ ، بينما أحاولُ أن أبقي حماستي تحت السيطرة .

«خلية القش»؟ قالها بلهجة الصوت المهذبة نفسها، الفاترة إلى حد ما.

«نعم. لقد رأيتَها، في أقصى مكانٍ في الحديقة».

«أوه، تلك»، تمايل وابتلع ريقه.

«حتى تفهَم الفرق بينها وبين الخلية الجديدة. عندما تأتي إلى هنا».

«حسناً». قالها من خلال شفتين مزمومتين، وابتلع ريقه مرة أخرى، كما لو أنه يخنق نوبة قيء.

«وكَم بُنيَت الخلية الجديدة بشكل أفضل».

«نعم».

كانت عيناه ما تزالان مخدورتين بالنوم، بلا أي لمحة من الاهتمام.

«ربما تحبُّ أن ترتدي ملابسك»؟

«هل نستطيع أن نفعل ذلك في يوم آخر»؟

«الآن وقتٌ مناسب»، لاحظتُ فجأة أنني أقف هناك ورأسي منحنٍ، كما لو أنني أتوسل. ولكن، لم يبدُ أنه لاحظ.

«أنا متعب جداً»، كان كل ما قاله. «ربما في وقتٍ لاحق».

استقمتُ عندئذٍ، حاولتُ أن أجعل صوتي يبدو سلطوياً. «بصفتي أبوك أطلب منك أن تأتي معي الآن».

أخيراً التقت نظرته بنظرتي. كانت عيناه حمراوين كالدم، وإنما صافيتين بشكل غريب. قذف غُرته إلى الخلف، ورفع ذقنه. «وإلا ماذا»؟

وإلا ماذا؟ لم أستطع أن أجيب، ولاحظتُ أنني أرمش بسرعة.

«أو أنني سأذوقُ طعم الحزام»؟ واصل . «هل هذا هو ما تعنيه ، يا أبي؟ أم أنك ستخلع حزامك وتجلد به ظهري حتى أنزف ولا يعود أمامي خيار آخر سوى أن أقول نعم»؟

لم يسِر هذا على النحو الذي تمنيتُه ، ليس مطلقاً .

حدَّق فيّ ، وحدَّقتُ فيه . ولم يقل أحد شيئاً .

فجأة أصبحَت تيلدا هناك . أسرعت في اتجاهي عبر الردهة ، وكانت تنورتها تكنس ألواح الأرضية .

«وليام»؟

«إنها الساعة الثانية تقريباً» ، قلت .

ارتفع صوتها . «إنه يحتاج إلى النوم . إنه ليس على ما يُرام . . . اذهب إلى النوم ، إدموند» .

وقفَت بجانبي ، وقد وضعَت يداً على ذراعي .

«أنتَ لا تعرفُ أي شيء سوى النوم» ، قلتُ لإدموند . وخرجَت العبارة عالية ، وبدَت يائسة جداً .

لم يُجِب ، وإنما هز كتفيه فحسب . حاولَت تيلدا أن تزيحني بعيداً ، بينما تنظر بعطف إلى إدموند .

«اذهب إلى السرير ، يا عزيزي . أنت تحتاج إلى الراحة» .

«الراحة من ماذا»؟ سألتُ .

«لستَ أنتَ الشخص الذي يجب أن يتكلم بالضبط» ، قال إدموند فجأة .

«ماذا»؟!

«لقد نمتَ في السرير عدةِ أشهر» .

«إدموند» ، قالت تيلدا . «ليس لذلك علاقة بالأمر» .

«لماذا»؟ سأل .

شعرتُ باليأس يشلُّني . «أنا آسف ، يا إدموند . سوف أقوم بوضع الأمور في نصابها . أنا بصدد صنع أشياء في الوقت الحالي . لهذا أحببتُ كثيراً أن أُريك . . .» .

لكن تيلدا دفعتني بعيداً . «إدموند المسكين» ، قالت بصوت حلو سُكري . «الأمر كثير عليه . يجب أن يستريح الآن ، إنه يحتاج ذلك» .

حدَّق إدموند فيَّ بلا تعبير . ثم أغلق الباب وتركنا واقفَين هناك .

كانت تيلدا ما تزال تمسك بذراعي ، كما لو أنها تريد أن تثبتني في مكاني وما تزال نظرتها تحتفظ بنفس الإصرار . أردتُ أن أعترض . لكن الفكرة ضربتني فجأة . هل هو مريض؟ هل إدموند مريض؟

«هل هناك شيء لا تقولينه لي»؟ سألتُ تيلدا .

وقفَت نظرتُها مثل الصخر ضد نظرتي وأخافتني تقريباً .

«أنا أمُّه وأستطيع أن أرى أنه يحتاج إلى الراحة» ، قالت ببطء ووضوح ، ولم تكن لديها على ما يبدو أي نية لشرح أي شيء لي أبداً .

«أنا أبوه ويمكنني أن أرى أنه يحتاج إلى هواء نقي» ، قلت وسمعتُ مباشرة كم بدت كلماتي غبية .

رفعَت زوايا فمهابابتسامة ساخرة . لم يقل أيٌّ منا أي شيءٍ آخر ، وإنما وقفنا هناك فقط في مواجهة بعضنا البعض . لم تُقدِّم إجابات ولا خضوعاً . لأنه لم يكن مريضاً ، بالطبع لم يكن كذلك ؛

كانت تحميه فحسب ، من الواجبات المدرسية ومن كل شيء يتطلب منه شيئاً . ولكن لم تكن لديها فكرة عما حدث بيننا ، والنار التي كان قد أوقدها في داخلي ، وكم كان مهماً أنها أتيحَت لي الفرصة لأتقاسمَها معه .

لكنني لم أكن على قدر محاولة الشرح ، عرفتُ كم من العبث التشاجر معها ، كانت كل الحجج المنطقية تُكنس جانباً ، كان ذلكَ أشبه بمحاربة طواحين الهواء .

ربما كان يجب بدلاً من ذلك أن التقطه قبل حلول المساء ، قبل أن يذهب إلى الخارج ، كما يفعل دائماً . هذا«الخارج» الذي لا تعريف له . . . تمنيتُ ، أملت ، أن يكون في الغابة ، يُجري دراسات مراقبته الخاصة ، مستلهماً مني ، كما كنتُ أفعلُ وأنا في عمره . نعم ، ربما كان هذا هو واقع الحال في الحقيقة .

وبالقدر الذي يهمني ، ربما أراد أن ينتظر حتى يكون لديّ حقاً شيء أريه له . لكن ذلك زاد إثارتي . سوف أجعلُه فخوراً .

تاو

درتُ حول زاوية المنزل . انتصبَ السياج أمامي . أشعَّ ببياضه في الظلام ، عالياً وعصياً على الاختراق ، وهو يعكس أشعة نصف القمر . كان التراب عابقاً ، والطقس حاراً ورطباً ، والعشبُ مزدهراً على طول جانب الطريق .

مشيتُ على أطراف أصابعي متجاوزةً الحارس ، كان وجهه مختفياً في الظلام ، لكن رأسه منحنٍ ، واستطعتُ أن أسمعه يتنفس بعمق وهدوء .

أزَّ شيء ما في الهواء ، صوتٌ منخفض ، ربما على بعد عشرة أمتار مباشرةً فوقي . حشرة؟ كلا ، أكبر بكثير . لكن الصوت ابتعد بسرعة وعاد كل شيء إلى الصمت مرة أخرى .

بحذَر مددتُ يداً ولمست السياج . وقفتُ هناك فقط ، ساكنةً تماماً . توقعتُ أن ينطلق صوت إنذار ، صوتٌ مُعوِل . لكن شيئاً لم يحدث .

مشيتُ بضعة أمتار على طول السياج ، وسمحتُ ليدي بأن تتعقب المادة الناعمة المنسوجة بإحكام . وهناك ، بين أصابعي ، أحسست فجأة بوصلَة . كان القماش مشدوداً ، لكني مع ذلك تمكنت من إدخال أصابعي بين الطبقتين . سحبت قليلاً . وبصوت خافت ، انفصلت الطبقتان . وتمكنت بسرعة من صنع فتحة كبيرة بما يكفي لتسمح لي بالانسلال عبرها .

ألقيت نظرة واحدة أخيرة على الجندي ، كان لا يزال نائماً بعمق . وعندئذٍ شققت طريقي عبر الفتحة .

عمَّ الظلام أكثر هنا . كنت أعلم أن هناك كشافات للتفتيش ، من وقت لآخر كنا نرى الضوء الذي يمشط السماء في المساء ، لكنها مطفأة كلها الآن .

هل لديهم حراس في الداخل؟ لم أعرف . وقفت هناك فقط ، محاولةً أن أعوِّد عينيَّ على الظلام . ببطء أصبحَت الأشجار مرئيةً أمامي . كانت بلا أزهار الآن ، لكنها مثقلة بالأوراق .

رانَ السكوتُ على كل شيء ، ليسَ سوى النسيم اللطيف الذي انسلَّ عبر الأوراق والعشب ، لكنني كنتُ مع ذلك أرتجف من الإثارة . كان محظوراً ، هذا الذي أفعله . ما الذي سيحدث إذا أمسكوا بي؟

تقدمتُ ببطء إلى الأمام . وعلى مسافة استطعت أن أميز الطريق الذي كنا قد سلكناه إلى التل . مشيتُ إلى هناك .

لم يسبق أن شعرتُ في حياتي بمثل هذا الخوف هنا . كنتُ قد خبرت العديد من المشاعر الأخرى ، الاستسلام ، الملل والسعادة أيضاً ، وإنما لم أشعُر أبداً بالخوف . الآن تحركتُ بأكبر قدر ممكن من الهدوء ، بينما ارتفع صوت قلبي إلى أذني وأصبح ظهري غارقاً بالعرق .

أخذتني أخاديد الإطارات أماماً بين الأشجار . وفجأة ، ظهرَ شيءٌ ما في النهاية البعيدةِ من مجال رؤيتي ، ظِل . هل يكونُ أحدٌ هناك؟ درت حول نفسي ، لكنني لم أر شيئاً . لا شيء . كان العالم هنا فارغاً وصامتاً . وخوفي الشخصيّ فقط هو الذي يتحايل عليَّ .

خطوتُ بضعَ خطوات أخرى إلى الأمام .

واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اقفز . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اقفِز .

كنا قد مشينا هنا .

كان وي–وِن بيننا . مُعافىً ، عازماً ، دافئاً ، وناعماً . طفلي . طفلي .

اضطررتُ للتوقف ، انحنيت ، ضربني ألمٌ جسديٌّ في حجابي الحاجز بقوة كبيرة حتى أنني لم أكن قادرة على الحركة .

تنفّسي بهدوء . فكري بشيء آخر . استقيمي . كوني عقلانية . انظري حولك . كم تبقّى من مسافة الآن؟ إلى التلة ، حيث تناولنا غداءنا .

واصلي المسير .

لم أكُن قد سرتُ مسافة أبعدَ كثيراً عندما اكتشفتُه . ضوء . ضوء أصفر أومض في الهواء فوق منطقة على بُعد مسافة .

سرت أقرب . ببطء أكثر الآن ، واضعةً قدميّ على الأرض واحدةً أمام الأخرى بحذر متزايد .

عندئذٍ رأيت الخيمة . موضوعة على الحدود مقابل الغابة ، على خلفية من الأجمات والأشجار النامية بجموح . مستديرةً ، بحجم منزل صغير ، بسطح مدبّب ، مُضاءة من كل الجهات . كانت مصنوعة من القماش نفسه الذي صُنع منه السياج ، البياض المُجدِب نفسه . في الخارج ، استطعْت رؤية خيالات العديد من الجنود الذين يقومون بدورية . كانت الخيمة محروسةً بكثافة أكثر بكثير من السياج . ساروا بهدوء ذهاباً وإياباً ، ملقين ظلالاً حادة على قماش الخيمة ، في عرضِ ظلال دمىً غريب على قماش الخيمة ، والذي نسي أحدهم أن يقومَ بتلوينه . هل كانوا تهديداً أم حماية؟

لم أرَ مدخلاً للخيمة . ولم تكن لها نوافذ أيضاً . لم أجرؤ على الاقتراب أكثر ، وإنما واصلتُ التقدم بدلاً من ذلك ، على مسافة مائة متر تقريباً ، بالتوازي مع الخيمة ، لكي أراها من الجانب الآخر . تجاوزتُ التلة ، وفي تلك اللحظة خطر لي فجأة أن الخيمة توجد في المكان نفسه تقريباً حيث وجدَ كوان وي-وِن . ومع هذا الإدراك ، تكاثف خوفي . أصبحَت ساقاي ترتجفان كثيراً حتى أنهما بالكاد حملتاني إلى الأمام . فهمتُ أنني أملتُ أن لا تكون هناك من صلة ، أن لا تكون للسياج والجنود أي علاقةٍ بوي-وِن .

ولكن ، الآن . الاتصال الهاتفي الذي انتظرته طويلاً ، الرسالة التي تقول أن وي-وِن سقط وضرب رأسه ، أنه يعاني ارتجاجاً عادياً تماماً وأنه يتعافى الآن ، أننا نستطيع كلانا أن نزوره ونأخذه قريباً معنا إلى المنزل ، بدَت هذه الأفكار الآن أقرب إلى الأوهام العاجزة اليائسة .

مباشرة بيني وبين الخيمة تماماً ، رأيت كومة من صناديق الكرتون . اقتربت بهدوء ، وخلفَ الصناديق أصبحتُ مخفيّةً عن الحراس .

بعض الصناديق كانت مطوية ، وبعضها الآخر ما يزال على حاله . ألقيتُ نظرةً في أحدها ، وأدرتُ أنظاري في قاعه وأزلت المحتويات . تراب وبقايا جذور نبتة . كان هناك اسم مطبوع على جانب الصندوق ، الرمز البريدي والمدينة . بكين .

وضعتُ الصندوق وتحركتُ ببطء . خشيتُ أن يكشفني خرَقي المعتاد ، أن أكسر الأغصان مرة أخرى ، وركّزتُ كل عضلة في جسدي على التحرك بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الهدوء .

أصبح الجزء الأمامي من الخيمة مرئياً . أبيضَ وغير نفّاذ بالمقدار ذاته ، وإنما مع فتحة على الجانب ، مغلقة بسحاب مُحكَم كبير . قرفصتُ . وانتظرت . عاجلاً أم آجلاً سوف يأتي أحد أوْ يذهب بالتأكيد .

جلستُ القرفصاء على ذلك النحو حتى تكدَّس حمض اللاكتيك في ساقيَّ وترتبَ عليّ أن أغيّر وضعي . كانت الأرض رطبة ، لكنني جلستُ عليها مع ذلك ، واخترق بردُ الأرض ملابسي . وعندئذٍ فقط لاحظتُ أكوام الأغصان في الخارج . كانوا قد قطعوا دزينة من أشجار الفاكهة ليصنعوا فسحةً للخيمة . وبرزَت الأغصان الجافة بتشنج على خلفية قماش الخيمة .

لم يحدث أيُّ شيء . من وقتٍ لآخر ، تمكنتُ من سماع أصوات منخفضة تأتي من الداخل ، لكنني لم أتمكن من تمييز أيِّ كلمات . جلستُ على ذلك النحو فقط لوقت طويل ، محاطةً بالظلام . مرّت الدقائق ، وأصبحَت ساعةً . وبدأ الهواء الراكد يصيبني بالنعاس .

عندئذٍ : صرير السحاب الخشِن . فُتحت الخيمة وخرج منها شخصان ، كلاهما يرتديان ملابس السلامة البيضاء ، وانحنى رأساهما معاً ، وهما يتناقشان بكثافة بأصواتٍ خفيضة . انحنيتُ إلى الأمام ، وضيقتُ حدقتيّ لأرى . كانت الخيمة قد فُتحت لحظة فقط ، ومع ذلك تسنّى لي الوقت لتمييز شيء مما تخبئه . خيمة داخلية شفافة مليئة بالنباتات . جدران زجاجية . أزهار . أهي دفيئة؟ أوراق

خضراء مشرقة ، وأزهار وردية وبرتقالية وبيضاء وحمراء محاطة بضوء ذهبي . مثل مشهد قصة خيالية في رسم توضيحي ، غني الألوان والدفء ، عالم آخر ، نباتات حية ، نباتات مُزهرة ، نباتات لم أرها أبداً من قبل ، مِن التي لا يمكن العثور عليها بين الصفوف الموحَّدة لأشجار الفاكهة .

على حين غرة شرع أحد الشخصين في السير في اتجاهي . بقيت جالسةً . لكن الشخص اقترب أكثر .

وقفتُ وتحركت إلى الخلف بصمت .

توقف الشخص . أنصتَ ، كما لو أنه يتشمم رائحتي . لم أجرؤ على التحرك أكثر ، ووقفت ساكنةً تماماً ، على أمل أن أندغم في جذوع الأشجار .

بقي الشخص بلا حراك لحظةً أخرى ، لكنه استدار عندئذٍ وسار عائداً إلى الخيمة . أسرعتُ مبتعدةً .

سرَّعت خطواتي ، وركضتُ بأكبر قدر ممكن من الهدوء عائدةً في اتجاه السياج .

لقد رأيتُ شيئاً . لكنني لم أعرف ما هو . الأسيجة ، الصناديق ، الخيمة . بدا ذلك غير منطقيّ .

لا هنا ، ولا في المستشفى يعطيني أحدٌ ما أحتاج . لا أحدَ يعطيني الإجابات . ولا هم يعطونني طفلي .

وصلتُ السياج ، زحفتُ من خلال المكان نفسه ، وتجاوزتُ الحارس . ما يزال نائماً في مخفره .

وقفتُ هناك في الخارج في الليلة الدافئة . ارتفع السياج فوقي . لكنَّ وي-وِن لم يكن هنا . لم يكن حتى في هذا الجزء من البلاد . كان هناك من حيث أتت النباتات . في بكين .

جورج

شجيراتُ التوت في فترة الإزهار كائنات جميلة . كنتُ قد نسيتها خلال الشتاء ،لكن ماين استقبلتني كل مرة بروابيها البيضاء والوردية في أيار ، وترتّب عليَّ أن أتوقف وأنظر فحسب .

كانت جميلة جداً حتى أن الكتب يجب أن تُكتب عنها . ولكن الأزهار من دون نحل مجرد أزهار ، ليست توتاً ، وليست خبزاً وزبدة . وأخمن أن هذا هو السبب الذي يجعل جون يتنفس الصعداء كلما ظهرنا هنا . كان يتجول ويبقي عينيه على شجيراته ، ينظر إلى الأزهار ، وربما يتمنى لو أنها تستطيع أن تلقح نفسها بنفسها ، وأن لا يكون معتمداً بحق الشيطان على مُزارع تفوح منه رائحة العرق يأتي من ولاية أخرى ، ومعه رجاله المتعرقون بالمقدار ذاته .

يفترض أن نبقى هنا لثلاثة أسابيع . وقد دفع جون 80 دولاراً لقاء كل خلية . وهي كلفة تلسَع ، بالتأكيد ، لكنني كنتُ أعرفُ كثيرينَ يتقاضون أكثر . غاريث ، على سبيل المثال . كان ما أتقاضاه رخيصاً مقارنةً بغاريث .

إلى جانب ذلك ، حصل جون فعلياً أيضاً على قيمة المال الذي أنفقَه . في كل خلية 50.000 نحلة تعمل من شروق الشمس حتى تخيِّم العتمة . نحلات سعيدات . كل خلية تئزُّ بالعافية . لم يكُن لديه أبداً أي شيء ليشتكي منه . كنت آتي إلى مزرعته كل ربيع منذ تولّى المزرعة ، وأنتجَ النحلُ الكثير من التوت ، في سنة مفردَة .

ركضَ جون مثل عاصفةٍ في اتجاهي عندما نزلتُ من السيارة ، بزوايا حادة في ذراعيه وساقيه ، وحذاء عملاق على الأرض ، وبنطال قصير قليلاً وقبعة شمس قطنية قذرة على رأسه ، مدَّ يداً نحيلةً وصافح يدي ، هزها ولم يتركها ، كما لو أنه يريد أن يبقيني في المكان ويتأكد من أنني لن أغادر قبل أن نكونَ أنا ونحلي قد أنجزنا العمل .

كانت يدُه أكثر نحولاً مما تذكرت . وشعره أيضاً .

ابتسمتُ لوجهه الطويل كوجه الحصان . «أنظر إليك . حتى أن لديكَ المزيد من التجاعيد» .

ابتسم لي في المقابل . «ليسَ بقدر ما لديك» .

في واقع الأمر ، كانت ماين بعيدةً جداً بالنسبة لنا ، وكان يجب أن أجد شيئاً أقرب إلى المنزل . لكنَّ جون أصبح نوعاً من صديق على مدى هذه السنوات ، وقمتُ بالرحلة بهذا القدر لأجله هو . تحدثنا كثيراً بينما أكون هنا . كان يتحقق ، ويطرح الأسئلة . عن النحل ، عن عملنا . لم يتعب أبداً من ذلك . كنتُ أغيظ جون بكونه مزارعاً جامعياً . بعد سنوات كثيرة من التعليم وبحماس كبير ، اشترى مزرعةً مفلسة ومحطمة في التسعينيات . بدأ بآراء قوية حول كل شيء ينجحُ نظرياً . وكان عليه أن يكون عضوياً .

نعم سيدي . منذ ذلك الحين ، لا بد أنه ارتكب كل خطأ في الكتاب وبعض الأخطاء التي ليست في الكتاب أيضاً . وتبيَّن أن الممارسة هي شيءٌ مختلف تماماً . في السنوات الأخيرة أعاد ترتيب كل شيء بالكامل . وأصبح الآن يدير مزرعة معيارية ، وأصبحت الآت الرش

الضخمة تدور متدحرجة في هذه الحقول أيضاً. ربما كنت سأفعل الشيء نفسه لو كنتُ هو.

أشرتُ باتجاه توم، الذي يقف على بُعد بضع أقدام خلفي.

«أنت تتذكر توم».

تقدم توم إلى الأمام، مادّاً يده بطاعة.

«حسناً، انظُر إليك»، قال جون. «أصبحتَ أكبر بمرتين من المرة السابقة».

ضحكَ توم بأدب.

«وإذن، أتيتَ هذا العام».

«يبدو أنه ذلك».

«ماذا عن الكلية؟»

«أخذتُ إجازة»

«هذه مدرسة أيضاً»، قلت أنا.

غادرَت شاحنات كيني. وساد الهدوء. كنا قد انتهينا من نشرخلايا النحل. وبقينا، جون وتوم وأنا فقط. كان توم في السيارة. ربما يقرأ، أو ينام. أصبحَ من الصعب إخراج أي شيء منه مجدداً في الساعات القليلة الماضية. لكنه عمل بجدٍّ اليوم أيضاً عندما طُلب منه، يجب أن أعترف له بهذا.

نزع جون قفازاته، رفع غطاء الوجه وأشعل سيجارةً.

«هاك. ليس لدينا ما نفعله الآن سوى الانتظار. تحققتُ من الطقس. يبدو جيداً»، قال.

«جيد».

«بعض الأمطار في توقعات الطقس الأبعد ، وإنما ليسَ الكثير» .
«يمكننا أن نتحمل بعض المطر» .
«نصَبتُ أسجيةً جديدةً ، أيضاً» .
«رائع» .
«يجب أن يبقها هذا بعيدةً» .
«سوف نعتمدُ على ذلك» .
صمتنا مرة أخرى . لم أستطع التخلص من صورة مخالب الدب الضخمة وهي تمزق خلايا النحل إلى أشلاء .
«على أي حال ، إنها مصاريفُك أنت» ، قلت له .
«شكراً لك . أعلم ذلك» .
استنشقَ الهواء بكثافة .
«إذن ، سوف يتولى الأمور؟»
أشار في اتجاه توم ، الذي يجلس في السيارة .
«هذه هي الفكرة» .
«هل يريد هو ذلك»؟
«إنه يصل إلى ذلك» .
«هل هو بحاجة إلى الجامعة ، إذن؟ ألا يستطيع أن يبدأ فقط»؟
«أنتَ ذهبتَ إلى الجامعة»؟
«هذا ما أعنيه» .
نظر إليّ بابتسامة مشوهة .
عادةً ما يكون النحلُ هادئاً خلال أول يومين عندما ينتقل إلى مكان جديد ، يظل غالباً في الداخل ، في البيت . وبعد فترة ،

يبدأ رحلات قصيرة خارج الخلايا ، يتفحص الأوضاع ويتعرف إلى المكان . وببطء تصبح الرحلات أطول وأطول .

في اليوم الثالث ، يصبح نشيطاً وعاملاً ، يحلِّق بعيداً في كل اتجاه . جلس جون بين الشجيرات ، على بعد 50 أو 60 متراً .

رأسه مُنحنٍ . يُحصي ، ولم يكن يراني .

تسللتُ وفاجأته من الخلف .

«بو»!

جفل بشدة حتى أنه قفز من مكانه . «اللعنة» .

ضحكتُ .

رفع يديه عالياً ، مهزوماً . «لقد قاطعتني»!

«اهدأ ، سوف أساعدك» .

«أنا لا أثق بعدِّك . أنتَ لستَ موضوعياً» .

جلستُ القرفصاء بجانبه .

«إنك تطرد النحل» ، ابتسَم . «لم يعد له مكان هنا» .

«حسناً ، حسناً» .

وقفت ، ومشيتُ نحو 10 أمتار ، حاولتُ أن أختار منطقةً بمساحة أربعة أقدام مربعة تقريباً . ونظرت حولي .

آه ، نعم ، كان النحل هنا .

طارت نحلة لتوّها عن زهرة . وجاءت أخرى لترتاح عليها بالتزامن . ويا إلهي ، واحدةٌ أخرى أيضاً .

«كيف تسير الأمور؟»رفعتُ نظري .

«بشكل حسَن . اثنتان هنا . ماذا عنك؟»

«ثلاث» .

«هل أنت متأكد»؟ سأل جون . «إنك تختلقُ وجود النحل فقط» .

«أنت هو السيءُ في العدِّ» ، قلت .

جلس هناك بُرهة .

«حسناً . ثمة المزيد منها هنا» .

وقفتُ ، وابتسمتُ له . 2.5 نحلة لكل ياردة مربعة هو تلقيح جيد . لذلك كان جون يجلس كثيراً على هذا النحو ويُحصي ، كما لو أنه مهووس تقريباً . لأن عدد النحل في كل ياردة مربعة سيحدد كمية التوت التي يمكن أن يقطفها عندما ينتهي الصيف .

اثنتان له . ثلاث لي . سوف ينجح الأمر .

ولكن ، بعدئذٍ ، جاء المطر .

وليام

أصبَحَت هنا أخيراً . قفز كونولي من مقعد سائق العربة وإلى صندوق العربة ؛ وهناك كانت ، جديدة ولّماعة على أرضية العربة القذرة المخدوشة . صعدتُ إليه في العربة ، مددت يدي ولمستها ، الخلية . كان الخشب المشغول ناعماً وأملسَ تحت أصابعي ، مصقولاً بأفضل براعة فنية . كان السطح منحوتاً من الألواح الخشبية المتلاحمة بسلاسة تقريباً ، وكانت للأبواب مقابض صغيرة . فركتها بيدي ، لم أعثر على أثر لأي شقوق . فتحت أحدها ، فانزلق مُنفتِحاً بلا صوت ، وألقيت نظرة إلى الداخل . تدلّت الإطارات معلّقة في صفوف مستقيمة ، جاهزة للملء . وعبقت الخلية برائحة الخشب الطازج ؛ غمرني العبق ، وكاد يصيبني بالدوار . درتُ حولها . كان العمل المفصَّل الدقيق مثيراً للإعجاب ، كل زاوية مدوّرة بشكل مثالي ، بل إنه ذهب إلى حد إضافة بعض النقوش الجميلة على أحد الجوانب . نعم ، كانت كل كلمات المديح التي سمعتها بحق كونولي صحيحة . لقد صنع قطعة فنيةً رائعة حقاً .

«إذًا»؟ ابتسم كونولي بفخر مثل طفل . «هل أنتَ راضٍ»؟

لم أستطع حتى أن أجيب ، وإنما أشرتُ برأسي فقطً وأمِلت أن يلاحظ كم هي ابتسامتي واسعة .

معاً حملنا الخلية إلى الفناء المُغبر .

كانت مشرقةً جداً ونظيفة ، وبدا وضعُها على الأرض القذرة هناك مثل تدنيس .

«أين تريدُها؟» سأل كونولي .

«هناك» .

أشرت إلى شجرة الحور الرجراج .

«هل لديك نحل أصلاً»؟ سأل .

«سوف ينتقل النحل إلى هذه . وعندما نبني المزيد ، سوف نجعله يتناسل» .

درَسني بعينيه .

«عندما تبني أنتَ المزيد» ، صححتُ نفسي وحاولتُ ابتسامة .

«لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي سيُعزى فضله لي» ، قال بابتسامة .

ثم استدار نحو خلية القشّ هناك . كانت آلاف النحلات تحلق حولها ، منهمكة في العمل . وفي اللحظة نفسها ، انطلقت إحداها مباشرةً نحونا . وقفز كونولي مبتعداً .

«أعتقد أن عليك أن تحملها إلى هناك بنفسك» .

«إنه ليس خطيراً» .

«تريدني أن أصدق ذلك» .

ابتعد خطوة أخرى ، كما لو ليؤكد وجهة نظره .

ابتسمتُ له ابتسامةً صغيرة ، حاولتُ أن أبدو متفهماً ومتسامحاً في آن واحد .

«إذن ، أنتَ مُعفى» ، قلت .

حملنا الخلية معاً إلى العربة اليدوية ، وودَّعنا بعضنا للوقت الراهن . لكننا افترضنا أننا سنتقابل قريباً مرة أخرى .

وكانت الخلية في انتظاري . كانت جاهزة .

أصبح ارتدائي البدلة البيضاء اليوم يكتسب قدراً أكبر من الجاذبية ، والقبعة ، القفازات ، وغطاء الوجه ؛ بنفس احتفالية العروس أسدلتُه على وجهي قبل أن أدفع العربة اليدوية عبر الحديقة . تشكل ممر من العشب المسطح على الطريق إلى الخلية ، مثل مَمشى الكنيسة الضيق ، كما تراءى لي فجأةً . ضحكتُ عندما فكرتُ بنفسي كعروس محتمَلة ، في الطريق إلى المذبح ، وقد احمرّ وجهها من الإثارة . ذلك كان قدرُ أهمية ذلك اليوم بالنسبة لي ؛ لقد ختَم أقداري .

دفعتُ الخلية القديمة قليلاً ووضعتُ الخلية الجديدة في مكانها . ثم وقفتُ هناك أنظر إليها . تلألأت المادة الذهبية في الشمس . وبدَت خلية القش القديمة متلاشية وباهتةً بالمقارنة .

بحذر ، وبحركات بطيئة ، بدأت عملَ نقل النحل . وجدتُ الملكة ووضعتها في الخلية الجديدة ، وسرعان ما جعلت نفسها في البيت . وحذت البقية حذوها .

أصابها هدوئي بالعدوى . كنتُ أشعر بأمانٍ مطلق ، أمان كبير حتى أنني خلعتُ قفازاتي وعملت بأيدٍ عارية . والنحلُ قَبِلَ بذلك ؛ أمكنت السيطرة عليه ، وترويضه .

تطلعتُ بتوقٍ إلى كل الساعات التي سوف أقضيها هناك ، النحل وأنا فقط في هدوء لا يقاطعه شيء ، وتأمُّل مشترك ، برابطة متزايدة من الثقة المتبادلة .

لكنّ شيئاً حدث عندئذٍ . شعرتُ بشيء على طول ساقي ، الحركة السريعة لأجنحة تخفقُ ، ثم ألمٌ لاسِع .

قفزتُ ، وأفلتَت مني صرخة أنثوية عالية . لحسن الحظ لم يسمعني أحد . ذهبَت يدي غريزياً إلى قصبة ساقي لتذبح ما كان مختبئاً هناك .

هززتُ ساق سروالي . سقط النحل خارجاً وعلى ظهره في العشب ، بجذوعه الفرائية وزباناته البرّاقة ، وسيقان الحشرات النحيلة استرخت عاجزةً في الهواء .

لسعتني قصبة ساقي بشراسة . التفكير بأن شيئاً صغيراً جداً يمكن أن يتسبب بألم شديد كهذا . أن أدوس عليه ، أردت أن أدوس عليه ، أن أسحقه ، حتى مع أنه كان ميتاً بالفعل . لكن نظرة واحدة نحو الخلية ، نحو جميع شقيقاته هناك ، منعتني من فعل ذلك . لا يمكنك أن تكون متأكداً أبداً .

سارعتُ إلى وضع ساق بنطالي في الحذاء الطويل ، وارتديت قفازاتي ، وحرصت على تأمين كل الفتحات في الرداء ، ثم ، بيدين خفيفتين وكتفين حازمين ، واصلت العمل . ربما لا يمكنني أن أثق بها بعد الآن ؛ ربما لم أعطها بعد ما يكفي من الأسباب لتثق بي بدورها . لكن الثقة ستأتي مع مرور الوقت ، كنتُ مقتنعاً بذلك ، لن أعطي النحل أي سبب ليلسعني ، وذات يوم سنصبح كأننا شيءٌ واحد .

أخيراً ، بعد الكثير من الدقائق المُجهِدة ، أصبح النحل في مكانه .

خطوتُ خطوة إلى الخلف لأراقبه . إنه هو الحكمُ في نهاية المطاف ؛ هو الذي سيحدد ما إذا كانت الخلية ستكون بيته . ظل العديد منه يحوم حول خلية القش القديمة ، مُشرداً بلا مأوى ، باحثاً

عن الملكة . رفعتُ الخلية القديمة إلى العربة اليدوية ، كان يجب أن آخذها لأحرقها ، وعندئذٍ سأعرف أخيراً ما إذا كنتُ قد نجحت .

تاو

سترات ، سراويل ، ملابس داخلية . لِكَم من الأيام؟ لأسبوع؟ اثنين؟

حزمتُ كل شيء لديّ متسع له . كنتُ قد أخرجتُ حقيبة مهترئة لوالدي ، وأخذتُ الآن أرمي ملابسي فيها . بسرعة ، وبالحاجة الملحة لشخص انتظر لوقت طويل مُسبقاً .

عندما عُدت إلى المنزل بعد أن كنتُ خلف السياج الأبيض ، أصبح من المستحيل أن أنام . تنقلتُ منهكة جيئةً وذهاباً على الأرضية الحجرية . ليس لأنني قلقةً ، وإنما لأنني أصبحت أخيراً على الطريق . ليسَ عليّ أن أبقى هنا وأنتظر ، على أمل أن تأتي المكالمة الهاتفية التي ستفسر كل شيء ، أن أنتظر وأتآكل بسبب الكلمة البسيطة التي لم أقلها أبداً لكوان . هذه الكلمة الصغيرة : سامحني . لم أكن قادرةً على ذلك . لأنني إذا قلت سامحني ، فإن الذنبَ سيصبح حقيقةً . وأكون أنا القمينة باللوم .

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله .

أغلقتُ حقيبتي . أصدر السحاب صوت صرير عالٍ . ولا بد أن يكون الصوت قد غطى على صوت خطواته ، لأنني عندما استدرت ، كان هناك . يطرفُ بعينيه قليلاً ، أشعث ، مستيقظاً بالكاد .

«سأذهب إلى بكين» .

«ماذا؟»

سقط فكه إلى الأسفل . ربما بسبب ما قلت ، وربما لأنني لم أطلب منه القدوم معي . في تلك اللحظة خطر لي أنه كان عليَّ أن أقول ، نحن . لكنه لم يخطر ببالي أبداً أنه يمكن أن يذهب معي .

«ولكن كيف . . .»؟

«يجب أن أجدَه» .

«ليس لديكِ أيّ فكرة عن مكانه . في أي مستشفى هو» .

«يجب أن أذهب» .

«ولكن بكين . . . أين ستبدئين؟»

كان نحيلاً جداً . مثل ظلال حادة . أكثر نحولاً من أي وقت مضى . نحيلاً جداً .

«وجدتُ بعض العناوين . يجب أن أبحث في المستشفيات» .

ارتفع صوته : «وحدك؟ لكن المدينة . . . هل هذا آمن»؟

«إنه ابننا» .

بدت الكلمات قاسية بشكل لا يُصدق .

رفعتُ الحقيبة عن الأرض دون أن أنظر إليه . ولاحظتُ فقط كيف وقفَ متوتراً خلفي ، كما لو أن الكلمات علقت في جوفه . هل يفكر بأن يعرض الذهاب معي؟

«ولكن ، كيف ستدفعين لذلك؟ التذكرة ، الفندق . . .»؟

توقفَت يداي في الهواء . كنتُ أعرف أن ذلك سيأتي ، السؤال عن المال .

«سوف آخذ القليل فقط» ، قلت بهدوء .

سار بسرعة إلى خزانة المطبخ ، فتحها ، وأخذ يفتش . قسا وجهه عندما استدار ليواجهني . فجأةً أصبح هناك شيء بارد في عينيه . بحركة مفاجئة أخذ الحقيبة من يدي بسرعة ، فتحها ونظر مباشرةً إلى الصندوق المعدني فوق الملابس .

«لا» . خرجت الكلمة بصوت عالٍ ، بقوة نادراً ما سمعتُها منه .

أسقط الحقيبة التي ارتطمت بالأرض بصوت مكتوم ، وتقدم خطوة نحوي .

«لن تجديه ، يا تاو» ، قال . «سوف تنفقين كل شيء نملكُه ، لكنك لن تعثري عليه» .

«لن أنفقه كله . قلت إنني لن أنفقه كله» .

أخرجتُ سترة أخرى ، مع أنني لم أكن بحاجة إلى أخرى . بدأتُ بطيها . حاولت أن أعمل بهدوء . خشخش النسيج الاصطناعي بين أصابعي .

«يجب أن أحاول» . نظرتُ إلى الأرض . حاولت أن لا أنظر إلى الحقيبة ، التي أردتُ أن التقطها . تركزت تحديقتي على شقّ في الأرضية ، كان وي-وِن قد أسقط لعبة هناك ذات مرة في الشتاء الماضي ، حصاناً خشبياً أصفر ، وغضبتُ عندما حدث ذلك ، لم تكن لدينا الكثير من الألعاب . وهو صرخ ، لأن حصانه انكسر ، انفصلت إحدى سيقانه .

«ولكن ، إذا اختفى المال . . . كنا ندخر لثلاث سنوات . . . سنكون مُسنّين جداً . . . إذا اختفى المال ، فنحن . . .» .

لم يُتم كلامه ، وقف هناك فحسب . الحقيبة بيننا ، والصندوق المعدني فوقها .

«هذا لن يُساعد» ، قال أخيراً . «الذهاب إلى هناك لن يساعد» .

«وكأن الجلوس هنا يفعل» .

لم يُجب ، ربما لم يكن يريد معارضة اتهامي . وقف هناك فقط ، غير قادر على الحديث عما يحمله ، عما يزعجه ، ليس أن وي-ون ذهب فقط ، وضاعَ منا ، ولكن أن ذلك كان خطَئي . والآن كنت سآخذ منه فرصة إنجاب طفلٍ آخر أيضاً .

أشحتُ بنظَري بعيداً ، لم أستطع أن أنظر إليه ، لم أستطع أن أفكر في ذلك . خطئي . خطئي . لا . كنتُ أعرفُ أن ذلك ليس صحيحاً . كان خطؤه بالقدر نفسه . كنا نستطيع أن نبقى في المنزل فقط في ذلك اليوم . أن نبقى في المنزل مع الأرقام ، والكتب . كان هو الذي أراد الخروج . كان ملوماً بالقدر ذاته . كلانا كنا مُخطئَين .

«تعال معي» .

لم يُجب .

«يمكنكَ أن تأتي معي ، يمكنُ أن نذهب معاً» .

غامرتُ بالنظر إليه . هل كان غاضباً؟ التقت نظراتُنا . كلا . كان حزيناً فقط ، بلا حدود .

ثم هز رأسه بوهن .

«من الأفضل أن أظل هنا . متاحاً . كما أنه . . . ستكون الكلفة أكثر إذا كنا اثنين» .

«لن أنفقه كلّه» ، قلت بهدوء . «أعِد بأنني لن أنفقه كلّه» .

بسرعة سحبتُ الحقيبة نحوي . رميتُ السترة فيها حتى تغطي الصندوق . ثم أغلقت السحاب . لم يوقفني .

حملتُ الحقيبة خارجاً إلى الردهة ووجدتُ معطفي . تبعَني .

«هل يجب أن تذهبي الآن؟»

«القطار يغادر مرة واحدةً في اليوم» .

وقفنا هناك . طال تحديقه فيّ . هل يتوقع مني أن أقولَ ها الآن؟ هل سيجعل ذلك كل شيء أسهل؟ إذا صرختُ بها؟

كنت عاجزةً . لأن اللحظة التي أطلب فيها منه أن يسامحني ، ستُرتِّبُ عليّ عندئذٍ أن أتحمل هذا بالتحديد : أنه لو حدثت الأمور كما يريد ، لما كنا نقف هنا الآن . لم نكن لنخرجَ في ذلك اليوم ، وكان وي-وِن ما يزال . . .

ارتديت معطفي . حذائي . التقطتُّ الحقيبة ومشيت في اتجاه الباب .

«وداعاً إذن» .

تقدَّم خطوةً إلى الأمام . هل سينتزعُ الحقيبة مني؟ لا . كان يريد أن يعانقني . استدرت ، وضعت يدي على مقبض الباب ، لم أكُن أستطيع أن أتحمل جسمه على جسمي . لم أكن سأتحمل خدّه على خدِّي . وشفتيه على حلقي ، واحتمال أن يوقظَ فيَّ المشاعر السابقة نفسها ، ضد إرادتي . أو ربما يثير ذلك الغثيان في داخلي أيضاً . وحتى أكثر من ذلك . . . هل سأثيرُ أنا نفس الشعور في نفسه؟ هل ما يزال يريدني؟ لم أكن أعرف ، ولم أكن أريد أن أعرف .

لم أستطع التنفس بسهولة مرة أخرى حتى عثرت على مقعدي في القطار ، وجلست ، وشعرت بسطح المقعد تحتي . أرحت عمودي الفقري على ظهر المقعد البلاستيكي البالي . ألقيت برأسي إلى الوراء ، ووجدت

مسند الرأس . بقيت جالسة هكذا ، أشاهد البيوت ، والناس ، والأشجار والحقول في الخارج . لم تكن هذه الأشياء تعنيني . انسلَّ القطار عبر المشهد بسرعة حتى أن الأشجار التي مررنا بها أصبحت مجرد ظلال . كان يفترض أن تصبح الـ1800 كيلومتر خلفنا بحلول المساء ، وفقاً للجدول الزمني ، لكن ذلك يتوقف على عدد نقاط التفتيش على الطريق .

تلاشى عالمي خلفي . تغير المشهد ، بالتدريج ، بينما تقدمنا في النهاية أقرب إلى الشمال وأكثر إلى الأعلى . من بساتين الفاكهة الخفيفة في مقاطعتي ، من التلال المغطاة بالأشجار ، والحدائق المنزلية ، إلى الأراضي البرية المسطحة المزروعة بحقول الأرز ؛ ثم أبعد بينما يصعد القطار في الجبال ، إلى مناطق جرداء أكثر ، وأقل نباتاً . وعندما هبطنا مجدداً ، قابلني مشهد مهجور . جاف ، قاحل ، بلا شجر تقريباً . وامتدت المسافة ميلاً بعد ميل من الرتابة نفسها . أدرتُ وجهي عن النافذة ، لم يكن هناك شيء لأراه .

كنتُ قد ذهبتُ إلى بكين مرة واحدة من قبل ، وأنا صغيرة . كان لوالدَيَّ أصدقاء هناك . ذهبنا لزيارتهم . أتذكر فقط بعض الصور ؛ شارعاً كبيراً نابضاً ، مغبراً ، وكثيفاً ؛ ضوضاء تصمُّ الآذان ، أناساً في كل مكان ، أكثر بكثير ممن سبق أن رأيت . ورحلة القطار ، أتذكرها جيداً ، نفسُ هذه بالضبط . والقطار أيضاً . لم تتغير التكنولوجيا إبداً طوال عُمري . لم يعد لدى أحد وقتٌ للابتكار .

غفوتُ جالسةً . انتابتني سِناتُ من النوم ، داخلةً وخارجةً من الأحلام المتشابهة ، أنني جئتُ إلى بكين وبحثت ، أنني وجدت شخصاً سيقودني إليه . في إحدى المناسبات كان موظف فندق . قال إنه يعرف

أين هو وي-وِن ، وأخذني عبر أزقةٍ ضيقة وشوارع مكتظة .ركضنا ، هو أولاً ، وأنا خلفه . اصطدمتُ بالناس طيلة الوقت ، وكاد يغيب عن نظري . كنتُ ألتقطُه ، لكنه يتملص ويُفلِت . استيقظتُ متقطعةَ الأنفاس . وفي المرة التالية التي غفوت فيها ، كانت امرأة في متجر . حدث الشيءُ نفسُه . قالت أنها ستأخذني إليه . قادتني خارجاً في غابة من الشوارع ، حيث حجبَت ناطحات السحاب الشمس وظلَّ الباعة المتجولون يحاولون إيقافنا . ركضَت بسرعة كبيرة حتى لم أعد أراها ، وتوقفتُ باكيةً وأدركتُ أن فرصتي الوحيدة لرؤيته مرة أخرى قد ضاعت .

ثم كنتُ مُباشرةً في مكان آخر . حفلة في حديقة . في حلم ، في ذكرى؟ كنت أرتدي ثوباً صيفياً ، وكان الجوُّ حاراً . كنت طفلةً أُحضر حفلة نهاية فصلٍ دراسي . تناولنا الكعك ، الكعك الجاف المصنوع من دُهن الخنزير الاصطناعي قليل الدسم وبديل البيض . ومصاصات من البوظة ، اصطناعية ، لكنها جيدة مع ذلك . كنت متعرقةً ، وانزلق الثلج بارداً في حلقي .

كانت بعض الفتيات يؤدين رقصة دوّارة ، ارتفع صوتُ غنائهن عبر الحديقة ، وأصبح أعلى وأعلى ، بعض الأصوات واضحة ونقية ، وأخرى ناشزة قليلاً وخارج النغمة ، بالطريقة التي يغني بها الأطفال عادةً . وقفتُ بصمت في الظل وراقبتُهن .

كانوا يفرغون الطاولة من الكعك . ذهب بعض الأطفال لأخذ طبق إضافي . دايّو إحداهم . كانت ترتدي سترة زرقاء فاتحة وسروالاً قصير الساقين ، وكان شعرها مرفوعاً بمشابك شعر ، وحذاؤها ضيقاً يلمعُ زاهياً في الشمس ، وبدا مغرياً . وقفَت عند طاولة الكعك وأخذت قطعة .

وضعت القطعة في صحنها . إحدى أكبر القطع . ثم وجدت شوكةً وذهبت للجلوس مع الوالدَين .

تقدم طفل آخر إلى الطاولة . ولد . وي-وِن . وي-وِن ابني . ما الذي يفعله هنا؟

أخذَ قطعة من الكعك أيضاً . قطعة كبيرة ، أكبر من قطعة دايو .

ثم غادر .

كلا ، فكرتُ ، ليس الكعك . لا تأخذه .

لكنه انسلَّ هارباً مني ، دائماً والكعكة في يده ، هرب بين الناس ، ثم ظهر مجدداً . كان عليَّ أن أصل إليه قبل أن يأخذ قضمةً . يجب أن لا يأكل أي شيء من الكعكة . يجب أن لا يأكل . أصبحتُ امرأة راشدةً الآن ، أركضُ خلفه ، أهرول ، وأزيح الناس من الطريق أمامي ، لمحتُه مجدداً ، لكنه اختفى مرة أخرى ، ظهر ، واختفى . كبُرت الحفلة مِن حولي ، أصبح هناك المزيد والمزيد من الناس ، بحجم هائل .

ظهرَ وشاحه الأحمر وسط الحشد ، رقعة قماش ، بعيدة في المدى .

لكنه أفلتَ وهرب مرةً أخرى .

أيقظني صوتُ القطار وهو يدخل محطة سكك حديدٍ كبيرة ، مظلمة ومتهالكة . بكين .

جورج

كنا في غرفة الفندُق الصغير . كانت جدران الغرفة صفراء باهتة والسجاد الممتد من الجدار إلى الجدارِ مُبقَّعاً . جلسنا هناك غارقين في رائحة النفتالين والعفن .

خارج النافذة جدارٌ من الماء . ليس ذلك النوع من زخات المطر الخفيفة المريحة التي تترك وراءها ضَوءاً حُلواً وطيوراً مُسقسِقة .كلا . كان هذا طقساً ماطراً بمستوى إنجيلي ، كما يُقال . حتى في اليوم الخامس . بدأتُ أتساءل عما إذا كانَ أحدٌ قد جلبه من أجلي ، عما إذا كان ينبغي أن أبني سفينة كسفينة نوح .

كان توم سيغادر في اليوم التالي . وقد انغمسَ في كتاب ، وهو يخطط بقلم تعليم أصفر بلون فسفوري . كان صوت قلم التعليم هو الصوت الوحيد فيً الغرفة . وتكرر كثيراً ، حتى تظنّ أنه احتاجَ إلى تعليم كل كلمة في الكتاب .

لم يكن هناك مكان نذهب إليه . بدَت الغرفة كبيرة عندما أخذناها ، كنتُ قد طلبتُ جناحاً ، بما أننا سنقيم هنا كلانا ، لكنها انكمشت بشكل كبير على مدى الأيام القليلة الماضية . نافذة واحدة فقط وإطلالة على الزقاق الخلفي . حجز سريران من حجم الملكة مساحة أكبر من اللزوم . جلست على أحدهما ، الأقرب إلى الجدار ، وانطوى غطاء السرير بنمط كبير من الأزهار تحتي . كنت قد مللتُ من النظر إلى الصورتين على الجدار ، حقل من الزهور وسيدة في إحداها ، وقارب

في الأخرى ، لم يكن الزجاج نظيفاً كفاية ، كان رمادياً قاتماً مع بصمات أصابع وسط وجه السيدة . كان توم قد احتل مجموعة المقاعد بالقرب من النافذة . غطت كتبه الطاولة كلها ، وبجانبه استلقَت حقيبته مليئة بأغراض الكلية .

فلنفكّر قليلاً في الأمر ، كان يجلس على هذا النحو طيلة الوقت . صحيح أنه لم يكن هناك الكثير من الأشياء التي يمكن عملها ، ولكن مع ذلك . لم يكن هناك أي أثر لاهتمام كبير . ليس بالنحل ، وليس بالمطر أيضاً . كان يمكن أن يسمَح لنفسه بأن يثور ، أن يغضب ، يصرخ ، لكنه قرأ فقط . قرأ وخطط بأقلام تعليم فسفورية ملونة سمينة . زهرية ، صفراء ، وخضراء . بدا كما لو أن لديه نوعً من النظام ، لأن أقلام التعليم استقرّت في صف مرتب أمامه على الطاولة ، وكان يستخدمها بالتناوب .

قفزتُ عندما رنَّ جرس الهاتف . وقفت . أضاء رقم جون على الشاشة .

«نعم»؟

«هل من جديد»؟

«ليس في نصف الساعة الأخير ، كلا» .

«تحققتُ من تقرير طقس آخر» ، قال جون . «توقعوا طقساً جيداً بدءاً من هذا المساء» .

«وماذا عن المصادر الخمسة الأخرى التي تحققت منها»؟

«المزيد من المطر» . بدا صوته مُسطحاً .

«أعتقد أن هناك أموراً لا نستطيع أن نتحكم بها» ، قلت .

«هل هناك . . .» تردَّد . «هل هناك أي فرصة لأن تبقى بضعة أيام أخرى»؟

كنا قد تحدثنا عن هذا من قبل ، لكنه لم يطلب أبداً بشكل مباشر على هذا النحو .

«لقد حجزت السيارات للعودة مُسبقاً . والطاقم» .

«نعم» .

لم يقل أيَّ شيء آخر ، كان يعرف أن ذلك غير ممكن .

«سوف يتوقف المطر قريباً» ، قلت ، محاولاً أن أبدو مثل أمي .

«نعم» .

«ويوم أو اثنين ، أكثر أو أقل ، لن تُحدث فرقاً كبيراً» .

«لا» .

بقينا صامتين . سمعنا المطر فقط يُدمدمُ هناك في الخارج ، وإطارات السيارات وهي ترش الماء من البرك .

«أعتقد أنني سأخرج إلى هناك الآن» ، قال فجأةً .

«حقاً»؟

«لأتفقد الأمور فقط» .

«كنت هناك هذا الصباح . إنه في الداخل . لا شيء يحدُث» .

«لا ، ولكن مع ذلك» .

«افعل ما يحلو لك ، إنه نحلُك» .

ضحكَ بخفوت ، ولكن لم يكن هناك الكثير من البهجة يمكن أن يُسمع في ضحكته .

ثم أغلقنا الخط .

رفعَ توم عينيه عن كتابه .

«لماذا لا تقول الأمر كما هو في الحقيقة»؟

«ماذا تعني»؟

«من الواضح أن هذا سيؤثر على محصوله» .

«نعم ، حسناً» .

«إنه شخص بالغ ، يمكنه أن يتحمل سماع الحقيقة» .

وضعَ الغطاء على قلم التعليم بنقرة واضحة . النقرة ، والطريقة التي فعل بها ذلك ، سببت لي حكّة في الداخل . وكلماته ، عبَّر عن نفسه مثل أستاذ في الخمسين من عمره .

«اعتقدتُ أنك تدرس» ، قلت .

«لقد انتهيت الآن» .

«وكأنك لم تكن تستمع إلى مكالماتي الهاتفية» .

«يا إلهي ، يا أبي . نحن على بعد عشرة أقدام عن بعضنا» .

«وكيف حدث أن أصبحَت لديك الكثير من الآراء على حين غرة؟»

«عفواً»؟

أصبحَت الحكة في الداخل فظيعة . لم أستطع البقاء هادئاً .

«عفواً»؟ قلدتُه بسخرية . «بعد أن تسكعتَ أسبوعاً ، أصبحتَ تتدخل فجأةً»؟

وقف . كان أطول مني .

«لم أكن أتسكع . كنت أعمل . كلما سنحت لي الفرصة ، كنتُ أرفع وأعرقُ أكثر مما فعلتَ أنت . وأنت تعرفُ ذلك» .

«لكنك لم تكُن تريد ذلك» .

تقدمتُ خطوة نحوه . وهو تراجع تلقائياً ، لكنه لاحظ ذلك بنفسه ، لأنه وقف مستقيماً فجأةً وثبَّت قدميه بشكل مناسب على الأرض .

«لم أزعم أبداً أنني مهتم جداً . أنت هو الذي طلب مني أن آتي معك ، أتذكر»؟

«يصعبُ نسيان هذا» .

صمَت . نظرَ إلي فقط . تمنيتُ لو أعرف بماذا يفكر .

ثم قالها فجأةً : «أيمكنك أن تصف لي جيمي وريك ، يا أبي»؟

«هَه»؟

«كيف هو شكلهما؟ صِفهما لي» .

«جيمي وريك؟ متى أصبحتَ مهتماً كثيراً بهما»؟

«لستُ مهتماً بهما إلى هذا الحد . لكنني إذا طلبت منك أن تصفهما ، سيكون لديك الكثير لتقوله ، صحيح»؟

نظرتُ إليه فقط ، وأنا لا أكادُ أفهمُ شيئاً .

«أنا أعرف الكثير عنهما أيضاً» ، تابع . «فقط لأنني سمعتكَ تتحدث عنهما . وعن جون أيضاً . أعرف ما يحبون ، ماذا يفعلون في أوقات فراغهم ، حتى ما يخافون منه . لأنك أخبرتني» . أصبح صوته أهدأ الآن ، وأنعَم . «أنّ ريك ليس له صديقة ، مثلاً . وجيمي . . . سمعتُ ما يكفي عنه لأعلم أنك تتساءل فعلاً عما إذا كان يلعب لصالح الفريق الآخر» .

كنتُ على وشك أن أرد ، أن أقول شيئاً عن جيمي ، لكنني لم أعرف ما أقول بالضبط . لأنه ليس لهذا ، بصراحة ، أي علاقة بجيمي

أو ريك . فهمتُ أن توم يذهب إلى مكان ما بكل هذا ، ولكنني لم أعرف إلى أين . كان الأمرُ وكأنه دفع عقلي في علبة وأخذ يهزها بقوة .

«كيفَ يمكن أن تصفني ، إذن؟ سأل .

«أنت»؟

«نعم . ما الذي أحبه فعلاً؟ ما الذي أُجيدُه؟ ما الذي أخافُ منه»؟

«أنت ابني» ، قلت .

تنهد . ابتسَم بخفوت ، بازدراء تقريباً .

وقفنا هناك فقط ننظر أحدُنا في الآخر . أصبح الشعور بالحكّة كثيفاً .

ثم انفصلت نظرته عن نظرتي . سار نحو حقيبة الكتب .

«إذا كنا لن نفعل شيئاً على أي حال ، سوف أبدأ بالتاريخ» .

التقط كتاباً سميكاً غامقَ الزرقة . ولمحتُ فقط صورة «بيغ بِن» على الغلاف .

ثم جلس ، وأدار الكرسي حتى أصبح ظهرُه لي .

تمنيت لو أن لدي كتاباً سميكاً حقاً لأقرأه أنا نفسي . وكرسياً لأديره . أو الأهم من ذلك كله ، عودةً ذكية حقاً للردّ . لكنه نال مني الآن . كنتُ عاجزاً عن الكلام . فقط مع تلك الحكة الكثيفة .

مرت ساعة ، ربما ساعة ونصف ، قبل أن يتوقف المطر . صفَت السماء إلى شيء ما ، لم يكن أزرق بالضبط ، لكنه على الأقل أقلّ رمادية مما رأيناه في الأيام القليلة الماضية . من الواضح أن تقرير طقس جون السابع كان يعرف شيئاً .

وضع توم كتابه أخيراً . نهض والتقط سترةً . «سوف أخرج لأتمشى قليلاً» .

«لا تستطيعُ أن تأخذ السيارة» .

«كلا ، لا بأس» .

«ربما أحتاجها» .

«أعرف . لن آخذ السيارة» .

«حسناً» .

كان على وشك فتح الباب عندما رنَّ جرس الهاتف مرة أخرى . كان جون . طلب منا القدوم على الفور .

تاو

وجدتُ فندقاً مفتوحاً مباشرة بجانب محطة السكة الحديدية. متهدماً وفارغاً، لكنه رخيص. وهناك عبر الشارع مطعمٌ يقدم طعاماً بسيطاً رخيصاً أيضاً. دخلته وقدمتُ لنفسي وجبة ساخنة اليوم، وعرفت أنني لن أستطيع تحمُّل ثمن وجبة مماثلة كل يوم، على الأقل ليس إذا كان المال ليدوم لأكثر من أسبوع. لم تكن لدي فكرة كم سأظل هنا. حتى أجدَه. لن أغادر حتى أعثرَ عليه.

وضع فتى يافع طبقاً أمامي. أرز مقلي، كان كل ما لديهم في هذا المكان الذي تديره عائلة. كان الأب هو الذي طبخ، كما أخبرني الصبي وهو يقدم الطعام. لا أحد يعمل هنا سواهما فقط.

كنت الزبونة الوحيدة في المطعم الكبير. ولَم أر الكثير من الناس في الشارع أيضاً. كل شيء بدا مختلفاً عما أتذكره. اختفت المدينة الصاخبة المكتظة. أصبحت معظم المنازل مهجورة الآن، والشوارع هادئة. لم تعد هناك أسس للبقاء على قيد الحياة في هذا المكان الآن. علمت أن الكثيرين أُجبِروا على الانتقال إلى أجزاء أخرى من البلد، حيث هناك حاجة إلى المزيد من الأيدي العاملة للزراعة، لكن الصمت المطبق فاجأني مع ذلك. كانت المدينة قد كبُرت وتطورت إلى نقطة معينة، ثم توقف كل شيء، وأصبحت الآن في تدهور. مثل عجوز يقترب من الموت، والذي يصبح أكثر وحدة، وأكثر هدوءاً، بإيقاع يتباطأ مع كل يوم يمُر. كان المطعم هو

المكان الوحيد المضاءُ عبر الشارع مقابل الفندق تماماً ، وبخلاف ذلك كان الشارع مهجوراً .

سحبتُ الكرسي أقرب إلى الطاولة . تردد صوت الأقدام على الأرض حاداً وأجوف في المكان الفارغ . وانتظر النادل واقفاً بجوار الطاولة بينما كنت آكل . كان صغيراً ، لا يتعدى عمره 18 عاماً ، ونحيلاً . وكان شعره طويلاً قليلاً ؛ وبدا كما لو أن وقتاً طويلاً مضى منذ آخر حلاقة له . وكان يرتدي زيَّه بإهمال شبابي ، وتحرك بخفة وبلا تكلف . ولو أنه في باحة مدرسة ، لكان شخصاً تود أن تُشاهَد معه . شخصاً لم يكن في حاجة إلى المحاولة ، شخصاً وهبته الطبيعة ذلك الشيء الإضافي الصغير . كان من ذلك النوع من اليافعين الذي ينبغي أن يكون محاطاً بمجموعة من الأصدقاء .

لاحظ أنني أراقبه ، وفجأةً لم يعرف ما يفعل بيديه ، فعقدَهما بسرعة خلف ظهره .

«هل أعجبكِ الطعام» ، قال .

«نعم ، شكراً لك» .

«عذراً ، ليس لدينا أي من الأطباق الموجودة على القائمة» .

«لا بأس . ما كنتُ لأتحمل ثمنها على أي حال» ، قلت ، مبتسمة .

ابتسم بالمقابل وبدا مرتاحاً ؛ ربما فهم أننا في الوضع نفسه .

«هل المكان فارغ في العادة هكذا؟» سألت .

هز برأسه . «هكذا كان حاله في السنوات القليلة الماضية» .

«ما الذي تعيشون عليه؟»

هز كتفيه . «بعض الناس يأتون من وقت لآخر . وقد بِعنا بعض الأواني والمعدات» . أشار في اتجاه المطبخ ، حيث يغسلُ والده الأطباق . «كل السكاكين الجيدة ، ومطحنة لحم ، وبعض الأواني ، والفرن الكبير . سوف يساعد ذلك لبعض الوقت . كنا نظن أن لدينا ما يكفي من المال لنتدبر أمورنا . . . حتى نوفمبر» .

صمت ، وهو يفكر بلا شك فيما كنتُ أفكر فيه . ماذا سيفعلون بعد ذلك؟

«لماذا ما تزالون هنا؟» قلت .

أخذ يمسحُ غباراً غير مرئي عن الطاولة .

«عندما أُجبر كل الذين نعرفهم على المغادرة ، سُمح لنا بالبقاء لأننا ندير مطعماً له تاريخ طويل . كافح أبي شهوراً من أجل الحصول على التصريح» . طوى الخرقة ، وعصرَها . «أتذكر كم كان سعيداً عندما عاد إلى المنزل أخيراً ومعه تأكيد على أنه ليس علينا أن نرحل . ولم يكن علينا أن نغادر وطننا» .

«ولكن ، ماذا الآن؟»

أشاح بوجهه بعيداً .

«الآن تأخر الوقت كثيراً . الآن نحن هنا» .

مسحَ بيده على شعره الخشن . ذكرني فجأةً بوي-وِن . كان صغيراً جداً ، هذا الصبي ، ربما حتى أصغر مما ظننتُ في البداية ، فقط بعمر 14 أو 15 عاماً . في عمر النمو .

دفعت الطبق في اتجاهه .

«خذ أنت ما تبقى . لقد تناولت ما فيه الكفاية» .

«لا» . نظر إليَّ بارتباك . «لقد دفعتِ ثمنه» .

«لقد شبعت» .

ناولته عيدان الأكل .

«هيا . اجلس» .

استرقَ نظرةً سريعة إلى والده في المطبخ ، لكنه لم يكن يولينا اهتماماً هنا . عندئذٍ سحب الصبي كرسياً بسرعة ، وجلس وأمسك العيدان . بسرعة كلب ، تناول الأرز ، مثل وي-وِن عندما التهم الخوخ مثل الذئب . ولكنه توقف على حين غرة ورفعَ أنظاره ، كما لو أنه محرجٌ من اهتمامي . ابتسمت له بتشجيع . وبدأ يأكل مرة أخرى ، محاولاً بوضوح أن يبطئ .

نهضت لأغادر ، وقد أردتُ أن أتركه وحده .

لكنه وقف عند ذلك هو أيضاً .

«اجلس فقط» ، قلت وسِرتُ في اتجاه الباب .

«نعم» . وقف هناك ، متردداً . «لا» .

وأقبل نحوي .

وضعت يدي على مقبض الباب وكنت على وشك فتحه . نظرت إليه ، ولم أفهم تماماً .

«أين تقيمين؟» سألني .

«هناك» . أشرت عبر الشارع إلى الفندق .

جاء مباشرة إليّ ، ونظر خارجاً إلى الشارع . لم تكن هناك حتى مركبة واحدة في مرمى النظر ، لا أناس ، ولا حياة من أي نوع .

«سأقف هنا حتى تدخلي» .

«ماذا؟»

«سأقف هنا ، كل الوقت» .

تحدث بجدية ضميريّة على وجهه الفتيّ .

«شكراً لك» .

فتحت الباب وغادرت . كان الشارع مهجوراً . كانت هناك رائحة طوب رطب ، وغبار وشيء ما فاسد قليلاً . مجرد قشرة مدينة . واجهات متداعية . كانت هناك شاشة إعلام خرِبةٌ معلقة على جدار . كانت الثواني العشر الأولى من فيلم تُعرض مراراً وتكراراً . لي زيارا ، رئيسة اللجنة ، تلقي خطاباً ، عن المجتمع والاعتدال ، ربما . لكن الرسالة ضاعت لأن التسجيل الصوتي توقف عن العمل منذ فترة طويلة . كانت المحال جميعها مغلقة وكانت هناك قضبانٌ أمام الأبواب . نوافذ مكسورة . ومجرد ظلال فقط من البني والرمادي . لم تتبق أي ألوان ، كما لو أن كل شيء غطاه الضباب . وصمتٌ هائل ، وثقيل .

استدرتُ ونظرت خلفي عندما عبرتُ الشارع . نعم ، كان ما يزال واقفاً هناك . أشار في اتجاه الفندق ، كما لو أنه أرادني أن أسرِعَ في الدخول .

جورج

كان جون يحوم حول خلايا النحل ويحاول ترتيب الأمور. ومع أنه كان مختفياً تحت المئزر، والقبعة وغطاء الوجه، استطعت أن أرى أنه كان قلِقاً. كانت أربع خلايا قد انقلبت رأساً على عقب على الأرض. وكانت سحابة من النحل، المرتبك، المشرد والغاضب، تحوم فوق الخلايا في الهواء الرطب بعد المطر.

«آخ!»

صرخ فجأةً بصوت عال، وأمسك عنقه.

«احترس من الفتحات»، قلتُ ووضعت غطاء وجهه بشكل أفضل في مكانه. يستطيع أن يزيل النحلة الميتة في وقت لاحق.

لعن وشتَم، واستطعتُ أن أرى الدموع في عينيه. ربما بسبب اللسعة، أو ربما كانت هناك كل الوقت.

«ظننتُ أن السياج سيكون كافياً»، قال بهدوء.

«بمجرد أن يشم رائحة العسل، ليس هناك الكثير الذي يمكن أن يوقفه».

كان عندئذٍ حين لاحظت نظرات توم عليّ أول الأمر.

«قلتَ إنها لم تعد هناك دببة هنا»؟

لم أستطع أن أنظر إليه في العينين، لم أرد أن أسمع ذلك السؤال. التقطت صندوقاً. تحققت منه. لا ضرر.

«أعطني ذاك»، أشرتُ إلى إطار أبعد.

سار إليه ، وظل ينظر إليَّ . التقط الإطار وأعطاه لي . عندئذٍ لاحظت أن يديه ترتجفان . رفعتُ أنظاري إليه . كانت عيناه كبيرتين مثلما كانتا آخر مرة . لم يتبق شيء من البروفيسور ، كان هناك ولدٌ صغير يقف أمامي .

«هل هو قريب في الجوار»؟ قال بصوت خافت .

أخذتُ الإطار وتجنبتُ تحديقته .

«لا ، إنها تغادر على الفور» .

وقف هناك ، يراقبني ، وعيناه مليئتان بالشك .

وضعت يدي عليه ، وهو شيء نادراً ما فعلته .

«توم . هذه ليست مثل تلك المرة . هذا يحدث كل عام ، ولم يحدث ، ولا مرة واحدة ، أن رأيتها فعلاً . إنه النحل فقط هو الذي يتلقى الضرب ، وليس نحن . والأمر أصعب على جون ، الذي عليه أن يدفع ثمن ذلك» .

هز برأسه ، ولم ينسحب من تحتِ يدي .

«لهذا نحن نقيم في فندق ، أليس كذلك؟ ليس في خيمة» ، قلت .

هزّ رأسه مرة أخرى . ضغطت على كتفه . أردتُ كثيراً أن أحضنه ، واستطعت أن أشعر بأنه بحاجة إلي . ما يزال يحتاجني . لكن جون عاد عندئذٍ .

«ثلاث خلايا» ، قال . «هذه . . . 240 دولاراً»؟

أفلتُّ توم وهززتُ رأسي لجون . لكنني توقفت عندما رأيت نظرة اليأس خلف غطاء الوجه . «240؟ كلا . لنجعلها 200» .

«ولكن يا جورج . . .» .

«لا مزيد لنتحدث عنه . يمكنك أن تعتبره قرضاً» .

أدار جون وجهه ، وابتلعَ ريقه بصعوبة . لكن توم واصل النظر إلي . لم يقل أي شيء ، لكن عينيه قالتا كل شيء . وتذكّرتا كل شيء .

حدث ذلك أول مرة كنت فيها في مزرعة جون ، أول رحلة لي مع النحل . لم نأخذ الكثير من خلايا النحل معنا . فقط تلك التي كان لدي متسع لها في مؤخرة الشاحنة الصغيرة . فكرت في الأمر كتجربة ، وإذا نجحت المغامرة ، أستطيع التوسع والبدء بعمل التلقيح على نطاق صغير . كان ذلك غالباً مثل قضاء عطلة . لأن توم ، الذي كان في الخامسة ، ذهب معي . نحن الاثنان فقط ، وسط الطبيعة . بعيداً عن الناس . نصطاد ، ونشرب الماء من الجدول ، ونار تخييم تشتعل . كنا نتحدث عن ذلك لأسابيع من قبل .

وجدنا تلة بعيدةً كثيراً عن خلايا النحل . وهناك ، كان لدينا مشهد جيد ، من جميع الجهات ، والأرض كانت مسطحة وجميلة . نصبتُ الخيمة ، وأخذت كامل وقتي ، وتأكدتُ من دفع كل الأوتاد عميقاً في الأرض ، حتى اشتد القماش . سيكون هذا منزلنا لثلاثة أسابيع ، ولذلك يجب أن يُبنى كما يجب .

تولى توم مهمة فك أكياس النوم . وانكبّ هو أيضاً على العمل بجد ، ورتب الأكياس إلى حد الكمال . أعتقد أنه شاهد ما تفعله إيما عندما ترتب الأسرَّة في المنزل . كان متحمساً ، يتحدث مثل عاصفة ، ولم يتسنّ له الوقت بعد ليلاحظ أنه يفتقد أمه . وعلى أي حال ، ستكون الأمور على ما يرام ، هكذا فكرت . سوف نقضي كلانا وقتاً رائعاً هنا

على التلة . سوف تنقضي الأسابيع كلمح البصر وستكون شيئاً يتذكره بقية عمره .

أشعلنا ناراً . التففنا حولها معاً وشوينا حلوى الخطمي . ارتجف قليلاً ، لذلك أحتضنه بالقرب مني . اختفى كتفاه النحيلان تقريباً تحت ذراعي . نظرنا إلى النجوم ، وأشرت إلى الأبراج التي أعرفها . لم تكن كثيرة ، فقط الدب الأكبر والجوزاء- لذلك اختلقت بضعة أبراج أخرى .

«هل تستطيع أن ترى الأفعى هناك»؟

«أين»؟

«هناك» .

تعقّبتْ عيناه إصبعي وأنا أشير إلى خط متموج مناسب من النجوم .

«لماذا تسمى الأفعى»؟

«إنها لا تُسمى الأفعى . إنها أفعى» .

ثم أخبرته عن الأفعى . عادة ما لم أكن جيداً جداً في اختلاق القصص ، ولكنها الآن انسابت متدفقة مني . ربما لأن توم يجلس هناك في منحنى ذراعي ، وربما لأننا كنا بعيدين عن كل شيء مثل التلفاز والترفيه حتى أن رجل الكهف في داخلي خرج فجأة ، أو ربما منحني إدراكي أن هذا ما ستكون عليه حياتنا لثلاثة أسابيع كاملة قوىً خاصة .

«عاشت الأفعى في شق صخري خارج قرية صغيرة» ، بدأت ، «وكانت شيطانة ، أكثر شراً من الشر نفسه ، وأشد جوعاً من أكثر الجائعين . أكلت كل شيء ، تماماً كل شيء استطاعت العثور عليه . أولاً أكلت الغابة ، ثم أكلت الحبوب . ثم حدائق المطبخ ، الفاكهة ، الخضراوات ، التوت ، بينما تصبح أكبر وأكبر . وعندما أكلت كل

شجيرة ، وكل حبة بطاطا صغيرة ، نعم ، كل ورقة وضيعة من العشب في الحقل ، بدأت تأكل الناس . الأولاد الصغار للفطور ، والجدّات للغداء . كبرت وكبرت ، وفي النهاية أصبحت طويلة وسمينة حتى أنها استلقَت في دائرة حول القرية . استقلت هناك وابتلعت الشخص تلو الآخر . هرب الناس إلى منازلهم ، واختبأوا في الخزائن ، تحت الأسرَّة وفي الأقبية . لكن الأفعى وجدتهم ، شقت طريقها متلوية إلى كل زاوية وتناولتهم واحداً تلو الآخر» .

لاحظت أن توم يرتجف في انحناءة ذراعي ، ولم يكن ذلك من البرد فقط . ضممته بقوة أكبر ؛ التصق بي ، كما لو أنه أراد أن يدخل في داخلي ، مخوِّضاً بين الرعب والفرح .

«لم يعلم أحد ما يجب فعله ، كان الناس بلا حول ولا قوة . سوف نموت الآن ، هذا ما اعتقدوه ، سوف تأكلنا الآن . واختبأ الجميع بأفضل طريقة ممكنة . الجميع سوى ولد صغير واحد» .

«من كان ذاك؟» كان صوته منخفضاً ومتحمساً .

«كان . . . كان أي ولد صغير» .

«لا»؟

«كان نحّالاً في واقع الأمر» .

«أوه» ، قال توم بسرعة ، كما لو أنه خائف من أن يقول شيئاً آخراً ، خائف أن أتوقف عن حكي القصة .

«كانت لديه خلية نحل ، كبيرة رائعة . أفضل مستعمرة نحل يمكنك أن تراها في حياتك ، مثابرة ، تعمل بجد ، لم تكن تتجمهر أبداً . كانت الملكة تعيش عامها الثالث ، وتضع البيض أكثر من أي وقت

مضى . والآن ، ذهب إلى خلية النحل وفتحها . ثم همس داخلها وطلب المساعدة» .

توقفتُ وقفة درامية . عرفتُ النهاية الآن وكنت مسروراً جداً بها .

وتوم انتظَر . جعلته ينتظر . لاحظت عينيه المسلطتين علي ، مستديرتين مثل الصحون بترقب ، أردت أن أجعله يحتفظ بهذا الشعور لبعض الوقت .

وأخيراً لم يعد يستطيع أن يتحمل أكثر . «وماذا بعد ذلك؟»

واصلت ببطء .

«استمع النحل ، وفكرت النحلات ، بينما يقترب فحيح الأفعى من الصبي» . نظر توم إليّ وفمه مفتوح . «وعندما كانت الحية على وشك ابتلاع الولد الصغير ، ظهر النحل! سرب عملاق طار مباشرةً إلى الحية . ولدغ ولدغ ، في رأسها ، في حلقها ، في ذيلها ، وعينيها ، لدغها في كل مكان ، حتى لم تعد الأفعى تتحمل المزيد وزحفت مبتعدة بأسرع ما تستطيع» .

كانت جميع العضلات في معدة توم ما تزال منقبضة ؛ جلس صامتاً مثل القبر في انحناءة ذراعي .

«وعندئذٍ نجا الجميع»؟ سأل ، بصوت غير مسموع تقريباً ، ربما خائفاً من سماع الإجابة .

انتظرتُ مرة أخرى ، وشعرت بجسده يرتجف تحت يدي .

«نعم» ، قلت له .

تنفّس توم الصعداء .

«لكن النحل لم يكتفِ بذلك» ، تابعت .

«لم يفعل؟» ضحك قليلاً الآن .

«طارد الأفعى أبعد وأبعد» .

«حتى ذهبت؟»

«نعم ، ذهبت تماماً» .

ارتاح توم أخيراً ، وخف ضغط جسده الصغير على جسدي .

«طاردها النحل كل الطريق إلى السماء» ، قلت . «وهناك تستطيع أن ترى الأفعى . حتى هذا اليوم» .

هز توم رأسه ، شعرت برأسه يتحرك إلى الأعلى والأسفل على ذراعي .

«ها هي هناك» ، قلت له . «وهناك» ، وأشرت إلى مسافة أبعد . «لديك خلايا النحل» .

«هناك؟»

«نعم ، أترى؟ هناك وهناك وهناك» . رسمت ثلاثة مربعات في السماء .

«ماذا عن النحل؟»

«النحل؟» فكرت بالأمر ، ثم جاءتني الإجابة وشعرت بأنني بارع جداً . «إنه بقية النجوم» .

هكذا ستكون الأمور ، فكرت . هكذا سنمضي الوقت في الأسابيع الثلاثة كاملة .

ذهبنا إلى النوم ، ونام توم فوراً . استلقيت مستيقظاً أستمع إلى صوت أنفاسه في الظلام . شخر بشكل طفيف ، كان أنفه الصغير محشواً قليلاً . وتقلَّب عدة مرات في كيس نومه قبل أن يستقر . ثم غفوتُ أنا أيضاً .

ولكن ، عندئذٍ جاء الدب . أيقظنا أول صوت ، ضجة حادة عندما سقط الوعاء الذي فوق النار على الأرض . ظلٌّ صلب على خلفية النحل المتلألئ في السماء . صوت مخالبه وهو يشق طريقه بها عبر الشجيرات ، قريب جداً حتى أننا سمعنا صوت فرائه وهو ينتصب بخشونة .

احتضنتُ توم ، لكن ذراعي لم تعطه أي دعم الآن . كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما ، تحدقان في الظلام .

كنا نستطيع سماع الدب وهو يغير على المخيم . تمزق كيس حلوى الخطمي البلاستيكي إرباً . وأُسقِط الخشب الذي كنتُ قد كدَّسته بدقة على الأرض ، وسمعنا صوت ارتطام أجوف على البولسترين عندما ضربت مخالبه الضخمة البراد .

ثم ، حل صمت مطبق .

جلسنا هناك فقط . لوقت طويل . داعبت شعر توم ، آملاً أن يحوِّل وجهه نحوي ، أن ينظر إليَّ ، لكنه ظل يحدق أمامه فحسب ، في الفراغ . ماذا أستطيع أن أقول؟ ماذا كانت إيما لتقول؟ لم تكن لدي أي فكرة ، لذلك لم أفتح فمي . سحبته أقرب إلي ، لكن جسده كان متصلباً .

أخيراً غامرت بالخروج .

كان موقع التخييم مقلوباً رأساً على عقب . أُكِلت حلوى الخطمي ، ولكن الدب كان قد غادر .

كان عندئذٍ حين تجرأت على التنفس بشكل مناسب .

ألقيتُ نظرة إلى داخل الخيمة .

«ليس هناك شيء الآن» .

لكن توم لم يجب . جلس هناك فقط بنظرة معتمة ، فمه مغلق وجسده كله متجمد . رفعته وحملته إلى السيارة . وفي اليوم التالي وضعته على متن الحافلة إلى البيت . لم يكن هناك خيار آخر . سوف تقابله إيما في المحطة . لم يشتكِ من جعله يقوم بهذه الرحلة الطويلة وحده . حتى ذلك الحين ، لم يكن ذلك وارداً .

أصبح صوتها حاداً عندما أخبرتها بما حدث . عرفتُ ما الذي تفكر فيه . مع أنها لم تقل أكثر من نعم وأوه . كان يجب أن تتحقق بشكل أفضل ، فكَّرَت ، كان يجب أن تبحث بشكل أفضل ، كان عليك أن تعلم أن هناك دببة في المنطقة . مجرد قماش خيمة بينكما وبين والموت ، إنه حظ أكبر مما تستحق .

رأيت وجهه الأبيض في النافذة الخلفية عندما غادرت الحافلة . ارتسم شعور بالانعتاق على تقاسيم وجهه ، وكانت عيناه كبيرتين وخائفتين .

لم يذهب معي بعد ذلك إلى ماين مرة أخرى أبداً .

ليس حتى هذه المرة .

كان الطقس لا يزال جافاً عندما ركبنا السيارة . ذهب جون في طريقه ، وقال إنه سيذهب إلى المنزل ليرسل شكوى بخصوص الأسيجة المكهربة .

لم يقل توم أي كلمة في طريق العودة . ربما كان يبحث عن الدب ، متوقعاً أن يقتحم الطريق أمام السيارة ، ضارباً بمخلبه على غطاء المحرك وقاطعاً السيارة إلى نصفين ، وممزقاً إيّانا مثل فأرين في جحر .

عندما أصبحنا في غرفة الفندق ، بدأ يحزم أمتعته بسرعة ، جمع أقلام تخطيطه ، وألقى الكتاب الذي يحمل صورة بيغ بين على غلافه في حقيبته . ووقفتُ أراقبه .

«لا داعي للعجلة» .

«هل أستطيع أن أنهي هذا فقط»؟ تمتم ، وهو يدير ظهره لي مرة أخرى .

فقط بعد أن أغلق حقيبته نظر إلي . كنت قد جلست ، متظاهراً بأنني أقرأ الصحيفة .

وقف طويلاً وسط الغرفة ، ويداه تتدليان على جانبيه . وضعهما في جيبيه ،لكنه أخرجهما مجدداً . كان هناك شيء في عينيه لم أستطع أن أضع أصبعي عليه .

«نعم»؟ قلت أخيراً .

لم يُجب . كان بالتأكيد يصارع شيئاً ما .

«حسناً إذن» . انحنيت على الصحيفة مجدداً ، مميلاً رأسي قليلاً إلى الجانب ، وتظاهرت بالجدية ، كما لو أنني أقرأ شيئاً ملفتاً بشكل خاص .

«لماذا تفعل ذلك؟» سأل فجأة .

رفعتُ أنظاري .

«ماذا؟ أفعل ماذا؟»

«لماذا تجره معك في كل مكان على هذا النحو؟»

«ها؟»

«النحل» . أخذ نفساً . «لقد خسرت لتوك ثلاث خلايا . خسرت ثلاث مستعمرات نحل بيوتها» . ارتفع صوته ، اتسعت عيناه ، وعقد ذراعيه على صدره كما لو أنه يريد أن يتعلق على نفسه . «فقط مسألة حمله ذهاباً وإياباً في الشاحنات . أتعلم حقاً ما يفعله ذلك به»؟

الجدية البالغة في جسده الفتي . كانت كثيرة ، جعلتني أريد أن أضحك . وكان ذلك بالضبط ما فعلته . انتشرت ابتسامة عبر شفتي ، وأفلتَت سعلة من حلقي ، لكن الضحكة لم تخرج أصيلة كما توقعت .

«ألا تحب التوت؟» سألت .

تأرجح فيه شيء ما . «التوت»؟

حاولت إبقاء رأسي مرفوعاً ، والاحتفاظ بالابتسامة ، وحماية نفسي خلفها . «لن يكون هناك الكثير من التوت في ماين من دون النحل» .

ابتلع ريقه . «أعلم ذلك يا أبي . ولكن ، لماذا تشارك في النظام . . . ككل؟ الزراعة . . . الطريقة التي أصبحت بها . . .» .

طويت الصحيفة بحركات واسعة . وضعتها على الطاولة . حاولت إبقاء صوتي هادئاً ، وأن لا أصرخ .

«لو كنت ابن غاريث ، كنت لأفهم ما تتحدث عنه . لكني لا أعمل بالطريقة التي يعمل بها» .

«ظننتُ أنك تريد أن تصبح مثله»؟

«أصبح مثل غاريث»؟

«أعلم أنك تريد التوسع» .

قالها ببساطة ، ليس كسؤال . ليس كاتهام ، ولو أن هذا كان واقع الأمر .

ضحكتُ مجدداً . ضحكةً جوفاء .

«وقد سجلتُ في نادي للغولف . واستثمرتُ في شركة لتصنيع النحاس» .

«ماذا؟»

«لا . لا شيء» .

تنهد من أعماقه . ثم حوَّل نظرته بعيداً عني ، إلى النافذة . كان الطقس ما يزال جيداً في الخارج .

«أعتقد أنني سأخرج لأمشي قليلاً الآن» ، قال دون أن ينظر إليّ مرة أخرى .

ثم غادر .

وخرجت خطتي بأكملها من باب غرفة الفندق الذي انصفق .

وليام

«ولكن ، أين هو؟»

كانت تيلدا وجميع الفتيات مصطفات أمامي في المطبخ . الآن سيَرين أخيراً ما كنت أعمل عليه في الآونة الأخيرة . خططت لأخذهنَّ إلى خلية النحل ، ولكن مع إبقائهن بعيدات بما يكفي حتى لا يتعرضن للدغ . وسوف أفتحها في النهاية بعناية ، وأشرح لهن الأمر كله ، حتى يتمكنَّ ، وكذلك إيدموند أيضاً ، من فهم نوع الابتكار الذي سيأتي ليغيّر حياتنا كلها . الذي سيجلب لنا الشرف ، ويضع اسمنا في كتب التاريخ .

كانت الشمس تتعلق تماماً فوق الحافة الأبعد من الحقل خلف الحديقة ، حيث تعاركت مع الأفق وبضع غيوم قاتمة تجمعت في الغرب . لن يطول الوقت حتى تغيب حتماً ، وربما تمطر الليلة أيضاً . أردت أن أُري عائلتي الخلية في هذه اللحظة ، بينما الشمس تنحدر إلى أسفل ، لأن هذا هو الوقت الذي يكون فيه النحل مجتمعاً في الداخل .

«قال إنه لن يكون في المنزل على العشاء» ، قالت تيلدا .

«حسناً إذن ، لماذا»؟

«لم أسأله» .

«ولكن ، ألم تخبريه بأن هناك شيئاً أريد أن أريه لكم جميعاً اليوم»؟

«إنه شاب له حياته الخاصة . من يدري أين يمكن أن يكون» .

«كان يجب أن يكون هنا»!

«إنه مرهق» ، قالت تيلدا . تحدثَت عنه وكأنه لا يزال رضيعاً ، بصوت ناشج خافت ، مع أنه لم يكن حتى موجوداً .

«وكيف تظنين أن أموره ستكون في الخريف ، إذا لم يستطع أن يفي بالتزاماته» .

انتظرَت فترةً طويلة قبل الإجابة . فكرت ، واستنشقت بأنفها .

«هل يحتاج إلى ذلك»؟

«عفواً»؟

«أعتقد أنه من المعقول أن ينتظر سنةً أخرى . أن يعيش في المنزل ، وينال قسطاً مناسباً من الراحة» .

توهج أنفها وهي تتحدث ، أصابني ذلك بالاشمئزاز فأدرتُ وجهي بعيداً .

«اعثري عليه» ، قلت ، من دون أن أنظر إليها .

حدَّقت بي ثمانية أزواج من العيون ، لكن أيّاً من أفراد العائلة لم يُظهر أدنى إشارة على التحرك بوصة واحدة .

«اذهبي واعثري عليه»!

أخيراً فهم أحدُهم من هو رب العائلة . اتخذتْ خطوةً إلى الوراء نحو الباب وتناولت قلنسوتها عن شماعة .

«سوف أذهب» .

شارلوت

انتظرنا في المطبخ بينما انتشر الظلام من الزوايا ولفّنا . لم يشعل أحد أي مصابيح . وكلما قالت إحدى الفتيات شيئاً ، كانت تيلدا تسكتها .

اختلستُ نظرة إلى السماء عبر النافذة. كانت الغيوم قد تزاحمت أمام الشمس منذ فترة، ولكن لن يتمكن المرء حتى من رؤيتها هي في القريب، لأن الظلام ابتلع خطوطها الخارجية. سريعاً أعمانا الليل وأصبح الوقت متأخراً جداً على أن أريهم أي شيء.

أين كان؟

خرجتُ، وظللتُ واقفاً على عتبة الباب. غزا نظام ضغط جوي منخفض المشهد. كان الهواء دبِقاً وقريباً، دون نفَس واحد للريح. كان كل شيء صامتاً. كان النحل قد انسحب إلى الخلية الآن، ولم أعد أسمعه.

أين كان كل الوقت؟ ما الذي يمكن أن يكون أكثر أهمية مما أردت أن أريه له؟

أخفت تيلدا تثاؤبةً عندما عدت إلى الداخل مجدداً. كانت جورجيانا نائمة ورأسها في حجر دوروثيا، واتكأت التوأمان على بعضهما بعضاً، وجفونهما تنغلق من النعاس.

تأخر الوقت كثيراً بالنسبة لهن. كان يجب أن يكنّ في أسرَّتهنّ منذ وقت طويل.

فجأةً لم أعد أعرف ما أفعل بنفسي وخطوت خطوتين إلى جانب. كان هناك كوب على الطاولة، تناولته وسكبت لنفسي بعض الماء. تنبهت لشعور الفراغ في بطني، وكان هدير خافت يتراكم. سحبت كرسياً بسرعة عن الطاولة، آملاً أن يشتت صوت أرجله الانتباه عن قرقرة معدتي. ثم جلست، ووضعت كلتا يدي على حجابي الحاجز، منحنياً إلى الأمام قليلاً وظل الهدير في داخلي.

فجأة فُتح الباب .

وقفت بسرعة .

دخلت شارلوت أولاً . وحدَّقت في الأرض .

تبعها هيكل قاتم . إدموند . لقد عثرتْ عليه .

«ولكن ، يا عزيزي»! وقفت تيلدا بسرعة على قدميها .

كان يقطر . خطا بضع خطوات مترنحة عبر الأرض . كان شعره وملابسه مبتلة ، لكن سرواله جافاً ، وكأن أحدهم ألقى ماءً عليه .

«شارلوت»؟ قالت تيلدا .

«إدموند . . .إنه . . .» .

«سقطتُ في النهر» ، قال إدموند ببطء .

ثم عبر مترنحاً من بيننا .

خطوت نحوه ووضعت يدي على كتفه ، أردت أن آخذه معي ، لأنه ربما لم يكن الوقت قد تأخر كثيراً لآخذه معي إلى الخارج ، وأُريه ، وأجعله يفهم .

لكنني أصبحتُ أحسُّ الآن بكم كان يرتجف تحت ملابسه المبتلة ، ولاحظت أن أسنانه تصطك في فمه .

«إدموند» .

«أنا . . . يجب أن أنام» ، تمتم دون أن يلتفِت .

ثم تملَّص من قبضتي ، وبخطوات متثاقلة مشى نحو الأدراج إلى الطابق العلوي .

لحقت به تيلدا ، وبدا صوت أقدامها مثل خربشة مخالب دجاجة على الأرض ، والثرثرة ، مثل قرقرة دجاج عصبية . «ولدي . . . تعال ،

سأساعدك . . . انظر هنا ، امش بحذر . . . سريرك جاهز . . . أمسك ذراعي . . . هكذا ، نعم . . . هكذا» .

اختفى ظهره الثقيل في أعلى السلالم . نظرت إلى الأسفل إلى يدي ، كانت ما تزال مبتلة من إمساكي به ، جففتها بسرعة على ساقِ بنطالي .

الكآبة السوداء التي هاجمتني بوحشية لا ترحم ، هل يمكن أن تكون قد حلّت أيضاً في ولدي؟ سالت من مجرى دمي إلى دمه؟ أهي وراثية؟ ربما لذلك لم يسمح لي بالدخول أبداً؟

ضاق صدري . كلا ، ليس هو . ليس إدموند .

فجأةً لاحظتُ وجوه البنات ، وقفت الفتيات في دائرة حولي . صامتات ، يتمايلن من النعاس . ناظرات إليّ ، منتظرات خطوتي التالية . كلهن إلا شارلوت . لم تقابل نظرتي ، لكنها كانت هي شاحبة أيضاً من قلة النوم .

أخذتُ نفساً ، «غداً» ، قلت لهن بهدوء «سوف ينتظر هذا إلى الغد» .

تاو

«هل تعرفين كيفية الوصول إلى هناك»؟

وقفتُ في ردهة الفندق البالية إلى حد لا يوصف ، وأشرت إلى الخريطة التي بسطتها . كان هذا المستشفى واحداً من الأخيرة على القائمة . وكنتُ قد قطعتُ القائمة هابطة إلى الأسفل ، شاطبةً وحاذفةً الواحد تلو الآخر .

«كان هناك قطار أنفاق من هنا إلى هنا» ، قالت موظفة الاستقبال وأشارت بيدها ، «وهكذا يمكنك أن تغيري وجهتك هناك» . وضعت إصبعها على الخريطة ، ليس بعيداً عن الحافة المتجعدة لإحدى الطيات .

كانت امرأة طويلة منتصبة ، تضحك بصوت عالٍ وطويلاً بشكل غريب كلما سنحت لها الفرصة . كانت دائماً في العمل . لقد تم نقل الآخرين ، كما أوضحت . وهي الآن متشبثة بالفندق ، الذي يدفع أقل وأقل ، من أجل توفير الطعام لها ولابنتها . وكانت الطفلة ذات العشرة أعوام تأتي يومياً بعد المدرسة وتعمل على واجباتها المدرسية في الردهة . كان ذلك السبيل الوحيد لكي ترى الأم وابنتها بعضهن بعضاً .

«لكن هذا الجزء من نظام قطارات الأنفاق هو الذي طلب مجلس المدينة بأن لا يستخدمه أحد» ، تابعَت .

نظرت إليها بفضول .

«المناطق قاسية . محتلّة . لا . ليست محتلة هي الكلمة المناسبة . لكن هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون هناك ، لا يملكون شيئاً . لم يعد أحد يسيطر عليهم بعد الآن» ، قالت .

«أي نوع من الناس هم»؟

«الذين لا يريدون الانتقال . الذين تركوا في الخلف . الذين اختبأوا . حدث الأمر بسرعة كبيرة ، وبعد ذلك ، إذا ندمتَ وأردت أن تتراجع ، قالوا لك أن الوقت أصبح متأخراً جداً مُسبقاً» .

ابتلعت ريقها وأدارت وجهها . ربما انطبق الأمر نفسه عليها وعلى الفتى ووالده في المطعم . لكني لم أستطع أن أسأل ، لم أكن أستطيع أن أتحمل واحدة أخرى من هذه القصص .

أردت فقط أن أواصل ، أن أبحث ، كما فعلت كل يوم منذ وصلت إلى هنا . يجب أن يكون في مكان ما . كل صباح كنت أخرج عند انبلاج النهار ، مع النقود وبعض البسكويت الجاف الملفوف في ورقة في محفظتي . كل يوم كنت أزور حياً جديداً ، ومستشفى جديداً . الكثير منها كنتُ قد اتصلتُ بها قبل وقت ، اتصلتُ من البيت سابقاً ثم من الفندق . كانت لدي أسماء الوحدات ، وأسماء الأطباء . والآن سعيت إلى نفس الناس وأنا أعتقد أنهم إذا كانوا يعرفون شيئاً ، فإنه سيصعب عليهم أن يتخلصوا مني إذا حضرت بنفسي ، عندما يرونني ، يرون الأم ، وجهاً لوجه . بعضهم تذكرني ، وحزنوا لأجلي . حتى أن بعضهم تجرأوا على النظر في عيني وقالوا أنهم يتفهمون يأسي .

لكن الرسالة كانت نفسها في كل مكان . لم يجدوا أي سجل عنه . لم يسمعوا أبداً بوي-وِن . كانوا يحيلونني إلى مكان آخر مرة بعد المرة ،

إلى مستشفيات أخرى . هل حاولتِ في فينجتاي ، هل جربتِ المستشفى المركزي في شاويانغ ، هل ذهبتِ إلى مركز هاديان للأمراض التنفسية؟

طلبت دائماً التحدث إلى المشرف ، نادراً ما استسلمت مع الشخص الأول الذي يحيلونني إليه . ثم انتظرت . أياماً كاملة . جالسة ، واقفة ، متجولة ، بجانب النوافذ ، في الغرف المظلمة ، على الأرض الحجرية الباردة ، في الغرف كئيبة الإضاءة ، بكأس من الماء في يدي ، أو كوب شاي من آلة البيع ، عادةً وحيدة ، وأحياناً في غرف الانتظار مفتوحة النوافذ . لم تكن أبداً مكتظة ، ولم تكن أبداً مشغولة ، لكن الأمر بدا مع ذلك وكأنني أُرسَل باستمرار إلى قاع القائمة ، ولم أكن أتحدث إلى الشخص المناسب في كثير من الأحيان حتى يقترب وقتُ الإغلاق . وفي بعض الأحيان ، واجهت النظرات المنزعجة : *ألا يمكن أن تستسلمِ؟ هناك العديد من اليائسين ، والكثير من المرضى ، وسيئي التغذية ، طفل واحد ، يجب أن تهدأ ، يجب أن تفهم أننا لا نملك الوقت* . لكنني بقيت . لم أكن أفعل شيئاً ، وإنما أردتُ أن أظل مرئية ببساطة ، حتى حصلت على ما أريد .

في العديد من المناسبات قادني الانتظار كل الطريق إلى مكتب المدير . غرف كبيرة بأثاث ثقيل ، غرف كانت ذات مرة أنيقة ، لكنها تنطق الآن بالتدهور . عرضت ما أريد ، وجعلتهم يتكلمون ، وخبِرتُ التعاطف . بعضهم تحقق مرة أخرى ، وهاتف آخرين . حاولوا حقاً . ولكن ، لم يستطع أحدٌ أن يساعد . لقد اختفى وي-ون .

في البداية كنت أتصل بكوان يومياً . لكن الكلمات بيننا كانت قليلة . جعلته يعرف أنني لم أحقق أي تقدّم . وهو أخبرني أنه لم يسمع

أي شيء أيضاً . كان الحديث يصبح أكثر رسمية واقتضاباً مع كل مساء يمضي . ثم سأل عن المال ، كم أنفقت منه ، وكم تبقى . كذبت ، لم أستطع أن أخبره أن تذكرة القطار إلى هنا كلفت وحدها 5500 يوان . في إحدى الليالي لم أتصل . ولم يتصل هو أيضاً . كنا نعرف كلانا أنه ليس لدى أي منا أي شيء ليخبر عنه . تشكل اتفاق ضمني على أن الذي يعرف شيئاً أولاً سيتصل .

في الليل كنت أنام بعمق وبلا أحلام ، وكأن أحداً أسدل قماشة سوداء على وعيي بمجرد أن يضرب رأسي الوسادة . كانت معرفتي بأنه ليس هناك شيء أكثر يمكنني أن أفعله ، تمنحني التوزان . كنت متأكدة أنني سأعثر عليه في نهاية المطاف . عليّ ببساطة أن لا أستسلم . ولكن مع مرور الأيام ، أصبح من الصعب الاحتفاظ بالإيمان . كلما نزلت أكثر على القائمة ، كلما أصبحتُ أكثر قلقاً . لأنني لم أكن قد عثرت على وي-وِن بعد ، لا أثر له . والنقود اختفت أيضاً بسرعة أكبر مما خططت ؛ أصبح صندوق الصفيح خفيفاً جداً .

لم يعد معي أكثر من 7000 يوان . ربما يمكن أن تكون كافية ، لو أننا كنا مقتصدين حقاً خلال العامين الماضيين قبل وصول حدِّ السِّنّ . لكنني لم أكن قد اشتريت تذكرة القطار للعودة بعد .

«مضى وقت طويل منذ سمعت أي شيء من تلك المنطقة» ، قالت موظفة الاستقبال بهدوء ، وطوت لي الخريطة . «ربما أصبحت مهجورة تماماً الآن . مع ذلك ، نصحونا بأن نظل بعيدين عنها» .

«ولكن المستشفى»؟

«إنه على الحدود» . أشارت . «المناطق غير المسيطر عليها تبدأ هنا . أبعد إلى الجنوب ، ما يزال يمكنك التنقل . ولكن . . . هل أنتِ متأكدة أن عليك الذهاب إلى هناك» .

هززتُ رأسي .

تحملَت نظرتي وفهمَت . كانت تعلم أنني أبحث عن ابني ، لكنني لم أخبرها بأكثر من ذلك . ومع ذلك ، ربما كان ذلك كافياً . كل شخص لديه أولاد يفهم أنه يكفي ، يكفي إلى درجة أن أي خطر يمكن أن تعرِّض نفسك له يأتي في المرتبة الثانية .

مددتُ رقبتي لكي أنظر إلى السقف . بلاط أحمر ، أبلاه الريح والطقس ، كان ذات يوم لامعاً بلا شك ، مصقولاً ، مثل سطح المعبد . كانت الجدران رمادية ، والطلاء يتقشر . صوت أزيز خافت في السماء جلب انتباهي ، كان هناك شيء يتحرك في الهواء . ضيقتُ حدقتيّ لكي أراه عن كثب ، لكنه اختفى خلف السطح .

امتدت فوقي سماء رمادية عصيَّة على الاختراق . كانت الشمس خارجة عندما غادرت الفندق ، لكن الأجواء ضبابية هنا . كما لو أن الظلام حلَّ مُسبقاً .

استغرقت الرحلة أربع ساعات . تضمنت ثلاثة تغييرات للمواصلات وكانت جولة التفافية ، لكنني مررت بما سمَّتها موظفة الاستقبال مناطق آمنة . ومع ذلك ، كان كل شيء بالغ الهدوء ومسحوقاً حتى أنني ضبطت نفسي وأنا أشتبه ببعض المسافرين الذين قابلتهم ، وكنتُ أختلس نظرات قلقة من خلف كتفي .

كنت قد حاولت الاتصال بهذه المستشفى مرات عديدة، ولكن الجواب كان نفس الذي تلقيه من الأماكن الأخرى. لم يسمعوا أبداً باسم وي-وِن، لا يستطيعون مساعدتي. وفي آخر مرة اتصلت بهم لم يجيبوا. ورحبت بي فقط رسالة أوتوماتيكية على الجهة الأخرى، نظام إجابة صوتي لم يوصلني أبداً إلى أي مكان.

كان شيء تذكاري من النباتات الميتة هو أول شيء شاهدته. وأكد ضوء خافت من مصباح أن المستشفى ما تزال فيه كهرباء. كانت ردهة الاستقبال العملاقة فارغة. وظهرت أمامي منضدة استقبال طويلة من الخشب الداكن. وجدت آلة تحقُّق وتسجيل دخول قديمة لأعضاء العائلة، والتي لا بد أنها تعود إلى زمن ما قبل «الانهيار». ومض ضوؤها تحت أصابعي، لكنها سرعان ما انطفأت.

شرعت في المشي على غير هدى.

أولاً إلى اليمن، لكنني قابلت باباً مغلقاً.

إلى اليسار وجدت مصعداً. جربت الأزرار المختلفة، لكن شيئاً لم يحدث. واصلت المسير. امتدت ممرات لا نهائية ومظلمة أمامي.

جربت العديد من الأبواب، لكنها كانت كلها مقفلة.

أخيراً وجدت واحداً يقود إلى أدراج مظلمة. صعدت طابقاً. كان الباب هناك موصداً. جربت واحداً آخر، وكان مغلقاً أيضاً. لم يكن حتى الطابق الثالث حيثُ وجدت باباً مفتوحاً. قادني

إلى ممر ، مهجور مثل الممرات الأخرى . مشيت بضعة أمتار . وبدا صوت خطواتي مثل جلجلات مملة على الأرض الحجرية .

توقفت بجوار نافذة . وكان هناك عندما اكتشفت الأمر . في واحد من أجنحة المستشفى الجانبية ، كانت الأنوار مضاءة . واصلت في ذلك الاتجاه ، آملةً أن الممر الذي أسير فيه يصل بين الأجنحة بحيث أستطيع أن أذهب مباشرةً .

فجأةً سمعت صوتاً أمامي ، صوتَ معدن أجوف يُجَر عبر مشمع الأرضية .

«مرحباً»؟ قلت بصوت خفيض .

هناك باب مفتوح أمامي ، باب من الزجاج المزدوج . لم أستطع أن أرى داخل الغرفة .

أصبحت فجأة واعية لقَلبي ، كان يخفق بسرعة . هناك شيء ما خطأ . ربما ينبغي أن أخرج من هناك ، وأن أذهب إلى الضوء هناك في الجناح الجانبي . لكنه كان عليّ أن أمرَّ بالأبواب . بدأت السير بسرعة أكبر .

صوت آخرُ أيضاً . خطوات مترنحة .

ثم ظهر هيكل واضحاً للعيان أمامي . كان أول شيء رأيته هو الأقدام العارية . أظافر غير مقصوصة على أصابع أقدام متجعدة . كانت - لأنها يجب أن تكون امرأة- بالكاد تستطيع أن تتقدم إلى الأمام ، وهي تدعم نفسها بدعامة مشي مع كيس لحقنة وريدية ، وكانت دعامة المشي وراء ذلك الصوت . لكن الكيس كان فارغاً . كان شعرها الرمادي نامياً في كتل . وظهرت فروة رأسها في مواضع كثيرة . كل ما كانت ترتديه هو

رداء مستشفى ، كان ملطخاً ، وتحته رأيتُ الخطوط العريضة لحفاضة ، وكان عندئذٍ فقط أن لاحظت الرائحة .

حدقت فيَّ ، كما لو أنها لا تستطيع أن تتذكر أي كلمات .

تراجعتُ ، وأردت أن أبتعد .

همَّت ، وحاولت مرة أخرى ، أرادت أن تقول شيئاً .

استجمعتُ نفسي ، أخذت نفساً ، لم أستطع أن أتخلى عنها .

تقدمت بضعة خطوات نحوها . ترنحَت قليلاً ، وبدت كأنها على وشك الانهيار .

«أُن . . .ظ» قالت بصوت خافت . «أنظري» .

ترنحَت . أمسكتها من كوعها لأدعمها . تجمعت الرائحة لاذعةً في أنفي ، كانت ذراعها نحيلة جداً كذراع طفل . أرادت أن تأخذني معها إلى الغرفة التي خرجت منها .

دفعت الباب . انفتح قليلاً ودخلنا . حاولت أن أدعمها طيلة الوقت . تمخض الغثيان في داخلي ، كانت الرائحة مثل كتلة سميكة ، عصية على الاختراق . ضربتني وامتصت الهواء مني .

غرفة . على طول الجدران أسرّة ، أسرَّة مستشفى لامعة من القضبان المعدنية ، مصطفة جنباً إلى جنب ، عليها كلها أغطية كانت ذات يوم بيضاء . لم يكن لدي الوقت الكافِي لأحصيها ، ولكن لا بدّ أنه كان منها ما يفوق المائة .

كان هناك أناس يستلقون على الأسرة . بعضهم مسنّون ، الكثيرون مسنُّون جداً ، والبعض طاعنون كثيراً في السن . مستيقظون ، ينشجون ،

يتأوهون ، ينوحون ، وأيديهم تلوِّح في الهواء . بعضهم يرقدون مغلقي العيون ، وكأنهم نيام .

جعل وصولي العديد منهم ينهضون من أسرتهم . كانوا هزيلين ، نحيلين بشكل مخيف بهيئات مُشعثة تماماً مثل المرأة التي دخلت معها . الآن تحاملوا على أقدامهم وشرعوا في القدوم نحوي .

عشرون أو نحو ذلك من العجائز ناضلوا ضد أجسامهم ، وحاربوا ضد الجاذبية وشقوا طريقهم إلى الأمام ، بعضهم غير مستقر إلى حد الاضطرار إلى الزحف . كرروا جميعاً نفس الكلمات . *النجدة . ساعدني . ساعدنا* . مرة ومرة أخرى .

لكن أولئك الذين كانوا نائمين استلقوا هناك فحسب ، برغم الضجة ، برغم صرخات الآخرين . كان عند ذلك فقط عندما أدركت أنه ليس النوم هو الذي قيَّدهم بالأسرة . كان الموت .

استدرتُ وركضت .

صرخت . صِحتُ بلا كلمات . حاولت أن أجذب انتباه أحد ، وإنما لم يجبني أحد .

واصلت طريقي في الظلام . إلى الجناح الآخر ، حيث الأضواء .

كان الصوت الوحيد هو صوت أقدامي على أرضية المشمع ، وصوت أنفاسي .

درتُ حول زاوية ورأيت الغرف المضاءة أخيراً . ركضتُ نحو الباب . فتحته دفعةً واحدة . امرأة ترتدي الأبيض ، طبيبة أو ممرضة ، نظرت إليّ باندهاش . كانت تطوي أغطية سرير في صندوق .

«من أنتِ»؟

عندها فقط أدركت أنني أبكي .

مسحتُ عينيَّ ، حاولتُ التفسير ، لكن الكلمات اختلطت كلُّها .

«تعالي ، اجلسي» . أرادت مساعدتي لأجلس على كرسي .

«لا ، لا . . . المُسنّون . . .إنهم يحتاجون المساعدة» .

أشاحت بوجهها . وواصلت طيَّ الأغطية .

سحبتُ ذراعها .

«يجب أن أريكِ . . تعالي»!

تملَّصت من قبضتي بحذر . ولم تنظر إلي .

«نحن نعرف عنهم» ، قالت بهدوء .

وضعت يدي عليها . «لكنهم مرضى . وبعضهم . . .أعتقد أنهم موتى» .

انتفضت مبتعدة .

«لا نستطيع أن نأخذهم معنا» .

«ماذا تعنين»؟

«سوف نخلي المستشفى . ليس المكان آمنا هنا . سوف نأخذ المرضى إلى مستشفىً أبعد إلى الجنوب ، إلى فانغشان . هناك القليل جداً منا ، لا نستطيع أن نتدبر الأمور أكثر . الإمدادات لا تصل إلى هنا ، ولا أحد يريد أن يعمل هنا» .

«ولكن ، المسنّون»؟

«إنهم موتى» .

«لا . لقد رأيتهم . إنهم أحياء» .

«سوف يموتون قريباً» . قابلت نظرتي ، وأقامت عنقها ، وكأنها تريد أن تبدو أصلب .

وقفتُ هناك . «كلا»!

وضعَت يدها على ذراعي .

«اجلسي» .

ذهبَت إلى المغسلة ، أرادت أن تملأ كأساً بالماء ، لكن الصنبور سعل . استسلمَت وسارَت نحو الرواق .

«انتظري هنا» .

بعد برهة عادت وهي تحمل كأساً من الماء الفاتر .

قبِلته . كان الكأس شيئاً أتشبثُ به . وقد تشبثتُ به .

جلسَت معي .

«هل أنتِ من أفراد عائلةِ أحد ما»؟ سألَت برقّة .

«نعم . لا . لا أدري . أعني . . . لستُ قريبة أحدٍ هنا» .

نظرت إليّ باندهاش .

«أنا أبحث عن ابني» ، قلت لها .

هزّت برأسها . «أنتِ على حق . إنه ليس هنا . تم نقل آخرِ المرضى في وقت سابق اليوم . كل ما تبقى الآن هي المعدات» .

«والعجائز»؟

لم تجب ، وقفت فقط بشكل مفاجئ .

«العجائز»؟ قلت مجدداً .

«لا نستطيع مساعدتهم» . كان صوتها خافتاً ، وأمسكت بالعربة دون أن تنظر إليّ . «علي أن أطلب منك المغادرة» .

تصاعد الغثيان في داخلي .

«هل سيظلون هنا»؟ أشاحت برأسها بعيداً .

«غادري الآن» .

«كلا»!

رفعت أنظارها إليّ أخيراً . كانت عيناها تتوسلان .

«اذهبي . وانسِ ما رأيتِ» .

أردتُ أن أوقف العربة ، أن أوقفها نفسها ، لكنها انتزعت العربة مني . اصطدمَت بإطار الباب بعنف ، أخطأت طريق الخروج ، وترتب عليها أن تحاول مرةً أخرى . نجحت أخيراً في جر العربة معها خارج الباب . اهتزت العجلات على الأرض وهي تختفي في الرواق . صرَّ الصوت في أذني .

وقفتُ على الشارع ، لم أعرف كيف وصلت إلى هناك . لقد تخليتُ عنهم ، وغادرتُ كما فعل كل الآخرين ، كنتُ جزءاً من ذلك . كان ذلك عالمنا . ضحَّينا بمُسنِّينا . هل كان هذا هو ما حدث لأمي أيضاً؟ أخذوها بعيداً . حدث كل شيء بسرعة . اختفت . ولم أفعل أي شيء للمساعدة . تركتُ ذلك يحدثُ فحسب .

أمي .

انحنيت إلى الأمام ، وانهرتُ على ركبتَي . ضاق حجابي الحاجز ، وتشنجَت معدتي .

تقيأت حتى لم يتبقَ في جوفي شيء . ثم وقفت هناك . يجب أن أعود . أن أقدم لهم الطعام والماء . أن أخرجهم من هنا . أو أجد شخصاً يمكن أن يقدِّم المساعدة . ينبغي أن أتصرف ككائن بشري .

على أحدٍ ما أن يفعل شيئاً . ربما أكون ذلك الشخص . ربما لم تعلم الإدارة حتى بقرار تركهم في الوراء . ربما لم يعلموا بذلك .

ولكن . ليس هذا هو سبب تواجدي هنا؟

وي-وِن .

ليس الناس هناك مسؤوليتي . إنهم مسؤولية المستشفى . وعائلاتهم . لقد تركهم أحدٌ ما . ليس أنا ، ليس هذه المرة .

أمي . لقد خذلتُها . لن أخذل وي-وِن . والناس هناك . . . لم يكن لديَّ شيء أستطيع فعلَه . عليَّ التركيز على طفلي .

تقيأتُ مرةً أخرى ، وكأن جسدي يحتج على أفكاري ، وتعلَّقَت خيوط من اللعاب بشفتيَّ . كان الطعمُ مُرّاً لاذعاً ، وكان هناك وخزٌ حاد في أنفي وحلقي . لقد استحقيتُ ذلك .

جلستُ هناك ، مصابةً بالدوار والإعياء . ثم وقفت ببطء على قدمي وبدأت أمشي . لم تكن لدي فكرة عن المكان الذي أذهبُ إليه ، وأدركت فقط أن عليَّ الابتعاد عن هنا قدر الإمكان .

كان فمي جافاً . حاولت أن أتنفس مِن أنفي ، ورطبتُ لساني باللعاب . لكن ذلك لم يساعد . وضعت يدي في حقيبتي ، كانت هناك قارورة ماء . أخرجتها ، كانت نصف ممتلئة ، أفرغتها برشفات كبيرة .

ثم مضيت قدماً . فقدت الصلة بالوقت . كان هناك جزء من السماء أكثر صفاء . وكنت أنسحب باتجاهه . ربما هناك أشعة شمس ، ربما أستطيع أن أفرّ من كل هذا الرمادي . لكن تلك النقطة في السماء

كانت تصغُر وتصغُر، وحجاب الضوء أمام الشمس أصبح أكثر سماكةً، وتحول إلى جدار.

كان الوقتُ قد أصبح متأخراً جداً حين أدركتُ أنني ضيّعتُ طريقي.

جورج

عادت خلايا النحل إلى الحقل ، في البستان وعلى حوافِّ الأخدود حيث يريدها توم بوضوح أن تكون . بعيداً عن حقيقة أنه لم يكُن يريد أيَّ علاقة لها بنا أيضاً ، بصراحة .

كان الوقت مبكراً ، وكنت في الحقل على ضفاف نهر ألاباست . كانت الشمس تسفع قبعتي البيضاء ، ومئزري وغطاء الوجه . لم أكن أرتدي أي شيء تحتها . سالت قطرات العرق إلى أسفل ظهري ، ودغدغتني حتى وصلت إلى حافة سروالي الداخلي . يجب أن تكون فلوريدا جحيماً كاملاً الآن . يا إلهي ، كم أنا سعيد لأننا لم نقرر بخصوص الانتقال إلى هناك .

لأن الصيف هنا كان أوفر دفئاً بما يكفي . كان الطقس رائعاً في الأسابيع القليلة الماضية . ليس هناك الكثير من المطر . النحل يطير غدوّاً ورواحاً ، دخولاً وخروجاً . يجمع الرحيق من لحظة شروق الشمس حتى اختفائها في الحقل عند المساء ، تماماً خلف مزرعة غاريث .

كان هذا أفضل الأوقات . أصبحت أخرج مع النحل كثيراً الآن . وأخذتُ كامل وقتي . في بعض الأحيان كنت أقف هناك فقط لأتأمل كيف يرقص . الحركات جيئةً وذهاباً التي لم أستطع أن أميِّز أي نظام فيها بالضبط ، لكنني علمت أنها طريقة النحلات لتخبر واحدتها الأخرى أين يوجد أفضل الرحيق : *الآن أرفرف بجناحي قليلاً ، قليلاً إلى اليمن ، ثم خطوتين إلى اليسار ، وبعدها أدور حول نفسي دورةً كاملة . وهذا*

يعني أن عليكنّ أن تحلّقنَ خلف شجرة البلوط الكبيرة ، إلى أعلى المنحدر الصغير ، فوق النهر ، هناك صديقاتي ، ستجدن أفضل غيضةٍ يمكنكن تصورها من التوت البري!

هكذا كنّ يعملن . دخولاً وخروجاً ، يرقصن لبعضهن بعضاً ، يبحثن ، يجِدنَ ، ويجلبن . والخلايا تصبح أثقل وأثقل . في بعض الاحيان حاولت أن أرفعها ، أن أختبرها وأقدِّر وزنها . كان العسل يتقطّرُ مُسبقاً في الداخل . المال الذهبي السائل . مال للدفعة القادمة ، ومال للقرض .

امتلأت الخلايا منذ وقت طويل بجانيات العسل . والآن ، كانت المهمة هي منع الخروج ، منع الملكة القديمة من أخذ بعض أجزاء المستعمرة معها لتترك مساحة للملكة الجديدة ونسلها .

كان الحقل بجانب نهر ألاباست بعيداً جداً عن الناس . ومع ذلك ، استدعاني أكثر من مرة لإزالة سرب نحل من شجرة فاكهة أناسٌ مهتاجون غاضبون ، حيث الأولاد الخائفون الذين وقفوا مرتجفين في الداخل وقد ضغطوا أنوفهم المنبسطة على زجاج النوافذ ، بينما أهز السرب وأغويه بالدخول إلى خلية جديدة . أعطانا ذلك النوع من الأشياء سمعةً سيئةً ، وقد عملت جاهداً لتنجب ذلك . كانت للنحل قدرة ملفتة على إيجاد الأشجار في حدائق الناس ، وليس فقط في طبيعة الله المفتوحة ، عندما يأخذ استراحة بينما يستطلع النحل الكشاف باحثاً عن منزل جديد .

لذلك كنتُ أدسُّ رأسي داخل الخلايا كل وقت ، باحثاً عن الخلايا التي تكاثر فيها النحل . وإذا ما اكتشفت أصغر إشارة ، كنتُ

أقوم بتوسيعها . وفي حال اكتشفت وجود يرقات ، لم يكن هناك شيء آخر يمكن التفكير فيه . يجب تقسيم مستعمرة النحل .

في بعض الخلايا ، كانت قابلية التكاثر قوية . لم أعرف أبداً لماذا . كانت مسألة استبدال الملكة ، والتناسل من إحدى أفضل المِلكات ، ومقاومةً إغراء الاستمرار مع ذرية النحل المتكاثِر .

كنت قد استبدلت فعلياً معظم الملكات هذا العام ، ولكن سمح للقليل منها بالعيش . بعض الملكات المخلصات اللواتي واصلن وضع البيض لما وصل إلى ثلاث سنوات . ملكات مثاليات . هؤلاء كنَّ اللواتي فضلت التناسل منهن .

كنت أقف بجانب إحداها الآن . خلية وردية اللون ، مستعمرة نحل صاحبة ضمير . واحدة من تلك التي كانت تجلب معظم الرحيق . نحلات يمكنني الاعتماد عليها ، والتي أنتجت بجنون ؛ وقد تم توسيع الخلية فعلياً بمقدار صندوقين هذا العام . صندوقَين ثقيلين مليئين بالعسل . لم أحضر إلى هنا منذ أسبوع ، وركزت على خلايا النحل في مناطق أخرى .

كان صوت توم يئزُّ في رأسي . لم أقترب أبداً من لوح التحليق قبل إزالة الغطاء الخارجي . لم نسمع منه . لا شيء عن المنحة الدراسية ، لا شيء عما يفكر فيه بخصوص مستقبله . أو أنه ربما كان يتصل ويتحدث مع إيما بينما أكون في الخارج ، دون أن تأتي هي على أي ذكر بعد ذلك . انتظرتُ فحسب . ربما يفكر في خياراته . وعدم وجود أخبار هو أخبار جيدة في حد ذاته على أي حال . إنه يعرف أين يجدني ، لم يكن الأمر وكأن المزرعة أنبتت أجنحة وطارتِ بعيداً .

هل خسرتُه؟

وضعت الغطاء الخارجي على الأرض . وعندئذٍ فقط عدتُ وركَّزت . لأن الصوت لم يكن بالطريقة التي يكون عليها عادةً ، بالطريقة التي ينبغي أن يكون عليها . كان هدئاً جداً .

أزلت بطانة العزل . الآن سأسمعه قريباً بالتأكيد .

نظرت إلى لوح التحليق ، إلى الفتحة .

لا نحل .

ثم نظرت إلى أسفل الصندوق العلوي . كانت مخازن الطعام جيدة . الكثير من العسل .

ولكن ، أين هي النحلات؟

ربما في الصندوق التالي . نعم ، يجب أن تكون هناك .

أزلتُ الصندوق العلوي . اشتكى ظهري . *تذكَّر أن ترفع بساقيك* . حاولت أن آخذ الأمر ببساطة . وضعت الصندوق برفق على العشب ، ثم وقفت ونظرت داخل الصندوق التالي .

لا .

صندوق الحضانة . يجب أن تكون في صندوق الحضانة .

أزلت بسرعة عازل الملكة . كانت الشمس عامودية فوق رأسي ، تضيء الصندوق تحتي .

فارغ . كان فارغاً .

كان هناك الكثير من البيض ، لكن هذا كل شيء . ثمة فقط بعض النحلات التي فقست مؤخراً تزحف في المكان ، دون أحدٍ ليعتني بها . يتيمات .

في القاع وجدت الملِكة ، كانت معلّمةً ، مثل كل الملِكات ، ببقعة من الطلاء الفيروزي على ظهرها . وحولها تجمع الكثير من النحل ، الأطفال . ولم تكن هؤلاء النحلات يرقصن ، وإنما كُنَّ مخدورات . وحدهن . متروكات . الأم والأطفال وقد هجرتهنَّ القوى العاملة . متروكات من أولئك اللواتي كان يجب أن يُعنَين بهن . متروكات للموت .

تفحصت الأرض حول الخلية . ولكن لم يكن هناك أي نحل هناك أيضاً . لقد ذهب ببساطة .

أعدتُ عازل الملكة والصناديق إلى مكانها بحذر . ولاحظت أنني أطرفُ بسرعة . ويداي باردتان ، فجأة مثلما في يوم خريفي ماطر .

تحولتُ إلى الخلية المجاورة لهذه . لوح التحليق ، المدخل إلى الخلية ، وأدرتُ وجهي إلى الجهة الأخرى حتى لا أرى ، ولكن لم يكن عليّ أن أنظر حتى أدرك ما ينتظرني ، كانت الخلية هادئةً إلى أبعد حد .

لا أثر للعثة . لا مرض . لا مقبرة ، لا مذبحة ، لا جثث .

مهجورة فحسب .

والملِكةُ وحدها تقريباً هناك في الأسفل ، أيضاً .

ضاق صدري ، وسارعت إلى إعادة الغطاء .

فتحت التالية .

كان هناك بعض الأمل في يديّ ، عندما أزاحتا الغطاء الخارجي بسرعة .

ولكن ، لا . الشيء ذاته .

فتحت التالية .

الشيء ذاته .

التالية .

والتالية .

والتالية .

رفعتُ أبصاري إليها .

نظرتُ إليها جميعها ، متناثرةً على مسافات مختلفة . خلاياي .

نحلي .

26 خلية . 26 مستعمرة .

وليام

بينما كان إدموند يستعيد عافيته بالنوم ، عملت أنا على خلية النحل . كانت الشمس تشرق من جديد ، وهنا في الخارج أصبحت حالتي الذهنية أكثر إيجابية . بالطبع لم يكن مريضاً ، كان تعباً فقط ، كانت تيلدا على حق بكل تأكيد . يوم أكثر أو أقل لن يُحدثَ فرقاً ، وعندما تتاح له فرصة رؤية ما أنجزت ، سوف تنفتح عيناه حقاً .

كانت ظروف المراقبة والملاحظة ممتازة . وضعتُ خلية النحل في مكان عالٍ ، بحيثُ لا أضطر حتى إلى إحناء ظهري لأراها . استقرت النحلات في الخلية بسرعة مثيرة للدهشة ، وهي الآن تجلب حبوب اللقاح والرحيق وتتناسل بشكل متواصل . كان كل شيء كما ينبغي أن يكون . لكن شيئاً واحداً أدهشني : حاجتها المستمرة لإلصاق اللوح الذي فيه شمع النحل بشيء ما . جربت عدة استراتيجيات مختلفة ، ولكن في حال كانت الألواح قريبة جداً من جوانب الخلية ، أنتج النحل مزيجاً من الشمع والعكبر ، تلك المادة اللزجة التي تصنعها من الراتنج ، وإذا كانت الألواح بعيدةً جداً ، توسعت النحلات بقوس من أقراص العسل ، أقراص تمتد في كل مكان . ميلها ذاك إلى إلصاق قرص العسل دائماً بشيء ما ، سيجعل من الصعب قطاف العسل على المدى الطويل . ثمة شيء كان خطأ هناك ، شيء يجب أن أستمر في العمل عليه .

وصل بينما كنتُ أقف هناك . لاحظته قبل أن أراه . وأحدث مرآه ارتجافة في داخلي ؛ كانت قبعته المائلة تلقي ظلاً على وجهه ، وقميص

فضفاض على جسده القوي ، والحقيبة ، نفس الحقيبة المهترئة من قماش الشراع التي دائماً ما علَّقها على كتفه ، مليئة بالأواني الزجاجية ، والملاقط ، والمشارط والمخلوقات الحية .

انحنيت على الخلية . ربما تكون هذه هي الفرصة التي كنتُ أنتظرها ، ولكن لا يجب أن أُريه ما هو الذي على المحك بالنسبة لي . أبقيت يديَّ مشغولتين ، رغم أنني لم أكن منتبهاً تماماً لما أفعله . تظاهرت ، وظهري يواجه الطريق ، بأنني غارق تماماً ، غارق في هذا المشروع العظيم ، الذي كان لي وحدي ، الأول الذي كان لي كله .

اقتربت خطواته ، تباطأت . وتوقفت .

ثم تنحنح .

«يا للعجب»!

استدرت نحوه . افتعلتُ تعبير المفاجأة على وجهي .

«رام» .

ابتسم بإيجاز .

«إذن ، ما يقولونه صحيح»؟

«أهو كذلك»؟

«عدتَ واقفاً على قدميك»؟

استقمت .

«ليس على قدمي فقط . أشعر أنني أفضل من أي وقت مضى» . بدا ذلك صبيانياً .

«أنا سعيدٌ لسماع هذا» ، قال دون أن يبتسم .

أملت أن يتابع بمزيد من الأسئلة ، أن يريد أن يعرف لماذا اخترتُ أن أستخدم هذه الانعطافات الدرامية للعبارات ، لكنه لم يقل شيئاً ، وقف هناك فقط شبه مستدير ، وكأنه سيغادرني قريباً .

سرتُ نحو السياج ، وخلعتُ قبعتي وغطاء وجهي . أردت أن أبقيه هنا ، أن أمدَّ يداً مرحِّبة وأشعر براحة يده في يدي . لكنني انتبهتُ في الوقت نفسه إلى وجهي المتعرِّق ، الذي ربما يكون لامعاً ومُحمرّاً . مسحت جبهتي سراً ، لكنه كان قد لاحظَ سلفاً .

«الجو حار هناك في الداخل» ، قال .

أومأتُ برأسي موافقاً .

«لكن من المعقول على الأرجح أن يغطي المرء نفسه» .

«نعم» ، أجبت ، دون أن أدرك ما يريد الوصول إليه .

«يمكن أن تكون هناك حقاً عواقب مريعة إذا لم يغطِّ المرء نفسه» .

تحدَّث بتلك اللهجة الإرشادية المألوفة ، وكأن هذه أخبار جديدة بالنسبة لي .

«أدركُ ذلك» ، قلت ببساطة ، وتمنيت لو قلتُ شيئاً أكثر مهارةً وحكمة ، شيئاً يجعله يبتسم ، ولكن الشيء الوحيد الذي كان لديّ لأعرضه ، ذهب دون أن يُقال على ما يبدو .

«لهذا السبب لم أكن متحمساً جداً أبداً تجاه النحل . لا يستطيع المرءُ أن يتواصل معه مباشرةً» ، قال .

«كلا . الأمر يعتمد قليلاً على كم يكون المرءُ آمناً» .

تجاهلني ، وتابع من حيث توقف . «إلا إذا كان المرء وايلدمان» . وانزلقت ابتسامته الموجزة المعتادة على شفتيه .

«وايلدمان»؟

مثل الكثير جداً من المرات السابقة ، جاء لي باسم غير معروف . بدا أن معرفته لا تنضب .

«إذن . لم تقرأ عن وايلدمان»؟

«لا . . .لا أدري . . . يبدو الاسم مألوفاً» .

«فنان سيرك ، مشعوذ . وأحمق . كان يدعُ النحل يتسلق عليه ، بلا حماية . كان شهيراً بلحيته المصنوعة من النحل» . لمس وجهه بيديه ليشرح الأمر . «كان يجعل النحل يغطي كامل وجنتيه ، وذقنه وحلقه . حتى أنه أدّى عرضاً أمام الملك جورج الثالث . أيمكن أن يكون ذلك في 1772 . . .»؟

نظر إليَّ كما لو أن لديّ الإجابة .

«على أي حال . كان اسمه يناسبه ، هذا الوايلدمان . كان ما يفعله يشبه الروليت الروسي . وهو يضع كل ذلك النحل على نفسه ويدّعي أنه يملك السيطرة الكاملة عليه ، نوع من السحر . في حين أن الشيء الوحيد الذي فعله حقاً كان استحضار اجتياح اصطناعي . كان يتخم النحل بالشراب ويأخذ الملكة . وحيث تتواجد الملكة ، يكون النحل أيضاً» .

لم تكن لهجة رام المتعالية تشير إلى إدراكه لحقيقة أن هذه المعلومات بالذات ليست أخباراً جديدة بالنسبة لي .

«بالمناسبة ، عمل والده على شيء مشابه . ثوماس وايلدمان . لكنه مع مرور الوقت أصبح نحالاً محترماً ، بين أمور أخرى للنبلاء . عاد إلى

رشده . أما الابن ، من جهته ، فقد واصل ذلك الجنون بقية حياته . لا أعرف ما الذي كان يريد أن يثبته»؟

«نعم ، أتساءل» ، قلت أنا .

«حسناً ، إذن» ، قال رام وهو يحيّي . «أنت بالتأكيد لست وايلدمان ، سيد سافيج . كلانا يعلم ذلك جيداً . ولكن كن حذراً أيضاً» . طرد بعنف نحلة بيده . «إنه يلسع» . ثم شرع في المغادرة .

«رام» . سرتُ خطوةً في اتجاهه .

«نعم» . التفَّ إلي .

«إذا كنت تملك الوقت . . . لدي شيء أحب كثيراً أن أريه لك» .

لم يقل كلمة وأنا أعرض عليه الخلية . وكان من المستحيل رؤية عينيه وهو يرتدي قبعة وغطاء وجه شارلوت . تحدثت بسرعة أكبر من أي وقت ، مدفوعاً بالحماس ، لأنني كنت أعرض شيئاً خاصاً بي الآن ، لأول مرة . كان هناك الكثير ليقال ، والكثير ليُشرح . أريته كم سيكون قطاف العسل سهلاً ، وكيف يمكن إزالة الألواح بسلاسة ، وبيّنتُ له كم من السهل تنظيف الخلية . وعرجتُ على الفكرة من وراء ذلك ، على أن خليَّتي مستوحاة من إطار خلية هوبر المتحرك ، لكن هذا النموذج أبسط بلا حدود في آلية عمله ، كما أنه يحتفظ بحرارة أفضل بكثير للنحل . وأخيراً وليس آخراً ، أريته كيف أن المدخل وفَّر ظروفاً مثالية للمراقبة ، والفرص التي وفرها للمزيد من دراسات النحل .

عند النهاية ، لم يكن قد تبقى المزيد ليقال بوضوح ، ولاحظتُ كم ضاقت أنفاسي من فيضان حديثي الذي لم ينقطع .

أخيراً .

انتظرت جوابه ، لكنه لم يأتِ .

بينما طال الصمت بيننا ، ازداد قلقي أيضاً .

«سوف يسعدني أن أسمع أفكارك» ، قلت أخيراً . سار حول خلية النحل . درسها من كل الجوانب . فتحها . وأغلقها . وضعت يديَّ خلف ظهري . كانت القفازات أكثر رطوبة من أي وقت مضى . ثم جاء ما ليس منه بُد .

«لقد بنيتَ خلية دزيرزون» .

«حدقتُ في رام ، لم أفهم ما عناه . كرَّر الكلمات ببطء :

«لقد بنيت خلية دزيرزون» .

«ماذا»؟

«يوهان دزيرزون . الكاهن والنحال . بولندي ، لكنه يقيم الآن في ألمانيا . إنها خليته هي التي بنيتَها» .

«لا . هذه لي . . .أعني . . .لم أسمع مطلقاً بهذا . . . التزي . . .» .

«دزيرزون» .

أدار رام ظهره للخلية . سار بضعة خطوات مبتعداً ، وخلع قبعته . كان وجهه أحمر . هل كان غاضباً؟

«قرأت عن خليته لأول مرة قبل أكثر من عشرة أعوام . كان قد نشر سلسلةً من المقالات حولها في بينين زيتونغ» .

ثبّتني بنظرته ، كانت بلا تعبير .

«أعلم أنك لا تقرأ هذه النشرة ، ولم تكن المقالات متداولة خارج الأوساط البحثية . لذلك أفهم طبعاً أنك لم تسمع عنه» . كانت لهجته متغطرسة . «لكن هذه الخلية التي صنعتها تعطيك إمكانية وصول جيدة

للمراقبة ، كما أشرتَ إلى ذلك بشكل صحيح . سيكون من السهل عليك أن تدرس النحل في وسطه الحيوي . ربما سينتج شيء من هذا العمل أيضاً» .

ابتسَم الآن ، وفهمتُ أن احمرار وجهه لم يكن بسبب الغضب ، وإنما من الإثارة ؛ الضحكة المكبوتة ، الضحكة المقتضبة الصغيرة بلا بهجة ، لأنني خيَّبت ظنَّه مرة أخرى وأراد أن يضحك فقط .

لكنه لم يطلقها ، ووقف فقط على ذلك النحو ينظر إليّ ، منتظراً جواباً بوضوح . لم أستطع أن أقول أي شيء . لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً . هل كان كل عملي هباءً؟ شعرت بضيق حول حلقي ، واندفع الدم إلى وجهي . وعندما لم أستطع قول شيء ، تابع هو :

«أنصحك بالاطلاع بشكل أفضل على الحقل قبل أن تبدأ مشروعك المقبل . تم إحراز تقدم كبير في الميدان في السنوات الأخيرة . يدّعي دزيرزون ، على سبيل المثال ، أن الملكات والنحل العامل هن جميعاً من نواتج الإخصاب ، في حين أن ذكور النحل يتطورون جزئياً من البيض غير المخصب . نظرية مثيرة للجدل ، لكنها محل اهتمام كبير حالياً وتُناقَش على نطاق واسع . وقد ألهم على ما يبدو راهباً شاباً أيضاً يدعى غريغور ميندل ليبدأ مشروعاً بحثياً عن التوريث ، والذي لم يشهد أحد مثله من قبل . هناك الكثير للحفر فيه هنا ، كما ترى» .

أعطاني القبعة .

«مع ذلك ، كان من الجيد أن أراك على قدميك مجدداً . وشكراً على رغبتك بأن تريني هوايتك الصغيرة» .

وقفتُ هناك والقبعة في يدي ، ولذلك لم يكن من الطبيعي أن أمدَّ يدي . كما لم أتمكن أيضاً من قول أي شيء ، خوف أن تترافق كلمة الوداع مع النشيج .

وضع رام قبعته على رأسه بحركة متمرسة ، قال وداعاً بإيماءة ولمسةٍ لحافة قبعته ثم استدار وغادر .

تُرِكتُ وحيداً ، مجرد صبي صغير مع هوايته الصغيرة .

جورج

سرتُ بسرعة عبر الحقل ، نحو النهر . خلف شجرة البلوط . كانت هناك عقدة في معدتي . يجب أن يكون النحل في مكان ما .

أخرجت هاتفي المحمول ، تحققت لمعرفة ما إذا كان أحد ما قد اتصل ، ربما لدى أحدهم سرب نحل في حديقته؟ ولكن لا . كنتُ لأسمعه .

لأن هذا لم يكن هجرة لجزء من النحل من الخلايا . ليس كذلك بالطبع . كنتُ أعرف هذا القدر . لا يمكن أن تبدو أي خلية هكذا بعد . لم يتخلَّ أي سرب عن الملكة القديمة .

مشيت عبر الحقل كله ومشَّطته ، ذهاباً وإياباً .

لا شيء .

أخرجت هاتفي مرة أخرى . يجب أن أصحح هذا الأمر ، وأضعه تحت السيطرة ، وقد احتجتُ إلى المساعدة .

ضربتُ رقم ريك . أجاب على الفور ، كان هناك ضوضاء في الخلفية . كان في الحانة .

«ريك في خدمتك»! قال مع ضحكة .

لم أستطع أن أجيب ، وقفت الكلمات في صدري .

«هلو؟ جورج»؟

«نعم . مرحباً . عذراً» .

«هل من مشكلة؟ انتظر دقيقة» .

أصبحت الأجواء أهدأ من حوله ؛ ربما سار إلى خارج الحانة .

«مرحباً . الآن أستطيع سماعك» .

«نعم . ريك . . .كنت أتساءل إذا كنتَ تستطيع أن تأتي إلى هنا . إلى الحقل بجانب النهر» .

اختفت الضحكة من صوته ؛ فهم من صوتي أن الأمر جدّي .

«ما الذي تعنيه؟ الآن»؟

«نعم» .

«جورج؟ ما الأمر»؟

انكسرَ صوتي . «هناك . . .أشياء ، الكثير من الأشياء التي يجب تنظيفها» .

كانت إيما تبكي . كانت تقف وسط الحقل ، تحت شجرة ، تبكي . ألقت الأوراق ظلالاً على وجهها ، تحركت على وجنتيها المبتلتين . ربما حاولت أن تختبئ تحت الشجرة ، وأن تخفي انهيارها . لكنني وجدتها ، وطويت ذراعي حولها واحتضنتها بقوة ، كما فعلت دائماً كلما انفجرت بالبكاء . وساعد ذلك ، هدأت . وهدأتُ أنا أيضاً .

حولنا تناثرت الخلايا قلبتها رأساً على عقب ، وتوهجت ألوانها التي مثل الحلوى في ضوء الشمس . كانت منازل صغيرة هدمها عملاق . كنت أنا العملاق . لم أزعج نفسي بترتيب الفوضى . وإنما اندفعت عبر الحقل ، متحققاً منها واحدة تلو الأخرى ، وقد استعَر الدم في جسدي وأعوَل صوت أنفاسي في أُذني .

لم أخسرها جميعها . كانت خلية أو اثنتان مثل السابق ، أزَّ النحل حولهما وعمل هناك في الخارج ، وكأن شيئاً لم يحدث .ولكن

كان هناك عدد قليل جداً من الخلايا التي بحالة جيدة . لم أحتمل عدّها . وإنما واصلتُ التقدم والتقدم .

كان ريك وجيمي قد وصلا كلاهما . وكانا يعملان على مسافة قصيرة منا . مشى ريك ببطء ذهاباً وإياباً ، ولأول مرة أبقى فمه مغلقاً ، وجسده يتأرجح قليلاً ، وكأنه لا يعرف من أين يبدأ . وكان جيمي قد بدأ العمل . حمل الخلايا الفارغة وكدسها بعناية .

«شيء كهذا لا يمكن أن يحدث هكذا فقط» ، كانت إيمي تبكي وتنشج في سترتي .

لم تكُن لديّ إجابة .

«لا بد أن يكون هناك شيء قد حدث . . .خطأً» .

تركتُها . «هل تعتقدين أن هذا نجَم عن أخطاء تشغيلية»؟

«لا ، لا» . خفَتَ بكاؤها . «ولكن . . . ماذا عن التغذية»؟اعتدَلت ، وقد أخفت الظلال وجهها ، ولم تقابل عيناها عينيَّ .

«حسناً ، يا إلهي العظيم ، انظري إلى التقويم ، أنت تعرفين أن هذا ليس وقتُ نفاد غذائها»!

«لا ، بالطبع لا» .

مسحَت وجهها . ووقفت أنا هناك ، يداي مرتخيتان لم أعرف ما أفعل بهما .

وهي ، نظرت إلى خارج الظل تحت الشجرة ، إلى الحقل والضوء .

«الطقسُ دافئ جداً . الكثير منها يظل في الخارج تحت أشعة الشمس طيلة النهار» .

«لقد فعلَت ذلك كل صيف منذ أجيال» .

«نعم . آسفة . . . لكنني لا أستطيع أن أصدق أنها يمكن أن تختفي . بلا سبب» .

ضغطتُ على أسناني وأدرت لها ظهري .

«لا تقولي ذلك . لا يمكن أن تصدقي ذلك . لكن هذا لا يُحدِث فرقاً الآن ، أليس كذلك .» حلَّقت نحلة وحيدة عابرة بنا .

«آسفة» ، قالت بهدوء . «تعال هنا» .

رفعت ذراعيها مجدداً . وقفت هناك ، هادئة وآمنة . تركتها تحتضنني . دفنت وجهي في سترتها . وددتُ لو أبكي مثلها ، لكنّ عينيّ كانتا ناشفتينِ كالغبار . عانيتُ صعوبة في التنفس . كان ذلك خانقاً جداً ، خنقتني سترها ، وإشعاعُ الجلد الدافئ عبر النسيج .

انسحبتُ . شرعتُ في رص بعض الألواح ، لكنه لم يكن لدي مكان لوضعها ، ولذلك انتهى بي المطاف وأنا أكوِّمها فوق بعضها على الأرض . كنتُ أرتب بلا هدف ، جزافاً .

جاءت نحوي ، ومدَّت ذراعيها .

«هيه . . .» .

لقد خُذِلتُ ، مثلما خُذِل كيوبيد من أمه . ولكن لم تكن لدي أم أبكي لها . ولا أم لألومها أيضاً ، لأنني أعرف ما هو الذي خذلني . . .

لم أستطع أن أزعقَ مثل طفل نفخته لسعات النحل .

هزت رأسي بشدة أمام ذراعَي إيما المفتوحتين . «يجب أن أعمل» . تناولتُ بعضَ الألواح ووضعتها فوق الأخرى ، في بُرج مترنِّح .

«حسناً» . سقطت يداها على جانبيها .

«سوف أذهب لأصنع لكم شيئاً لتأكلوه» .

استدارت وغادرت .

كانت الشمس المسائية حفرةً حمراء متوهجةً في السماء . بأشعة قاسية وظلال طويلة .

أوجعَني جسدي ، لكنني واصلت . أصبحت لدي خلايا في سبعة مواقع مختلفة ، واستقبلني المنظر نفسه في كل مكان .

وصلنا إلى آخر مكان ، الغابة خلف مزرعة ماكنزي . بستان صغير بين الحقول . كانت الخلايا في نصف الظل . في العادة ، كانت تئز إلى جانب الطيور في الأشجار وتجنح طائرةً يُمنةً ويساراً . لكن كل شيء كان صامتاً الآن .

فجأةً كان جيمي هناك ومعه ثلاثة من كراسي الحديقة .

«يجب أن نجلس قليلاً الآن» ، قال .

وجد بقعة بعيدة قليلاً عن الخلايا . مشينا أنا وريك بتثاقُل خلفه . لم يقل ريك أي كلمة طوال فترة ما بعد الظهر ، ووجدت أنا نفسي محتاجاً إلى قصة . كل مرة نظرت إليه ، كان يُبعدُ أنظاره ؛ ربما أراد إخفاء عينيه المخضلّتين .

أخرج جيمي سخاناً وكيساً من الكعك . هل جلبها معه؟ أم جلبها من إيما؟ لم أكن أعرف . أزال البلاستيك عن الكعك ووضع الكيس بيننا . ثم صبّ القهوة . تناولنا جميعنا أكوابنا . لا أنخاب هذه المرة .

طقطق مقعدُ الحديقة . حاولت أن أجلس بثبات ، أن لا أتحرك أبداً ، كان الصوت خطأً وفي غير محله . كان ينتمي إلى زمن آخر .

أخذ جيمي رشفة من القهوة، جرعة كبيرة. وكان هذا الصوت خاطئاً هو الآخر. صوتاً يومياً. كان الكوب مستقراً بأمان في يده، واتتني رغبة في أن أركلَ تلك اليد الثابتة وأرشق القهوة في وجهه حتى يسود الصمت. ما الذي فكّرتُ فيه... جيمي المسكين. لم يكن هذا ذنبه.

كنا نستطيع أن نتحدث عن الكثير، ثلاثتنا. عن تربية النحل. عن الزراعة، عن الأدوات، جودة العمل، النجارة. عن القرية، الثرثرات، الناس. عن غاريث، كنا نستطيع أن نتحدث عنه لوقت طويل. وعن النساء أيضاً، كنا نستطيع ذلك أنا وريك على الأقل. وعادةً ما انساب الكلام بحرّيّة. وجدنا دائماً شيئاً نتحدث عنه ونضحك عليه. وكنا، جيمي وأنا، نأخذ المبادرة، كان الحديث بيننا مثل كرة تنس الطاولة، بينما احتفظ ريك بالمناجيات الفردية الأطول.

اليوم، ليس لدينا أي كلمات. كل مرة حاولتُ أن أقول شيئاً، كان يعلق في حلقي. ولا بد أن الآخرَين شعرا بالشيء نفسه. لأن جيمي ظل يُنظف حنجرته، وريك ينظر إلينا بالتناوب واستمر في سحب أنفاسه. لكن شيئاً لم يخرج.

هكذا شربنا قهوتنا وتناولنا الكعك. وحاولنا أن نجلس هادئين تماماً، حتى لا تذكرنا طقطقة المقاعد بصمتِ المكان. كانت القهوة فاترة، بلا نكهة. وهبط الكعك إلى أسفل، موفراً بعض السلوى، وأدركت الآن فقط أن التّوق في معدتي كان من الجوع.

هكذا جلسنا هناك ، بينما يهبطُ الظلام علينا ، وحولنا .
وإلى عظامنا .

تاو

لم أجد أي شواخص للشوارع، ولم تُساعد الخريطة. ولم أقابل أي شخص يمكنني أن أسأله. لكنّ اليقين من أنني في مكان لا يجدر التواجُد فيه تصاعد في داخلي. كنت في المناطق التي أشارت إليها موظفة الاستقبال، تلك التي لم تعد للسلطات أي سيطرة عليها. فقط أولئك الذين رفضوا الانتقال هم الذين ظلوا هنا. هؤلاء المتروكون المهجورون. هؤلاء المختبئون.

درتُ حول زاوية. أمامي كان شارع مهجور آخر. كانت العتمة تتكاثف، والظلال تصبح أطول وأكثر سكوناً. خطفت حركة انتباهي من زاوية عيني. استدرتُ. شقّت بوابة عن فناء. هل يوجد أحد هناك؟

واصلتُ السير قُدُماً وتخطيت البوابة. حتى الآن لم أفكر بكوني خائفةً، وإنما بالابتعاد وحسب. لكنني لاحظت فجأةً كيف أن جميع عضلاتي متوترة. هل يجب أن أعود أدراجي؟

مشيتُ بضع خطوات أخرى. أبطأ هذه المرة. لم يحدث أيُّ شيء آخر. ربما كان ذلك من صنع مخيلتي فحسب. أو ربما كان حيواناً. قطة، فأراً. شيئاً ما حاول عبثاً أن يواصل حياته في هذا المكان المهجور، حيث لا طعام، وإنما محضُ عشب بالكاد، مجرد بضعة نصالِ عُشب واهنةٍ شقّت طريقها من خلَل شقوق الأرصفة.

رفعت رأسي. لمحت في نهاية الشارع شيئاً أزرق وأبيض. سرتُ أسرع. أصبح أكثر وضوحاً، الرمز الأبيض على الخلفية الزرقاء. أومَض،

ربما لم يكُن إمداد الطاقة مستقراً . ولكن لم يكُن هناك أي شك : في نهاية الشارع هناك قطار الأنفاق .

أصبحت أركض الآن . كان من المشكوك فيه أن تكون المحطة مفتوحة ، ولكن يفترض أن توجد خريطة هناك . ربما أستطيع أن أتبع المسارات من هناك لأجد طريقي إلى المناطق المستقرة . في هذا المكان ، كان القطار النفقي لا يزال تحت السماء المفتوحة ، وليس في نفق كما هو في وسط المدينة .

لكنني لم أكن سريعة بما فيه الكفاية . خرج أحدٌ ما من البوابة خلفي . لمحت جسماً طويلاً أخرقَ يتحرك في اتجاهي . شقت الهواء إشارة صفير قصيرة . فجأةً أدركتُ وجود اثنين آخرين انبثقا من خلفي ، واحد من كل جانب ، دون أي فكرة عن المكان الذي كانا يختبئان فيه .

كانوا ربما على بعد 20 متراً مني ، لكنهم سريعون . ركضوا في اتجاهي وهم يطوون الأرض سريعاً . بنتٌ طويلة نحيلة وولدان . ليسوا أطفالاً ، وليسوا كباراً . لهم بشرات ناعمةٌ وعيون شائحة . كانوا هزيلين جميعاً ، على حافة التحلل . لكن رؤيتي أعطتهم على ما يبدو قوة أكبر مما توحي به أوزان أجسادهم .

لم أنتظر ، عرفت ماذا يريدون . أخبرتني عيونهم بأنهم مستعدون لفعل أي شيء ، طالما أنه يخفف جوعهم . بدا وكأنهم يحملون كل يأس المسنين في المستشفى ، لكن لديهم الطاقة والقدرة البدنية للاستجابة لبؤسهم .

ركضتُ مرة أخرى . وإنما بشكل مختلف هذه المرة . عندما تركت المسنين ، كنت أهرب من اشمئزازي الخاص ، وهذه المرة كنت أهرب من أجل حياتي .

كانوا يلحقون بي . لم أجرؤ على الالتفات ، لكنني سمعتهم . الخطوات على الرصيف . الأقدام الستة تضرب الأرض بإيقاع غير منتظم . والصوت يعلو ويعلو .

أمامي أصبحت الإشارة الزرقاء أكبر . إذا وصلت إلى هناك ، إذا وصلت إلى المحطة ، إذا جاء قطار . . .

لكني أدركت أنني كنتُ أخدع نفسي . لن يأتي أي قطار ، ليس إلى هنا . لم يكن هناك أحد هنا سواي . وهم . ثلاثة شبان جائعون بيأس ، بلا أي أمل في الحياة . وإنما مدفوعون بالفطرة البشرية للحفاظ على الذات . مدفوعون بالغريزة . كانوا هم أيضاً عالمنا .

أصبحوا على بعد بضعة أمتار فقط الآن . استطعتُ أن أسمع أنفاسهم . قريباً سيصبحون فوقي . سيمسكون ظهري ، ويقذفوني إلى الأرض .

لم يكن لدي أي خيار .

فجأةً استدرت وبلا أي كلمة رفعت يديَّ فوق رأسي لإعلان الاستسلام .

توقفوا ثلاثتهم جميعاً . انتشر تعبير الاندهاش على وجوههم ، ليحل محلّ الجموح لحظات . ركزت نظرتي في الفتاة . لماذا هي؟ ربما لأنها أنثى . مثلي . ربما يكون إقناعها أسهل . حاولت أن أعبِّر عن جميع أفكاري حول التعاطف الإنساني بنظرتي . حدَّقتُ ، وأجبرت عينيها على

البقاء مركزتَين على عينيّ . لو أن ذلك حدث لاحقاً ، فإنها ربما لم تكن لتنظر في عينيّ أبداً . لكن رمشتين سريعتين أخبرتاني بأنني أخذتُها بالمفاجأة . لأنها وقفت ، نظرت هنا وهناك ، إليّ ثم إلى الآخرين . وقفنا كذلك ، أربعتنا . تجرأت على تحويل تحديقي الآن . ونقلت عيني من واحدهم إلى الآخر ، أردتهم أن يروني ، أن يروني حقاً ، وأن يأخذوا الوقت ليفكروا . هكذا أصبحت أكثر من مجرد ظَهر هارب ، من فريسة . هكذا أصبحتُ إنساناً .

«هل أنتم وحدكم هنا»؟ سألت بهدوء .

لم يجبني أحد .

تقدمت خطوة إلى الأمام .

«هل تحتاجون إلى المساعدة»؟

أفلتَ صوت صغير من الفتاة ، همسة ، «نعم» . وسارعت إلى النظر إلى أحد الولدين ، الأطول . ربما كان القائد .

اغتنمتُ الفرصة وتحدثتُ إليه .

«أستطيع أن أساعدكم . يمكننا أن نخرج من هنا . معاً» .

ارتسمت ابتسامة مائلة على وجهه .

«أنتِ خائفة» . كان صوته عالياً ، أعلى مما تصورت .

أومأت برأسي ببطء ، وظللتُ أنظر في عينيه .

«أنتَ على حق . أنا خائفة» .

«عندما يكون الناس خائفين ، فإنهم يقولون أي شيء» ، قال .

لم أجب .

«هل يعمل المترو»؟ سألت بدلاً من ذلك .

«ماذا تظنين»؟

«هل حاولتم الذهاب إلى حي آخر»؟

ضحك . ضحكةً حادة . «جربنا كل شيء تقريباً» .

مشيت خطوة نحوه . «حيث أسكن ، هناك طعام . أستطيع أن أشتري لكم بعضه» .

«أي نوع من الطعام»؟

«أي نوع»؟ جعلني السؤال أتردد . «الأشياء الاعتيادية . الأرز» .

«الأشياء الاعتيادية» ، قلّدني بسخرية . «هل تريدين منا أن نغادر موطننا من أجل طبق من الأرز؟»

نظرت إلى الشارع من خلفه . مهجور ، مغبر . لا شيء يشبه الوطن .

أشار إلى الولد الآخر والفتاة . تقدّما بضع خطوات نحوي . هل يستعدّان للهجوم؟

«كلا . انتظروا» . وضعت يدي في حقيبتي . «لدي مال»!

فتشت فيها . وقعت أصابع يدي على بعض الأوراق المخشخِشة .

«وطعام . بسكويت» .

أخرجت كيساً ومددته لهم .

أصبحت الفتاة بجانبي فوراً . انتزعت الكيس من يدي وهمّت بتمزيق الورق . ابتعدتُ بضعة أمتار .

«أنتِ!» قفز الفتى الطويل إلى الأمام . شدّت الفتاة قبضتها وسمعتُ كيف انسحق البسكويت إلى فُتات في الكيس .

كانت على وشك الاندفاع هاربة ، لكن الفتى أصبح عندها . فتح أصابعها عنوةً وأخذ كيس البسكويت . لم تقل شيئاً ، لكنّ عينيها امتلأتا بالدموع .

وقف الفتى وفي يده كيس البسكويت . كان الشعار على الكيس بسيطاً ، بالأسود والأبيض . وكانت الطباعة ملطخة قليلاً ، ربما من العرق على يد الفتاة .

«يجب علينا أن نتقاسم» ، قال الفتى ونظر إلى الفتاة . «يجب أن نتقاسم» .

أصبح ثلاثتهم منشغلين ببعضهم بعضاً الآن .

هل يجب أن أحاول الهرب؟ لا . كان يجب أن أعطيهم كل ما لديّ ، أن أكون كريمة . لا أن أهرب . وإلا هاجموني . ليست لدي فرصة .

وضعت يدي في حقيبتي مجدداً . ابتلعتُ ريقي ، ترددتُ ، لكنني كنتُ مجبرة على أن أفعل .

«أنظروا هنا . نقود» .

لم أجرؤ على الاقتراب منهم أكثر وتركتُ بعض الأوراق النقدية المهترئة على الأرض ، النقود الأخيرة . بقي لديّ القليل من الفكة في صندوق الصفيح في غرفة الفندق .

حدَّق الفتى في النقود .

أخذت خطوة إلى الخلف . تدفقت الدموع إلى عينيّ . «الآن لديكم كل شيء أملكه» .

واصل النظر إلى المال .

«والآن سأرحل» . خطوتُ خطوة أخرى . ثم استدرت . وسرتُ مبتعدةً بهدوء ، في اتجاه الميترو .

خطوة .

اثنتان ، ثلاث .

أرادت قدماي أن تركضا ، لكنني أجبرت نفسي على السير بهدوء . حتى أواصل بقائي إنسانة بالنسبة لهم ، حتى لا تبدأ المطاردة مرة أخرى ، حتى لا أصبح فريستهم . أبقيتُ رأسي عالياً ، ولم ألتفت .

سمعت أنهم يتحركون قليلاً خلفي . قماش سترة ينكمش ، صوت نحنحة خفيف . كل صوت صغير برز في الصمت . ولكن ، لا صوت أقدام على الرصيف .

سبع خطوات . ثماني . تسع . عشر .

بقيت هادئة .

إحدى عشر . اثنتا عشر . ثلاث عشرة .

تجرأت على تسريع خطواتي بعد أن اقتربت من المحطة التي كانت مغلقة بسلسلة وقفل . هناك فقط استدرت .

كانوا ما يزالون يقفون هناك ، في المكان نفسه ، وينظرون إليَّ . ثلاثتهم بلا أي تعبير . بلا إشارة على حركة .

سرت في اتجاه الزاوية ، مبقية أنظاري عليهم كل الوقت . ثم درتُ حول زاوية منزل . لم أعد أستطيع سماعهم بعد . أمامي امتد شارع مهجور آخر . جعلت مسار المترو على يدي اليمنى ، وصفّاً ميتاً من المنازل على يساري . لم تكن هناك روح واحدةٌ في مرمى النظر .

ثم ركضتُ .

وليام

وصلت الحزمة في البريد بعد عشرة أيام . كتابات دزيرزون . حملتها معي إلى الأعلى وأغلقت الباب المؤدي إلى الغرفة في الطابق العلوي ، التي أصبحت الآن لي وحدي بالتمام والكمال . لم تعد تيلدا تنام هنا بعد ، ولا حتى الآن ، بعد أن عادت إليَّ صحتي . ربما أرادت أن أطلب منها العودة إلى سرير الزوجية ، ربما لم تكن لتأتي إلا بعد أن أتوسل إليها ، وما كان ذلك ليحدث أبداً .

لاح السرير ، ناعماً وآمناً لي . لكَم كان ذلك سهلاً ، أن أذهب إلى السرير فحسب ، وأجعلَ الأغطية تلفني ليصبح كل شيء معتماً ودافئاً .

لا .

جلست ، بدلاً من ذلك ، بجوار النافذة والحزمة في حضني . لمحت رداء شارلوت الأبيض في آخر الحديقة ، منحنيةً على الخلية . كانت تقضي ساعات هناك . وقد حملت طاولة ومقعداً لنفسها إلى هناك ، وجلست مع أوراق ومحبرة . شاهدتها تراقب باستمرار وتكتب الملاحظات في الدفتر الصغير ذي الغلاف الجلدي ، بحماس وخفة في حركاتها . كانت مثلي ، عملت بالطريقة التي عملتُ بها سابقاً ، ولو أن الأمر بدا كما وأنه حدث منذ وقت طويل الآن . لم أكن قد زرتُ الخلية منذ حديثي مع رام . أدرت ظهري لها ، أردتُ أن أحطمها إرباً ، أن أقفز عليها ، أن أرى قطع الألواح وهي تطير في جميع الاتجاهات ،

ممزقة ومحطمة . لكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على القيام بذلك ، النحل منعني : فكرة أن الآلاف من النحل اليائس الذي بلا مأوى سوف تنهض وتهاجمني .

فككتُ الحُزمة ، أزلتُ الأختام ووضعت الأوراق على جانب ، ومعجماً للغة الألمانيةعلى الجانب الآخر وبدأت القراءة . ظللتُ آمل حتى النهاية أن تكون مزاعم رام خاطئة ، أن يكون قد أساء فهم شيء ، أن لا يكون دزيرزون قد عرَض مطلقًا مثل هذه الخلية المتقدمة . ولكن ، حتى مع أن لغتي الألمانية كانت ضعيفة وفهمت جزءاً صغيراً من النصوص ، كان هناك شيء واحد واضح تماماً : كانت خليته تشبه خليتي كثيراً ؛ ولو أن الأبواب كانت موضوعة بشكل مختلف نوعاً ما ، والسقف أقل ميلاناً ، لكن المبادئ متطابقة وطريقة الاستخدام هي نفسها . وفوق ذلك ، كان قد أجرى سلسلة من دراسات الملاحظة العميقة للنحل في خلاياه ، والعديد من الأبحاث اشتغلت بهذا على وجه التحديد . كانت الفلسفة التي وراء العمل صلبة كالصخر وتشهد على صبر لا ينتهي ، وقد تم توثيق كل شيء بدقة متناهية مع عرض نموذجي للأطروحة . كان عمل دزيرزون من مستوى عالمي .

أبعدتُ الكتابات وحولتُ انتباهي مجدداً إلى النافذة . وضعَت شارلوت الغطاء على الخلية هناك في الخارج ، وابتعدَت بضع خطوات وخلعَت قبعتها . ابتسمت لنفسها قبل أن تنطلق باتجاه المنزل .

فتحتُ الباب . سمعتُ خطواتها هناك في الأسفل . انتقلتُ إلى الرواق ، من هنا أستطيع أن أراها . دخلت الردهة . وهناك جلست

بجانب المائدة ، أخرجت دفتر ملاحظاتها وفتحته أمامها . تأملَت فيه ، وتوقفت نظرتها في الفضاء بضع ثوانٍ ، قبل أن تحني رأسها وتكتب .

نزلتُ الأدراج . رفعت رأسها وابتسمت عندما رأتني .

«أبي . كم هو لطيف أن تأتي» ، قالت . «هاك ، يجب أن ترى هذا» .

كانت تريد أن تريني الدفتر ، رفعته باتجاهي . لكنني لم أنظر إليه ، سرتُ ببساطة إلى شماعة المعاطف ، وجدت قبعتي وسترتي ، ولبستهما سريعاً .

«أبي»؟

استدارَت نحوي ، وأنا أدرتُ وجهي .

«ليس الآن» ، قلت .

ذلك الحماس الشغوف في عينيها ، لم أتحمل أن أكون في غرفة واحدة معها . مضيتُ سريعاً في اتجاه الباب .

«لكن هذا لن يستغرق وقتاً طويلاً . يجب أن ترى ما كنت أفكر فيه» .

«لاحقاً» .

لم تقُل أي شيء آخر ، وإنما احتفظت بتلك النظرة ، المصممة والحازمة كثيراً ، وكأنها لم تقبل بالرفض .

لم تكن لدي الطاقة حتى لأكون فضولياً . إنها لم تجد أو تفكر في أي شيء لم يتم التفكير فيه مُسبقاً ، ولم أستطع تحمُّل أن أشرح هذا لها ، أن أصيبها بالخيبة ، أن أخبرها بأن كل الوقت الذي قضته في الأسفل هناك بجانب الخلية ، إنما أنتج أموراً كانت واضحة ، بأن كل أفكارها تم التفكير فيها ألف مرة من قبل . فتحتِ الباب ببطء ، ولاحظتُ كيف أن شيئاً

بليداً خاملاً هبط مرة أخرى على جسدي وانفلتت تنهيدة من أعماق صدري . هيأتُ نفسي للمزيد في الفترة المقبلة . في يدي ، ضغطت في راحتي على مفتاح المحل ، مفتاح محلّي ، محل البذور البسيط . إلى هناك أنتمي .

خلَّفت فطيرة سوامر طبقة من الدُّهن على سقف فمي ، لكنني لم أتمكن مع ذلك من التوقف عن الأكل . كنتُ قد ابتلعتُ فطيرتين مُسبقاً في ساعات الصباح . تدفقت رائحتها إلى خارج المخبز ، وكانت حاضرةً بطريقة متطفلة هنا أيضاً في متجري ؛ تسللت من جميع الشقوق ، حتى عندما أغلقت الباب ، في تذكير مستمر بكم هو سهل شراء واحدة أخرى ، أو العديد منها . بل إن الخباز أعطاني خصماً ؛ ظن أنني نحيل جداً ، لكن هذا لن يستمر لفترة طويلة . بدا وكأن جسمي بدأ مُسبقاً بالتوسع ، وكأنه بصدد استعادة بنيته السابقة الرخوة .

لم تكن هناك عاصفة قريبة بما يكفي في الشوارع لتقود الزبائن إلى المتجر . بلِيَت الأصالة وجاذبية وجودي بعد غيبة تماماً ، ومر نصف اليوم مُسبقاً دون أن يمرَّ بي أحد . انتهت الطلبات الكبيرة على بذور الذرة منذ زمن ، والآن أصبحت في معظمها طلبات للتوابل وبذور النباتات سريعة النمو ، مثل الخس والفجل .

أكلت بضع قضمات أخرى ، مع أن الفطيرة كانت مالحة جداً . شربت ماءً فاتراً من مغرفةٍ لتخفيفه ، لكن ذلك لم يساعد كثيراً .

ثم مشيتُ إلى الباب . كانت عربة المساء القادمة من العاصمة تسير أسفل الشارع . توقفَت العربة في نهاية الشارع وتدفّق الناس خارجين منها ، لكن أحداً لم يأت في اتجاهي .

أشرتُ برأسي لصانع السروج الذي وقف في الشمس في الخارج يشحم سرجاً ، ابتسمت بلطف لصانع العجلات الذي يدحرج عجلةً جديدة خارج ورشته ، حييت باقتضاب موظفتي السابقة ، ألبيرتا ، التي كانت تحمل لفّتين كبيرتين من القماش إلى متجر البضائع الجافّة ، كلهم نملٌ مُجدّ ، أيديهم منشغلة . وحتى ألبيرتا كانت تتدبر بوضوح أمر جعلِ نفسها مفيدة قليلاً ، بسيقان متدرجة وأقدام سريعة ، وهي تلقي التحيات يميناً ويساراً ، بينما تصعد الأدراج بخفّة .

«سيد سافيج» . ابتسمت لي .

ثم ترددتُ لحظة ، ومن الواضح أن شيئاً حدث لها . «لدي شيء يجب أن تتذوقه! انتظر لحظة» .

اختفت بسرعة داخل المتجر مع لفّتي القماش . وبعد ذلك ببرهة عادت مرة أخرى بحزمة في يدها .

وقفت أمامي . استطعتُ أن أشمَّ رائحتها . جعلني ذلك على غير ما يرام .

«ما الأمر؟ لدي الكثير لأفعله» .

«سمعت أنك بدأت العمل بالنحل» ، قالت وابتسمت عن أسنان معوجّة خلف شفاه رطبة جداً .

تذكرتُ فجأة وحش بحر سوامردام ، لكني طردتُ الفكرة .

«أبي أيضاً يربّي النحل . لديه خمس خلايا . انظر هنا» . رفعت الحزمة .

«يمكنك أن تتذوق . إنهِ الأفضل» .

دخلَت المتجر دون انتظار دعوة . وضعَت الصُّرة على الطاولة وفكَّت العقدة . كان فيها رغيف خبز ووعاء صغير من العسل . رفعته ، نظرت إليه وتمطقت بشفتيها بصوت عال .

«تعال» . لوَّحت لي لكي أقترب .

كان جِلدُها خشناً ، مبقعاً ، وهناك على ذقنها كانت بثرتان تشقان طريقهما إلى السطح . كم عمرُها الآن؟ حسناً ، أكثر كثيراً من 20 عاماً على الأقل . وقد أظهرت يداها ووجهها أنها قضت فعلياً الكثير من ساعات العمل في الشمس .

أعطتني قطعة خبز . والعسل ، غير الشفاف ، وإنما الأميل إلى القتامة ، تلوّى على القطعة ، وهو يسيل أعلى وأسفل الخبز .

«تذوَّقه»!

اقتطعَت قضمة كبيرة هي نفسها .

رائحة العسل ، ورائحتها هي ، ورائحة فطيرة السوامر نصف المأكولة على الطاولة ، كلها قلبَت معدتي . مع ذلك ، وبدافع من تربيتي ، ومن باب المجاملة الحمقاء ، أخذت قضمة .

أشرتُ والقضمة تتحرك في فمي .

«جيد جداً» .

مضغت بينما أحاول أن لا أفكر في بيض النحل واليرقات التي تكون في العسل عندما يتم إخراجه من خلية القش ، كما كانت .

أبقت عينيها عليّ كل الوقت وهي تأكل . وأخيراً لعقت العسل عن أصابعها ، بإفراط ، بتأكيد على الذّات يُتاخم السُّخف .

«جميل . الآن حان الوقت لأداء بعض العمل» .

خرجَت أخيراً بعد طول انتظار ، ورغم أنها كانت تمشي . . . تموج فخذاها خارج الباب ، ولم أستطع أن أمنع نفسي عن النظر إليهما وانتهى بي المطاف واقفاً هناك فقط ، وسط المحل .

ثم ذهبَت أخيراً . درتُ حول نفسي خطوتين ، متسارع الأنفاس . ظلت قطرة عسل على المنضدة . مسحتها بسرعة ، قمعتها ، معها هي أيضاً ، مع الشفاه الرطبة ، البثور ، والحركة البذيئة تقريباً التي صنعها منتصف جسدها مع كل إيماءة صغيرة منها . أفخاذ كان يمكن أن أرمي نفسي عليها ، وكأنها تراب . لكنني ضبطت نفسي . أحكمتُ السيطرة . حتى لو أن ذلك تطلب كل القوة التي لديّ .

أغواني الكرسي الوحيد في المتجر . ذهبتُ مترنحاً إليه ، ووضعت ظهري المتسع على ظهره . وضعت يديَّ متقاطعتين على بطني كما أنني أردتُ أن أثبِّت نفسي في المكان .

جلستُ هناك فقط وتنفست بعمق . مرت عدة دقائق ، وهدأت الحمى في داخلي ، وخفَّ الغثيان . نعم ، تمكنت من السيطرة على نفسي .

كان الجو حاراً ، وكشفَ قطاعٌ من أشعة الشمس ذرات الغبار في الهواء أمامي . كانت تتحرك بهدوء ، عائمة بلا وزن في الهواء . زمت شفتيَّ ونفخت عليها . قفزت مبتعدةً ، لكنها استقرت ثانية بسرعة مدهشة .

نفخت مجدداً ، بشكل أقوى هذه المرة . طارت أبعدَ الآن ، أيضاً ، قبل أن تعود سريعاً إلى وجودها السابق عديم الشكل ، خفيفةً جداً حتى أن شيئاً لا يستطيع أن يقيّدها .

حاولت أن أركز عليها واحدةً واحدة . لكن عينيَّ تألمتا . كان هناك الكثير منها .

وهكذا حوَّلت انتباهي إلى الكُل . لكنه لم يكن هناك مجموع ، مجرد كميات لا نهائية من حزم الغبار العصية على السيطرة .

لا فائدة ترجى . حتى من هذا . لقد هزمتني . لم يكن حتى هذا شيئاً أستطيع أن أسيطر عليه .

ولذلك جلست ، مغلوباً تماماً . طفلاً عاجزاً مرةً أخرى .

كنت في العاشرة من عمري . امتدت شُعاعاتٌ من الشمس عبر أوراق الشجر في الغابة ، ناشرةً خيمة ذهبية عليها جميعها ، كل شيء كان أصفر . جلست على الأرض . كان التراب الذي يخفق تحتي دافئاً ورطباً عبر سروالي . بلا حراك ، وبتركيز شديد جلست هناك ، أمام كثيب النمل : للوهلة الأولى ، فوضى مباركة . كل مخلوق واحد صغير جداً وغير مهم . لكن ما لا يصدق هو كيف استطاعت هذه المخلوقات بناء كثيب أعلى مني تقريباً . ولكن ، مع مرور الوقت ، فهمت أكثر وأكثر . لأنني لم أملَّ أبداً ، كنتُ أستطيع أن أجلس ساعات وأراقبها . كانت تتحرك بأنماط واضحة . تحمل ، تضع ، وتستخرج . كان عملاً دقيقاً وسلمياً ، نظامياً ، غريزياً ، ووراثياً . عملاً لم يكن يتعلق بكل منها منفردة ، بل بالمجتمع . فرادى لم يكونوا أي شيئاً ،لكنهم معاً كثيب نمل ، وكأنه مخلوق حيٌّ واحد .

ثمة شيء استيقظ فيَّ عندما فهمت ذلك ، دفءٌ لا يشبه أي دفء ، حمّى . كل يوم كنت أحاول أن أجعلِ أبي يأتي معي ، إلى هنا ، إلى الغابة الصفراء . كنت أحبُّ كثيراً أن أُريه ما أنجزته ، ما الذي تستطيع

هذه المخلوقات الصغيرة أن تصنعه معاً . لكنه كان يضحك فقط . *كثيب نمل؟ أتركه بسلام . اصنع شيئاً مفيداً ، ساعد ، دعنا نرى معدنك .*

هكذا كان الأمر هذا اليوم أيضاً . كان قد سخر مني ، وها أنا مرة أخرى هنا وحدي .

فجأة اكتشفت شيئاً ، خرقاً في النظام . تسللت خنفساء صاعدةً على سطح الكثيب ، حيث كانت الشمس تُشرق . كان حجمها وحشياً بالنسبة للنمل . انسل ضوء الشمس هابطاً بين الأشجار وضرب شعاع ظهر الخنفساء . وقفت بثبات تام الآن . انفتحت مساحة حولها ، لم يعبر منها أي من النمل ، تركوها وحدها ، وواصلوا عملهم الهادف . ولم يحدث أكثر من ذلك .

لكنني انتبهتُ عندئذٍ لنملة في طريقها إلى الخنفساء ، انفصلت عن الأنماط المعتادة ، ولم تعُد جزءاً من الكل .

كانت تحمل شيئاً .

حدّقت فيه . ما هو؟ ما الذي تحمله؟

يرقات . يرقات نمل .

الآن جاءت المزيد منها ، كسرت المزيد منها النمط وجلبت جميعاً الشيء نفسه . كانت كلها تحمل أولادها .

انحنيت أقرب لأرى . وضعت النملات اليرقات أمام الخنفساء . وهي ، وقفت بثبات للحظة ، تفرك ساقيها الأماميتين ببعضهما . ثم شرعت في الأكل .

عمل فكّا الخنفساء بشكل محموم . انحنيت قدر الإمكان . اختفت اليرقات في فمها ، واحدة تلو الأخرى . ووقف النمل في صف طويل ،

مستعدًا لإطعام الخنفساء أولادَه . تمنيت لو أستطيع أن أُبعد أنظاري ، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من المشاهدة .

يرقة أخرى ، تنزل في فمها . وانتظر النمل ، قطع أنماطه الاعتيادية ، حرَّر نفسه من المجموعة ليقوم بهذه الفظاعة .

زحف النمل علي ، وإلى داخلي . أصبح خداي ملتهبين ، وانتشرت الحمرة في جسدي كله ، ووصل الدم إلى كل جزءٍ مني . لم أكن أريد أن أرى ، وأصبحتُ على غير ما يرام ، لكنني لم أستطع أن أوقف نفسي . ولدهشتي ، شعرت بضخ تحت سحاب سروالي . شعور بالكاد خبِرتُه سابقاً ، لكنه أصبح فجأة غامراً تماماً . ضغطتُ فخذي معاً ، ضغطهما حول ما أصبح صلباً . انسحقَت يرقة أخرى بين فكي الخنفساء . لمعت العيون الواسعة جداً ، وتحركت قرون الاستشعار . استلقيتُ على معدتي ، منبطحاً على الأرض ، وأخذتُ أحكّ نفسي بالتراب ، رغم أن سروالي قد يتسخ ويبلى ، لكنني لم أستطع التوقف . وفي الوقت نفسه ، تصاعدت أمواج من الغثيان في داخلي ، لأن اليرقات تُقتل ، وتختفي في أمعاء الخنفساء . لم يكن هذا يشبه أيّ شيء رأيته من قبل . وقد أثارني .

بينما كنت أستلقي هناك وأتحركُ بقوة على الأرض ، سمعت خطوات خلفي ، خطوات أبي . لقد أتى مع كل شيء ، ووقف وراقب ، لكنه لم ير أي شيء مما كنت أريد أن أريه . رآني فقط ، الولد الذي كنتُه ، وعاري الكبير بلا حدود .

هذه اللحظة . . .أنا على الأرض . دهشة والدي الأولية ، ولاحقاً ضحكته ، قصيرة وباردة ، بلا بهجة ومليئة بالاحتقار ، بالازدراء .

انظر إلى نفسك . إنك مثير للشفقة . مخزٍ . همجي .

كان ذلك أسوأ من أي شيء آخر ، حتى أسوأ من الحزام الذي تذوقتُه عندما حل المساء والألم الصارخ في ظهري كل الليل . أردت فقط أن أريه ، أن أشرح له وأشاركه حماسي ، لكن كل ما استطاع أن يراه كان عاري .

جورج

قُدت السيارة إلى مركز أوتمن . حسناً ، «مركز» هي كلمةٌ مبالغ فيها بعض الشيء . كانت أوتمن مجرد تقاطع واحد وحيد فقط . طريق سريع يتجه شمالاً يلتقي بآخر يتجه إلى الجنوب ، وهناك بعض المنازل التي تجمّعت هناك . لم يكن لديّ الكثير من البنزين ، لكنني لم أملأ الخزان . ليس أكثر من نصف خزان ، وكانت تلك وسيلة جديدة للتحايل توصلتُ إليها . كنتُ أقود حتى يفرغ الخزان . وكأن ملء خزان فارغ إلى نصفه بدلاً من ملئه كله دفعة واحدة يكلف أقل .

أعطيَت حالات اختفاء النحل اسماً الآن . «اضطراب انهيار المستعمرة» . كان ذلك على شفاه الجميع . جربتُ لفظها . دارت الكلمات في رأسي . كان لها إيقاع ، ونفس الحروف . الألف ، والطاء والهاء والسين . إيقاع بسيط ، اضطراب انهيار المستعمرة ، انهيار استعمار المضطربة ، استعمار اضطراب المنهارة ، ثمة شيء ما طبيٌّ في الأمر كله ، كما لو أنه ينتمي إلى غرفة بمعاطف بيضاء ومعدّات عناية مركزة ، وليس هناك إلى الخارج ، إلى حقلي الذي فيه النحل . مع ذلك ، لم أستخدم هذه الكلمات أبداً . لم تكن لي . وبدلاً من ذلك ، كنت أقول ، حالات الاختفاء ، أو المشاكل ، أو - إذا كنت في مزاج سيء ، وهو ما كنتُه في كثير من الأحيان - الاضطراب اللعين .

كان هناك فراغٌ صغير بين شاحنة صغيرة خضراء وسيارة صالون عائلية سوداء أمام المصرف . نظرت حولي ، لا مساحات اصطفاف

أخرى في بقية الشارع . قدت السيارة مباشرة إلى جانب الشاحنة الخضراء وحاولت أن أركنها بين السيارتين . لم أحبَّ أبداً المواقف الموازية ؛ لست الرجل المناسب عندما يتعلق الأمر بها ، ولذلك كنت أتجنبها قدر الإمكان . لا أعتقد أن إيما تعلم كم أنا فظيع في ذلك . لكنني يجب أن أذهب إلى المصرف . اليوم . لقد أجلت الأمر لوقت طويل مُسبقاً . كنتُ أخسر المال مع كل يوم يمضي ، كل يوم بلا خلايا هناك في الشمس بين الزهور .

أدرت عجلة القيادة تماماً إلى جانب ، ورجعت إلى الخلف حتى عبر نصف السيارة الشاحنة الصغيرة . ثم أدرتُ العجلة عائدة واستمريت في الرجوع .

منحرفة تماماً . تقريباً على رصيف المشاة .

خرجت مرة أخرى .

مرت بي سيدة ، وهي تحدِّق فيَّ . فجأة شعرت بأنني مراهق ، قليل الخبرة خلف عجلة القيادة .

حاولت مرةً أخرى ، أخذتُ نفَساً عميقاً . هوَّنتُ عليّ ، أدرتُ العجلة عن آخرها ، ورجعت إلى الخلف ببطء ، نصف الطريق ، وعدَّلتُها .

اللعنة!

كان الفراغ صغيراً جداً ، هذه كانت المشكلة . خرجت ، وقُدت إلى وسط الشارع وذهبت إلى موقف السيارات الأبعد قليلاً على الطريق . الاصطفاف هكذا مباشرة أمام المصرف كان مجرد كسل ، كنا كسولين جداً في هذا البلد . كنتُ قادراً تماماً على المشي .

رأيت في مرآة الرؤية الخلفية سيارة شيفروليه كبيرةً آتية تسعى . وسرعان ما اصطفت في تلك المساحة الضيقة جداً بحركة واحدة .

كان تكييف الهواء مثل جدار على اختراقه عندما فتحت باب المصرف . كنت ما أزال أرتجف قليلاً من أزمة المواقف المتوازية ، لكنني دسستُ يديّ في جيوبي .

جلسَت أليسون خلف مكتبها ، تنقر على الكومبيوتر ، كالعادة . كانت تملك حسَّ ارتداء الملابس كسيدة ، بلوزة مورَّدة ، مكوية حديثاً ، على بشرة منمشة شابة ، وعيون خضراء باكتمال . كان مظهرها نظيفاً ، ورائحتها نظيفة أيضاً . رفعَت أنظارها وابتسمت بأسنان ناصعة البياض .

«جورج . مرحباً ، كيف حالك»؟

جعلتني دائماً أشعر بأنني خاص قليلاً ، أليسون . وكأنني كنت زبون البنك المفضل بشكل مطلق لديها . كانت جيدة في عملها ، بعبارة أخرى .

جلستُ في المقعد أمام مكتبها . جلستُ على يديَّ ، أردت أن أخفي الارتجاف ، لكن قماش المقعد الصوفي تسبَّب بحكَّة في راحتيّ . أخرجتهما مجدداً . وضعتهما في حضني ، حيث استطعتُ أن أبقيهما ثابتتين .

«مرّ وقت طويل» . تلألأت أسنانها لي .

«نعم . مرّ وقت» .

«هل كل شيء على ما يُرام معكم يا رفاق»؟

«ليس تماماً كما يجب أن يكون» .

«يا إلهي ، كلا . عذراً . لقد سمعت بالأمر» .

اختفى صف اللؤلؤ فجأةً خلف شفتيها الناعمتين الفتيتين .

«لكنني آمل أن تساعدينا في الخروج من أسوأ المتاعب» ، قلت وابتسمت .

لا إشارة إلى أنها ستعرض المزيد من تلك الأسنان الجميلة ،لسوء الحظ . نظرت إليَّ بقلق فحسب .

«بالطبع سأبذل ما في وسعي» .

«ما في وُسعك . لا يمكن أن أطلب أكثر من ذلك» . ضحكت . ولاحظت فجأةً أنني أستعرضُ قليلاً ، ووضعت يدي تحت فخذي مرة أخرى .

«حسناً» ، استدارت إلى الشاشة . «دعنا نرَ . ها أنت» .

كانت هادئة . استعرضت الحساب . لم يجعلها المشهد تقفز في الهواء بحماسة بالضبط .

«ما الذي في ذهنك»؟

«حسناً . يجب أن يكون ذلك قرضاً» .

«نعم . كم المبلغ»؟

أخبرتها بالمبلغ .

قفز النمش على أنفها . جاءت الإجابة بلا أي أثر للمراعاة .

«لا أستطيع أن أفعل ذلك ، جورج» .

«يا إلهي . ألا تستطيعين أن تُجري الحسابات على الأقل»؟

«لا . أستطيع أن أخبرك فوراً أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك» .

«حسناً . هل يمكنُ أن تتحدثي إلى مارتن ، إذن»؟

كان مارتن رئيسها . من النوع الذي يتهرب من الأزمات ، وليس ممّن يمكن أن ينتهي إلى شجار في الحانة ، إذا قلناها كذلك . كان يقضي معظم الوقت في مكتبه . ولا يخرج إلا كل وقت طويل ، عندما يقوم بالتقييم والتوقيع على مبالغ كبيرة من المال ، علمت ذلك من جيمي الذي حصل تواً على قرض برَهن على منزل . كان شَعر مارتن يصبح أقل كل مرة أراه فيها . ألقيتُ نظرة خاطفة عليه ، حيث كان يجلس خلف حائط زجاجي . ولمعت البقعة الصلعاء في رأسه تحت وهج ضوء السقف .

«لا داعي لذلك . ثق بي» ، قالت .

نشأت كتلة بإلحاح في حلقي . هل يجب أن أجلس هنا وأتوسل؟ هل هو ما تريده؟ كانت تصغرني بعشرين عاماً تقريباً . وقد رعتها إيما وهي طفلة ذات مرة . رقيقة مثل جنّية صغيرة ، من كان يعتقد أنها ستكبر لتصبح امرأة متطِّلبة تكسر إرادة الرجال؟

«بصراحة ، أليسون» .

«ولكن ، جورج . هل تحتاج فعلاً إلى هذا القدر»؟

لم أستطع أن أحمل عينيَّ على مقابلة عينيها الخضراوين عبر المكتب .

«العملية كلها انهارت» ، قلت بهدوء ، للأرض .

«ولكن . . .»ظلت صامتة لفترة ، تفكر . «ألا نستطيع أن نرى كيف يمكن أن نجعلها تنهض وتعمل مرة أخرى دون حاجتك إلى مثل هذا الاستثمار الكبير»؟

انتابتني رغبة في القهقهة ، لكنني لم أجب . إنها لا تعرف شيئاً عن تربية النحل .

«أين تستطيع القول أن معظم نفقاتك تذهب»؟

«الأيدي العاملة ، طبعاً . لدي رجلان يعملان معي ، تعرفين ذلك»؟

«نعم» .

«ثم هناك تكاليف التشغيل . التغذية . الغاز ، هذا النوع من الأمور» .

«ولكن ، الآن؟ ما هي الاستثمارات التي يجب أن تصنعها»؟

«خلايا جديدة . اضطررنا إلى حرق الكثير» .

عضّت على قلم حبر .

«حسناً . وكم تكلف الخلية»؟

«المواد . يصعب التحديد . يجب أن تُبنى» .

«تُبنى»؟

«نعم . أنا أبنيها من الصفر . كل واحدة منها . باستثناء عازل الملكة ، أعني» .

«عازل الملكة»؟

«نعم . ذلك الجزء الذي يوضع بين . . . لا يهم» .

أخرجت القلم من فمها . تركت أسنانها علامات على الجزء العلوي . لو أنها عضّت بقوة أكبر ، لكسَرت البلاستيك ، ولوث الحبر أسنانها البيضاء . كان ذلك ليكون شيئاً . حبر أزرق على أسنان بيضاء ، على القميص المكوي حديثاً ، على الشفتين الطريتين ، مثل مكياج هالوين أخرق .

«ولكن . . .» . أعادت التفكير . «لقد رأيت غاريث ، غاريث غرين ، يجلب الخلايا جاهزة . أعني ، رأيتها تصل ، على شاحنة . مستعدة للعمل» .

«هذا لأن غاريث يطلبها» ، قلت بوضوح ، وكأنني أتحدث إلى طفلة .

«هل ذلك أكثر كلفةً من بنائها»؟

وضعت القلم من يدها . من الواضح أنها لن تعطيني متعة إتلاف مظهرها النظيف .

اندفعت الكتلة في حلقي إلى أعلى . قريباً ستصل إلى نقطة بحيث لن يمكن إخفاءها بعد ذلك .

«أنا أعني فقط» ، تابعَت وكشفَت مرة أخرى عن أسنانها البيضاء ، وكان ذلك مسلّياً جداً ، «فكرتُ أنك ربما تستطيع ادخار بعض المال بطلبها جاهزة . والوقت . الوقت مال أيضاً . لا تعد إلى بنائها بنفسك» .

«فهمت ذلك» ، قلت بهدوء . «فهمت أن هذا هو ما تعنينه» .

وليام

عندما استطعتُ أن أتحرك مجدداً أخيراً ، كان الظلام قد حلَّ تماماً . كانت الشوارع في الخارج هادئة ، باستثناء صوت الصراخ القادم من الحانة البعيدة قليلاً أسفل الشارع . مكان حزين ، متداعٍ ومُحبط ، حيث يجتمع مخابيل القرية ليلة بعد ليلة ويسكرون حتّى يفقدوا الرشد . بعضهم مروا ، خارجين من هناك ، مثل الظلال عبر النوافذ ، مُعوِلين ، مغنِّين ، بضحك وقح ، يخفُت بالتدريج كلما ابتعدوا .

كنت أشعر بالبرد . أصبحت الغرفة مُجمِّدة ، وتدفق هواء المساء عبر الباب ، الذي لم أغلقهُ قبل أن أنام . كان عنقي متصلباً ، بعد أن هوى رأسي إلى صدري وابتل الجزء الأمامي من قميصي باللعاب .

وقفت ، متيبساً ومتألماً ، هُرِعتُ إلى الباب وأغلقته بسرعة .

تخيلوا لو أن أحداً اكتشفني ، تصوروا لو أن أحد الزبائن نظر إلى الداخل ورآني نائماً في المتجر ، تماماً وسط ساعات العمل . حتى المزيد من القصص يمكن أن تنشأ من هذه الأشياء ، وكنتُ سأضع نفسي مرة أخرى على الخريطة كأحمق القرية . ولكن ربما ، كما آمل ، أن يكون عصرُ اليوم هادئاً جداً ، أو ينبغي بي أن أقول هادئاً لحسن الحظ ، مثلما كان الصباح .

طلبت معدتي الطعام وكانت آخر قطعة من الفطيرة ملفوفة بورقة . جافة وباردة ، وقد تجمَّد الدهن في تلَّة تشبه الدودة حول الحافة . أكلتها مع ذلك وأقسمت في الوقت ذاته على أن لا أسمح بأن يغريني تناول

هذا الطبق مرة أخرى أبداً . ربما ولا حتى الفطائر كلها . مع أنه ، أي فرق سيصنعه ذلك .

أغلقت المتجر ، أوصدت الباب ومضيت إلى المنزل .

أصبحت الأصوات الصادرة من الحانة أعلى .

كانت النوافذ مربعات صفراء دافئة في الظلام . لأول مرة في حياتي ، شعرت بأنني منجذِبٌ إليها . مجرد كأس من النبيذ الرخيص . لا يمكن أن يتسبب بأي أذى . وقفت . إذا رآني أحد هنا ، رأى أنني أصبحت واحداً منهم ، هل سيغير ذلك أي شيء حقاً؟

كان كل شيء كالمعتاد خارج الحانة . نفس المشاهد عرضت نفسها هذا المساء كما فعلت في كل مساء آخر ؛ كان عاملان مخموران يتجادلان بصوت عالٍ ، أحدهما اصطدم بالآخر ، دفعه ، وقريباً سيتقاتلان ، وقرقر متشرد سمين لنفسه وهو يترنح في الشارع ، وفي الوقت نفسه خرج رجل طويل أخرق مثل الصاعقة من الباب ، انحنى على الزاوية وتقيأ مرتين حيث لا يراه أحد ، لكن أصوات عشاء اليوم والكميات الكبيرة المفرطة من الكحول التي تناولها ، والتي وجدت طريقها عائدة إلى الهواء النقي ، لم تكن لتخطئها الأذن .

كلا . توجهت إلى المنزل . لم أهبط إلى ذلك المستوى بعد كل شيء .

عندما تجاوزت المبنى ، لاحظت أن مزيداً من الناس كانوا في الخارج في هذه الأمسية الصيفية المشرقة .

صعد صوت تأوه مبتذل لفتاة صغيرة . «توقف! لا تفعل هذا»!

كانت تلك «لا» تقول «نعم» . أعقبها ضحك كثيف .

كان الآن فقط حين تعرفتُ إلى الصوت . كانت ألبيرتا . لم أكن في حاجة لأن أراها لأعرف كيف كان نهداها الكبيران بالتأكيد على وشك الانتفاخ خارجين من ثوبها ، كنت أشعر حرفياً بالرائحة النفاذة للشق بينهما كل الطريق إلى هنا .

كان أحدهم يضغط نفسه عليها ويحفر بيديه في جميع انحناء جسمها ، ويهذر بكل الهراء المخمور على عنقها ، مُستهلكاً بشهوته الخاصة ، بثمالته ، ورغبته ، مُرتمياً على هذه الفاكهة التي أسقطتها الريح ، هذه الفاكهة المتعفنة ، التي ستتورم قريباً إلى شيء لا يمكن التعرف عليه ، ستنتفخ ، لتسعة أشهر . فتى صغير ، بالحكم من هيئته الخرقاء ، ربما لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ما يزال الصوت أجشّاً وجديداً ، تغيَّر حديثاً . كان يصغرها بكثير ، وكان ينبغي أن يكون في المنزل ، في سريره ، نائماً أو ربما يقرأ ، يدرس ، يخطط للمستقبل ، ليجعل أحداً ما فخوراً ، ليصنع لنفسه اسماً . فُتح باب ، وسقط الضوء من خلاله ، كاشفاً عن مَن هو الذي كانت ألبيرتا تمارس معه الجماع العامودي ، من هو الشاب ، الذي شرع مبكراً في طريق انحلاله الخاص ، مُستهلكاً بما ظنه عاطفة ، والذي كان في هذه اللحظة بالتحديد بصدد تعريض وجوده كله للخطر ، والذي لم يرني ، لم يرَ والده ، والده الذي ظنَّ أن الحياة وصلت إلى الحضيض منذ فترة طويلة ، لكنَّ السجادة سُحِبت في هذه اللحظةِ حقاً من تحت قدميه .

إدموند .

تاو

واصلت السير على طول مسار المترو ، مررت بعدة محطات ، لكنني لم أر أحداً ، لم أرَ علامة على أي نوع من الحياة . ميلاً بعد ميل ، ما أزال أركضُ ، مع رئتين محترقتين ومذاق الدم في فمي . كلُّ محطة رأيتها أيقظَت أملاً . لكن كل محاولة لفتح باب ، للصعود إلى منصة ركوب ، كانت الصفعة ذاتها على الوجه . لأن المحطات لم تكن تعمل . كنت لا أزال في الأرض التي لا تعود لأحد .

لم تكن لديَّ فكرة عن أن ساقيَّ استطاعتا أن تحملاني كل هذه المسافة ، أنني استطعت أن أدفع نفسي إلى هذا الحد . ولكن الآن ، لم يتبقَّ أي شيء .

انهرت مستندة على جدار منزل . كان هناك تمزق في صدري بسبب الافتقار إلى الأوكسجين . أطبق الظلام من حولي ، من حول المدينة ، من حول ما كان يوماً مدينة . مباشرةً على الجانب المقابل مني ، كانت بناية منهارة ، مدمرة حتى يصعب التعرف عليها ، ربما كان هذا آخر شيء فعلوه ، أولئك الذي رحلوا . كما لو أنهم أرادوا أن لا يتبقى أي شيء هنا . لكن آثار الناس في كل مكان . إعلانات قديمة ملصقة ، دراجة هوائية مكسورة ، ستائر رثة تحمل علامات الريح والطقس خلف نافذة مكسورة ، لوحات تحمل الأسماء على أبواب المداخل ، بعضها مرحة ، مكتوبة بخط اليد ، وأخرى رسمية ومصنّعة . أين هم الآن ، كل أولئك الذي عاشوا حياتهم هنا؟

لم أفكر بهذا من قبل ، لكن القمامة أزيلت من هناك . كانت سلال المهملات فارغة ، مصطفة على طول الرصيف ، بدقة في صفٍّ واحد ، في الشارع كله . ربما كان ذلك في الحقيقة آخر شيء حدث هنا . تجولت شاحنة قمامة في الشوارع المهجورة ونظّفت لمنع الجرذان . أو ربما لجمع آخر بقايا الغذاء ، من النفايات العضوية التي يمكن استعادتها ، وتدويرها وإعادة تقديمها مجدداً . يفضل كعلف للحيوانات ، أو لنا نحن أيضاً ، كطعام للبشر ، مموهاً ، متخفياً ، ممزوجاً باللحم المفروم والنقانق ، كطعام معلب ، مع إضافات من كل المكونات الاصطناعية المختلفة من النكهات والمواد الكيميائية التي جعلت طعامنا قابلاً للأكل .

ترطب فمي . كنت أحتفظ بكيس البسكويت من أجل الطريق إلى الديار . الآن لم أعد أملك شيئاً .

حاولت الوقوف على قدميَّ . لكنهما كانتا منهارتين تحتي . آلمتني عضلاتي . حاولت مرة أخرى ، ودعمتُ نفسي بالجدار ، وهذه المرة نجحت .

خطوة خطوة مشيت إلى أقرب بوابة ، دفعتها بعناية . أحدثت الحركة صوتاً مدوّياً في المعدن .

في الداخل كان فناءٌ فارغ . وقد طارت أوراقُ الأشجار وصنعت أكواماً صغيرة في الزوايا . وعلى كلا الجانبين الطويلين اصطفت أبوابٌ . جربتُ فتح واحدٍ منها .

قادني إلى مدخل ، درج وعر وضيق . كان النهار يهربُ من هنا ، وليس سوى بعض الشقوق الصغيرة في الجدار التي سمحت بدخول ضوء الشفق المتضائل إلى الأدراج .

صعدتُ الأدراج وأنا أعرُج . كل خطوة تؤلم ، لكن أنفاسي لم تعد ثقيلة . وصلت الطابق الأول . أبوابٌ على كلا الجانبين . جربت الأقرب منها . كان مقفلاً . واصلت السير في الرواق ووقفت . حاولت مجدداً ، دفعتُ المقبض إلى أسفل . كان توقع مصادفة المقاومة نفسها في رأسي ، ولذلك قفزت عندما انفتح الباب .

وقفت هناك . انتشرت رائحة الشقة خارجة إلى بيت السلالم ، وضربتني . لم يكن هناك شيء مميز فيها ، لكن لجميع البيوت رائحتها الخاصة . رائحة الناس الذين يعيشون هناك . الطعام الذي تناولوه ، الملابس التي غسلوها ، الأحذية التي لبسوها ، العرق الذي أفرزوه ، والنفَس الذين أطلقوه في ساعات الليل المتأخرة – الرائحة المركّزة التي تخرج من أفواه النيام– ملاءات الأسرة التي ربما كان ينبغي تغييرها ، مقلاة كان يجب أن تغسل ، لكنها تُركت لليوم التالي ، حتى تجمدت بقايا الطعام وشرعت في التحلل .

لكن ظِلّ هذه الروائح فقط هو الذي تبقى الآن ، مختفياً تقريباً خلف الاختناق الهائل .

خطوت فوق عتبة الباب . كانت الشقة صغيرة ، غرفتان فقط . مثل شقتنا ، كوان وأنا . ربما آوت هذه أيضاً عائلة صغيرة من ثلاث . غرفة نوم تطل على الفناء ، غرفة جلوس ومطبخ معاً يواجهان الشارع .

أغلقت الباب خلفي ودخلتُ إلى غرفة الجلوس . كانت فارغةً تقريباً ، أُخليت ، مع أن المفروشات الأكبر حجماً تُركت بوضوح . ثمة أريكة زاوية متهالكة كانت كبيرة نوعاً ما

ومغطاة بقماش رمادي ، احتلت قرابة نصف الأرضية . ووقفت خزانة أدراج قديمة مطليةٍ بالأسود على الجدار المقابل .

بحثت سريعاً في خزائن المطبخ . لم أستطع أن أوقف نفسي ، حتى مع أنني أعرفُ أنها ستكون فارغة . كان هناك إناء كبير فى أسفل إحدى الخزائن . ولا شيء غير ذلك .

كانت خزانة الأدراج فارغةً هي الأخرى ، سوى من بعض الأسلاك القديمة وهاتف بقرصٍ متصدع في الدرج السفلي .

ثم دخلت غرفة النوم . الخزائن فاغرةُ الأفواه ، وبدت الأبواب وكأنها فُتحت بعشوائية ، وكأن أحدهم لم يكن يملك الوقت لإغلاقها بعد إفراغها . على الجدران ، كانت بعض المسامير ، وظلال الصور التي كانت معلقة هناك ذات مرة .

كان سرير مزدوج ضيق موضوعًا بجوار أحد جدران الغرفة . الفراش فقط ، وقد اختفت البطانيات والوسائد . هنا ناما ، قرأا ، تجادلا ، ضحكا ، ومارسا الحب . أين هما الآن؟ أما يزالان معاً؟

على الجدار الآخر سرير طفل . يمكن أن يكون لطفل دون سن المدرسة ، كان أطول من مهد ، وأقصر من سرير بالغ . كان يمكن أن يكون لوي-وِن . تُركت عليه وسادة صغيرة . بتجويف في منتصفها ، حيث ارتاح الرأس .

فجأةً خارت قدماي من تحتي . سقطت على سرير الطفل ، وبقيت جالسةً لبضع ثوانٍ . لا روحَ حية ، وحدي فقط ، لأميال حول المكان . كل شيء كان مهجوراً . فارغاً . وكنت أنا مهجورة تماماً مثل هذه الشقة .

لا .

ثمة رغبة في صدري . أهو التوق؟ بالكاد فكرت بكوان ، تجنبت ذلك ، أبقيته بعيداً ، كل مرة قفز وجهه في ذهني ، كنت أطرده . أجبرت نفسي على التفكير بوي-وِن فقط ، بالعثور على طفلي .

وقفتُ ، عدتُ إلى غرفة الجلوس ، سحبت الهاتف من الخزانة ونظرت حولي سريعاً . هناك ، بجانب الأريكة ، كان مقبس هاتف . لا يمكن أن يكون موصولاً ، ليس هنا ، بعيداً جداً عن كل شيء .

أسرعتُ ودفعت القابس في الداخل . ورفعت سماعة الاستقبال .

سُمعت نغمة اتصال خافتة .

طلبت بسرعة رقم منزلي على قرص الأرقام المتصدع .

في البداية كان كل ما أمكنني سماعه هو صوت قرقعة ، إشارات صامتة يتم إرسالها ميلاً بعد ميل عبر الأسلاك القديمة المتداعية تقريباً .

ثم رن الجرس . مرة واحدة .

قريباً سيملؤني صوت ، صوت كوان . لم تكن لدي خطة عما سأقوله ، كنت أريد سماعه فحسب .

مرتان .

لأنه ربما ما يزال هناك «نحن» ، الآن وقد أصبحت مسافة كبيرة تفصل بيننا .

ثلاث مرات .

أهو ليس هناك؟

مرت الثواني .

أربع مرات .

وعندها .

«هالو»!

صوته في أذني .

تنفستُ الصعداء . «مرحباً . . .» .

«تاو»!

لم أستطع الإجابة ، حاولت كبحَ نشيجي ،لكنَّه شقَّ طريقه غصباً .

«ما الأمر؟ هل حدث شيء»؟

«أنا . . .لا أعرف أين أنا . . .» .

«ماذا تعنين»؟

«أنا . . .ليس هناك أحد هنا . . .» .

أصبح الصوت مشوشاً ، واختفت الإشارات .

«كوان؟ لا»!

خشخَش الهاتف بخفوت . ثم انقطع الخط .

حاولت مرة أخرى ، طلبت رقمه . وانتظرت .

لا شيء .

سحبت القابس ، ووضعته مرة أخرى .

ظل الهاتف صامتاً .

وضعت السماعة في مكانها ، ووضعت الهاتف على الأرض . وقفت ونظرت إليه في الأسفل .

فجأةً اهتزت قدمي وركلت بكل قوتها . مرة ومرة أخرى . طارت القطع الالكترونية في كل الاتجاهات ، مع قطع البلاستيك المكسورة .

ثم ذهبت إلى غرفة النومِ ، وعلى سرير الطفل .

بقيت جالسةً هناك ، بينما تتسلّل الظلمة إلى الغرفة . ضربني شعور الوحدة بقوة حتى أنني شهقت . أصبحت اللحظة كل شيء ، كانت اللحظة أبديةً . أنا ، وحيدة في شقة مهجورة . لم يكن هناك شيء آخر . لقد خسرت كل شيء . وحتى المال ضاع .

طفلنا الثاني . . . من كان يمكن أن يكون؟ ولد آخر؟ بنت؟ مثلي؟ صعب المراس ، هادئ ، أحد الغرباء . . . لن أعرفَ أبداً هذا الطفل . لقد ضحيت به ، ولم يبق شيء . الحياة توقفت هنا .

استلقيت على جانبي ، وسحبتُ ساقّي تحتي . تحسستُ حولي حتى وجدتُ الوسادة الصغيرة ، أمسكتها ، سحبتها نحوي ، احتضنتها ، وضممتها إلى جسدي ، إلى صدري .

هكذا غفوت .

نثّ شَعر وي-وِن رائحة عرق طفل وشيئاً ما جافاً ، مثل الرمل . وضعت شفتيَّ عليه ، التقطت بضع خصلات من الشعر بهما وجذبتُ قليلاً .

«آخ ، ماما . أنتِ تأكلين شعري»!

تركت الخصل وضحكت . وجدت خده ووضعت فمي عليه بدلاً من ذلك . ناعم جداً ، ناعم بشكل غريب ، مثل خدود الأطفال . كان وكأنني أستطيع أن أضغط بشفتي عليه ولا أصادف ، مهما ضغطتُ ، أي مقاومة مطلقاً . أستلقي هناك فقط ويكون لدي كل الوقت الذي في العالم .

«يا صغير . أنت جميل جداً» .

نشق بأنفه بقوة . وحدَّق في السقف ، حيث صنعت بعض ملصقات النجوم الفسفورية النظام الشمسي . كانت لدي هي نفسها عندما كنت طفلة صغيرة ، توسلت من أجل شرائها ، عندما أراد والداي فعلياً أن يشتريا لي دمية . وهكذا ، عندما كبرت وانتقلت للعيش وحدي ، نزعتها بعناية من سقف غرفة طفولتي . وضعتها في كيس ، وحزمتها في قاع حقيبة مليئة بذكريات الطفولة ، وعندما وُلد وي-وِن أخيراً ، ألصقتها على السقف مجدداً . كان وكأنني أقمتُ رابطاً ما بين طفولتي وطفولته ، بيننا وبين العالم ، بين العالم والكون .

ساعدته في تعلم أسماء الكواكب عن ظهر قلب ، حتى يفهم كم نحن صغار ، وأننا أيضاً جزء من شيء أكبر . مع أنه كان أصغر كثيراً من أن يستوعب ذلك . كانت النجوم والكواكب ما تزال مجرد ملصقات هناك على السقف . كان يمكن أن يفهم فقط أن القمر والشمس موجودان حقاً ، لأنه رآهما في السماء بعينيه . أما أن القمر لم يكن له حتى ملصقه الخاص ، ولم يكن يستحقه ، هناك على السقف ، فهو ما لم يستطع أن يفهمه . كان كبيراً مثل الشمس .

«هناك المشتري» ، أشار بإصبعه .

«أمم» .

شممتُ شعره ، لم أستطع ضبط نفسي . لكنه لم يلاحظ ذلك على ما يبدو .

«إنه الأكبر بينها» .

«نعم . إنه الأكبر» .

«وزُؤَل . ذاك الذي بحلقات» .

«زحل» ، قلت .

«زؤل» .

«نعم . ذلك الكوكب الذي له حلقات» .

«ذلك هو الأجمل» .

فكَّر قليلاً .

«لماذا ليس للأرض حلقات»؟

«في الحقيقة . . .لا أعلم» .

«أعتقد أنه يجب أن يكون لها بعضٌ منها . هذا هو الأجمل» .

دفنت أنفي في خدِّه .

تلوَّى قليلاً ، وأبعد وجهه عن وجهي .

«تستطيعين الذهاب الآن ، ماما» .

«يمكنني أن أستلقي هنا قليلاً» .

«لا» .

«حتى تغفو»؟

«لا . يمكنك الذهاب الآن» .

كان جاهزاً ، أصبح السرير آمناً لهذه الليلة . نفذتُ مهمتي كأم . قبَّلته على خده ، للمرة الأخيرة . لم يكن لديه حتى الصبر للانتظار ، سحب الغطاء على نفسه بقوة .

«اذهبي . سوف أنام» .

«نعم . سأغادر الآن . تصبح على خير . أراك غداً» .

«تصبحين على خير . . . أراكيبي» .

أردت البقاء هناك ، تحت النظام الشمسي ، تحت إضاءة زحل الفسفورية ، النيون الأخضر ، الحلقات البلاستيكية ، لكنني استيقظت عند أول إشارة لضوء النهار . لم تكن للنافذة ستائر ، وانتشر ضوء الفجر ببطء في الغرفة . استلقت في الوضعية ذاتها ، حاولت أن أعثر على طريقة للعودة ، إلى الغرفة الأخرى ، إلى سرير الطفل الآخر ، لكنني لم أفلح .

هذا الصباح ، في هذا السرير الغريب ، كان أول شيء فكرت فيه هو نفسه الذي فكرت فيه كل الصباحات الأخرى : اسمه .

وي–وِن . وي–وِن .

طفلي .

النعومة . وجهه .

لم أكن أريد أي شيء آخر سوى أن أضمه بقوة . لكن وجهاً آخر شق طريقه إلى السطح . وجهًا من هذا العالم . الولد ، الولد الطويل الأخرق ، بكيس البسكويت في يديه . نظراته مسلطة عليّ ، مستعد للهجوم .

والمسنّون . الكثيرون منهم غير قادرين على إدراك الوضع ، عاجزون عن فهم أنهم تُركوا للموت . لكن المرأة التي جاءت في اتجاهي – ينبغي أن تكون امرأة– كانت تعرف . أيقظها وصولي . أيقظ الأمل .

ما الذي سيحدث لها؟

ما الذي سيحدث للفتى الأخرق؟

وماذا عن النادل في المقهى؟

والده؟

ما الذي حدث لوي-وِن؟

ماذا حدث له؟

شيء ما ورّط كلّ الآخرين .

إغلاق الغابة ، الجيش ، السياج ، السرّيَّة . . .

ثمة شيء أغرقنا جميعاً .

جلست بسرعة .

فهمتُ الآن .

لقد بدأت من النهاية الخطأ . بدأت بالرغبة في العثور عليه . لكنني لن أجده أبداً ، ما دمت لا أعرف ما الذي أصابه . وما الذي عناه ذلك .

ظهر وجه وي-وِن مرة أخرى . ولكن ليس وجهه المعتاد ، وجه الطفل الناعم . وجهه من ذلك اليوم . وي-وِن بين ذراعي كوان . البشرة التي تصبح أكثر امتقاعاً وبياضاً مع كل ثانية تمر . التنفس الذي كان ثقيلاً . أصبحت الصور أكثر وضوحاً الآن . الصور التي حاولت أن لا أفكر فيها ، التي لم أستطع مواجهتها . نزلتُ إلى الأرض ، وسحبت ساقيّ تحتي ، وحدقتُ مباشرةً في الأمام .

كان هناك . الوجه الشاحب الندي . قطرات العرق التي سالت على جسر أنفه . عيناه . كان واعياً عندما جاء كوان راكضاً به . كان الجسد الصغير كله يُناضِل لالتقاط الأنفاس ، التنفس الذي تمزّق في صدره ، اللهاث . والعيون الخائفة حتى الموت . حدق فيَّ مباشرةً ، لم يستطع حتى أن يطلب المساعدة .

ثم ، في منتصف الطريق بين التل والمجمعات السكنية ، سقط رأسه إلى الوراء . فقدَ الوعي . رأيت ذلك يحدث ، كيف غامت نظراته ، وغاب .

عندما وصلنا كان تنفسه خيطاً رفيعاً يربطه بالعالم .

وضعتُ رأسي على ركبتَي . وأجبرت نفسي على استعادة الدقائق هناك .

انظُري إلى وجهه ، انظري إليه . ما الذي أوقف أنفاسه؟ ما الذي حدث؟

الشحوب ، البشرة المبتلة بالعرق . إنه يشبه شيئاً رأيته من قبل . فجأة ظهرت صورة أخرى . وجهٌ آخر أيضاً . دايو . حفلة الحديقة . استلقت دايو على الأرض في سترتها الزرقاء الفاتحة . لمع حذاؤها الأسود في ضوء الشمس . كانت ممتقعة هي الأخرى ، وجبهتها مبللة بالعرق . حاولَت أن تملأ رئتيها بالهواء ، صوت التنفس اللاهث نفسه ، والعيون المتوسلة نفسها . النجدة ، قالت عيناها . وقفنا في دائرة حولها . كنا نلعب على حافة الحديقة ، وجلس الكبار إلى طاولة على بعد مسافة قصيرة . كانت يد دايو راقدة بجانبها . وكانت تُمسك شيئاً . قطعة كعكة . الكعكة التي أخذتها قبل قليل . أكلتها تواً ، تناولت القطعة من الطبق ، وتجولت في المكان وهي تأكل بينما نلعب .

«دايو لا تستطيع أن تتنفس . إنها لا تتنفس»!

فجأة كانت أمها هناك . جعلناها تعبر ، وصرخت الأم .

«حقيبتي ، أحضروها إلى هنا . حقيبتي»!

ثُم فتحت يد دايو وأخرجت قطعة الكعك قبل أن تستدير إلينا .

«هل فيها جَوز»؟

جَوز؟ لا أحد منا يعرف . كان تعبيرها مليئاً بالإلحاح حتى أنني شعرت بأنني مسؤولة . وكأنه كان يجب أن أعرف ما إذا كان هناك جَوز في الكعكة أم لا .

جاء أحدهم راكضاً بحقيبتها . بحثت أم دايو فيها ، ولم تجد ما كانت تبحث عنه ، قلبتها رأساً على عقب . سقطت المحتويات على الأرض . رأيت أحمر شفاه ، ومناديلاً معطرة ، وفرشاة شعر . التقطَت شيئاً ، حزمة صغيرة بيضاء تحمل حروفاً خضراء . مزَّقته وفتحته وأخرجت حقنة .

ثم كانت أمي هناك . جذبَت رأسي إليها ، لم تُرد أن أرى أكثر من ذلك . أبعدتني بلطف .

«ما الأمر؟ ما خطب دايو؟» سألتُ . «ماذا بها»؟

وليام

كان الوقت صباحاً . وتسرَّبَ الضوء من بين أوراق الشجر . كل شيء فوقي تحرّك ، الأشجار في الريح ، الغيوم السابحة على صفحة السماء ، لا شيء ثابت . أصابني الدوار وأغلقت عينيَّ . استلقيت هناك فقط وتركت الاصفرار يلفُّني ، رقدتُ على ظهري بلا حراك ، على التراب الخشن الندي . لأنه لم يكن لديّ شيء آخر ، لم يعد ثمة شيء يمكنه أن يبقيني بعيداً . ليس البحث ، شغفي . ليس إدموند ، لقد ضاع ، كان ضائعاً كل الوقت . ليس حتى الرغبة . لقد اختفت . لم أعد أريد أن أحكَّ جسدي على الأرض ، بنشوة ، إلى تلك الرعشة . أردت أن تبتلعني الأرض ، حتى أصبح تراباً أنا نفسي .

لم آكل ، لكن ذلك لم يُحدِث فرقاً ، واصلت الفطيرة قلبَ معدتي ، علقت في حلقي ، وجفّفت فمي .

القرية ، العمل فيها وحولها ، منزلي نفسه ، كان يمكن أن تكون كلها على بعد ألف ميل . لقد مشيتُ في الظلام حتى آلمتني قدماي ، حتى لم تعُد أي أصوات تنسلُّ عابرة . كانت الغابة مطروقةً في بعض الأماكن ، ومشيتُ في طريق ، لكنني ابتعدتُ عنه ، أردت أن أبتعد عن كل شيء يذكرني بالبشر . وفي النهاية ، انهرتُ على العشب فحسب .

هل افتقدوني؟ هل كانوا يبحثون عني؟ ربما أسمع شيئاً قريباً ، أسمع نداءاتهم ، كل البنات الصغيرات من الطبقات الصوتية

المختلفة ، من صوت جورجيانا الرفيع الحاد ، الأعلى في السُّلّم ، إلى الصوت الأعمق بينها ، صوت تيلدا نفسها ، المتنافر بخشونة .

أو ربما لم يفتقدني منهم أحد . ربما كانوا معتادين على غيابي ، اختفائي ، وربما لم يلاحظوا حتى أنني مفقود .

أم أنهم مشغولون بإدموند؟ كان مريضاً اليوم ، يجب أن يكون اليوم مثل الكثير من الأيام الأخرى . إنه نائم ، على الأغلب ، حتى تعبر الشمس ذروتها ، وقد أصبح شاحباً مثل الشبح لأنه لا يعرِّض وجهه إلى الهواء الطلق أبداً . لكنه لم يكن مرضاً . كل الأشياء التي لم أفهمها . . . وكلا ، لم يكونوا قلقين من مرضه . فاليوم مثل أي يوم آخر ، لأنها قطعاً ليست المرة الأولى التي يبقى فيها في سريره هكذا . كان يتوارى عن الأنظار كل الأيام ، نائماً في غرفة نومه ، بينما تغادر الكحول جسده ببطء . ليس حزناً ورائياً ، وإنما ضرراً وإهمالاً ذاتياً للنفس . لم يكن أفضل من العمال اليدويين الرعاع الذين جعلوا الحياة تنزلق وتُختزَل إلى مجرد مكاييل من الجعة . سكير .

تعقبتُ تقدُّم الشمس في السماء . سرعان ما أصبحت فوقي مباشرةً ، وجففت كل نقطة سائلة تبقت في جسدي . استقر العرق على جلدي . تنفستُ بفمٍ مفتوح . وأصبح لساني مثل العشب الجاف . أردت أن أرفع يدي ، أن أمسح قطرات العرق ، لكن ذراعي كانت ثقيلة جداً .

مرَّ النهار . اختفت الشمس خلف الأشجار مجدداً ، طالت الظلال ، وأصبح كل شيء أكثر برودة . أصبحت درجة حرارة جسمي مثل حرارة الأرض من تحتي . وخلفَ جفوني انتظر الظلام . هل تم ابتلاعي فعلاً؟

«أبي»؟

صرخة أخرى . نغمة واضحة . في منتصف سلّم النغمات .

«أبي»؟

أصبح الصوت أعلى الآن وسرعان ما سمعت خطى قوية على العشب . فتحت عينيَّ ونظرتُ مباشرةً في عينيّ شارلوت الصافيتين .

«مساء الخير» ، قالت . لم يكن هناك أي أثر للمفاجأة فيها . ربما لم يكنَّ يبحثنَ عنّي حقاً ، ولم يلاحظن حتى أنني غائب؟

وقفت هناك فقط ونظرَت إلي ، درستني ، كما لو كنت حشرة ، بينما أرقُد هناك متمدداً تماماً . فجأة شعرت بالدم يتدفق إلى خدّي .

«نعم . ها أنا ذا» .

جلستُ بسرعة ، نفضتُ التراب عن قميصي ، ومررتُ أصابعي في شعري وأزلتُ منه أوراق الشجر وإبر الصنوبر .

«هل كان العثور عليّ صعباً»؟

«ماذا تعني»؟

«هل كنتم تبحثون منذ وقت طويل»؟

«كلا ، ليس طويلاً . الطريق هناك» .

أشارت وراء ظهرها ، ثم اكتشفته أنا ، الطريق إلى المنزل ، ولم أستطع سوى ملاحظة بعض الشجيرات المألوفة تماماً . لم أختفِ بأي حال من الأحوال بعيداً في أعماق الغابة . في وهمي وخداعي لذاتي ، لم أكن قد تمكنتُ من الابتعاد كثيراً على الإطلاق . كنت تماماً بالقرب من منزلي .

جلسَت بجانبي ، وكان عندئذٍ حين أن اكتشفت أن لديها شيء في يدها . دفتر الملاحظات ، ذلك الذي تحمله دائماً معها ، حيث ملأت الصفحات بصبر بقلم الحبر . ـ «أحب أن أريك شيئاً . هل أستطيع»؟

فتحَت الدفتر دون انتظار الإجابة . «إنه شيء أعمل عليه منذ فترة طويلة» .

حاولتُ التركيز ، لكن علامات الحبر زحفت أمامي مثل الديدان على الورق .

«انتظِر» . خلعت نظارتي ، ونظَّفَتها بسرعة بقماش ثوبها ووضعتها مجدداً على أنفي .

أصبحَت أنظف ، لكن هذا لم يكن السبب الرئيس الذي جعلني أعدِّل ظهري وأحاول رؤية ما أرادت أن تريني إياه . كانت المبادرة الصغيرة قد صنعت كتلةً في حلقي . سرَّني أنها هي التي جاءت ، أنها بالذات هي التي وجدتني ، رأتني بهذا الحال ، وليس أحداً آخر . ابتلعت ريقي ووجهت انتباهي نحو ما أرادت أن تريني إياه .

رسم . خلية نحل . لكنها مختلفة تماماً عن خليتي .

«اعتقدتُ أننا إذا ما قلبناها رأساً على عقب ، ستكون مختلفةً تماماً» ، قالت .

«إذا أدخلنا الألواح إلى الأسفل من الأعلى ، بدلاً من تعليقها من السقف ، سوف تكون لدينا سيطرة أفضل» .

حدَّقت في الرسومات التي أرتها لي . أصبحت تتركز أكثر في الصفحة بالتدريج .

«لا » ، قلت وتنحنحت . «لا . . . لن تعمل» . بحثت عن الكلمات .

«سوف تعلق الألواح بجوانب الصندوق» . اعتدلتُ ؛ كان ذلك سُلطة بعد كل شيء .

«سوف يربطها النحل بواسطة العكبر والشمع ، سيكون من المستحيل إخراجها» .

عندئذ ابتسمَت .

«إذا كانت قريبة جداً من بعضها ، نعم . خمسة مليمترات أو أقل» .

«وإذا كانت متباعدة كثيراً ، سوف يبني النحل قرص عسل» .

قلت . «بغضِّ النظر ، لن تعمل من فوق . سبق لي التفكير في هذه الإمكانية» . قلت الكلمات الأخيرة بابتسامة متسامحة .

«أعرفُ ذلك ، لكنك لم تجرب بدائل أخرى . إنها فقط مسألة العثور على الأبعاد الصحيحة» .

«لا أفهم» .

أشارت إلى الرسومات مرة أخرى . «ينبغي أن تكون هناك نقطة وسط ، يا أبي . نقطة حيث ستتوقف عن إنتاج الشمع والعكبر وتبدأ بإنتاج أقراص العسل . ماذا لو وجدنا النقطة الوسط؟ إذا حددنا تماماً المسافة الصحيحة بين الحافَّة الخارجية للقالب وبين الجدار الداخلي ، فإنه لن ينتج الشمع ولا أقراص العسل» .

كان عليَّ أن أنظر إليها فقط . أنظرَ إليها بشكل مناسب . كانت تجلس بهدوء تام ، لكن عينيها تشعّان ، تشفّان عن حماسها . ما الذي قالته؟ شمع . قرص شمع العسل . هل كان هنا شيء في الوسط؟

عادت إليّ طاقتي ، وقفت على قدميّ . نقطةٌ وسط!

جورج

بعد الاجتماع في المصرف الأحمق ، ذهبت إلى الحقل بجانب نهر ألاباست . كان فارغاً الآن . بقيت بضعُ خلايا فقط في إحدى الزوايا بالقرب من نهايته . ما تزال هناك حياة فيها ، لكنني لم أعرف إلى متى . لم يكن شيء يفصلها عن الأخريات . ليس هناك تفسير لسبب استمرارها على قيد الحياة .

مشيت في دائرة . تركَت الخلايا النافقة علامات خلفها على كل أنحاء العشب . عُشباً مُسطَّحاً ميتاً . ولكن ، بين أنصال العشب الميتة ، ظهرت براعم جديدة . قريباً سوف تختفي العلامات ، ولن يتبقى أي أثر لكل مستعمرات النحل التي عاشت هنا .

ذهبتُ أقرب إلى صوت الأزيز . فجأة انتابني توقٌ إلى أن أُلدَغ . إلى ألم اللسع . التورم . وجود عذر للشتم بصوت عالٍ في محاولة للانتقام .

مرة واحدة ، مرة واحدة كنت قد تعرضتُ للدغ بشدة . كنت في الثامنة من عمري . أتذكر أنني كنت أجلس في المطبخ . عادت أمي إلى المنزل من المتجر . لست أعلم لماذا ، لكنها أحضرت في ذلك اليوم بالذات شيئاً لي . نعم ، في الحقيقة ، كان شيئاً جلبتهُ ليشجعني على تقبُّل حقيقة أنني سأصبح الأخ الأكبر للمرة الثالثة ، ومن الواضح أنها عرفت أن وقع هذه الأخبار لن يكون جيداً . لم أكن أتلقى الألعاب إلا في عيد ميلادي أو عيد الميلاد ، ومع ذلك ، اشترت لي اليوم شيئاً . دمية سيارة . وإنما ليست أي سيارة . إنها «هوت ويل» . كنت أريد واحدة منذ دهر .

وجعلتني السيارة سعيداً جداً وشعرت وكأن رأسي سيشتعل . حملت السيارة وركضت إلى الحقل حتى قبل أن تتسنى لها الفرصة لإخباري عن بطنها المنتفخ .

كان أبي هناك . رأسه في خلية نحل . لم أفكر مرتين . ركضتُ مباشرةً نحوه : انظر! انظر ما حصلتُ عليه! انظر بابا! ثم لاحظت عينيه خلف غطاء الوجه . ابتعِد عن هنا! استدر وعُدْ! لكن الأوان كان قد فات على التوقف .

ظللتُ طريح الفراش عدة أيام . لم يَعُدّ أحد ، ولكن يجب أن تكون هناك أكثر من 100 لسعة . أصبتُ بارتفاع في درجات الحرارة . جاء الطبيب . أعطاني بعض حبوب الدواء القوية حتى أنها يمكن أن تُسقط دُباً . ولم أعلم عن الطفل في بطن أمي حتى وقت متأخر كثيراً .

بعد ذلك تجنبتُ لسعات النحل بكل السبل .

أصبحتُ أفكر بلدغات النحل كنوع من العقاب . كعلامة على أنني لم أنجز عملي كما يجب . لم أحمِ نفسي . لم أكن حذراً بما فيه الكفاية . أصبح قضاء موسم من دون لسعة نحل هو الهدف ، ولكن كان هناك بعض منها دائماً ، لا يستطيع أي نحال أن يتدبر أمر تجنب اللسع لصيف كامل . سوى هذا العام . حتى الآن لم أتعرض لأي لدغة ، وإنما لأسباب تختلف تماماً عن تلك التي كنتُ أحبها .

مشيتُ في دائرة . قريبٌ وأقرب . طار النحل بسأم . وقفت وأجريت إحصاء الكثافة . ليست كافية . في أقل القليل ليس 2,5 نحلة لكل ياردة مربعة .

ضربتُ بأقدامي بقوة على الأرض . طارت نحلة واحدة .

السعيني . الدغيني!

أبحرَت في الهواء ، انحرفَت بعيداً عني . لن تصنع لي معروفاً .

استدرتُ واتجهتُ نحو الحظيرة .

لم أكن قد اشتريت مواد جديدة . ما تزال طلبية الربيع الأخير قابعة في كومة برائحة طازجة في إحدى الزوايا . أخافني ذلك . وقف الوقت بيني وبين تلك الكومة . ساعات وساعات ، كل العمل الذي سيكون مطلوباً لبناء كل الخلايا . وبعد ذلك ، المزيد . كانت مجرد مسألة الذهاب لطلب ألواح أكثر . لأنني كنت سأبنيها بنفسي . طالما أنني أعمل بالنحل ، فإنني سأبني الخلايا بنفسي .

أخذت لوحاً بمساحة اثنين في أربعة ، اختبرت وزنه في يدي . شعرت بملمس الخشب على جلدي العاري . ما يزال رطباً . مطواعاً كما يجب . حيّاً .

عندئذٍ ارتديت قفازاتي . لم يعد الخشب عبرها سوى مادة ميتة . أخرجت أغطية حماية الأذنين . وشغّلت المنشار .

سقط شريط ضوء نحيل على الأرض عبر المدخل . أصبح شريط الضوء أكبر ، وملأه ظل . ثم اختفى .

استدرت .

كانت إيما .

نظرت إلى كومة الخشب ثم إلي . وهزت رأسها برفق .

«ما الذي تنوي فعله»؟

سألَت ، مع أنها تعرف الإجابة .

سارت بضع خطوات نحوي .

«هذا جنون» .

وأشارَت باتجاه الألواح .

«يجب أن تبني الكثير . نحتاج الكثير» .

وكأنني لا أعرف . كأنني لا أعي ذلك بالكامل .

هززت كتفيَّ باستهجان ، وكنت على وشك وضع أغطية الأذن ، عندما أوقفني شيء ما في عينيها .

«كان يمكننا أن نبيع» ، قالت .

أسقطت أغطية الأذن . سقطَت إلى الأرض بدوي قوي .

«كان يمكننا أن نبيع في الشتاء الماضي . وننتقل . ونكون هناك الآن» .

لم تقل أي كلمة أخرى ، ولا كلمة أخرى مما تفكر فيه .

عندما كانت لدينا الفرصة . عندما كانت المزرعة ما تزال تساوي شيئاً .

انحنيت ، والتقطت واقيات الأذن ، حملتها بكلتا يدي ، وكأن واحدةً لا تكفي ، كأنني طفل .

ثم وضعتها على رأسي واستدرت .

لم أسمعها تغادر . رأيت فقط شريط الضوء على الأرض ، كيف أصبح أكبر ، كيف ملأه ظلها ، ثم أصبح الظل أصغر ، واختفى .

لم نتحدث عن ذلك مرة أخرى . لم تقل أي شيء آخر . مرت الأيام . وظللتُ أبني حتى تقرَّحت يداي ، حتى آلمني ظهري ونزفت أصابعي من الجروح . لم أعرف ما كانت إيما تفعل . لكنها على الأقل لم

تعد إلى الحديث عن الأمر بعد ذلك . نظرَت إليَّ فقط من حينٍ لآخر ، بعيون دامعة ، بنظرة تقول : إنه خطؤك أنت .

حاولنا أن نعيش مثل السابق . أن نفعل الأشياء نفسها . نتعشى معاً كل ليلة . ونشاهد التلفاز في المساء . كانت تتابع العديد من البرامج . ضحكَت وبكت أمام الشاشة . تنهدت . تحدّثت عنها معي . *هل حدثَك معك أبداً! كلا ، ليس مستحيلاً . لكنه لا يستحق ذلك . وهي ، إنها لطيفة جداً . لا ، كلا ، يا إلهي .*

وجلسنا معاً على الأريكة ، ليس في مقاعد منفصلة أبداً . كان يعجبها أن أداعب شعرها . أن أجعله مشعثاً . لكن يديَّ الآن غالباً ما ترتاحان في حضني . إنهما تؤلمان كثيراً ، ومتقرحتان جداً .

في إحدى الليالي بينما كنا نجلس على ذلك النحو ، رن جرس الهاتف . لم تبدِ أي علامة على الحركة . ولا أنا أيضاً .

«أجِب أنت» ، قالت . كانت عيناها على شاشة التلفاز ، تنتظر تصويتاً أو آخر ، كان التوتر يتصاعد ، هل سيصوتون لخروج الشقراء أم السمراء؟ شيء مثير جداً ، على ما يبدو .

«ربما يكون توم» ، قلت .

«نعم ، إذن»؟

«من الأفضل أن تتحدثي أنتِ إليه» .

نظرت إليَّ . باستغراب .

«حقاً ، يا جورج» .

«ماذا؟»

«تستطيع أن تتوقف ببساطة ، تتوقف ، لتتحدث إليه»؟

لم أجب .

ظل الهاتف يرن .

«لن أجيب» ، قالت ورفعت أنفها في الهواء .

«حسناً . إذن لن نجيب» ، قلت أنا .

لكنها ربحت في النهاية بالطبع . خرجتُ إلى الردهة ورفعتُ السماعة .

كان جون . اتصل ليخبرني عن أوضاع المحصول .

«كنتُ في الخارج هناك طوال اليوم» ، قال بسعادة . «إنها تنمو . أكوام من التوت الفج» .

«واو» ، قلت . «بغض النظر عن المطر»؟

«ربما عمل النحل بجد عندما كانت الشمس مشرقة . ستكون سنة سخية بعد كل شيء . أفضل مما خشيت» .

«لا بأس» .

«لا بأس ، ليس سيئاً على الإطلاق . أردتك أن تعرف فقط . نحل عظيم هو الذي لديك هناك» .

«كان لديّ» ، قلت .

«ماذا»؟

«كان لديّ . نحل عظيم كان لديّ» .

صمَت على الجهة الثانية . كان يعرف على الأغلب . «لا تقل لي ، هل حدث الأمر معك أيضاً؟ هل رحل»؟

«نعم» .

«لكنني لم أعرف أن المشكلة ضربت كل هذه المسافة شمالاً؟ كانت فقط في فلوريدا . وكاليفورنيا» .

«من الواضح أنها فعلت» . حاولتُ إبقاء صوتي ثابتاً ، لكنه اهتز .

«أوه ، جورج . يا إلهي . ماذا أستطيع أن أقول» .

«ليس الكثير» .

«لا . . . هل لديك تأمين»؟

«ليس ضدَّ شيء كهذا» .

«ولكن . . . ماذا ستفعل الآن»؟

لويتُ سلك الهاتف على سبابتي . ضاق على جرح كنتُ قد أُصبتُ به في وقت مبكر من اليوم . لم أدر ماذا أقول .

«لا . . .» .

«جورج» . كان صوته أعلى الآن . «أعلِمني إذا كان هناك أي شيء أستطيع فعله» .

«شكراً لك» .

«إنني أعني ذلك» .

«أعلم» .

«كم أتمنى لو أستطيع أن أقرضك المال»!

«كلا ، لن تفعل» ، ضحكت .

ضحك هو الآخر ، ربما ظنّاً منه أنه لا بأس بالمزاح .

«لا أملك شيئاً أنا أيضاً . ليس المحصول جيداً إلى هذه الدرجة» .

«مع أنك حصلت على خصم»؟

«مع أني حصلت على خصم» .

صمَت .

«ما كان يجب أن أوافق عليه» .

«ماذا تعني»؟

«على الخصم» .

«جون . . .» .

«لو كنت أعرف . . .» .

«جون . انسَ ذلك» .

حررتُ سبابتي من السلك . كان قد صنع علامات لولبية وصولاً إلى راحة يدي .

«أتعلم شيئاً» ، قال ، مبتهجاً فجأةً . «في الواقع ، أنا أتصل لأخبرك العكس . لقد ذهب المحصول أدراج الرياح . كم كانت تلك نحلات فظيعة» .

اضطررتُ إلى أن أضحك .

«من الجيد سماع ذلك» .

«من الجيد أن النحل اختفى» ، قال .

«نعم . جيد أنه اختفى» .

ساد الصمت على الخط .

«ولكن . جورج ، بصراحة . ماذا تنوي أن تفعل»؟

«لا أدري . ربما يجب أن أتحول إلى طلب الخلايا» .

«طلب؟ لا . إنه إرثك . الخلايا إرثك الخاص» .

«إنه لا يساوي الكثير هذه الأيام» .

«لا . . .» .

سمعته يبتلع ريقه .

«ولكن اسمع ، على أيِ حال . . .لا تستسلم» .

«صحيح . . . كلا» .

لم أستطع أن أقول أي شيء أكثر . جعل الدفء في صوته الحديث مستحيلاً .

«جورج؟ هل أنت هناك»؟

«نعم . . .» .

أخذت نفَساً عميقاً ، وتماسكت .

«نعم . أنا هنا . لن أذهب إلى أي مكان» .

تاو

بضعة كيلومترات بعيداً عن الشقة التي أمضيت فيها الليل ، وجدت أخيراً محطة مترو مفتوحة . كنت قريبةً منها في الليلة الفائتة ، متجهةً بالفعل إلى الجزء المسكون من المدينة ، وإنما دون أن أعي ذلك . انتظر معي شخصان آخران ، سيدة عجوز مهتزة ، نحيلة ، هزيلة تقريباً ، جرَّت نفسها إلى مقعد ، ورجل في خمسينياته ، بعينين يقظتين ، يحمل حقيبة منتفخة لها حبل . ربما جاء من المنازل المهجورة .

اضطررنا إلى الانتظار نصف ساعة قبل أن يجيء المترو مترنحاً أخيراً إلى المحطة . استغرق وقتاً طويلاً جداً . يجب أن أعود الآن ، أن أعثر على مكتبة ، أن أجد الأجوبة . تسللتُ إلى القطار بلا تذكرة ، ولاحظتُ بالكاد أن السيدة العجوز تكافح لتركب . وعندما كاد الوقت يصبح متأخراً رأيت عينيها وهرعت للمساعدة . شكرتني مرات عديدة وأرادت بوضوح أن تبدأ حديثاً ، لكنني لم أكن أمتلك القوة لذلك .

داخل العربة جلست لوحدي . كنت لأفضِّل الوقوف ، لم أستطع الجلوس بثبات ، لكن القطار كان يهتز كثيراً بحيث لم أجرؤ على ذلك . لم يتم تحديثه أو تنظيفه منذ أمد طويل ، ربما لعقود . كانت الرائحة عفنة ، والنوافذ مغطاة بطبقات سميكة من الشحوم التي راكمتها آلاف الأصابع التي فتحتها عندما تضرب الشمس الحارقة أو أغلقتها في الأيام الباردة . ومن الخارج ، كانت شائهة اللون بفعل الغبار والأوساخ . الضجيج الذي يصم الآذان مع اهتزاز القطار عبر المشهد الحضري جعل من التفكير

مستحيلاً تقريباً . وشعرت مثل حيوان يتعقب شيئاً ، ينبح ، ممتلئاً بالغاية . دار الوجهان نفسهما في رأسي . وي-وِن ، ودايو . الشحوب نفسه . التنفس الصعب نفسه .

كان عليَّ أن أغيّر القطارات . مرة أولاً . ثم مرتين أخريين . تمزق الجدول الزمني ، وتوقف النظام الإلكتروني عن العمل منذ وقت طويل . توجب عليَّ أن أنتظر ، أول مرة 23 دقيقة بالضبط ، ثم 14 دقيقة ، ثم 26 . على التوالي .

بعد ثلاثة تبديلات للمحطات وصلت أخيراً . أشعرني ذلك وكأنني وصلت إلى المنزل ، أخيراً بدا المحيط مألوفاً ، كما لو أنني غبتُ أكثر من 24 ساعة بكثير . أثار جسدي كله جلبةً من الجوع ، ولكنني لم أملك الوقت لأجلس وآكل ، ابتلعت فقط كيساً من البسكويت كان قد تبقى لدي - كيساً آخر من البسكويت- وسألت موظفة الاستقبال أين يمكن أن أجدَ أقرب مكتبة .

كانت هناك واحدة فقط . مكتبة واحدةٌ وحيدةٌ فقط بقيَت في كل بكين . كانت فيزيتشنغ ، بالقرب من خط قطار مباشر من الفندق . مررت بحديقة الحيوانات القديمة في طريقي . كانت الديكورات على المدخل قد تآكلت تقريباً بفعل الرياح والطقس . وهدَّدت الحياة النباتية في الداخل بالهيمنة ، بالانفجار عبر السياج . ما الذي حدث لكل الحيوانات؟ للأجناس التي كانت على حافة الانقراض؟ دب الكوالا الأخير؟ ربما تتجول طليقة في الشوارع الآن ، ووجدت مساكن لها في المنازل المهجورة . كانت الفكرة مريحة ، أنها يمكن أن تكون بصدد مواصلة حياتها على الأرض ، حتى مع أنه بقي القليل جداً من الناس .

كان الميدان أمام المكتبة مهجوراً . عبرته بسرعة ، لم يكن لدي الوقت لأخاف . كان باب المدخل ثقيلاً حتى أنني خشيت أن يكون مقفلاً ، لكنني عندما استخدمت كل قوتي ، تمكنت من فتحه .

كانت الغرفة هائلة ، مقسَّمة إلى مستويات ، مثل الأدراج . الجدران مغطاة بالكتب ، الآلاف منها . وعلى الأرض ، مصفوفة في صفوف مستقيمة ، كانت الطاولات والكراسي أكثر مما أمكنني أن أعُدَّ . كانت الغرفة شبه مظلمة ، مضاءة فقط بالضوء الساقط من النوافذ في السقف . كل المصابيح معطلة ، وليس هناك من روحٍ حية واحدة هنا ، وكأن المكتبة مقفلة فعلاً .

خطوت بضعة خطوات في الداخل .

«مرحباً»؟

لم يجب أحد .

رفعت صوتي . «مرحباً»!

أخيراً سمعتُ خطواتٍ قادمة من الجانب الآخر من المبنى . دخَلت حارسة شابة إلى حيث استطعتُ رؤيتها . «مرحباً»؟

كانت ترتدي بدلة رسمية لا بدَّ أنها كانت سوداء ذات يوم ، لكنها أصبحت الآن رماديةً باهتة من كثرة الغسل والارتداء . نظَرت إليَّ باستغراب . ربما كنت أول شخص يمر منذ فترة طويلة .

ثم استجمعَت نفسها ورفعَت يدها مشيرةً إلى بحر الكتب .

«أفترضُ أنكِ تريدين أن تستعيري الكتب؟ تفضلي» .

«ألا أحتاج إلى تسجيل؟ ألا تريدين اسمي»؟

نظرت إليَّ باندهاش وكأن ذلك كان شيئاً لم تفكر فيه . ثم ابتسمَت . «ستكون الأمور على ما يُرام» .

بعد ذلك تُركت في سلام .

لأول مرة في سنوات عديدة سمحتُ بأن تمتصني الكتب ، الكلمات . كان يمكن أن أقضي حياتي كلها هنا . تاو بالوشاح الأحمر . الإنسانة التي تميزت . لكن تلك كانت حياة أخرى .

بدأت من قسم العلوم الطبيعية . من شيء لم يكن وي-وِن ليتسامح معه لأنه جعله مريضاً ، فقد أصيب بصدمة حساسية هناك في الحقل . ربما لدغته أفعى؟ وجدت كتاباً قديماً عن الأفاعي في الصين . كان كبيراً وثقيلاً . وضعته على الطاولة أمامي وبحثت عشوائياً في نصه . علمت أنه كان هناك ثعابين كوبرا في المنطقة سابقاً ، لكنها لم تعد موجودة ، على الأقل هذا ما قيل لنا ، كانت تأكل الضفادع ، التي أكلت بدورها الحشرات ، وعندما أزيلت الكثير من الحشرات عن الوجود ، اختفى أيضاً أساس بقاء الكوبرا على قيد الحياة . قلبتُ الصفحات حتى وجدت صورةً أفعى سوداء بلحم حول رقبتها مفتوح مثل قبعة ، حذرةً ، مستعدةً للهجوم ، بأنماط طباشيرية اللون مميزة تحت الرأس . هل يمكن أن تكون بعضها لا تزال موجودة هناك بعد كل شيء؟

قرأت عن لدغة الأفاعي ، عن الأعراض . خدر ، قروح ، آلام ، شعور غير مريح في الصدر ، حمى ، التهاب في الحلق ، مشاكل في التنفس . لا تختلف عن ردود أفعال وي-وِن .

التنخُّر . قرأت ، دائماً ما يقود هجوم تشنُّه الكوبرا الصينية إلى التنخُّر ، موت الخلايا ، لا يختلف عن الغنغرينا ، حول منطقة اللدغة .

لم نرَ لدغةً . أما كنا سنلاحظها؟

وحتى لو لم نلاحظها ، حتى لو كانت أفعى ، كوبرا ، هي التي هاجمت وي-وِن ، هذا لا يفسر السرية ، الخيمة والسياج ، وأخذه منا .

واصلت البحث في قسم الطب . إذا لم تكن لدغةً ، ماذا يمكن أن تكون؟ بينما كنت أُقلِّب صفحات الموسوعات الطبية وكتيِّبات الأطباء ، صعدَت الفكرة إلى السطح . ربما كنت أعرفُ ذلك طيلة الوقت ، لكنني لم أستطع تحمُّل التفكير فيه ، لأنه كان كبيراً جداً ، وهامًا للغاية .

رنّ الهاتف مرة واحدةً فقط ، وكان هناك فجأةً .

«تاو ، ماذا حدث؟ لقد انقطع اتصالنا . أين كنتِ»؟

كنتُ قد سألت الحارسة عما إذا كان بإمكاني استعارة الهاتف ؛ كان موجوداً في مكتب منفصل يقع عميقاً داخل المكتبة . كانت السماعة مغبرة ، لم تُستخدم في شهور .

«لم يكن هناك شيء» ، قلت . كنت قد نسيت تقريباً محادثتنا من الشقة في الليلة الفائتة . «كل شيء انتهى إلى خير» .

«ولكن . . . ما الذي حدث؟ بدوتِ وكأنك . . .» . كانت في صوته لهجة رعاية عادةً ما كانت مخصصة لوي-وِن .

«لقد ضعت . لكنني وجدت الطريق مجدداً» ، قلت بسرعة . كان عليَّ أن أقدِّم له تفسيراً حتى أستطيع الاستمرار .

«كنتُ أفكر فيكِ طيلة اليوم» .

قلقُه . لم أستطع تحمُّله . لم يكن هذا سبب اتصالي . أمس ، كنتُ لأحتضن هذا القلق ، أما الآن ، فإنه يقف فقط في الطريق .

«انسَ ذلك» ، قلت . «أعتقد أنني اكتشفت ما حدث لوي-وِن» .

«ماذا؟»

«صدمة حساسية» .

«حسا . . .» .

«إنها تعني ردة فعل تحسسي» ، قلت وسمعت كم بدا ذلك بطيئاً ومتحذلقاً . حاولت تغيير نبرة صوتي ، غير راغبة بتلقينه . «دخل وي-وِن في صدمة حساسية . ردة فعل على شيء ما هناك في الخارج» .

«لماذا . . . ما الذي يجعلكِ تعتقدين ذلك»؟ سأل .

«اسمع» ، قلت . ثم قرأت سريعاً نصاً حول الأعراض والعلاج . وسردت مصطلحات مثل ؛ ضيق تنفس ، وانخفاض ضغط الدم ، الغيبوبة ، والأدرينالين .

«جميعها تنطبق» . قلت . «هكذا بالضبط كانت ردة فعله» .

«هل أعطوه أدرينالين» سأل .

«ماذا تعني»؟

«عندما جاءوا ، هل أعطوه أدرينالين؟ قلتِ أن ذلك يفترض أن يحفِّز الأدرينالين إذا كان يهدد الحياة» .

«لا أعرف . لم أرهم يعطونه أي شيء» .

«ولا أنا أيضاً» .

«ولكن . . . ربما يكونون قد فعلوا في سيارة الإسعاف» .

ظل صامتاً ، وكان كل ما استطعت سماعه هو صوت أنفاسه الخافت .

«يبدو هذا صحيحاً» ، قال أخيراً .

«إنه صحيح . يجب أن يكون كذلك» ، قلت .

لم يُجب . كان يفكر . وكنتُ أعرف بماذا . بالشيء نفسه الذي كنت أفكر فيه منذ استيقظت في الشقة المهجورة . أخيراً بدأ يدرك الأمر .

«ولكن ماذا؟ ما الذي كان يتحسس منه» .

«يمكن أن يكون شيئاً أكله» ، قلت .

«نعم . . . ولكن ماذا إذن؟ الخوخ؟ أم شيء وجده في الغابة»؟

«أظن أنه كان شيئاً وجده في الغابة ، وإنما ليس شيئاً تناوله» .

صمَت ، ربما لم يفهم .

«لا أعتقد أنه كان الطعام» ، تابعت . «أعتقد أنه جاء من شيء ما في الخارج» .

«نعم»؟

«في البداية اعتقدت أنها لدغة أفعى . لكن ذلك لا يتوافق ، ليس مع الأعراض» .

لم يجب ؛ أصبح صوت تنفسه أكثر سرعةً الآن .

«لا أعتقد أنها كانت لدغة ، وإنما لسعة» .

وليام

هيرتفوردشاير ، 4 أغسطس 1852

المحترم دزيرزون ،

أكتب إليك كزميل ، على الرغم من أنك لا تعرف اسمي على الأغلب . لا فرق ، فلدينا كلانا الكثير من الأمور المشتركة ، ولذلك رأيت أن من الضرورة المطلقة إقامة اتصال . أنا ، الموقع أدناه ، كنتُ أتعقب أعمالك لبعض الوقت ، ولفت نظري بشكل خاص تطويرك لمعيار جديد لخلايا النحل . ولا يمكن سوى أن أُعرب عن إعجابي اللامحدود بعملك المميز ، وبالتقييمات التي صنعت ، وأخيراً ، بخلية النحل نفسها ، كما هي معروضة في *إيتشستادت بينين زيتونج* .

أنا ، الموقع أدناه ، طورت خلية أيضاً ، في جزء منها بالاستناد إلى المبادئ نفسها التي استندت عليها خليتك ، والتي أود الآن ، بكل تواضع ، مشاطرتك إياها ، على أمل أن تستطيع تخصيص بعض وقتك الثمين لمشاركتي أفكارك حول عملي .

أقنعتني خلية هوبر في مرحلة مبكرة بأن من الممكن تطوير خلية تجعل إزالة الألواح ممكنة ، دون الاضطرار إلى قتل النحل ، نعم ، من دون التسبب حتى بمضايقته . وبعد قراءة مدوناته ، أدركت أيضاً أننا نستطيع تدجين هذه المخلوقات الرائعة إلى حد أكبر بكثير مما كان يُعتقد سابقاً . وكان هذا الإدراك ضرورياً جداً لمواصلة عملي .

أولاً ، طورت خليةً تشبه خليتك ، بمدخل من الجانب وأعواد قابلة للإزالة في الأعلى . ومع ذلك ، لم يقدم هذا التصميم الحل لجميع التحديات التي التمستُ حلها . وكما خبِرتَ بالتأكيد ، ليست إزالة الألواح عمليةً سهلة على هذا النموذج ، وإنما هي بالأحرى مرهقة وتستغرق وقتاً أطول ، وعلاوة على ذلك ، يجب أن تتم ، للأسف الشديد ، على حساب كل من النحل وذريته .

لكن المرء يصادف كل فترة طويلة إدراكاً يغيِّر كل شيء . وبالنسبة لي ، حدث ذلك في مساء يوم صيفي ، بينما كنت أستلقي على الأرض في غابة ، في حالة تأمل فكري . كنت أتصور الخلية في كل وقت مثل منزل ، بنوافذ وأبواب ، مثل خليتك . مسكن . ولكن ، ما الذي يمنع اعتبارها شيئاً مختلفاً كلياً؟ إن النحل لن يصبح مثلنا ، مثل البشر ، أن يتم ترويضه على يدنا ، ويصبح رعايانا . الطريقة التي نظرتْ فيها السماء إليَّ من الأعلى الآن ، وربما الرب أيضاً ، نعم ، أنا أؤمن في الحقيقة بأنه يجب أن يكون له يد في هذا ، في مساء الصيف هذا ، لأن هذه هي الكيفية التي ينبغي أننا ننظر بها إلى النحل ، من الأعلى . أن اتصالنا معها ، بالطبع ، يتم من الأعلى .

لكن كل شيء تغيّر عندما قلبتُ الأمر كله رأساً على عقب ، عندما بدأت أفكر بابتكار مدخل للخلية من الأعلى . قادني ذلك إلى الفكرة التي كانت هي السبب أيضاً في كتابتي لك : *إطاراتي المتحركة* التي ستحصل على براءة اختراع قريباً . حيث الألواح ملتصقة بها حتى لا تتصل بالخلية نفسها ، ولا حتى بالأعلى ، أو الأسفل أو على الجانبين . وأستطيع من خلال هذا التصميم إخراج أو إزالة الألواح كما أشاء ، دون

الاضطرار إلى قصّها أو إلحاق الأذى بالنحل . وأن أكون حراً أيضاً في نقل النحل إلى خلايا أخرى والسيطرة عليه إلى درجة أكثر من السابق بكثير .

وكيف ، سوف تسأل بالتأكيد ، يستطيع المرء منع النحل من ربط الألواح بالجوانب أو بألواح أخرى بالشمع والعكبر ، أو من بناء قرص شمع العسل؟ حسناً ، يجب أن أقدم لك تقريراً عن هذا . خلال فترة طويلة من الحسابات والاختبارات ، وصلت إلى بعد حاسم . وهذا ، صديقي العزيز ، إذا ما سمحت لي بمخاطبتك على هذا النحو ، هو تسعة . يجب أن تكون هناك مسافة تسعة ميليمترات بين الألواح . ينبغي أن تكون هناك مسافة تسعة ميليمترات بين الألواح والجوانب ، بين الألواح والقاع ، وبين الألواح والأعلى ، لا أكثر ولا أقل .

إنني آمل وأؤمن بأن «خلية سافيج القياسية» سوف تكون متاحةً قريباً في جميع أنحاء أوروبا ، نعم ، وربما ستصل حتى إلى خارج حدود القارة . وأثناء عملي ، اتخذتُ من البساطة مبدأً ، وكان الجانب العملي أساسياً ، حتى يستطيع الجميع استخدام الخلية ، من أقل النحالين خبرة إلى أكثرهم خبرةً من الذين لديهم مئات الخلايا . ولكن الأهم من ذلك ، هو أنني آمل أن تساهم الخلية في تيسير ظروف المراقبة لأنصار المذهب الطبيعي من أمثالنا ، حتى نتمكن من مواصلة الدراسة بعمق وتحقيق اكتشافات جديدة تتعلق بهذه المخلوقات متناهية الروعة ، وأخيراً وليس آخراً ، المهمة للبشر .

لقد سبق وأن تقدمت لبراءة اختراع لابتكاري ، ولكن كما تعلم تماماً ، يمكن أن يستغرق تجهيز هذه الطلبات وقتاً . وفي غضون ذلك ، أنا متحمس لسماع ردة فعلك على عملي . نعم ، ربما ستحاول أنتَ شخصياً

تطوير خلية بالاستناد إلى مبادئي . وفي حال كنتَ ميالاً جداً ، سوف أشعر بشرف أكثر مما تتصور .

مع بالغ الاحترام .

وليام آتيكوس سافيج»

وصلَت أول عربة إلى الفناء . قفز قلبي ، لأن الأمر يحدث الآن . ارتديت أفضل ملابسي ، المكوية والمغسولة بعناية ، وكان وجهي محلوقاً حديثاً ، حتى أنني نفضت الغبار عن قبعتي . كان الضيوف يصلون وكنت مستعداً .

كانت الخلايا مصطفة في صفَّين في الجزء البعيد من الأملاك . نعم ، كانت هناك العديد منها الآن ؛ وقد انشغل كولوني تماماً وأنتج الكثير منها مُسبقاً . كان الصوت المتراكم لآلاف النحلات عالياً جداً حتى أننا كنا نسمعها على طول كل المسافة من المنزل . نحلاتي ؛ المروَّضة على يدي ، رعاياي ، رعاياي التي أطاعت في واقع الأمر أصغر إيماءات يدي يوماً بعد يوم ، كل واحدة منها ساهمت بأعطيتِها الصغيرة في ملء الخلية بالعسل العنبري المتلألئ ، وأخيراً وليس آخراً ، قامت بدورها الخاص في تنمية وتطوير الخلية ، حتى لاستضافة المزيد من الرعايا .

خلال الأسابيع القليلة الماضية ، كنتُ قد أرسلت عدداً من الدعوات لحضور أول عرض تقديمي لي «لخلية سافيج القياسية» . وقد سُلِّمت الدعوات للمزارعين المحليين ، ولكنها أُرسلت أيضاً إلى علماء الطبيعة في العاصمة . وإلى رام . وقد جاءني الرد من الكثيرين ، وإنما ليس منه . لكنه سيأتي قطعاً . يجب أن يأتي .

وليام

وإدموند ، أيضاً ، كان جاهزاً . كان انطباعي أنه فهم أن هذا أمر جدّي . نعم ، يبدو أن تيلدا تحدثت إليه بنفسها . لأن الأوان لم يكن قد فات بعد ، كان شاباً ، وفي هذه المرحلة من الحياة من السهل أن يضل المرء ، أن تغريه المتع البسيطة . أن يتبع حبّه ، كما وصف ذلك ، وهي حجة احترمتها كثيراً ، والآن أصبحت المسألة مجرد تأكيد أنه اكتشف شغفاً بالتميز . كان أملي أنه بمواجهته بالأبحاث ، بالاتصال المباشر مع الطبيعة ، سوف يتلقى الإلهام . أنَّ شعور الفخر الذي سأوقظه فيه ، الفخر بكونه جزءاً من هذه العائلة ، ويحمل اسمنا ، ربما يعيده إلى المسار القويم والضيّق .

معاً ، كانت نساء العائلة قد نقلن المقاعد إلى حيث الخلايا في الأسفل . وسوف يجلس الجمهور هناك بينما أقدِّم عرضي . وقد اشتغلت الفتيات وتيلدا في التقطيع ، والشيّ والسلق لعدة أيام في المطبخ . وستكون هناك وجبات خفيفة ، بالتأكيد ستكون ، رغم أن آخر أموالنا ، نعم ، حتى نقود الدراسة ، قد أُنفقت . لأنها مجرد مسألة استثمار قصير الأجل ، بعد هذا اليوم سوف يُحَلُّ كل شيء ، كنت مقتنعاً بذلك .

كانت شارلوت إلى جانبي طيلة الوقت . منذ ذلك اليوم في الغابة ، عملنا كل شيء معاً ، أعداني صفاؤها ، وأصبح حماسها حماسي . كان هذا يومها هي أيضاً ، ولكن كان هناك اتفاق صامت أيضاً على إبقاء ردائها لتربية النحل في صندوق الملابس في غرفة نوم الفتيات . كانت تنتمي إلى المكان بين النساء الأخريات ، ويبدو أنها وجدت مكانها هناك ، بطبق تقديم في يدها وقد احمرت وجنتاها كورد الشاي . ولكنها كانت ترسل لي ، بين الفينة والأخرى ، ابتسامةً سعيدةً متحمسة ، والتي أخبرتني أنها تتطلع إلى هذا بالحماس نفسه الذي لدي على الأقل .

توقفت أول عربة أمامي ، وهيأتُ نفسي للترحيب . لكنني عندئذٍ رأيت مَن كان فيها . كونولي ، كان كونولي فقط .

مددتُ يدي ، لكنه لم يصافحها ، وربت على كتفي فحسب .

«كنت أتطلع إلى هذا طيلة الأسبوع» ، قال وابتسم . «لم أكن جزءاً من شيء كهذا من قبل» .

رددتُ بابتسامة ، متسامحاً مؤقتاً ، لم أكن أريد أن أقول أنني لم أكن جزءاً من شيء كهذا أنا الآخر ، لكنه لكزني بكوعه .

«أنت تتطلع إلى هذا أيضاً . أستطيع أن أرى ذلك» .

وهكذا وقفنا هناك ، نضحك بصبر نافد ، كطفلين صغيرين في يومنا الأول في المدرسة .

في البداية وصل المزارعون المحليون ، اثنان منهم ممن يربّون النحل فعلياً ، وواحد يفكر في البدء بذلك . ساروا إلى الخلايا بينما انتظرنا نحن .

بعد قليل ، جاء سيدان لم أكن أعرفهما على ظهور الخيل . وكان كلاهما يرتديان القبعات الطويلة وملابس ركوب الخيل ، مغطّيان بالغبار ، وكأنهما سافرا مسافة طويلة . ترجّلا عن حصانيهما ، وجاءا نحوي . وكان عندئذٍ فقط حين تعرفت على زملائي الطلبة السابقين ، كلاهما بشعر منحسر ، وبطون مستديرة ، ومسام خشنة على وجوه مليئة بالتجاعيد . لكَم أصبحا مُسنَّين . كلا ، ليس هما ، نحن ، لكَم أصبحنا مكتهلين!

سلّما عليّ ، شكراني على الدعوة ، نظرا حولهما وهزّا رأسيهما بتقدير . علّقا على أنواعٍ الفرص المتاحة في العيش على هذا النحو ، يداً بيد مع الطبيعة ، بدلاً من الوجود الذي اختاراه لنفسيهما ، في الغابة

الحضرية حيث الأشجار بنايات من الطوب، وحيث التربة الخصبة حصاة كبيرة، وحيث كل ما يراه المرء عندما ينظر فوقاً إلى السماء هو أسطح المنازل وفوهات المداخن.

تدفق الناس إلى المكان؛ مزيدٌ من المزارعين، بعضهم لمجرد الفضول، وحتى ثلاثة علماء حيوان من العاصمة، الذين جاؤوا في عربة الصباح وترجّلوا على الطريق بجوار الأملاك.

ولكن، ليس رام.

أسرعتُ إلى الداخل، وتحققت من الساعة على رف الموقد.

كنت آمل أن أبدأ في تمام الساعة الواحدة. عندئذٍ فقط، عندما يكون الجميع في مقاعدهم، سوف أذهبُ إلى هناك وأتخذ مكاني أمامهم. وإدموند، ولدي البِكر، سيكون هناك بين الجمهور، سوف يراني وأنا أقف أمام الجميع.

أصبحت الساعة الآن الواحدة والنصف. أصبح الناس نافدي الصبر قليلاً. أخرج بعضهم ساعات جيوبهم بتحفُّظ من ستراتهم واختلسوا نظرة سريعة عليها. كانوا قد زاروا الطعام والشراب الذي جلبته تيلدا والفتيات، ويفترض أن يكونوا قد امتلأوا حتى آخرهم. كان الجو حارّاً؛ خلع العديدون قبعاتهم، أخرجوا مناديلهم ومسحوا بها الرقاب المبلّلة. وكانت قبعتي سقفاً حارقاً أسود ضغط بقوة على رأسي، وجعل التفكير صعباً. ندمت على لباسي. نظر المزيد من الناس إلى خلايا النحل، ثمّ إليّ، بفضول. أصبح الحديث، وخاصة حديثي الخاص، جافّاً. لم أستطع البقاء مركزاً على الشخص الذي يستمع إليّ، بينما تنسحب نظرتي مراراً إلى البوابة. ليس رام بعد. لماذا لم يأتِ؟

عليّ أن أبدأ بالرغم من ذلك . يجب أن أبدأ .

«أحضري الأولاد» ، قلت لتيلدا .

أومأت برأسها . بصوت خافت شرعت البناتُ في التجمع حولها ، في حين ذهبت شارلوت إلى الداخل لتحضر إدموند .

بدأتُ السير بهدوء نحو الخلايا . وأدرك جمهوري أن شيئاً أخذ يحدثُ أخيراً . انقطعت الأحاديث المتناثرة وتعقّبني الجميع .

«أيها السادة ، اتخذوا أماكنكم لو سمحتم» ، قلت وأشرتُ بذراعي نحو المقاعد التي وضعناها هنا .

لم يكونوا في حاجة إلى الإقناع . كانت المقاعد في الظل ، ولا شك أنهم كانوا توّاقين فعلاً للذهاب إلى هناك .

عندما اتخذ جميع الحاضرين مقاعدهم ، رأيت أننا بالغنا . لم يكن عدد الناس يقترب حتى مجرد اقتراب من العدد الذي توقعناه . لكن الفتيات أتَين بعد ذلك ، وإدموند أيضاً . قاموا بعمل جيد في ملء المكان ، في الانتشار بعشوائية ، كما يمكن أن يفعل الأطفال فقط ، وسدّوا أكبر الثغرات .

«إذن . يبدو أن الجميع وجدوا مقعداً» . قلت . ولكنني كنت أريد أكثر من أي شيء آخر أن أصرخ بعكس ذلك . لأنه لم يكن هناك ، ومن دونه سيكون اليوم بلا معنى . ثم التقطت عينَ إدموند هناك أمامي . كلا ، ليس بلا معنى . فبعد كل شيء ، من أجل إدموند فعلت كل هذا .

«إذن ، يجب أن تعذروني للحظة بينما أرتدي بدلتي الواقية» . جربت ابتسامة . «لسنا نحن ، بعد كل شيءٍ ، وايلدمان» . ضحك الجميع ، حتى المزارعون ، بصوتٍ عالٍ وطويلاً . وعندئذٍ ، فكرت أنني

قدمتُ طُرفةً للقلة الذين بدأ الأمر بهم ، شيئاً يمكن أن يبعدنا عنهم . . . لكن ذلك لا يهم . ما يهم الآن هو الخلية ، وكنت أعرف أنهم لم يروا مثل هذا الشيء أبداً .

أسرعتُ إلى الداخل وبدَّلت ثيابي ، تلوَّيت خارجاً من ثياب الصوف الثقيلة وإلى البزَّة البيضاء . كان القماش الرقيق بارداً على جسدي ، وكان خلع قبعتي السوداء الطويلة مصدر راحة ، وارتديت بدلاً منها قبعة النحّال البيضاء خفيفة الوزن والواقي أمام وجهي .

نظرت خارج النافذة . كانوا يجلسون بصمت على مقاعدهم . الآن . يجب أن أفعلها الآن . به أو من دونه . ليذهب رام إلى الجحيم ، طبعاً سأتدبر أموري من دون همهماته بمعرفته الفائقة!

ذهبت إلى الخارج وسلكتُ الطريق إلى الخلايا . أصبح الطريق أوسع ، مع الأخاديد التي صنعتها عجلات عربة كولوني القديمة الواهنة ، وكانت هناك ثقوب في بعض الأماكن . وكنتُ قد قدتُها كل الطريق إلى الخلايا هناك في الأسفل ، حيث لم يجرؤ كولوني على الاقتراب منها ، وحيث تمكنتُ بسرعة وبلا حذر من قيادة العربة إلى أعلى التلة مرة أخرى .

ابتسمت لي الوجوه ، الجميع بتوقُّع ودّي . أشعرني ذلك بالثقة .

ثم وقفت أمامهم وتحدثت إليهم . أخيراً ، لأول مرة ، تمكنت من مشاركة اختراعي مع العالم ، أخيراً استطعت أن أخبرهم عن خلية سافيج القياسية .

بعد ذلك جاؤوا جميعاً ، صافحوني ، الواحد تلو الآخر ؛ رائع ، مدهش ، مثير للإعجاب ، أمطروني بكلمات الثناء ، لم أستطيع أن أميّز مَن قالها ، كان كل شيء ضبابياً غائماً . لكنني التقطت الشيء

الأكثر أهمية : إدموند كان هناك وشاهد كل شيء . كانت نظرته متيقظة وصافية ، مرة واحدة لم يعد جسده مضطرباً ولا خاملاً ، وإنما حاضراً ببساطة . كان انتباهه مصبوباً عليَّ ، كل الوقت .

لقد رأى كل شيء ، كل الأيدي ، حتى اليد الأخيرة التي امتدت في اتجاهي .

كنت قد خلعت قفازي والتقت الأصابع الباردة بأصابعي ، واجتاحت رعشةجسدي كله .

«تهاني ، وليام سافيج» .

ابتسَم ،ليس ومضة ابتسامة ، وإنما ابتسامة طالت ، استراحت على وجهه ، نعم ، هذا ينتمي إلى هنا حقاً .

«رام» .

أمسك يدي وأشار باتجاه الخلايا .

«كان هذا شيئاً مختلفاً تماماً» .

بالكاد تمكنت من الكلام .

«ولكن . . . متى جئت»؟

«في الوقت المناسب لسماع الجزء الأكثر أهمية» .

«أنا . . . لم أرك» .

«لكنني رأيتك ، يا وليام ، وإلى جانب ذلك . . .» .

ربّت على أكمام بزتي بيده اليسرى ؛ واستطعت أن أحس بالشعر على ذراعي تحتها ينتصب حتى نهايته بقشعريرة رائعة .

« . . .أنت تعلم أنني لا أجرؤ على الاقتراب من النحل دون أن أرتدي ملابس مناسبة .هذا هو السبب في بقائي هناك ، في الخلف» .

«وأنا . . . أنا لم أعتقد . . .» .

«لا . ولكن ها أنا ذا» .

أخذ يدي بين يديه الاثنتين . تدفق الدفء منهما في جسدي ، وضخّه دمي ، إلى كل مُكوِّن مفرد فيّ . من زاوية عينيَّ لمحتُ إدموند . كان لا يزال هناك ، لا يزال يضع أنظاره علينا ، عليَّ ، وكان لا يزال يقظاً ومنتبهاً بالمقدار ذاته . لقد رأى .

تاو

بقيت في المكتبة كلَّ اليوم . قرأت الكتب ، ومقالات الأبحاث القديمة ، شاهدت الأفلام على جهاز عرض ضوئي قديم يقعقع في الطابق الأرضي . كان يجب أن أكون متأكدةً تماماً .

الكثير من الكتب كانت مناهج مدارس ابتدائية . شعرت بأني أنتقل في الزمن إلى تلك الحصص الخاملة في تاريخ العلوم الطبيعية ، حيث حاضرَت المعلمة عن تاريخنا بصوت الشؤم والهلاك ، بتلك التغييرات في النغمة التي جعلتنا نعيد تسمية الحصص إلى «تاريخ النوم» . كنا أصغر كثيراً من أن نفهم مدى ما كانت تحاول إيصاله . وعندما كانت المعلمة تسمِّر نظراتها متجعدة الإطار فينا ، كنا نلتفت إلى ضوء الشمس القادم من النوافذ ونستحضر الأشكال في غيوم الطقس الجيد ، أو نتفقد الساعة على الجدار لنرى كم بقي من الوقت حتى الاستراحة القادمة .

الآن اكتشفت من جديد جميع الحقائق التي حاولت المعلمة أن تزرعها فينا بيأس في ذلك الوقت . بعض التواريخ ما تزال في ذاكرتي .

2007 . كان ذلك هو العام الذي أعطي فيه «الانهيار» اسماً . «اضطراب انهيار المستعمرة» . لكنه حدث قبل ذلك بوقت طويل . وجدت شريط فيديو عن تطور تربية النحل طيلة القرن الماضي . بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت تربية النحل اقتصاداً عالمياً مزدهراً . في الولايات المتحدة وحدها كان هناك 5.9 مليون مستعمرة نحل . لكن

الأرقام هبطت، هناك وفي بقية أنحاء العالم على حد سواء. في العام 1988 انخفضت أعداد الخلايا إلى النصف. وقد أصابت عدوى موت النحل العديد من الأماكن في سيشوان في وقت مبكر من الثمانينيات. لكنه عندما ضرب في الولايات المتحدة - بالمستوى الدرامي نفسه الذي فعله في العامين 2006 و 2007، عانى المزارعون الذين لديهم الآلاف من خلايا النحل من حالات الاختفاء الجماعية خلال بضعة أسابيع، وعندئذٍ فقط حصل «الانهيار» على اسمه. ربما لأنه حدث في الولايات المتحدة، لم يكن أي شيء يصبح مهماً في ذلك الوقت حتى يحدث في الولايات المتحدة: لم يكن الموت الجماعي في الصين جديراً بتشخيص على مستوى عالمي. هكذا كان الأمر آنذاك. وفي وقت لاحق انقلب كل شيء.

وجدت عددًا كبيرًا من الكتب عن اضطراب انهيار المستعمرة. تصفحتها، لكنني لم أجد إجابة مباشرة. لم يتفق أحد على سبب الانهيار، لأنه لم يكن هناك سبب محدد. كان هناك الكثير من الأسباب. وكانت المبيدات الحشرية السّامّة أول شيءٍ تم التفكير فيه. في أوروبا تم حظر أنواع معينة من المبيدات الحشرية بشكل مؤقت في العام 2013، وبمرور الوقت، في بقية أنحاء العالم أيضاً. امتنعت الولايات المتحدة وحدها فقط عن ذلك. اعتقد بعض العلماء أن للسموم تأثير على نظام الملاحة الداخلي للنحل، والذي حال دون إيجادها طريق عودتها إلى الخلية. أثرت السموم على الأجهزة العصبية للحشرات الصغيرة، وكان العديد من الناس عنيدين في اعتقادهم بأن العديد من أسباب موت النحل نبعت من هذه السموم. ونبع الحظر من مبدأ «درهم وقاية

خير من قنطار علاج» ، كما قيل . لكن نتائج الأبحاث لم تكن قاطعةً بما يكفي . كانت عواقب حظر السموم عظيمة جداً . فقد دمرت محاصيل كاملة بسبب الحشرات والعثّ ، مع نقص الغذاء الذي تبع ذلك . كان من المستحيل ممارسة الزراعة الحديثة من دون المبيدات الحشرية . وكان الأثر الإجمالي للحظر ضئيلاً جداً ؛ فقد اختفى النحل على كل حال . وفي العام 2014 تبيّن أن أوروبا خسرت 7 مليارات نحلة . لأن السم كان في التربة ، كما ادعى البعض ، مات النحل لأن السم ظل يؤثر فيه . ولكن كان هناك القليل من الذين استمعوا . وبعد فترة تجريبية رُفع الحظر .

لم تكن المبيدات الحشرية هي الملومة وحدها . سوسة الفاروا المدمرة - طفيليات صغيرة تهاجم النحل- كانت سبباً هي الأخرى . كانت العثة الطفيلية تلتصق بجسم النحلة مثل كرة كبيرة ، وتمتص اللمف الدموي منها وتنشر فيروساً لم يكن يكتشف في أغلب الأحيان حتى وقت لاحق بعيد .

ثم كان هناك الطقس القاسي . فقد اكتسب العالم تدريجياً مناخاً جديداً . بدأ من العام 2000 فصاعداً ، وتطور أسرع وأسرع . فصول صيف جافة حارة بلا زهور ورحيق ، والتي قتلت النحل . والشتاءات القاسية قتلت النحل . والمطر . يظل النحل في داخل الخلية عندما تمطر ، مثل البشر . وقد عنَت فصول الصيف الرطبة موتاً بطيئاً .

وكانت زراعة المحصول الواحد عاملاً ثالثاً . بالنسبة للنحل ، كان العالم بمثابة صحراء خضراء ؛ ميلاً بعد ميل من الحقول حيث زُرِعَت النبتة نفسها ، إلى جانب الافتقار إلى المناطق غير المزروعة . لقد أقلع تطور البشر ، والنحل لم يستطع أن يواكب . واختفى .

ومن دون النحل أصبحت آلاف الفدادين من الحقول المزروعة بوراً فجأةً. الحقول المزدهرة، أصبحت بلا توت، بلا أشجار، بلا فاكهة. على حين غرة أصبحت منتجات الزراعة التي كانت سابقاً غذاء يومياً، شحيحة: التفاح، اللوز، البرتقال، البصل، البروكلي، الجزر، التوت، البندق، وحبوب البنّ.

انخفض إنتاج اللحوم على مدار ثلاثينيات القرن الحادي والعشرين، وفي ظل ذلك لم يعد من الممكن إنتاج بعض الأنواع السابقة الأكثر أهمية من العلف لبعض الحيوانات الأليفة. وبالمثل، أصبح على البشر أن يعيشوا من دون الحليب والجبن، مرة أخرى لأن الحيوانات لم تعد تنتج ما يكفي. وإنتاج الزيت الحيوي، مثل زيت عباد الشمس، الذي استُثمِر فيه بكثافة كبديل للنفط، أصبح فجأةً غير وارد، لأنه كان يعتمد على التلقيح. ومجدداً كانت هناك عودة إلى الطاقة المتجددة، والتي بالمقابل سرَّعت ظاهرة الاحترار العالَمي.

في الوقت نفسه، ركد النمو السكاني. توقف في البداية، ثم بدأ المنحنى بالهبوط. لأول مرة في تاريخ البشرية، لم تعد أعداد السكان البشرية في ازدياد. كان جنسنا البشري في انخفاض.

أثَّر اختفاء النحل في القارات بشكل مختلف. كانت الزراعة الأمريكية أول ما ضربته الأزمة. لم يستطع الأمريكيون أن يتدبروا، مثل الصينيين، أمر التلقيح باليد. لم يكونوا يملكون القوى العاملة. لم يكن الناس ليعملوا بثمن بخس بما يكفي، طويلاً بما يكفي، وبما يكفي من الجدّ. ولم يتمكن إمداد من العمالة الوافدة أن يحل المشكلة أيضاً. كان يجب إطعام العاملين أيضاً، ومع أنهم كانوا دؤوبين ومثابرين أكثر من

الأميركيين ، فإن الطعام الذي أنتجوه لم يكن أكثر بكثير مما استهلكوه هم أنفسهم .

قاد «الانهيار» في الولايات المتحدة إلى أزمة غذاء عالمية . وفي الوقت نفسه ، مات النحل في أوروبا وآسيا أيضاً .

كانت أستراليا آخر دولة تتأثر . وشرح فيلم وثائقي من العام 2028 كيف حدث ذلك . كانت أستراليا أمل الجميع ، لم تكن سوسة الفاروا المدمرة قد وُجدت هنا ، وبدا أن النحل هنا لم يستجب للملوثات بالقدر نفسه كما في الأماكن الأخرى . جاء النحل المعافى من أستراليا ، ومع مرور الوقت ، نمت تربية النحل وتحولت إلى اقتصاد كبير . ونمت أستراليا أيضاً إلى أمة أبحاث رائدة في النحل ، والتلقيح وتربية النحل .

لم يعرف أحد كيف حدث ذلك ، ولكن ، في يوم ربيعي من العام 2027 لاحظ نحال في وادي آفون عيوباً في إحدى خلاياه . كان مارك أركاديف يدير مزرعة عسل عضوي . وقام بكل شيء على أكمل وجه . التلقيح على نطاق صغير . كانت أعداد قليلة جداً من الخلايا تُنقل في آن واحد ، برفق وعناية ، وفقط إلى المزارع التي تستطيع ضمان أنها لم تستخدم المبيدات الحشرية . كان يعتني جيداً بنحلاته ، يغيِّر الألواح السفلية عندما تتسخ ، ويكفل أن يكون لديها ما يكفي لتأكله . وقال أركاديف نفسه إن النحلات هي التي كانت تملكه ، وليس العكس . كان خادمها المتواضع ، وتحكمَت هي بحياته ، بإيقاعه السنوي ، بمتى يستيقظ ومتى ينام . وقد تقدَّم بطلب الزواج من زوجته ، آيرس ، بينما كانا يحاولان بحذر قيادة مستعمرةِ نحل متكاثرة مكتظة إلى خلية جديدة .

كانت مزرعة أركاديف تلك ، «مزرعة عسل النحل السعيد» ، أول مكان في قارة أستراليا يتأثر بالعث ، وكان ذلك مصيراً لم تستحقه. يحتمل أن ذلك كان خطأ الأخت . كانت تعيش في كاليفورنيا ، وأمضت مؤخراً أسبوعين في المزرعة . يجب أن تكون قد نقلت العدوى معها في أمتعتها . أو أنها ربما كانت ملابس العمل التي طلبوها من كوريا الجنوبية . لم يلاحظ أحد أي شيء عندما فتحوا حزمة بريئة المظهر ، ملفوفة بالورق الرمادي ، وأخرجوا بزات عمل معقولة للاستخدام في المزرعة . أو يمكن أن شيئاً كان هناك في الأسمدة الذي استلمتها المزرعة المجاورة توّاً ، أكياساً كبيرة منها ، والتي أنتُجت في النرويج؟

لم يعرف مارك ، ولم تعرف زوجته . كل ما عرفاه هو أن نحلهم أصبح مريضاً في ذلك الربيع ، ولم يكتشفوا ذلك حتى وقت متأخر جداً .

أخذ فريق الأخبار في جولة في المزرعة بينما يروي قصته . لم يستطع أن يخفي دموعه وهو يفتح الخلايا الفارغة ، مع القليل من النحلات المحتضرة في الأسفل .

الآن ، لم تعد ثمة دولٌ آمنة . كان العالم يواجه التحدي الأكبر في تاريخ الجنس البشري . بُذِل جهد شامل أخير . كوفِحَت سوسة عث الفاروا المدمرة إلى حد ما . وفي بعض المناطق بذلت محاولات لتنويع زراعة المحصول الواحد . زرعت حدود من الأزهار بين الحقول . وحظرت المبيدات الحشرية مرة أخرى . ولكن ، بسبب هذا الحظر ، أكلت الحشرات محاصيلاً كاملة .

جرّب العلماء الإنجليز خلق نباتات معدلة وراثياً ، نباتات تحمل فرومونات الحشرات نفسها ، «ي-بيتا-فارنيسين» ، المواد التي تفرزها

الحشرات لتشير إلى الأخريات بوجود خطر قريب . والآن ، أصبحت هذه النباتات المعدلة وراثياً تُستخدم إلى مدى بعيد . كانت الصين أول من طبّق هذا المعيار الجديد ، في خطوة يائسة بسبب نقص الغذاء . لن تؤثر الفرومونات على النحل ، كما قيل ، لن يلاحظها . وقد احتج أنصار الطبيعة بصخب ، واعتقدوا أن النحل سيستجيب للفرومونات بالطريقة نفسها التي استجاب بها للمبيدات الحشرية . لكنهم أحداً لم يسمع . كان ذلك وضعاً مفيداً للجانبين ، كما زُعم . يستطيع الناس مواصلة زراعتهم الصناعية - لم يعرف أحد أي شيء آخر- بينما يتم تجنيب النحل السم العصبي الموجود في المبيدات الحشرية .

وهكذا ، مُلئت الحقول بالنباتات المعدَّلة وراثياً وكانت النتائج جيدة ، جيدة جداً إلى درجة أن المغامرة اتُخِذت في جميع أنحاء العالم . وانتشرت النباتات المعدلة وراثياً مثل النار في الهشيم . هيمنت . لكن موت النحل تواصَل ، وتصاعد . في العام 2029 خسرت الصين 100 مليار نحلة .

أما إذا كان النحل قد استجاب في الواقع للفرمون ، فأمر لم يُعرف أبداً . كان الوقت قد تأخر جداً . كانت النباتات تنمو بجنون . على حافة كل حفرة كانت هناك النباتات التي تصيب الحشرات بالفزع .

توقف العالم .

عثرت في المكتبة على مقابلات مع مربِّي نحل من جميع أجزاء العالم . لم يكن يمكن تفويت استسلامهم . أصبحوا ناطقين رسميين وممثلين للأزمة . بعضهم كانوا غاضبين ، وتعهدوا بمواصلة القتال ، ولكن كلما أُجريت المقابلات في وقت متأخر أكثر ، كلما أصبح استسلامهم

أكثر وضوحاً . لو أنني شاهدتُ هذه الأفلام من قبل ، لما تركت فيَّ أيَّ انطباع يُذكر . كانت شهادات من زمنٍ آخر . رجال متهالكون بملابس عمل متهالكة ، ملامح وجوهٍ خشنة ، بشرات سفعتها الشمس ، لغة مبتذلة ، ليس لهم أي صلة بي . أما الآن ، فقد برز كل شخص ، كل كارثة شخصية . كل واحدة منها صنعت انطباعاً دائماً لا يُمحى .

جورج

ذات يوم ، ظهر فحسب . ربما تكون إيما قد هاتفته . سمعت صوته عندما فتحتُ الباب الأمامي . كنتُ في الحظيرة ؛ ولم أكن أسمع أي شيء وقد وضعت غطاء الأذنين ، ليس إذا كانت سيارات تأتي أو تذهب ، ليس الأصوات في الفناء ، ولم أسمع إيما وهي تتصل .

صوتُ رجل ناضج . في البداية لم أفهم من يكون . ثم أدركتُ أنه هو . هكذا أصبح صوتُه الآن .

هرولتُ عبر الفناء . كان هناك! ربما تكون إيما قد أخبرته بأين وصلت الأمور . كانا يتحدثان مع بعضهما كل الوقت كما أظن ، والآن ، ها هو يجيء ليمدَّ يد المساعدة! بوجوده هنا ، كل شيء سيكون أسهل . بوجوده أستطيع أن أتدبر كل شيء . أن أقوم بعمل النجارة 20 ساعة في اليوم . أن أعمل بجدّ أكثر من أي وقت مضى .

لكنني سمعتُ بعد ذلك ما يتحدث عنه . كان يتحدث عن عمله في الصيف . بحماس . توقفتُ ، وقفتُ هناك ، ولم أستطع أن أحمل نفسي على الدخول .

«كان ذلك عن الطماطم ، ولكن مع ذلك» ، قال . «كل شيء مثير بطريقته الخاصة عندما تعرفين المزيد عنه . لم يسبق أن شاهدت مثل هذه الطماطم الكبيرة من قبل . ولا المصوِّر أيضاً . والمزارع الذي فاز بالمسابقة كان فخوراً . نُشِرت المقالة على الصفحة الأولى ، تخيلي هذا! أول مقالة أكتبها ذهبت مباشرة إلى الصفحة الأولى»!

أرحتُ يدي على مقبض الباب .

ضحكت إيما وامتدحته بحرارة ، كما لو أنه طفل في الخامسة تعلّم لتوِّه كيف يقود دراجة .

دفعتُ المقبض إلى أسفل بسرعة وفتحتُ الباب . سكتا على الفور .

«هاي» ، قلت . «لم نعرف أنك قادم» .

«ها أنتَ ذا» ، قالت إيما لي .

«أردتُ أن أفاجئ ماما» ، قال توم .

«قطع الرحلةَ الطويلة كلها حتى مع أنه سيعود يوم الأحد» ، قالت إيما .

«هل من فكرة»؟

«إنه عيد ميلاد ماما» ، قال توم .

كنتُ قد نسيتُ أمرَه . حسبتُ بسرعة ، واستخلصت - بما أراحني - أنه لن يأتي قبل الغد .

«وأردتُ أن أرى كيف تسير الأمور» ، قال بهدوء .

«ما الفكرة من ذلك»؟

«جورج» ، قالت إيما بحدّة .

«كل شيء على ما يُرام هنا» ، قلتُ لتوم . «ولكن ، لطيف أنك جئت إلى البيت من أجل عيد ميلادها» .

احتفلنا بوجبة سمك في اليوم التالي ، لم أكن قد أكلتُ السمك منذ آخر مرة كان فيها في المنزل . قصَّ توم قصصاً كتبها للصحيفة المحلية حيث يعمل . لم يَقُل ذلك مباشرة ، لكنني فهمتُ أنه تلقَّى الكثير من المديح . اعتقَد المحرر أن لديه «موهبة لها» ، مهما كانت «لها» هذه في

الحقيقة . ضحكت إيما كلَّ الوقت . وكنتُ قد نسيتُ تقريباً كيف يبدو الضحك .

كنتُ قد اندفعت إلى البلدة واشتريتُ زوجاً ثميناً من الجوارب الطويلة ومستحضراً لليدين كهدية .

«أوه ، لستُ بحاجة إلى أي شيء هذا العام» ، قالَت عندما فتحَت الهدية .

«بالطبع تحتاجين هدية» ، قلت . «كما أنها أشياء مفيدة ، أشياء يمكنك استخدامها» .

هزّت رأسها ، وغمغمت بالشكر ، لكنني استطعت أن أرى عينيها تمسحان شاخصة السعر الذي كان نصف مكشوط ، ربما متسائلة عن مقدار ما أنفقتُ من النقود التي لم تكن لدينا .

أعطاها توم كتاباً سميكاً على غلافه صورة مزرعة غارقة في الضباب . إنها تحب الكتب التي تستغرق قراءتها وقتاً طويلاً .

«دفعتُ ثمنَه من أول راتب لي» ، قال وابتسَم .

وهي ، تحدثَت بحماس عن الهدية ، وكلُّها ابتسامات . ثم فجأة ران الصمت . تناول توم قضمةً من السمك . مضغ ببطء ، ولاحظتُ نظراته تتركز عليّ .

«حدِّثني عنهُ يا أبي» ، قال فجأة .

هل يعني عن النحل؟ ربما أراد فقط أن يبدو مهذباً .

«حسناً ، دعنا نرى . كان ياما كان . . .» ، قلتُ .

«جورج»! قالت إيما .

واصل توم النظر إليّ ، بتلكَ التحديقة المفتوحة نفسها .

«كنتُ أنا وماما نتحدث قليلاً ، لكنها قالت أنك أنت الذي يجب أن تخبرني ما حدث بشكل صحيح ، أنكَ الخبير» .

سأل أسئلة مثل الكبار . كما لو أنه راشد . تلوّيت ، كان ظهري متصلباً ، وقد ضغط الكرسي بصلافة على أسفل ظهري .

«حسناً ، من المؤكد أن أحداً ما يُبدي اهتماماً قويّاً على حين غرة» ، قلتُ .

وضع الشوكة من يده ، ومسح بعناية حول فمه بالمنديل .

«لقد قرأتُ الكثير عن اضطراب انهيار المستعمرة مؤخراً . لكنه كله مجرد تكهنات . ظننت أنك ، بوجودك هناك كل يوم ، ربما تكون لديك أفكار أخرى عن السبب في . . .» .

«دعني أرى ، إذن ، إنه الصحفي الذي جاء ليعرف . هل ستكتب مقالة عن كل هذا إذن»؟

رمش ، ورسم ابتسامة ساخرة . ضرب ذلكَ فيه عصباً .

«كلا ، بابا . كلا . ليس هذا هو السبب» .

ثم سكَت .

فجأة لم أستطع تحمُّل رائحة السمك أكثر ، ضايقَت أنفي ، واستقرت في شعري وملابسي . وقفتُ فجأة .

«هل لدينا أي شيء آخر»؟

«هناك المزيد من السمك» ، قالت إيما ووضعت الكتاب الذي كانت تحمله حتى الآن .

مشيتُ في اتجاه الثلاجة ، ولم أنظر إلى أيٍّ منهما .

«قصدتُ شيئاً غير السمك» .

«هناك حلوى» . كان صوتها مبتهجاً وخفيفاً .

«الحلوى لن تشبعني» .

استدرتُ وحدقتُ فيها . ثم ألقيت نظرة على توم . كانا كلاهما ينظران إليّ ، جالسين هناك جنباً إلى جنب إلى الطاولة وينظران إليّ فقط ، بلطف نوعاً ما ، ولو أنهما ربما ظنّا أنني أحمق .

تحوَّل توم نحو إيما .

«ما كانت يجبُ أن تُعدِي السمك من أجلي . إنه عيد ميلادك بعد كل شيء . كان يجب أن تصنعي شيئاً تحبينه أنت» .

«لا بأس بالسمك بالنسبة لي» ، قالت . بدا كما لو أنها تقرأ شيئاً قراءة جهرية من كتاب .

«غداً يجب أن تعودا وتصنعا ما تصنعانه عادة للعشاء» ، واصل توم . بنفس الأدب اللعين . أما مِن نهايةٍ لهذا؟

«ألستَ مغادراً غداً على كل حال»؟ قلت .

«يفترضُ ذلك» ، قال توم بصوت خفيض .

«لكن لديه بعض الوقت لتناول عشاء مبكر» ، قالت إيما . «أليس كذلك يا توم»؟

«أكيد» ، قال .

«مبكر إلى أي حد»؟ قلت . «أحب أن أنجز قدراً محترماً من العمل قبل أن آكل» . كان صوتي غليظاً وخشناً في مقابل ثرثرتهما المشرقة الدافئة .

«حول الثانية ، أليسَ هذا ما تحدَّثنا عنه»؟ قالت إيما لتوم .

«ربما أستطيع أن أبقى أكثر قليلاً» ، قال توم .

تجاهلتُه . «حول الثانية؟ أنا أسمّي هذا غداءً ، وليس عشاءً» ، قلت لإيما .

«لا تتعبا نفسيكُما من أجلي» ، قال توم .

«عشاء بسيط ليس مشكلة» ، زقزقت إيما .

«هناك في الحقيقة الكثير لعمله هنا هذه الأيام ، كما يمكن أن تفهم» ، قلت . على الأقل ، يمكن أن يكون واحدٌ منا صادقاً .

«سأكون سعيداً بالمساعدة بينما أنا هنا» ، قال توم بسرعة .

«نصف يوم من عضلات الجامعة لن تصنعَ الخدعة بالضبط» .

لم تتكلف إيما حتى عناء إجابتي ، وواصلت الحديث إلى توم فقط بصوت حلو سُكّريّ . «سيكون عظيماً إذا استطعت أن تساعد بابا قليلاً» .

«عظيم» ، قلت .

لم يُجب أحد على هذا . لحسن الحظ . كنتُ سأتقيأ لو أنني سمعت المزيد من ذلك الصوت الحلو السكري .

التقط توم سكينه وشوكته مرة أخرى ، وعكف على طعامه . عبث ببعض عظام السمك وجلد السمك اللامع بشوكته .

«كنتُ أود البقاء وقتاً أطول قليلاً» .

كنتُ أود . . . كما لو أن شيئاً حدث فعلاً . شيئاً لم يستطع أن يفعل أيّ شيءٍ إزاءه .

«ربما تستطيع أن تتصل بالهاتف وتسأل إذا كنت تستطيع أن تبقى بضعةَ أيام إضافية»؟ قالت إيما .

«كنتُ واحداً من بين 38 متقدماً للوظيفة» ، قال توم بهدوء .

خطوتُ نحو الباب . لم أستطع الوقوف وسماع المزيد من أعذاره .

كنتُ قد قطعت كل الطريق إلى الفناء عندما لحق بي .

«أبي . . . انتظر» .

لم أستدر ، وإنما واصلتُ السير فقط نحو الحظيرة . «عليّ أن أعمل» .

«هل أستطيع أن آتي معك»؟

«هناك الكثير الذي يتطلب العناية . لا فائدة في مثل هذا الوقت القصير» .

«لكنني أريد ذلك . أريده» .

واو . كان هذا الإلحاح جديداً . شقّت الكلمات طريقها متسللة إلى داخلي وصنعت كتلة مزعجة في حلقي . هل كان يقصد ذلك؟ اضطررت إلى أن أستدير وأنظرَ إليه .

«سوف تكون فوضى فحسب» ، قلت .

«بابا . ليس هذا لأنني صحفي . إنه لأنني . . . أهتم . حقاً» .

نظر إليّ . عينان كبيرتان واسعتان . «إنها مزرعتي ، أيضاً» .

ثم صمت . وقف هناك فقط . وبدا أنه لن يقول المزيد . حدق بي فقط . لم أستطع تحمّل تلك النظرة ، والعينين الجميلتين ، طفلي . الطفل والراشد في الوقت نفسه .

كان يعني ذلك .

«حسناً» . أومأتُ برأسي ، وقلت بصوت أجش . «هذا حسَن» . تنحنحتُ في محاولة لتنقية صوتي ، لكنه لم يكن هناك شيء آخر ليقال على ما يبدو .

وليام

وصلت الرسالة في عربة المساء . كنت ما أزال طائراً بعد الأمس ، عندما سار كل شيء كما تمنيت ، نعم ، بل وربما أفضل ، عندما بدأت حياتي الجديدة . ما أزال أستطيع أن أشعر باللحظة في داخلي ، اللحظة بين إدموند ، ورام وأنا ، تلك اللحظة من الوقت عندما اكتسى كل شيء بالكمال الذي ينبغي أن يكونه ، حيث تسامت «الفكرة» عن اللحظة و «اللحظة» نفسها لتصبحا كياناً أعلى .

شرعت في الارتجاف عندما رأيت ختم البريد . كارلوايس . إنها منه - اعتذار- لا يمكن أن تكون أي شيء آخر .كانت أسابيعٌ قد مرت منذ أرسلتُ رسالتي ، وكان يمكن أن يأتي جوابه في أي يوم آخر ، ولكن تصوروا ، وصل الآن فقط ، اليوم بالذات . كنتُ أرتجف . كان ذلك كثيراً عليّ . هل أنا إيكاروس؟ هل سيحترق جناحاي؟ كلا ، لم تكن هذه غطرسة ، كان هذا نتيجة للعمل الشاق . لقد كسبتُه بعرَقي .

أخذتُ الرسالة إلى غرفتي ، حيث جلستُ في مقعدي ، بنفس قدر الإجلال الذي يستحضره لقاء مع القديس بطرس نفسه ، أزلتُ الختم .

كارلوايس ، 29 أغسطس 1852 .

الموقر وليام سافيج ،

تلقيت رسالتكم بحماس كبير . كان مشروعاً مثيراً للاهتمام بشكل لا يصدق هو الذي عكفتَ عليه . وأتصور أن مربي النحل في منطقتك سيستفيدون بشكل كبير من خلاياك .

مهما يكن الأمر : أفترض أن الكثير تغير منذ كتبتَ لي رسالتك ، وأنك علمتَ الآن عن إنجازات القس لورنزو لانغستروث . بل إنك ربما تلقيت رفضاً لطلبك الخاص ببراءة الاختراع . اعذرني إذا كنتُ أعطيكَ الآن معلومات تعرفُها من قبل .

يبدو لي كما لو أنك فكرت بنفس أفكار نحال على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي . ويجب أن أقول باندهاش أنني قرأت وصف خليتك ، لأنها شبيهة إلى حد بعيد بخلية القس . وكان لي شخصياً شرف التراسل مع القس لانغستروث خلال السنة الماضية ، وأعرف بالتأكيد أنه تلقى الآن براءة الاختراع عن الإطارات ، التي تشبه بالضبط تلك التي وصفتَها في رسالتك . وقد أجرى الحسابات للوصول إلى القياس الذهبي للمسافة بين جدار الخلية والإطارات والقياس المتبادل بين كل إطارين مفردين ، ولو أن الرقم الذي وصل إليه هو 9.5 مليمتر .

آمل أن تواصل أبحاثك المثمرة جداً ، لأنني مقتنع تماماً أنه عندما يتعلق الأمر بالمعرفة عن حياة النحل ، فإننا لمسنا السطح بالكاد . وسوف أستمتع بسماع المزيد منك ، وآمل أن نستطيع بدء مراسلات متبادلة كزميلين في الحقل نفسه .

المخلص

يوهان دزيرزون

أمسكتُ بالرسالة بكلتا يدي، لكنها ظلت ترتجف، والحروف تهتز، كانت بالكاد تُقرأ. ترددت أصداء ضحكٍ في أذني.

مراسلات متبادلة. زملاء في الحقل نفسه. كررتُ الكلمات لنفسي، لكنها كانت بلا معنى.

كان الوقت قد تأخر جداً. لم أكن زميل أحد.

كنتُ الشخص الذي يجب أن يوضع في صندوق بغطاء، حيث تمكن مراقبتي والسيطرة عليّ من أعلى. لقد أصبحت داجناً الآن، على يدِ الحياة نفسها.

أسقطتُ الرسالة ووقفت. كان يجب أن أوقع شيئاً، أن أدمِر شيئاً، أن أمزق شيئاً إرباً. أن أفعل كل ما يتطلبه الأمر لأوقف البركان الثائر في داخلي. فجأة طارت يدي من جسمي وسحبَت الكتب والمحبرة والرسومات من على المكتب. سقط كل شيء على الأرض، وتناثر الحبر، وصنعَ بؤبؤاً لا قرار له على ألواح الأرض الخشبية، والذي تستحيل إزالته، وسيبقى هناك مثل تذكارٍ في شكلِ عَينٍ محدِّقة بهزيمتي. كما لو كان ذلك ضرورياً! كان كُلّي، كل جسدي الخاملً الغامض، بمثابة تذكير.

لاقت أرفف الكتب المصيرنفسه الذي واجهته المحبرة، وتبعها كرسي المكتب. وكانت الرسومات على الحائط هي التالية، مزقتها إرباً. وحوش بحر سوامردام تمزقت، ولن أضع أنظاري عليها مرة أخرى لكي أرى الله في أصغر مكونات مخلوقاته.

ثم ورق الجدران، ورق الجدران الأصفر البغيض الذابل. نزعته عن الحائط، شريحة بعد شريحة، حتى تعلق أشلاء، تاركاً جروحاً كبيرة على حائط الطوب غير المقصور خلفه.

وأخيراً ، وقفت وهيَ في يدي ، رسومات الخلية . عديمة القيمة . يجب تدميرها إلى الأبد . .

مدَّدت عضلات يديّ . أردتُ أن أجعِّدها ، وأن أمزقها إرباً ، لكنني لم أكُن على قدر القيام بذلك .

لم أكن على قدر ذلك .

لأنني لم أكن الشخص الذي ينبغي أن يفعلها . لم تكن لي لأدمرها ، وإنما بالأحرى له هو . كل شيء كان خطأه ، وبالتالي مسؤوليته أيضاً .

قفزت خارجاً إلى الممر .

«إدموند»!

لم أطرق الباب ، وإنما دخلتُ هائجاً متقحِّماً فقط ؛ لم يكن قد تكلَّف عناء إقفال الباب .

قفز خارجاً من السرير . شعره منتصب بخشونة ، وعيناه حمراوان كالدم . انبعثت منه رائحة الخمور . أدرت وجهي عن الرائحة بلا تفكير تقريباً ، كما كنتُ قد فعلتُ سابقاً بلا شك ، موهماً نفسي بأن ذلك لم يكن موجوداً ولا يحدُث .

كلا ، ليس اليوم وليس مرة أخرى أبداً . يجب أن يتلقى جَلداً عنيفاً . جَلداً على ظهره بإبزيم الحزام ، حتى يمتلئ جِلده بالجروح والنزيف .

ولكن ، أولاً هذا ، «انظر هنا»! رميتُ الرسومات على سريره . «ها هي ذي»!

«ماذا»؟

«أنت الشخص الذي جعلني أبدأ . ها هي ذي! ماذا يُفترض بي أن أفعل بها»؟

«أبي . . . كنتُ نائماً» .

«إنها عديمةُ القيمة . هل تفهم»!

أصبحت تحديقته واضحة ، استجمع نفسَه . التقط واحدة منها .

«ما هذا»؟

«إنها لا تستحق الحبر الذي رُسمت به! بلا قيمة»!

نظرَ إلى بقع الحبر التي لا معنى لها .

«أوه . الخلية . إنها الخلية» ، قال بهدوء .

تنفستُ بثقل ، وحاولتُ أن أتمالكَ نفسي . «إنها لكَ الآن . الرسومات . كنتَ أنتَ الشخص الذي أرادني أن أبدأ بهذا . تستطيع أن تفعل بها ما تشاء» .

«أردتكَ أن تبدأ . . . ماذا تعني»؟

«أنتَ بدأتَ الأمر كلّه . الآن يمكنك أن تدمره . أحرقها . مزِّقها إرباً ، افعل ما يحلو لك» .

وقف ببطء وأخذ رشفة ماء من كوب ، بيد ثابتة حد الإدهاش .

«لا أفهم ما تعني ، يا أبي» .

«إنه عملك أنت . لقد صنعتُها لك» .

«ولكن لماذا»؟ حدق فيَّ . لم أستطع تذكر آخر مرة قابلتُ فيها نظرته . الآن كانت عيناه ضيقتين . بدا بعمر أكبر من 16 عاماً .

«الكتاب» ، صرخت .

«أيُّ كتاب؟ ما الذي تتحدث عنه»؟

«كتاب هوبر . فرنسوا هوبر! مربي النحل الأعمى» .

«أبي . لا أفهم» . حدق فيّ كما لو أنني مجنون ، كما لو أنني أنتمي إلى ملجأ للمرضى العقليين .

انهار جسدي . إنه حتى لم يتذكّر . تلك اللحظة التي عنَت لي الكثير إلى ما لا نهاية . «الكتاب الذي تركتَه معي . . . بعدَ ذلك الأحد . . . عندما كان الآخرون في الكنيسة» .

على حين غرة بدا كما لو أن شيئاً هبطَ عليه .

«ذلك اليوم ، نعم . الربيع الماضي» .

أومأت برأسي . «إنه شيء لن أنساه أبداً . أنكَ أنتَ ، بإرادتك الحرة ، جئت لتراني في ذلك اليوم» .

ابتعدَت نظراته ، وتحرّكَت يدُه ، كما لو أنه يريد أن يمسك شيئاً ، لكنه لم يجد سوى ذرات الغبار في الهواء .

«كانت أمي هي التي طلبَت مني أن آتي لرؤيتك» ، قال أخيراً . «ظنّت أن ذلكَ سيساعد» .

تيلدا . لا يزالُ إدموند لها هي ، الآن وإلى الأبد .

جورج

واصلنا بناء الخلايا بقية اليوم . حتى حلَّ الظلام . عمِل بجدّ . ليس بنفس التردُّد السابق . أراد أن يعمل الآن حقاً . طرح الأسئلة ، تحقَّق ، عمل بسرعة ، وتعلَّم بسرعة ، وكان دقيقاً وسريعاً .

صوت المطرقة على المسامير ، إيقاع . والمنشار الذي يئن ، موسيقى . وفي بعض الأحيان ، الصمت . الريح ، والطيور هناك في الخارج .

سطعت الشمس على سقف الحظيرة ، وتصبَّب العرق منا . وضع رأسه تحت الصنبور ليبترِد ، هزه مثل كلب وضحك . آلاف القطرات الباردة ضربتني ، برَّدتني ، وبطريقة ما لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك معه .

انقضى الأحد بالطريقة نفسها . عملنا ، لم نتحدث عن كثير سوى الخلايا . بدا كما لو أنه يستمتع . لم أره هكذا منذ كان ولداً صغيراً . أكل جيداً . حتى أنه أكل قطعة من اللحم على الغداء .

نظرتُ في ساعتي . كنا نجلس في الخارج ، نحتسي كوباً من القهوة . كانت الساعة الثانية تقريباً . سوف تغادر الحافلة قريباً . لم أقُل أيَّ شيء . ربما نسيَ أمرها . ربما غيّر رأيه .

نظر هو في ساعته أيضاً . ثم خلعها . ووضعها في جيبه .

«بابا ، كيف كان ذلكَ ، المرة الأولى»؟

نظر إليّ ، فجأة عادت جاذبيتُه العميقة .

«ماذا تعني»؟

«الخلية الأولى التي فتحتَها»؟

«ماذا تظن . مروِّع تماماً» .

«ولكن . . . ما الذي كان مختلفاً؟ كيف يكون هذا مختلفاً»؟

أخذتُ رشفة من قهوتي ، ودوّرتها في فمي ، ووجدتُ من الصعب ابتلاعها .

«أوه ، لا أعرف . . . كانت النحلات قد ذهبت وحسب . تبقَّت حفنة منها فقط في أقصى القاع . مريعٌ جداً . فقط الملكة واليرقات . وحيدة تماماً» .

أدرتُ وجهي ، لم أُرد أن يرى عينيّ تدمعان . «يحدثُ الأمر بسرعة كبيرة جداً ، في يوم تكون معافاة وفي منتهى الصحة ، وفي اليوم التالي تكون قد ذهبت فحسب» .

«ليس مثل موت الشتاء» ، قال .

وافقت . «لا شيء مثله . عندئذٍ تفهم بشكل أساسي لماذا . الطقس ، نقص الغذاء ، أو كلاهما» .

ظلَّ صامتاً . ممسكاً كوبَه بكلتا يديه . متفكراً .

«لكنك ستشهد موت الشتاء مرة أخرى» ، قال أخيراً .

أطرقتُ برأسي . «بالطبع ، هناك شتاءات قاسية بين الحين والآخر» .

«بل إنها ستصبح أقسى» ، واصَل . «ستكون هناك عواصف ، طقسٌ سيئ» .

كان يجب أن أقول شيئاً ، أن أشارِك ، لكنني لم أعرف بماذا .

«وموت الصيف» ، واصَل . «سيكون لديك المزيد من وفيات الصيف أيضاً . لأن فصول الصيف تصبح أكثر مطراً ، وأقل استقراراً» .

«أكيد» ، قلت . «لكننا لا نعرف حقاً» .

لم ينظر إليّ ، وإنما واصل الحديث فقط ، وصوته يصبح أعلى . «سوف يكون لديك انهيار مرة أخرى ، أيضاً . سوف يحدُث هذا ثانية» . كان يتحدث بصوتٍ عالٍ الآن . «النحلات تموت يا أبي . نحن الوحيدون الذين يمكن أن نفعلَ شيئاً حيال هذا» .

استدرتُ لأواجهه . لم يسبق وأن سمعتُه يتحدث هكذا أبداً من قبل ، وحاولتُ أن أبتسم ، لكن الابتسامة تحولت فقط إلى تكشيرة مشوهة .

«نحن؟ أنت وأنا»؟

لم يبتسم ، لكنه لم يبدُ غاضباً أيضاً . وإنما بالغ الجدّيَّة .

«الكائنات البشرية . علينا أن نطبِّق التغييرات . هذا ما كنتُ أتحدث عنه عندما كنا في ماين ، أليس كذلك؟ يجب أن لا نكون جزءاً من النظام . يجب أن نغيِّر العمليات قبل أن يفوت الأوان» .

ابتلعتُ ريقي . من أين يأتي كل هذا؟ حماسه؟ لم يكن هكذا أبداً من قبل . أصبحت فجأة فخوراً جداً ، مجبراً على النظر إليه فحسب . لكنه أصبح فجأة منشغلاً بكوب قهوته .

«هل تريد أن نعود إلى العمل»؟ سأَل بدماثة .

وافقت .

جاء المساء . وحلَّ الليل .

جلسنا على الأريكة الطويلة ، نحن الثلاثة جميعاً . كانت السماء صافية .

«هل تتذكر الأفعى»؟ سألتُ .

«والنحل» ، قال توم .

«الأفعى»؟ سألت إيما .

نظرنا أنا وتوم إلى بعضنا بعضاً وابتسمنا .

نمتُ . وفي اليوم التالي استيقظتُ بابتسامة على وجهي . جاهزاً لبناء خلايا جديدة . كانت إيما تجلس إلى المائدة عندما جئتُ إلى المطبخ . كانت قد بدأت في قراءة ذلك الكتاب السميك .

وكان هناك طبق وحيد أمامها . نظرتُ من حولي .

«أين هو»؟

وضعَت الكتاب من يدها . قلبَت زوايا فمها بعبوس .

«أوه ، جورج» .

«نعم»؟

«توم غادر باكراً . قبل الإفطار» .

«دون أن يقول وداعاً»؟

«قال إنه لا يريد أن يوقظك» .

«لكنني ظننتُ . . .» .

«نعم . أعرف» . التقطَت الكتاب ثانية ، وتشبثَت به نوعاً ما ، لكنها لم تقل أي شيء آخر .

لم تكن لديَّ القوة لقول شيء أنا أيضاً . استدرتُ مبتعداً .

بدا كما لو أن الله يغيظني . كأنه علَّق سُلماً نازلاً من السماء وجعلني أتسلق إلى هناك في الأعلى لإلقاء نظرة ، وجعلني أرى الملائكة على أجنحة من حلوى الحرير قبل أن يدفعني فجأة عن سحابة ويجعلني أسقط عائداً إلى الأرض . الأرض في يوم ماطر . رمادي . موحل . مُريع .

سوى أن الشمس كانت تشرق تماماً بإصرار . سافعةً هذا الكوكب حتى الموت .

فقدتُ النحل .

ويبدو أنني فقدتُ توم أيضاً . قبل وقت طويل جداً . وكنتُ سميك الدماغ جداً لأدركَ ذلك .

تاو

«سيدتي؟ نحنُ نغلِق» .

وقفت الحارسة فوقي حاملة كومة من المفاتيح في يدها ، تخشخش بها .

«أنتِ على الرحبِ والسعةِ لتعودي غداً . أو أن تستعيري شيئاً» .

وقفتُ . «شكراً لك» .

أمامي كانت مقالة طويلة عن موتِ النحل . النحل الطنان والنحل البري اختفيا في نفس وقت نفوق نحل العسل ، لكن موتهما لم يكن واضحاً أو مشؤوماً بالمقدار نفسه ، كانت الأجناس تنقرض وتنضب دون أن يدق أحدٌ فعلاً ناقوس الخطر . كان النحل البري مسؤولاً عن ثلثي التلقيح في العالم . في الولايات المتحدة ، كان نحل العسل يقوم بمعظم العمل ، أما في القارات الأخرى فكانت أنواع النحل البري هي الأكثر أهمية . وهنا مع ذلك ، جعل الانخفاض المستمر للأنواع من الأصعب قياس أعداد السكان . لكن العث ، والفيروسات والطقس غير المستقر أثرت أيضاً على النحل البري . والمبيدات الحشرية . كانت كامنة في التربة ، كافية لتسميم الأجيال المستقبلية ، من النحل والبشر على حد سواء .

أُجريت بحوثٌ كثيفة على الحشرات الأخرى التي يمكن أن تكون مناسبة للتلقيح الفعال . كان أول شيء حاولوه هو النحل البري ، لكنه كان عديم النفع . حاولوا زراعة أنواع مختلفة من ذباب التلقيح لهذا

الغرض ، كيريانا كونوبسوديس ، كراسوتوكسوم أوتوماكيولاتوم ، وتشلوسيا رينفورمِس ، وإنما بلا نتائج . وبالتزامن ، جعلت التغيرات المناخية العالم مكاناً قاسياً وأقل ضيافة للنحل . وأفضى ارتفاع مستويات البحر والطقس المتطرف إلى هجرة المجموعات السكانية البشرية وأصبح نقص الطعام حاداً . وفي حين كان الناس سابقاً يشنون الحروب لأسباب تتعلق بالسلطة ، أصبحت الحروب الآن تخاض من أجل الغذاء .

توقفت هذه المقالة أيضاً عند العام 2045 . بعد مائة سنة من نهاية الحرب العالمية الثانية ، والأرض ، كما عرفها البشر المعاصرون ، لم تعد مكاناً يمكن أن تقطنه المليارات . في العام 2045 ، لم يكن قد تبقى أي نحل على سطح الكوكب .

ذهبتُ إلى رفوف الكتب حيث وجدت العديد من أحدث الكتب عن «الانهيار» ، وأردتُ أن أعيد بعضها . كنت على وشك أن ألقي بكتاب على الرف عندما لاحظت عقب كتاب أخضر أبعدَ قليلاً إلى الأسفل . لم يكن سميكاً وطويلاً بشكل خاص ، ليس كتاباً كبيراً ، لكنَّ عينيَّ انجذبتا إلى اللون الأخضر مع ذلك . والأحرف الصفراء في العنوان : «النحّال الأعمى» .

أمسكتُه وحاولت أن أستخرجه . لكن الكتاب قاوم ؛ كان تجليد الكتاب البلاستيكي ملتصقاً بالكتب المجاورة وأرسل تنهيدة صغيرة عندما فصلته .

فتحته ، كانت أغلفته متصلبة ، لكن الصفحات انحنت بسهولة إلى الجانب ، مرحِّبة بي إليه . كانت آخر مرة قرأت فيها هذا الكتاب في مكتبة مدرستي البسيطة ، في ذلك الوقت كان

بطباعة رثة ، نسخة . لكنني كنتُ أمسكُ هذه المرة بطبعة أصلية بِكرٍ بين يدي . نظرت إلى صفحة العنوان : 2037 . طبعة أولى .

ثم فتحتُ الفصل الأول وقابلتني مرة أخرى نفس الصور المألوفة . الملكة وأبناؤها الطيبون ، الذين كانوا مجرد يرقات في الخلايا ، وكل ذلك العسل الذهبي الذي أحاطوا أنفسهم به . حشد من النحل على إطار في خلية ، مكتظ معاً ، كل واحدة مطابقة تماماً للأخرى ، بحيث يستحيل تمييز الواحدة عن الأخرى . هيئات مخططة ، عيون سوداء ، أجنحة ملونة بألوان قوس قزح ، والتي تلمع .

واصلت تقليب الصفحات ، ووصلت إلى الفقرات عن المعرفة ، نفس الجمل التي قرأتها وأنا طفلة ، لكن الكلمات الآن صنعت انطباعاً أكبر : «حتى نعيش في الطبيعة ، مع الطبيعة ، علينا أن نفصل أنفسنا عن الطبيعة في ذواتنا . . . التعليم يعني تحدي أنفسنا ، تحدي الطبيعة ، وغرائزنا . . .» .

قاطعني صوت خطوات . جاءت الحارسة من حول رف للكتب وسارت في اتجاهي . لم تقل أي شيء ، لكنها خشخشت بالمفاتيح مرة أخرى . بشكل واضح هذه المرة .

أومأتُ لها بسرعة لأريها أنني في طريقي إلى الخروج . «أود أن أستعير هذا» . رفعتُ الكتاب . هزت كتفيها .

«تفضلي» .

وضعته على السرير مع كومة من الكتب الأخرى . كنتُ قد استعرت قدر ما أستطيع حمله . سريعاً سوف أستأنف القراءة . إنني أحتاج إلى استحمام سريع أولاً فقط .

خلعتُ ملابسي بينما أقف وسط الغرفة . خلعتُ كل شيء دفعة واحدة ، وعلّقت جواربي في ساقي بنطالي . وبقيت الملابس في كومة متشابكة على الأرضية .

استحممتُ حتى نفد الماء الساخن ، غسلتُ شعري ثلاث مرات ، وحككت فروة رأسي بأظافري ، لكي أستخرج الغبار الذي تراكم من شوارع المدينة الميتة . ثم جففتُ نفسي لوقت طويل ، لم أستطع أن أزيل الرطوبة عن بشرتي ؛ كان الحمام ضبابياً . وأخيراً نظفتُ أسناني لوقت طويل ، شاعرة كيف يختفي البلاك والبكتيريا ، ولففتُ المنشفة حولي ومشيت إلى الغرفة مرة أخرى .

كان أول شيء رأيته هو أن ملابسي أُخِذت . كانت الأرضية فارغة . استدرتُ نحوَ السرير . كانت امرأة تجلس هناك . كانت أصغر مني سناً . كان جِلدها ناعماً ، بلا أوساخ تحت أظافرها . كانت ملابسها نظيفة ، أنيقة ، دافئة ، مثل الزي الرسمي . كانت هذه امرأة تختلف مهنتها تماماً عن العمل هناك في الخارج ، بين الأشجار .

في يدها حملَت واحداً من الكتب ، لم أستطع أن أرى أيّها .

رفعَت يدها ونظرَت إليه ، جادّة ، بلا عاطفة . لم أستطع أن أقولَ أي شيء ، كان ذهني يعمل بكثافة ليجعل شيئاً ما يقع في مكانه . هل يجب أن أعرفها؟

وقفَت بهدوء ، وضعَت الكتاب ، ثم ناولتني ملابسي ، التي كانت الآن مطوية بأناقة ومرتبة في كومة .

«أريد أن أطلبَ منك أن ترتدي ملابسكِ لطفاً» .

لم أتحرك . وهي تصرَّفَت كما لو أن حضورها هنا كان طبيعياً . ربما كان . حدَّقتُ فيها ، وفتشتُ في وجهها لأرى ما إذا كان سيثيرُ أي ذكريات . ولكن لم يظهر أيٌّ منها . لاحظتُ أن منشفتي تنزلق هابطةً إلى أسفل ، وعلى وشك أن تتركني عارية ، وإذا أمكن ، حتى أكثر انكشافاً أمامها . سحبتُ المنشفة إلى أعلى وشددتُ ذراعيّ عليها لأبقيها في مكانها ، شاعرة بالحرج والخطر معاً .

«كيفَ دخلتِ إلى هنا»؟ سألتُ وتفاجأت من أن صوتي خرجَ فعلاً .

«استعرتُ مفتاحاً» . قالتها ، وهي تبتسم ابتسامة صغيرة على لا شيء إطلاقاً ، كما لو أنَّ ذلكَ الأمر كان أوضحَ شيء في العالم .

«ماذا تريدين؟ من أنتِ»؟ قلتُ متلعثمة .

«يجبُ أن ترتدي ملابسكِ وتأتي معي» .

لم يكن ذلك جواباً ، كان أمراً .

«لماذا؟ مَن أنتِ»؟

«إليكِ ، خُذي» . مرة أخرى حملَت كومةَ الملابس .

«هل تريدين النقود؟ لدي القليل فقط» . مشيتُ إلى الطاولة بجوار السرير حيث ما يزال لدي بعض قطع العملة المعدنية في الدرج ، واستدرت ومددتها إليها .

«أرسلتني اللجنة» ، قالت . «يجبُ أن تأتي معي» .

وليام

سقطت الرسومات في حضني . جلستُ على مقعد في الحديقة ، على مسافة من الخلايا ، قريباً بما يكفي لأراها واسمعها جيداً ، وإنما بعيداً بما يكفي لتجنب اللسع . جلستُ بلا حراك مثل حيوان يتعقب رائحة ، أو مثلَ فريسة ستتعرض قريباً للهجوم .

لكن الهجوم حدَثَ وانتهى مُسبقاً . أصبحتُ جثة الآن .

النحلة تموت عندما تبلى أجنحتها ، تتصلب ، وتصبح قاسية جداً ، مثل أشرعة «الهولندي الطائر» . ثم تموت في منتصف قفزة ، كما لو أنها على وشك الإقلاع ومعها حمل ثقيل ، ربما تكون قد حملت أكثر من المعتاد ، ربما انتفخت بالرحيق وحبوب اللقاح ، بقدر كبير هذه المرة ، بحيث لا تعود الأجنحة قادرة على حملها بعد الآن . ولا تعود النحلة أبداً إلى الخلية ، وإنما تغوص إلى الأرض ، بحملها الكامل . لو كانت لديها مشاعر بشرية ، لكانت سعيدة بهذه اللحظة ، لكانت قد دخلت بوابات السماء وهي تدرك جيداً أنها ارتقَت إلى مستوى الفكرة نفسها ، فكرة النحلة ، كما كان ليعبِّر عنها أفلاطون . الحالة المهترئة لجناحيها ، نعم ، إنّ موتها هو خلودُها ، إنه علامة واضحة على أنها فعلت ما وُضعت في الأرض لكي تفعله ، وأنجزت قدراً لا نهاية له ، بالنظر إلى جسدها الضئيل .

لن أنال أبداً مثل هذه المِيتة . لم تكن هناك إشارات واضحة على أنني فعلت ما وُضعتُ على الأرض لأجلِه . لم أُنجز أي شيء على

الإطلاق . سوف أشيخ ، وبدني سوف ينتفخ ، وفي النهاية يذوي ، من دون أن يتبقى أيُّ أثر لي خلفي . لا شيء سيبقى ، سوى ربما فطيرة مالحة متروكة خلف طلاء دهني في الفم . لا شيء سوى فطيرة سوامر .

كما أن الأمر كله يمكن أن ينتهي الآن . لا يزال الفطرُ السام هناك ، في الدُّرج العلوي في أقصى يسار المخزن ، مقفلاً عليه بعناية ، بمفتاح أملك وحدي الوصول إليه . سوف يبدأ تأثيره بسرعة ، في بضع ساعات فقط سأصبح خاملاً وفاتراً ، ثم سأفقد الوعي . وسوف يشخص الطبيب الحالة على أنها فشل في الأعضاء ؛ لن يعرف أحد أنه فعْل ذاتي . وسوف أكون حرّاً .

لكنني لم أستطع أن أفعل ذلك ، لأنني لم أستطع أن أتحرك من المقعد ، بل إنني لم أتمكن حتى من تمزيق الرسومات ، رفضَت يداي تنفيذ تلك الحركة البسيطة ، توقف الحافز العضلي في أطراف أصابعي ، وأصابنِي بالشلل .

لِكم من الوقت بقيت وحيداً ، لم أعرف .

جاءت دونَ أن ألاحِظ . فجأة جلسَت على المقعد الطويل إلى جانبي . بلا صوت ، ولم يكن حتى صوت أنفاسها مسموعاً . العينان المتقاربتان ، عيناي أنا ، كانتا تنظران في اتجاه النحل الذي يئز أمامنا ، أو ربما في اتجاه لا شيء .

في يدها كانت تحمل رسالة دزيرزون . لا بد أنها وجدتها بين الفوضى في الغرفة ، وجدتها وقرأتها ، كما فتشت سابقاً أشيائي وعبثت بها . لأنها كانت هي كل الوقت ، المخزن المرتب النظيف ، والكتاب على مكتبي . لكنني لم أرَ ذلكَ فحسب ، أو لم أرِد أن أراه .

قرْبُ إنسان آخر يجعل الشلل يُرخي قبضته . أو أنه ربما أرخى قبضته لأنها كانت هيَ . إنها كلّ ما لديَّ الآن .

وضعتُ الرسومات في حضنها .

«دمِّريها من أجلي» ، قلتُ بهدوء . «لا أستطيع أن أفعلَها» .

جلسَت هناك فقط . حاولتُ أن أقابل نظرتها ، لكنها نظرت في الاتجاه الآخر .

«ساعديني» ، توسلتُ .

وضعَت يداً على الرسومات ، وللحظة ظلّت صامتة .

«كلا» ، قالت .

«لكنها هراء ، ألا تفهمين»؟ انكسرَ صوتي ، لكنَ ذلك لم يزعزعها .

هزت رأسَها ببطءٍ فحسب . «هذا سابقٌ لأوانه ، بابا ، ربما تكونُ ما تزال ذات قيمة» .

سحبتُ نفَساً ، وتمكنتُ من الحديث بهدوء ، حاولتُ أن أبدو عقلانياً .

«إنها بلا قيمة . أريدكِ حقاً أن تدمريها ، لأنني غير قادر على فعل ذلك بنفسي . خذيها بعيداً ، ضعيها في مكان لا أراها فيه ولا أستطيع أن أوقفَكِ . . . احرقيها! نار كبيرة ، حتى تصل ألسنة اللهب إلى السماء» .

أردتُ أن تثيرَ الكلمات ردَّ فعل ، أن تجعلَها تقفُ وتطيع ندائي الجاد ، كما أطاعت دائماً كل طلباتي . لكنها جلسَت هناك فقط ، تتصفح الصفحات ، وتتعقب بإصبع واحد تلك الخطوط التي كنتُ قد بذلتُ أقصى طاقتي لكي أرسمها مستقيمةً ، والتفاصيل التي ناضلتُ معها كثيراً . «لا ، يا أبي ، لا» .

«لكن هذا هو كلُّ ما أريده»! فجأة حلَّ ضيقٌ مرة أخرى في صدري . كانت يد أبي تطبق على رقبتي ، وضحكته الساخرة تتردد في أذنيّ ، والأوساخ على ركبتيّ والحزام في الانتظار . كانت هي الراشدةُ وأنا الطفل ، في العاشرة من العمر مرة أخرى ، أحملُ حِملَ العار الثقيل على كاهلي ، لأنني فشلت مرة أخرى أيضاً . «احرقيها . . . أرجوكِ» .

كان عندئذٍ فقط عندما لاحظتُ الدموع في عينيها . دموعَها . متى كانت آخر مرة رأيتها فيها؟ ليس عندما جلسَت بجانبي كلَّ تلك الساعات في الشتاء الماضي ، ليس عندما عادت إلى البيت بإدموند الثمِل مثل الموتى ، وليس عندما وجدتني وقد ابتلعتني الأرض تقريباً .

عندَ ذلك فهمت . كانت هذه رسوماتها هيَ أيضاً ، عملُها . كانت هناك كلَّ الوقت ، لكنني كنتُ أرى نفسي فقط ، أبحاثي ، رسوماتي ، نحلي . الآن فقط استوعبتُ حقاً كيف كان هناك اثنان منا من اليوم الأول ، كانت رسوماتُها هيَ أيضاً ، وكان النحل لها أيضاً .

«شارلوت» ، ابتلعتُ ريقي . «أوه ، يا شارلوت . مَن كنتُ أنا بالنسبة لكِ حقاً»؟

رفعَت أنظارها بدهشة . «ماذا تعني»؟

«أعني . . . كان ينبغي أن تأخذي . . . شيئاً إضافياً» .

مسحَت عينيها بيدها ، ولم يتبق سوى الدهشة في عينيها الآن .

«شيئاً إضافياً؟ كلا . . .» .

أردتُ أن أقول لها الكثير من الأشياء ، أنها كانت تستحق أباً أفضل ، واحداً يفكر فيها هيَ أيضاً ، أنني كنتُ أحمقَ ، مهتماً فقط

بشؤوني الخاصة ، بينما لم يهتزَّ دعمها لي على الإطلاق ، بغضِّ النظر عن طبيعة مشاريعي . لكنَّ الكلمات أصبحت كبيرة جداً ، لم أكن ندّاً للمهمة .

كلُّ ما استعطتُ فعله كان أن آخذ يدها . تركتني أفعل ، لكنها سارعت إلى وضع اليد الأخرى بطريقة حامية فوق الرسومات حتى لا تأخذها الريح .

جلسنا هناك بصمت .

عبَّتِ الهواء بعمق عدة مرات ، كما لو أنها تريد أن تقول شيئاً ، لكن أي كلمات لم تأتِ .

«يجب أن لا تفكرَ بهذه الطريقة» ، قالت أخيراً . ثم أدارت رأسها ونظرت إليَّ بعينيها الرماديتين الصافيتين . «لقد أخذتُ أكثرَ مما يمكن أن تتوقعه أي بنت . أكثر من أي فتاة أخرى أعرفها . كل شيء جعلتَني أراه ، وقلتَه لي ، وجعلتني أشارك فيه . . . كل الأوقات التي قضيناها معاً ، كل الحوارات ، كل شيء علمتَه لي . . . بالنسبة لي أنت . . . أنا . . .» .

لم تُكمل الجملة ، جلسَت هناك فقط ، وأخيراً قالتها .

«ما كان يمكنُ أن أنال أباً أفضل» .

أفلتَت مني تنهيدة . حدقتُ في الفراغ ، مركِّزاً بعمىً على لا شيء ، وأنا أقاوم رغبةً في البكاء .

ظللنا جالسين هناك ، مرَّ الوقت ، وأحاطتنا الطبيعة بكل أصواتها ، غناء العصافير ، وصفير الريح ، ونقيق الضفادع . والنحل . أزيزه الخافت هدهدني .

بعناية تملصَت يدُ شارلوت من يدي وهزّت رأسها بلطف .

«لن تضطرَّ إلى رؤيتها مرة أخرى» .

وقفَت ، وأخذَت الرسومات معها ، حملتها بكلتا يديها كما لو أنها ما تزال شيئاً ثميناً ، واختفت في اتجاه البيت .

أفلتَت مني تنهيدة عميقة ، تنهيدة امتنان وغوث ، وإنما مع يقين أيضاً بأن الأمر انتهى أخيراً .

بقيتُ جالساً ، جالساً أنظر إلى النحل ، إلى مثابرته ، غدوّاً ورواحاً ، بلا استراحة مطلقًا .

ليسَ إلى أن تتمزق أجنحته .

جورج

مرة أخرى ، لم أستطع أن أنام . كان كل شيء حاضراً لضمان استراحة ليلية طيبة . كانت الغرفة باردة كما يجب ، وهادئة . ومعتمة . لماذا أصبحَت مظلمةً كثيراً في الفترة الأخيرة؟ أكثرَ ظلمة من السابق؟عندئذٍ تذكرتُ الضوء . هذا هو السبب . لم أتواجد أبداً لإصلاحه . كانت الأسلاك تزحف هناك فوقاً على الحائط ، مثل ديدان برؤوس من الشريط الكهربائي اللاصق . مررتُ بها كل يوم ، رأيتها كلَّ مرة ، ووضعَتني دائماً في مزاج سيئ . كانت واحدة من أشياء كثيرة لم أتكلف عناء الاهتمام بها . لم تكن مهمة ، وأنا أعرف ذلك . لم أكن في حاجة إلى ذلك الضوء ، ولم يكن يحتاجه أي منا . ولم تتذمر إيما بشأنه أيضاً . ولا أظن حتى أنها فكرت في ذلك . لكن الكابلات الزاحفة كانت جزءاً من كلِّ شيء لم يكن على النحو الذي يفترض أن يكون عليه ، من كلِّ شيء لم يكن يعمل كما ينبغي .

احتجتُ إلى سبع ساعات لأنام . على الأقل . كنتُ أحسُدُ دائماً أولئك الذين لا يحتاجون الكثير من النوم . أولئك الذين ينهضون بعد خمس ساعات ويكونون جاهزين للأداء بأفضل ما لديهم . هؤلاء هم الأشخاص الذين يقطعون شوطاً بعيداً حقاً في الحياة ، كما سمعت .

نظرتُ إلى ساعة المنبه . 12:30 صباحاً . كنتُ مستلقياً هناك منذ 11:08 مساء . أغفت إيما على الفور وأنا غفوت أيضاً ، بسرعة . لكنني استيقظتُ بعد ذلك مرة أخرى ، رأسي صافٍ ، ويقظ . كان جسدي

يركض ، غير قادر على الاستلقاء بهدوء ، غير قادر على إجراء اتصال مع الفراش . مهما كان الوضع الذي اتخذته ، كان خاطئاً ، وعِراً ، طارداً .

يجب أن أنام قليلاً ، لن أتمكن من العمل غداً إذا لم أستطع أن أنام الآن . ربما كأس من المشروب سيساعد .

لم يكن لدينا أي مشروب قوي ، نادراً ما شربنا خموراً قوية . ولم نكن نشرب أي شيء آخر أيضاً . لكنني وجدت زجاجة بيرة في الثلاجة . وكأساً في الخزانة . ثم هناك أمر مفتاح الزجاجات . لم يكن معلَّقاً على الجدار ، في مكانه ، على خطّاف فوق الحوض ، رابع خطاف من اليمين ، بين المقص والمغرفة . أين هو؟ فتحتُ درج الفضّيّات . وعثرت على مفتاح الفلّين اللولبي مع بعض الأربطة المطاطية الفاسدة في جزء منفصل من الدرج هو الأبعد إلى الداخل . لكن مفتاح الزجاجات لم يكن هناك . فتحت درجاً آخر . لا شيء . هل أعادت إيما ترتيب النظام؟ وضعَت الأشياء في أماكن جديدة؟ إذا كان الأمر كذلك ، فإنها لن تكون المرة الأولى .

واصلتُ البحث في دُرج بعد الآخر . اضطررتُ إلى أن أضع زجاجة البيرة وأن استخدم كلتا اليدين ، ولم أستطع أن أكلف نفسي عناء أن أكون هادئاً الآن . بما أنها بدأت في إعادة ترتيب كل شيء ، كل شيء ، فإنني مضطر إلى التكيف مع هذا المقدار . اللعنة ، هناك الكثير جداً من الأدراج في المطبخ والكثير جداً من الخردة . ما تُدعى أدوات مفيدة والتي تجمع الغبار . طباخ بيض ، طاحونة فلفل كهربائية ، أداة تقسم التفاحة إلى ستة أجزاء . أشياء تراكمت هنا على مدار نصف حياة . كانت إيما

هي الجاني وراء معظم الأشياء . خالطتني رغبة في العثور على كيس ، والشروع في رمي الأشياء ، بعد طول انتظار . أن أقوم بالتنظيف .

لكنه ظهر عندئذٍ . كان ملقى في الدُّرج الكبير المليء بالمغارف والمجارف والخفاقات . في أقصى الخلف . في أقصى القاع . نعم ، من الواضِح أنه مُنح مكاناً جديداً . فتحتُ زجاجة البيرة بسرعة . مازجتني رغبة قوية في أن أذهب وأوقظها ، وأخبرها بأنه ليس عليها أن تهتم بتغيير الأشياء . لكنني أخذتُ بدلاً من ذلك جرعة كبيرة من البيرة . وجرى السائل البارد هابطاً في حلقي .

قرقَرت معدتي ، لكنني لم أشعر برغبة في العثور على شيء لآكله . لم يرُق لي أيُّ شيء . ولم تكن البيرة مغذية أيضاً . لم أكُن متعَباً مطلقاً ، وإنما قلقاً فحسب . مشيت ذهاباً وإياباً ، ذهبت إلى غرفة المعيشة ، أمسكتُ بجهاز التحكم . لكنني تجمدتُ في نصف الحركة ، لأنني لاحظتُ شيئاً فجأة على الحائط في غرفة الطعام .

مشيت إلى هناك ، ووقفتُ أمامها . الرسومات . خلية نحل وليام سافيج القياسية . التي لم تكن قياسية ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأيٍّ أحد سوى عائلة سافيج . على الجدار الذي لم يمسَّه ضوء الشمس على الإطلاق . في إطارات ذهبية سميكة ، لامعة ، بلا ذرة واحدةٍ من الغبار ، كما ضمِنت إيما . حبرٌ أسود على ورق مصفرّ . أرقام . قياسات . أوصاف بسيطة . ولا شيء أكثر . ولكن ، كان خلفها ميراث اعتننت به عائلتي منذ صُنعت هذه الرسوم في العام 1852 . كان يفترض أن تكون الخلية القياسية إنجاز وليام سافيج العظيم ؛ كان يفترض أن يكتُب بها نفسه في كتب التاريخ . لكنه لم يأخذ الأميركي الذكي لورينزو لانغستروث في

الحسبان . وقد كسب الأخير ، وطوَّر قياسات الخلية التي أصبحت هي المعيارية . ولم ينتبه أحد لسافيج . كان ، ببساطة شديدة ، متأخراً جداً . ربما كان هذا ما يجب أن تكون عليه الأمور عندما جلسا هناك في أجزاء قصية من العالم ، كلٌّ منهما يعمل على الشيء نفسه ، وإنما بلا هاتف ، ولا فاكس ، ولا بريد إلكتروني .

وراء كل مخترع عظيم هناك دائماً دزينة من الأشخاص المحبَطين الذين كانوا متأخرين قليلاً فقط . وكان سافيج واحداً من هؤلاء . ولذلك لم تكن هناك ثروة ولا تكريم له ولأسرته .

يبدو أن زوجته تدبرت أمر تزويج معظم البنات . لكن الأمرَ كان أسوأ بالنسبة للابن ، إدموند . كان رجلاً قلِقاً لا يصلح لشيء ، متأنقاً كسبَ ولعاً بالخمور في سن صغيرة واختفى في نهاية المطاف في مجارير لندن .

واحدةٌ من البنات فقط لم تتزوج قط . شارلوت ، الأجمل . السيدة الأولى لعائلتنا . اشترت تذكرة في اتجاه واحد لعبور المحيط . ولا يزالُ صندوقها فوقاً هناك ، في العلّيّة . كان الصندوق الذي سافرت به ، هي وطفل . أما مَن كان الوالد ، فلم يعرف ذلك أحد . جاءا كلاهما والصندوق إلى أميركا معاً . وفي الصندوق كان كل شيء تملكه . كانت رائحته خانقة ، قديمة . لم نستخدمه لأي شيء ، لكنَّ قلبي لم يطاوعني على رميه . فقد وضعت شارلوت كل حياتها في الصندوق ، بما فيها رسومات أبيها لخلية النحل القياسية .

كان هناك حيث بدأ الأمر . شرعت شارلوت في تربية النحل . ليس بدوام كامل ، وإنما على هامش عملها كمعلمة ومديرة مدرسة .

كانت لديها ثلاث خلايا فقط ، لكن ثلاث خلايا كانت كل ما يتطلبه الأمر حتى يُغرم بها ولدٌ ، طفل صغير ، والذي قام بتوسيعها ببضع خلايا أخرى . وكذلك فعل ابنه . وابن ابنه . وأخيراً ، جدِّي ، الذي استثمر في عمليات كبيرة وكسبَ لقمة عيش جيدة منها .

الرسومات اللعينة!

فجأة ضربتُ قبضتي بالزجاج . تصدَّع ، وزحف الألم من يدي وإلى جسدي كله . اهتزَّت الصورة قليلاً ، لكنها تعلقت هناكَ كما من قبل .

يجب أن تنزل . كلُّ الإطارات الثلاث ينبغي أن تنزل .

رفعتُها من الخطافات وأخذتُها معي إلى الردهة . وهناك وجدتُ أكبر حذاء لدي ، حذاءً شتائياً ثقيلاً بنعال سميكة .

لبستُ الحذاء ، وخرجتُ إلى الفناء .

كنتُ على وشك أن أضع نهاية لها ، وأهبط بحذائي عليها ، وأدوسَها بقوة ، لكنني فكرت في تلك اللحظة فجأة بإيما ، بالجلبة التي ستحدثها . التفتُ نحو نافذة غرفة النوم . لم يكن الضوء مشتعلاً هناك . كانت ما تزال نائمة .

حملتُ الإطارات إلى الخارج ، فتحتُ باب الحظيرة ووضعتُها على الأرض هناك .

بطبيعة الحال ، كنتُ أستطيع أن أفتح الإطارات من الخلف وأنتزع الصور ، لكنَّ صوت الزجاج هو الذي أردتُ أن أسمعه . صوت انسحاقه تحت حذائي .

دستُ عليها ، مرّة تلو المرة ، وقفزتُ فوقها . انكسرَ الزجاج ، والإطارات تحطمت . تماماً كما تخيلت .

ثم أخرجتُ الرسوم . كنت قد أملت بأن يمزقها الزجاج المحطم ، لكنها ظلت وكأنها جديدة . كان الورق صلباً ومقاوماً بطريقة مدهشة . وضعتُ بعضها فوق بعض ، ستةً في المجموعة ، في كومة . وقفتُ هناك معها . كان يمكن أن أحرقها ، أن أشعِل عود ثقاب فيها وأجعل ألعاب أسلافي النارية ترتفع في ألسنة من اللهب . كلا .

وضعتُ الكومة على طاولة العمل ، درستُها لوهلة . رسومات مُريعة . لم تسهِم في أي شيء . واستحقّت حقاً مصيراً تعيساً . ليس حريقاً ، فهذا درامي جداً ، جليلٌ وفيه كرامة . شيء آخر .

ثم عرفتُ .

استجمعتُ قوتي ، وأمسكتُ بالكومة ، قاومَت يداي ، لكنني أرغمتهما . ثم شرعتُ في التمزيق . شرائح طويلة ، حاولتُ أن أجعلها متساوية قدر الإمكان . لكن محاولة تمزيق ست رسومات مرة واحدة فشلت . كانت سميكة جداً . وترتّب عليَّ أن أقسم الكومة إلى اثنتين . ثلاث صفحات في كل مرة . لكن ذلك لن يستغرق وقتاً طويلاً بما يكفي . أردت أن أواصل لفترة طويلة . ولذلك مزقتُ صفحة واحدة في كل مرة .

أحببتُ الصوت . كان كما لو أن الورق يصرخ . *الرحمة . الرحمة* !

بدا ذلك أكثر من جيد . بدا مثيراً ، أخيراً ها أنا أفعل شيئاً - أنجزُ شيئاً استثنائياً . كنتُ أستطيع أن أواصل ذلك كل الليل .

لكنني اضطررتُ أخيراً إلى التوقف . ليست هناك فائدة من تمزيقها إلى قطع صغيرة جداً ، لأنها عند ذلك لن تخدم الغرض الذي في ذهني .

جمعت الشرائط وأخذتها معي . لم أكلف نفسي عناء تنظيف الإطارات والزجاج ، سوف أهتم بذلك غداً ، ومشيتُ فقط خارجاً إلى

الليل ، وعبر الفناء ، ثم فتحتُ الباب الخلفي . إلى الشُرفة ومن هناك إلى المدخل الخلفي . وهناك فتحت الباب الأول على اليمين وخطوت خطوتين إلى داخل العتمة . أعلمني صوت غرغرة بأن صمّام السيفون عالق كالمعتاد . ربما يحتاج إلى استبدال . لم أرغب في إشعال الضوء وتفقُّده الآن . وضعت الرسومات ، الورق ، على الأرض فقط . جاهزة لتذهب . إلى حيث تنتمي . إلى المرحاض .

تاو

كنا جالستين في سيارة كهربائية قديمة . بُنيت الكثير من السيارات كهذه في العشرينيات ، عندما ازدهر توليد الكهرباء بالطاقة الشمسية حقاً . في تلك المرة عندما زرتُ المدينة مع والديّ ، كانت الشوارع ممتلئة بها ، معظمُها قديمة ومتهالكة . لكنّ هذه السيارة كانت أفضل صيانة من معظمها ، مصنوعة للعملاء الحساسين ، كبيرةً ، سوداء ولامعة . لم يسبق أن رأيتُ من قبل هذا النوع من المركبات يملكه شخص عادي ، أو يستخدمه الناس تحت رتبة معينة . كانت السيارات التي لدينا في الوطن دائماً لجماعة الشرطة أو الرعاية الصحية ، مثل تلك التي جاءت لتأخذ وي-وِن . كانت أشبه بصناديق بسيطة من مادة خفيفة الوزن ، صُنعت لتستهلك أقل قدر ممكن من الكهرباء . أما هذه السيارة فأكبر ، وأكثر فخامة . نادراً ما كانت سيارة كهذه تزور مدينتنا الصغيرة ؛ كانت تنزلق عبر الشوارع بزجاج نوافذ معتم ، وتساءلنا دائماً عما تفعله هنا ، في زاويتنا الصغيرة من العالم .

كانت هذه أول مرة في حياتي أضع فيها قدماً داخل مركبة جميلة . وضعتُ يدي على مقعد الجلد المقلّد . كان ناعماً ذات مرة ، لكنه أصبح الآن مليئاً بالشقوق . لأن السيارة قديمة . فضحَتها المقاعد ، والرائحة فضحَتها أيضاً ، وكانت نتائج التنظيف مجرد تمويه لرائحة الشيخوخة التي استقرت في التجهيزات وجسم السيارة .

كانت المرأة قد أرشدتني إلى الجلوس في المقعد الذي في المنتصف ، بينما جلست هي في الأمام وأملَت عنواناً على الملّاح الآلي ، اسمَ مكان لم يعنِ لي أي شيء . ثم بدأت الرحلة . رأيتُ عنقها فقط . لم تقل أي شيء . فكرت للحظةٍ بأن أطلب منها التوقف ، حتى أستطيع أن أقفز ، لكنني أدركتُ أن ذلك سيكون بلا فائدة . لم تمنحني أيَّ خيار . وكان هناك شيء في عينيها أخبرني بأنها ستكون هناك عواقب إذا لم أفعل كما تقول .

إلى جانب ذلك . . . ربما تقودني إلى وي-وِن . كان هذا كل ما يهُم .

سافرنا لمدة ساعة تقريباً ، وقابلنا بضع سيارات بينما كنا في وسط المدينة ، لكننا بعد فترة أصبحنا وحيدتين على الطريق . لم تكن أي من الإشارات التي مررنا بها تعمل ، وأبحرنا عبر الشوارع من دون الاضطرار إلى إظهار العناية بأي أحد آخر . أشارت الشاخصة على الطريق السريع إلى أننا في طريقنا إلى شوناي . لم أكن أعرف أي شيء عن المنطقة ، لكن المباني قالت لي إنها كانت ذات مرة مأهولة بأناس ذوي عيش رغيد . منازل فسيحة مستقلة ، من ثلاثة أو أربعة طوابق فقط ، بحدائق واسعة ، والتي مثّلت بالتأكيد حال أهلها ذات مرة ، لكن المنازل أصبحت الآن متهدمة والحدائق مشعثة . مررنا بشيء كان ذات مرة ملعب غولف . والآن أصبح أرضاً منبسطة مغطاة بالأعشاب ، حيث جرت محاولات للفلاحة في بضع بقاع الأرض في إحدى الزوايا . ما تزال الكثير من الأرض الخصبة بوراً . وأدهشني أن أحداً لم يحاول جعل شيء ينمو هناك . ولكن ، ربما يكون الجميع قد انتقلوا إلى خارج المنطقة .

أخيراً توقفنا . فتحَت المرأة الباب وترجّلَت ، وطلبت مني أن أتبعها .

وقفنا على مربع ، في وسط ما كان ذات مرة نافورة أنيقة أصبحت الآن صدئة . ثمة تمثال طير ، كركي ، يقبع في قاع البركة ، ربما أوقعته هناك قوى الطبيعة ، أو ربما نتيجة لعملية نهب . لم يكن يُسمع حتى صوت سيارة واحدة ، وإنما قصفُ الريح فقط وهو يضرب واجهات المباني حيث ألواح السقوف والنوافذ فالتة ، وصوت عضلات الأرض نفسها ، التي تنخرط ببطء ، وإنما بلا هوادة في عملية كسب اليد العليا ، وهو ما من شأنه أن يمحو الحضارة تماماً .

مسمع الأصوات جعلني أرفع وجهي إلى أعلى . كان هناك شخصان يقفان على سطح بناية عالية ، ولم أستطع رؤية شيء سوى صورهما الظلية على صفحة السماء ، سمعت كلاماً وإنما ليس كلمات . كان لديهما شيء في أيديهما ، شيء أسقطاه الآن . انزلقت ظلال مستديرة في الهواء ، بعيداً عنا ، في اتجاه وسط المدينة . كنت قد قرأت عن الحواسيب الطائرة التي يتم التحكم بها عن بُعد من قبل . طائرات بلا طيار . هل هذا هو الشيء ذاته؟ مَن هو الذي تتعقبه؟

خطر لي فجأة أنها ربما تعقبتني أنا أيضاً ، لفترة أطول مما توقعت ، حتى أنهم يعرفون الآن الكثير عني سلفاً .

«سوف ندخلُ هنا» ، قالت المرأة .

لم يكن للبناية اسم ، ولا شاخصة تُعلمني بما هو مخفيّ . وضعَت المرأة يدها على لوح زجاجي على الجدار ، كل واحد من أصابعها على خمس نقاط على اللوح . وفجأة ، انزلق بابان كبيران أسخَمان وانسحبا

كلٌّ إلى جانب . كانا مُداران بالكهرباء ، على الرغم من أنه بدا كما لو أن المنطقة المحيطة كانت بلا كهرباء منذ فترة طويلة .

قادتني إلى بناية كبيرة . قفزتُ عندما كدتُ أصطدم بشاب يقف حارساً في الداخل . التفتُّ واكتشفتُ المزيد من الحراس .كانوا يرتدون أزياء مثل زيِّها وحيَّوها بسرعة . ردَّت عليهم التحية وواصلت السير على عجل .

تبعتُها داخل قاعة كبيرة ، ثم أبعد إلى مكتبٍ واسع مفتوح . مررنا بأناس في كل مكان . بدا ذلك غير حقيقي ، بعدَ كلٍّ تلك الأسابيع في المدينة المهجورة . كان الجميع مثل الحارسة ، ناعماً ، نظيفاً من دون العلامات التي يتركها العمل اليدوي أو الشمس . عملوا بنشاط ، وجلسَ عدد كبير من الناس أمام شاشات كبيرة ، وآخرون انخرطوا في اجتماعات بصوت خفيض في أجنحة من الأرائك الفخمة أو حول طاولات الاجتماعات . مشهد شفاف . كانت الجدران من الزجاج ، والغرفُ مفتوحة ،لكن الصوت لم يكن ينتقل بعيداً . كان يكتمه السجاد السميك والأثاث الثقيل . في عدة أماكن كدتُ أتعثر بمكانس الغبار المسطحة المستديرة التي تئزُّ على الأرض في كل مكان وتدور بنفسها ، تمتص الأوساخ التي لم أستطع أن أراها .

التدهور لم يجد طريقه إلى هنا ؛ كان الأمر كما لو أنني أتيتُ من عالم ينتمي إلى الماضي .

أخيراً توقفَت . كنا عند نهاية أحد الممرات وأمامنا جدار ، الأولُ الذي رأيته والذي لم يكن من الزجاج . كان هذا مصنوعاً من خشب قاتم لامع مصقول . فيه باب طويل عريض كما لو أنه منحوت من الخشب .

طرقَت المرأة بقوة على الباب . مرت بضع ثوانٍ ؛ ثم أطلقَ الباب صوت أزيز ونقرة ، قبل أن ينفتح .

وي-وِن . هل هوَ هنا؟ فجأة كنتُ أرتجف .

«من فضلِك» ، وأشارت نحو الباب المفتوح .

مترددةً خطوت إلى الداخل .

انغلق الباب خلفي . سمعتُ صوت الباب مرة أخرى ، صوتَ الأزيز والنقرة . أغلقَت عليّ في الداخل .

كانت الغرفة واسعة مشرقة ، وإنما بلا نوافذ . وكانت الأرض مغطاة بالسجاد هنا أيضاً . والجدران مغطاة بالقماش ، ستائر ثقيلة ، تمتد من الأرض إلى السقف . هل هناك جدران خلفها؟ أم أنها تخفي شيئاً آخر؟ أناساً ، فتحاتٍ تقود إلى غرف أخرى؟ هل هي حركة صغيرة تلكَ هي التي لمحتُها هناكَ إلى اليمين؟ درتُ حول نفسي . ولكن كلا ، تدلّت الستارة ساكنةً كما كانت من قبل . كان المشهد السمعي السريّ في الخارج مدمراً للأذن مقارنة بالصمت الغامِر هنا . ربما هي غرفة يفترض أن لا تدخلها أي أصوات . أو تخرج منها . جعلَت الفكرة نبضي يشرع في التسارع .

صدر صوت حفيف عن القماش إلى يميني وسُحب فجأة إلى جانب . حرَّرت امرأة مسنة نفسها خارجة منه . ابتسمَت بلطف . كان فيها شيء مألوف ، الطريقة التي عقدت بها شعرها على رأسها ، الطوق المطبق بإحكام . شبكة التجاعيد حول عينيها . لقد رأيتها من قبل ، عدة مرات ، وإنما ليس أبداً في الحياة الحقيقية .

لأنها لي زيارا . الصوت في المذياع ، زعيمة اللجنة ، الهيئة التنفيذية لأمتنا .

أخذتُ خطوة إلى الوراء ، لكنَّها واصلَت الابتسام .

«أنا آسفة لأننا اضطررنا إلى أن نجتمعَ بهذه الطريقة» ، قالت بنعومة . «ولكن ، لم يعد يمكننا أن نتجنب الحاجة إلى الحديث معك بعد الآن» .

وضعَت يدها على مسند مقعد ليِّن ذي مسندين .

«أرجوك أن تجلسي» .

لم تنتظِر ، وإنما جلسَت في مقعدٍ مطابق قبالتي .

«أعرف أن لديكِ الكثير من الأسئلة . أنا آسفة لأنني لم أستطع أن أجيبَك سابقاً بنفسي . آمل أن نوضح الآن كلَّ شيء» ، تحدثَت بهدوء ورباطة جأش ، كما لو أنها تقرأ من مخطوط .

جلسنا في مواجهة بعضنا ورأسانا على المستوى نفسه .

لم أستطع سوى أن أحدِّق في وجهها . من دون فلتر الصور الإعلامية ، كان وجهها عارياً تماماً . تملكتني غرابةُ وجودها قريبة جداً بهذا المقدار ، رؤيتها في الحياة الحقيقية .

غاص قلبي . هذه المرأة . . . أي خيارات اتخذتها؟ ما الذي كانت مسؤولة عنه؟ موت المدن؟ وضع الفتى الصغير في المطعم؟ العجائز ، الذين تُركوا ليموتوا؟ المراهقون ، الذين ليسوا أكثر من أشباح ، جدّ يائسين حتى تحوّل نظراؤهم البشر إلى فرائس؟ أمي أنا؟

كلا . لا يجب أن أفكر في ذلك ، لا يجب أن أدع أسئلتي وانتقاداتي تظهر ، لأنها تعرف أكثر مما أعرف .

«سأكون ممتنة لو أخبرتِني لماذا أنا هنا» . قلدتُ طريقتَها في الحديث ، وقلت هذه الكلمات بأنعم وألطف طريقة أستطيعها .

استقرت نظراتُها عليّ .

«في البداية وجدناكِ مزعجة» .

«ماذا»؟

«خاصة عندما جئتِ إلى بكّين» . توقفَت قليلاً . «ولكن في النهاية . . . خطّطنا حقاً للاتصال بك ، لم نكن نريدكما ، كلاكُما ، أن تعيشا مع هذا القدر الكبير من الشك لوقت طويل . ولكن كان علينا أن نكون متأكدين تماماً أولاً» .

«متأكدين من ماذا»؟

انحنت إلى الأمام في مقعدها ، كما لو أنها أرادت أن تصبح أقرب .

«الآن أصبحنا متأكدين» .

لم أُجِب . أيقظ الصوت المتموج الهادئ الغضبَ في داخلي ، لكنني لم أصل إلى أي مكان بأسئلتي .

«وربما كانَ ذلك للأفضل» ، واصلَت . «أنّه ترتب عليك أن تجدي طريقك الخاص إلى الإجابات» .

ناضلتُ لأتنفس ، وحاولتُ أن أبقى هادئة . «لا أفهم ما تعنين» .

«ستكون لديكِ فرصة لتلعبي دوراً في الفترة المقبلة . ونحن نأمل في أنكِ ستتعاونين» .

«ماذا تعنين»؟!

«سوف أصل إلى هذا . أولاً ، لماذا لا تخبريني بما تظنين أنه حصلَ لابنك؟ ما الذي وصلتِ إليه»؟

أجبرتُ نفسي على البقاء هادئة . سوف تضعُ هي الأجندة ، ولذلك لم يكُن لدي خيار سوى الانصياع لها ، سوى التعاون . ما الذي سيحدُث إذا فشلت؟

«أعتقد أن شيئاً ما حدَث لوي-وِن والذي له أهمية بالنسبة للكثير من الناس غيري» ، قلتُ ببطء . «أو غيره هو» .

هزّت رأسَها .

«وماذا أيضاً»؟

«أظن أن هذا هو السبب الذي جعلكم تأخذونه . وأنَّ ما حدث ، يمكن أن يكون . . . أن يغير كلَّ شيء» .

انتظرَت .

«هل تستطيعين أن تخبريني فقط أين هو»؟ أصبحتُ أتوسلُ الآن .

«هذا كل ما أعرفه» .

ظلَّت صامتة . وتعلقَت نظراتها في الهواء .

فجأة أصبحَ الأمر كما لو أن كل شيء في داخلي توقف ، ولم أعد أستطيع تحمُّل هدوئها ، وصوتها المتموج ، وألعابَ التخمين ، والتحديقة غير المبالية ، ونصف الابتسامة الصغيرة التي كان من المستحيل قراءتها .

«لا أعرفُ أي شيء»! وبقفزة واحدة كنت هناك بجانبها .

انكمشَت في مقعدِها .

أمسكتُ بها ، لأول مرة تغيَّر التعبير على وجهها . شق بصيص من الخوف طريقهُ عبر جدار رباطة الجأش .

«أين وي-وِن»؟ صرختُ . «أين هو؟ ما الذي حدثَ له»؟

حاولتُ أن أجرَّها من المقعد .

«لا أستطيع أن أتحمل المزيد؟ هل تفهمين؟ إنه ابني»!

رفعتُها إلى أعلى، وأنا أهزها. كنتُ أقوى، وأصلب بعد عمر من العمل اليدوي. لم تكن لها فرصة. دفعتُها في اتجاه الباب وعلى الخشب. التوى وجهها، أخيراً حركتُ شيئاً في داخلها. لكنّني لم أفلتها؛ أمسكتُ بها بقوة وصرخت: «أين وي-وِن؟! أين هو»؟!

فجأة كان الحراس هناك، جاؤوا من الخلف، أطلقوها من يدي، وأجبروني على الهبوط إلى الأرض. أبقوني هناك. شق النشيج العميق طريقه من صدري.

«وي-وِن... وي-وِن... وي-وِن...».

وقفَت هناكَ فوقي. مرةً أخرى كانت هادئة، تُعدل ملابسها قليلاً، وتلتقط أنفاسها.

«دعوها».

أفلتني الحراسُ مترددين، وجلستُ هناك منحنية إلى الأمام، ولم أعد قادرة على خوض قتال. لم يكُن هناك قتال تبقّى فيّ. ببطء سارت زيارا إليّ، ووضعت يدها على مؤخرة رأسي. تركتها تستريح هناك لوهلة، ثم حكّت خدي وأمسكت بأسفل ذقني. بلطف دفعت وجهي إلى أعلى، حتى التقت نظرتي بنظرتها.

ثم أشارت برأسها.

كان يرقد على شرشف أبيض في غرفة مضاءة بشدة. كان نائماً. وكان جسده مغطى ببطانية. رأسه فقط كان مرئياً. كان وجهه ناعماً وإنما أكثر نحولاً من السابق. وبرزت محاجرُ عينيه مثل ظلال عميقة. اقتربتُ أكثر، وعندئذٍ اكتشفت ذلك - لقد حلقوا كل شعره في أحد

جانبي رأسه . خطوت خطوة أخرى ، وأدركتُ السبب . ثمة قطاع خلف أذنه ، بجانب خط شعره ، كانَ أحمر اللون . اللسعة . قاومتُ رغبتي في الاندفاع أماماً . كنتُ وحدي ، لكنني أعرف أنهم يراقبون . كانوا دائماً يراقبونني . لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعلني أظل واقفة هناك .

طالما بقيت هناك ، على بُعد مترين ، كنتُ أستطيع أن أصدق أنه نائم .

أستطيع أن أصدق أنه نائم وأتجنب ملاحظة بلورات الجليد التي تصعدُ ناميةً مثل العروق من الأرض صعوداً على طول أرجل السرير .

كنتُ أستطيع أن أصدق أنه نائم وأتجنب ملاحظة كيف تعلقت أنفاسي في الهواء أمامي ، كل مرة جعلتُ فيها الدفء يهرب من رئتيّ .

كنتُ أستطيع أن أصدق أنه نائم وأتجنب حقيقة أنه لم يكن يرسل غيمة مشابهة من صدره ، وأن الهواء فوق سريره ، فوق الشرشف الأبيض ، كان ساكناً ، صافياً وبارداً .

جورج

انبعثت من مزرعة غاريث رائحة شيء يحترق . الرائحة الحلوة للعسل الدافئ والبنزين . ضربني الدخان لحظة فتحتُ باب السيارة .

كان يقف هناك وظهره ناحيتي ووجهه في اتجاه شعلة النار . كان ارتفاعها عدة أقدام . لم تكن خلايا النحل مكدسة بترتيب ، وإنما كانت بالأحرى ملقاة فوق بعضها . زمجَرت الشعلة ، وفرقعَت وطقطقت . بمرح أدهشني . كما لو أن لها حياتها الخاصة بها ، كما لو أنها تجد المتعة في تدمير عمل حياة شخص آخر . حملَ علبة البنزين في يده ، وتعلقت يدُه هناك بهزال . ربما نسي أنها هناك .

استدار ولاحظني . لم يبدُ متفاجئاً .

«كم العدد»؟ سألت وأشرتُ إلى النار .

«90 في المائة» .

ليس عدد الخلايا ، ليس عدد مستعمرات النحل ، وإنما النسبة . كما لو أنّ الأمر كله رياضيات . لكن عينيه قالتا حكاية أخرى .

سار بضع خطوات ، وضع العلبة من يده . لكنه التقطها بعد ذلك مرة أخرى ، ربما أدرك أنه لا يستطيع أن يتركها هناك ، وسط الساحة .

كان أحمر اللون ، وكان جِلدُه جافاً حتى بدا على وشك التشقق ، وقد انتشر طفحٌ صاعداً من رقبته المدبوغة .

«ماذا عنك»؟ رفع رأسه .

«معظمُها» . قلتُ .

هزّ رأسَه . «هل أحرقتها»؟

«لا أعرف إذا كان لذلك أي أهمية ، ولكن نعم» .

«لا فائدة من استخدام الخلايا مرة أخرى . لقد دخل إليها» .

كان محقاً ، كانت تنثُّ رائحةَ الموت .

«لم أظن أن هذا سيحدث هنا» ، قال .

«اعتقدتُ أنه كان إهمالاً» ، قلتُ .

سحبَ غاريث زاويتي فمه إلى شيء يفترض أن يشبه ابتسامة .

«وأنا أيضاً» .

لم يكن يختلف كثيراً عن الولد الصغير الذي كانَه ذات مرة ، ذلك الذي وقف وحيداً في ساحة المدرسة ، محتويات حقيبته الظهرية منثورة على الأرض أمامه ، وكتبه ممزقة إلى أشلاء ، والأقلام ملقاة هناك ، وكل شيء مليء بالوحل . لكنه لم يستسلم في ذلك الحين ، ولم يهرب أبداً ، وإنما جلس القرفصاء فقط ، والتقط الكتب ، ومسح الوحل بكمّ سترته ، وجمع أقلام الرصاص ، والتقط الأشياء ، تماماً كما فعل مئات المرات من قبل .

لا أعرف لماذا ، لكنني مددتُ يدي فجأة ، وضغطتُ على أعلى ذراعه .

عندئذٍ أحنى رأسه ، وتجهّم وجهه ، وانهار نوعاً ما أمامي .

أفلتت ثلاث شهقات من النشيج بجهد من قناته الهضمية .

كان جسده مضطرباً تحت يدي ، بجاهد ، كما لو أن هناك المزيد في الداخل والذي أراد الخروج . بقيتُ ممسكاً به فقط . ولكن لم يخرج أي شيء آخر . ثلاث شهقات من النشيج فقط ، لا غير .

ثم استقام ، ماسحاً عينيه بظاهر يده دون أن ينظر إليّ . وفي تلك اللحظة بالذات اندفعت عاصفة من الريح عبر الفناء ، واندفع الدخان من النار في اتجاهنا . وعندئذٍ فاضت الدموع بحرّيَّة .

«اللعنة على الدخان» ، قلت .

«نعم» قال . «اللعنة على الدخان» .

وقفنا ساكنَين ، هز جسمه قليلاً مستجمعاً نفسه . ثم عرض ابتسامته المعتادة .

«حسناً جورج ، ماذا أستطيع أن أفعل لك اليوم»؟

كان غاريث محقاً . وصلَت الخلايا على الفور . وأجازت أليسون الحِمل دون أن ترمش ، وبعد يومين فقط وصلت شاحنة رمادية إلى فنائي . وخرج منها رجل عابس ، وسألني أين أريد أن أضعها .

أنزلَها على الأرض في الحقل قبل أن أصلَ أنا إلى هناك . لم يقل كلمةً واحدةً ، وإنما مدّ لي لوحاً عليه قطعة ورق وأرادني أن أوقِّع وصلَ الاستلام .

هناكَ كانت . قاسية . رمادية فولاذية تماماً مثل الشاحنة التي وصلت عليها . وانبعثت منها رائحة الطلاء الصناعي . صف طويل منها . كل واحدة منها صورة طبق الأصل عن التالية . شعرتُ بقشعريرة باردة من النفور ، واستدرتُ مبتعداً .

أملتُ فقط أن لا يلاحظ النحلُ الفرق .

لكنه بالطبع سيلاحظ الفرق .

وقد لاحظ كل شيء .

تاو

وضع الولد الأرز المقليّ على الطاولة أمامي . في آخر مرة ، كانت هناك بضع قطع من الخضروات مخلوطة ببعض البيض . أما اليوم ، فكان الطبقُ منكّهاً فقط بصلصة الصويا الاصطناعية . أحرقَ العبق أنفي ، وكدتُ أنثني مبتعدة تقريباً لأمنع نفسي من التقيؤ . كنتُ قد أكلتُ بالكاد في الأيام القليلة الماضية ، ولو أن زيارا أعطتني ما يكفي من النقود . أكثرَ مما يكفي . ولكن ، لم تكن بي رغبة بأي شيء سوى البسكويت الجاف . كان كل عصَب في جسدي يحترق ، وفمي كان جافاً ، والجِلدُ على يديّ يتشقق . كنتُ أجفّ ، ربما لأنني شربتُ بالكاد أي سوائلَ على الإطلاق ، أو ربما بسبب كلٍ الدموع التي أسالها جسدي . بكيتُ حتى جففتُ الآن ، ولم تتبق فيَّ دموع . بكيتُ حتى فرغتُ لصوت زيارا . زارتني كل يوم ، وتحدثَت وتحدثت ، وهي تشرح وتقنعني . وببطء ، بمرور الوقت ، اكتسبَت كلماتُها معنى . تشبثتُ بها بشيءٍ يشبه الجشع تقريباً . ربما أردتُ أنا أن تكسبَ تلك الكلمات معنى . أردتُ أن أتبع خطاها فحسب ، دون أن أضطر إلى التفكير أنا نفسي .

«لقد أحببتِه كثيراً» ، قالت .

«هل يمكنُ أن نحبَّ أحداً كثيراً»؟

«أنتِ مثل كل الأمهات . أردتِ أن تمنحي طفلك كل شيء» .

«نعم ، أردتُ أن أمنحه كل شيء» .

«كلّ شيءٍ هو شيءٌ أكثر مما ينبغي» .

لأجزاء من الوقت ، لثوانٍ ، لدقائق ، ظننتُ أنني فهمت . لكنني كنتُ أواجه اللامعنى مرة أخرى ، ويصبحُ ما قالته مجرد كلمات ، لأن كل ما استطعتُ التفكير فيه كان وي-وِن . وي-وِن . ابني .

أمس جاءت للمرة الأخيرة . لن نتحدث بعد الآن ، كما قالت . يجب أن أعود إلى البيت الآن ، وأن أضع حزني جانباً . الواجبات في انتظارنا . أرادتني أن ألقي الخطابات ، وأتحدث عن وي-وِن . عن النحل الذي عاد . عن هدفنا منه ، وعن غايتها هي منه ، أن نزرعه مثل النباتات المفيدة ، في بيئات مسيطرٍ عليها ، وأن نبذل كل جهد ممكن لضمان أن يعود إلى التناسل مرة أخرى ، بوتيرة سريعة بحيث يعودُ كل شيء قريباً كما كان . سوف يصبح وي-وِن رمزاً ، كما قالت . وأنا سأكون الأم الحزينة التي استطاعت أن ترى الصورة الأكبر ، أن تسمو على حاجاتها وتضع عواطفها جانباً من أجل المجتمع . «عندما أستطيع أنا ، التي خسرت كل شيء ، أن أفعل ، فكذلك تستطيعون أنتم» . لم تترك لي أي خيار . وثمة شيء في داخلي فهم السبب . فهمت أنها هي أيضاً تفعل ما يجب عليها أن تفعل ، أو ظنّت أن عليها أن تفعله . حتى مع أنني لم أعرف ما إذا كنتُ سأتمكن من تدبر الأمر ، ما إذا استطعت أن أتعامل مع ما أرادته مني .

لأن الشيء الوحيد الذي كان له معنى ، كان هو . وجهه . حاولت أن أتشبث به ، وجهه بين كوان وبيني . كان ينظر إلى فوقٍ ، إلينا . أكثر . أكثر . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اقفز . والوشاح الأحمر تطيّره الريح .

كنتُ سأغادر في اليوم التالي . يجب أن يبقى وي-وِن خلفي . ربما يُسمح لي لاحقاً بأن أدفنه . لكنّ ذلك لم يكن مهماً . فذلك الجسد

الصغير البارد المغطى بطبقة من الجليد لم يكن هو على أي حال . ذلك الوجهُ ليس وجهَه ، ليس ذلك الذي حاولتُ أن أتذكره كل الوقت .

دفعتُ الصحنَ نحو الصبي .

«إنه لكَ» .

نظرَ إليّ نظرةً مُستفهِمة .

«ألن تأكلي أي شيء»؟

«كلا . لقد اشتريتُه لك» .

وقف هناك يتأرجح على قدم واحدة .

«اجلس» ، سمعتُ لهجة التوسل في صوتي .

سحبَ الكرسي بسرعة وجذبَ الصحن نحوه ، نظر إليه لحظة بشيء يشبه السعادة ، قبل أن يرفعه إلى فمه ويشرع في غرفِ الأرز .

كان من الجيد رؤيته يأكل . رؤيته وهو يبقي نفسه حياً . جلستُ هناك أدرسه فقط ، بينما يجرف الأرز ويدفعه إلى فمه ، ويأخذ بالكاد وقتاً ليمضغه قبل أن تكون اللقمة الأخرى في طريقها .

عندما شبع الأسوأ من جوعه الذئبي ، هدأ ، وركز على توجيه عيدان الأكل ببطء أكبر نحو شفتيه ، كما لو أن معلِّم آداب داخليٍ ذكَّره فجأة بتهذيب سلوكه .

«شكراً لكِ» ، قال بهدوء .

رددتُ بابتسامة .

«هل تعرفُ أي شيء أكثر»؟ سألتُ بعد أن سمحت له بالمضغ قليلاً .

«عن ماذا»؟

«عن عائلتك . هل ستظل هنا»؟

«لا أعرف» ، خفض أنظاره إلى الطاولة . «أعرف فقط أن أبي يندَم كل يوم . اعتقدنا أننا كنا آمنين هنا ، أنَّ هذا هو المكان الذي يجب أن نكون فيه ، لكن كل شيء تغير بعد ذلك . أصبحنا مصدر إزعاج الآن» .

«ألا تستطيعون أن تغادروا»؟

«إلى أين؟ ليس لدينا مال ، ولا مكان نذهب إليه» .

زحفَ الشعور بالعجز في داخلي مرة أخرى . ها هو ذا شيء آخر لا أستطيع أن أفعل شيئاً إزاءه .

كلا . ليسَ هذا شيئاً عصياً على الحل . هذا شيءٌ أستطيع أن أتعامل معه ، شخص يمكن أن أساعده .

رفعت رأسي .

«تعالوا معي» .

«ماذا تقصدين» . نظر في وجهي بدهشة .

«عودا معي» .

«هل أنتِ ذاهبة إلى البيت»؟

«نعم ، أنا ذاهبة إلى البيت» .

«ولكن . . . ليس مسموحاً لنا ، سوف يرفضون . وماذا عن العمل؟ هل يوجدُ عملٌ لنا هناك»؟

«أعدُ بأن أساعدكُم» .

«وماذا عن الطعام»؟

«الطعامُ أكثرُ هناك» .

«نعم . . .» . وضع عيدان الطعام . كان طبق الأرز فارغاً . بقيَت حبة أرز واحدة في القاع . لاحظها ، التقط العيدان ليمسك بها ، لكنه وضعها سريعاً عندما لاحظ أنني أراقبه .

«يجب أن تفعلوا» ، قلت بنعومة . «إذا بقيتم هنا ، ستموتون» .

«ربما ليس هناك فرق» .

كان هناك شيء وحشيٌّ في صوته وتجنَّب نظرتي .

« . . . ماذا تعني»؟ أجبرتُ الكلمات على الخروج .لم أستطع أن أتحمّل هذا . ليس فيه ، هذا الإنسان الفتيّ جداً .

«ليس هناك أي فرقٍ فيما يحدث لنا» ، قال ورأسه منحنٍ . «بالنسبة لأبي ولي . أين نعيش . هنا . معاً . أو وحيدين . ليسَ مهمّاً» . أصبح صوته خشناً فجأة . تنحنح ، مزيلاً البحة . «لم يعد أيُّ شيء يهم . ألا ترينَ ذلك»؟

لم أستطع التفكير في رد . كانت كلماتُه تشويهات لكلمات زيارا . أيّ ، وكلّ واحدٍ منا ليسَ مهماً في ذاته . لكنها كانت تتحدث عن مجتمع ؛ وهو يتحدث عن الوحدة .

وقفتُ فجأة . كان عليَّ أن أجعله يتوقف عن الكلام . كان الأمل الضعيف الذي أتعلَّق به على حافة الجُرف ينسحق . نظرتُ في كل الاتجاهات إلا ناحيته هوَ بينما أسير نحو الباب .

«يجب أن تحزموا أمتعتكم» ، قلت بصوت منخفض . «سوف نغادر غداً» .

بسرعة سحبتُ الحقيبة . لم يتطلب الأمر طويل وقت لجمع الأشياء القليلة التي معي . الملابس ، بعض أدوات الزينة ، حذاء إضافي .

فتشتُ الغرفة كلها ، حتى أتأكد أكثر أنني لم أنسَ أي شيء . وعندئذٍ اكتشفتها . الكتب . كانت هناك كل الوقت ، لكنني لم أرها ، لأنها أصبحت جزءاً من الغرفة . رقدَت في كومة على منضدة ، ولم ألمسها منذ جاءت إليّ الحارسة ، ولم آخذها معي لأقرأها ، ولا مرة واحدة ، وأنا أعرف أن كل الكلمات ربما يكون لها معنى صغير لا يقل ضآلة عن كل شيء آخر .

كان عليّ أن أعيدها ، ربما ما يزال بإمكاني تدبُّر أمر الذهاب إلى المكتبة . لكنني وقفتُ هناكَ وأنا أحملها فقط . واستطعتُ أن أشعر بلمس البلاستيك الناعم الحامي على غلاف الكتاب في قاع الكومة وهو يلتصق بيديّ .

وضعتُها على السرير والتقطتُ هذا الكتاب . كان «النحال الأعمى» . لم تتسنَّ لي الفرصة أبداً لإنهاء قراءته . لكنني فتحتُه الآن .

جورج

كانت إيما تبكي مرة أخرى . وقفَت وظهرُها في اتجاهي ، وهي تقشّر البطاطا وتبكي . جعلَت دموعها تتدفق بحرّيَّة ، ولم تبذل أي محاولة لوقفها ، ونشجَت بانتظام . أصبحت الدموع تأتي كثيراً في تلك الأيام . بكَت كما لو أنها في جنازة ، في أي مكان وأي زمان ، على حوض الغسيل ، وهي تصنع العشاء أو تنظف أسنانها . وفي كل مرة حدث ذلك ، أردتُ فقط أن أبتعد ، لم أستطع أن أتعامل مع الأمر ، وحاولت أن أجد أعذاراً لأغادر .

لحسن الحظ لم أكن أتواجد في البيت في كثير من الأحيان . كنتُ أعمل من الصباح إلى الليل . وقد استأجرت ريك وجيمي بدوام كامل . النقود ، القرض ، تدفقت خارجة من الحساب . وفي النهاية لم أتكلف عناء التفقد . لم أستطع أن أشاهد الحساب البنكي الذي يتقلص باطراد . إنها مسألة عمل الآن . عمل فقط . فمن دون عمل ، لا يوجد دخل . وكنتُ ما أزال أستطيع ادخار بعض الحصاد . أن أكسب ما يكفي من المال لخدمة القرض .

ذابت أرطال الوزن الإضافية من جسدي ، أوقية بعد أوقية . يوماً بعد يوم . وليلة بعد ليلة ، لأن نومي كان سيئاً . وقد اعتنت إيما بي ، خدمتني ، وزينت طعامي بشرائح الخيار وشرائط الجزر ، لكن ذلك لم يُساعد . لم يكن له طعم ، وضرب سقف حلقي مثل نشارة الخشب . أكلتُ فقط لأنني مضطر ، للحصول على القوة اللازمة للخروج مرة أخرى . كنتُ أعرف أن إيما تحبُّ أن تحضر شرائح اللحم كل يوم ، لكنها

كانت تحاول هي أيضاً توفير النقود . لم نتحدث عن ذلك ، لكنني متأكد أنني لم أكن الوحيد الذي يراقب الحساب البنكي المتقلص .

في الحقيقة لم نقل أيَّ شيء عن أيِّ شيء في تلك الأيام . لم أعرف ما حدث لنا . افتقدتُ زوجتي ، وهي هناك ، لكنها في الوقت نفسه ليست هناك . أو ربما أنا الذي لم أكن هناك في واقع الأمر .

شهَقَت . أردتُ أن أضمها ، كما كنتُ أفعل دائماً . لكنَّ جسمي قاوم . كل دموعها تجمعَت في بركةٍ كبيرة وفصلت بيننا .

نظرتُ إلى خارج المطبخ ، وأملتُ أن لا تلاحِظ .

لكنها التفتَت . «أنتَ ترى حقاً أنني أبكي» .

لم أُجِب . لم يكن هناك الكثير الذي يمكن قوله .

«تعال إلى هنا ، ألن تفعل» ، قالت بهدوء .

كانت هذه أول مرة تطلب مني فيها ذلك ، بقيتُ واقفاً حيث أنا .

انتظرَت ، وهي ما تزال تمسك القشّارة في إحدى يديها ، وحبة بطاطا في الأخرى . وأنا انتظرتُ أيضاً . آملاً ، كما أعتقد ، أن أنهي الأمرَ كلّه بالانتظار . ولكن ليس هذه المرة .

نشجَت بصوتٍ خفيض . «أنتَ لا تهتم» .

«بالطبع أنا أهتم» ، قلت ، لكنني لم أستطع أن أقابل نظرتها .

رفعَت يديها أكثر قليلاً .

«البكاء لا يُفيد» ، قلت .

«ولا يفيدُ أن لا نسلّي بعضنا البعض ، أيضاً» .

حوَّرَت كلماتي ، كما تفعلُ في كثير من الأحيان .

«لن نحصلَ على مزيد من الخلايا بوقوفي هنا وتسليتك» ، قلت .

«لا مزيدَ من الملكات . لا مزيدَ من النحل ، لا مزيد من العسل» .

سقط ذراعاها . استدارت . «اذهب واعمل إذن» .

لكنني وقفتُ هناك فحسب .

«اذهب واعمل»! أعادت .

خطوتُ خطوةً في اتجاهها . وأخرى . كنتُ أستطيعُ أن أضع يداً على كتفها . كنتُ أستطيع . سوف يساعدُ ذلك بالتأكيد . سوف يساعدنا كلينا .

مددتُ يدي ، في اتجاه ظهرها . لم ترَ ذلك ، كانت منشغلةً بالتقشير ، وتناولت حبة بطاطا أخرى من الماء القذر في الحوض . كشطَت القشرة بحركاتٍ سريعة ، كما فعلَت مئات المرات من قبل .

تعلقَت يدّي في الهواء ، لكنها لم تصل إليها .

في تلك اللحظة رنّ جرسُ الهاتف .

سقطَت ذراعي . استدرتُ ، وذهبتُ إلى الردهة ، وأجبت .

كان الصوتُ شاباً ، بناتياً تقريباً . تساءلَت عما إذا كنتُ أنا جورج . قلتُ إنني هو .

«أخذتُ هاتفك مِن جون» ، قالت . «كنا نرتاد المدرسة معاً» .

«حسناً» . بعبارات أخرى ، لا يمكن أن تكون بصغر السن الذي بدت عليه .

تحدَّثت بسرعة ، وكانت جيدة في الكلمات . إنها تعمل مع قناة تلفزيونية ، وهم يصنعون فيلماً ، كما شرحت .

«إنه عن أ . أ . م» .

«نعم»؟

«اضطراب انهيار المستعمرة» ، نطقت الكلمات ببطء وبوضوح مبالغ فيه .

«أعرف ما هو أ . أ . م» .

«نحن نصنع فيلماً وثائقياً عن موت النحل وتداعياته . وأنتَ شهدتَ هذا شخصياً» .

«هل أخبركِ جون»؟

«نحبُّ أن نجعل الأمر شخصياً» ، قالت .

«شخصي . حسناً» ، قلتُ .

«هل يمكن أن نقضي يوماً معك؟ هل تسمح لنا أن نخرج معك ، حتى نسمع تجربتك مع الأمر كلّه» .

«خبرَتي . لا يمكن أن يكون هذا مثيراً للاهتمام كثيراً» .

«كثيراً؟ آه نعم ، بشكل كبير . هذا بالضبط ما نريد أن نعرضَه . كيف أن لهذا تأثيرٌ على كل واحد منا . كيف يمكن أن يدمرَ سبل عيش الناس . أليسَ هكذا اختبرتَ الأمر؟ هل كان قاسياً عليك»؟

«حسناً ، إنه لم يدمِّر سبُل عيشي بالضبط» ، قلتُ . فجأة لم تعجبني لهجتُها . كانت وكأنما تتحدثُ إلى كلبٍ مجروح .

«كلا؟ لأن ما فهمتُه هو أنكَ فقدتَ كل نحلك تقريباً»؟

«نعم . لكنني استبدلتُ الكثير منه الآن» .

«أوه» .

صمتَت .

«النحلات الشغالات يعشنَ بضعة أسابيع فقط في الصيف»، قلت. «لا يتطلبُ الأمر وقتاً طويلاً قبل الحصول على خلايا جديدة وجعلها تعمل».

«حسناً. إذن هذا هو ما تفعله الآن، الحصول على خلايا جديدة وجعلها تعمل»؟

«هذا صحيح».

«عظيم»! قالت.

«حقاً»؟

«يمكننا أن نستخدم هذا. رائع! هل سيكونُ مناسباً إذا أتينا في الأسبوع القادم»؟

أغلقتُ السماعة. كانت السماعة متعرقةً تماماً. سوف أظهرُ على التلفزيون. سوف أصبحُ شخصاً «يمكنهم استخدامه». لم يكن من الممكن التخلص من ذلك على ما يبدو. حاولتُ، لكنها أخذتني بالكلام. كانَت أسوأ من إيما.

التلفزيون الوطني. سوف يستطيع كل البلد أن يرى ذلك. بحقِّ الله.

كانت إيما قد جاءت إلى الغرفة. وتجفف يديها بمنشفة. وكانت عيناها حمراوين، وإنما جافتين أيضاً، لحُسن الحظ.

«من كان هذا»؟

شرحتُ لها مَن الذي اتصل.

«يُجرون مقابلةً معنا عن النحل؟ لماذا يجب أن نفعل»؟

«ليس نحن. سوف يتحدثون معي أنا فقط».

«ولكن لماذا وافقتَ»؟

«يمكنُ أن يساعد ذلك في التأثير على الأشياء . ربما تفعلُ السلطات شيئاً» ، قلتُ وضبطتُ نفسي وأنا أنسخ كلمات المرأة التي اتصلت .

«ولكن لماذا نحن»؟

«أنا» ، قلتُ بحدة وأدرتُ وجهي عنها . لم أستطع تحمُّل المزيد من الأسئلة ، المزيد من البكاء ، والمزيد من الإزعاج .

على حين غرة عاد لي ذلكَ كلُّه جميعاً . الإجهاد . لم أكن قد شعرتُ به كل هذه الأسابيع . ليس منذ كان توم في البيت في الشتاء الماضي . لكنه عاد الآن . كان يمكن أن أستلقي وأنام هناك وعلى الفور ، على أرضية الردهة . بدت الأرضية الخشبية المهترئة مغوية . فكرتُ بميزان الحرارة الذي على شكل الدب تيدي ، وصوت التنبيه الذي يصدره . تمنيتُ أن يكشف عن درجة حرارة عالية ، عن حمى قوية . عندئذٍ سأستطيع أن أستلقي في السرير . وسادة طرية ، ولحاف دافئ ، يلفني مثل غطاء . تمنيتُ أن يقيس درجة حرارة حمى لا تهبط أبداً .

لكنني لم أستطع النوم . ولم أستطع حتى أن أجلس .

لأن الخلايا هناك في الخارج . خاوية ورمادية . خفيفة الوزن جداً . يجب ملؤها . وليس هناك أحد آخر يمكن أن يقوم بذلك . والآن يبدو أنني سأظهر على التلفزيون . يجب أن أُظهر أنني كنتُ مجدًّاً في العمل . أنني لم أسمح لاضطراب انهيار المستعمرة بأن يكسرني .

تدلّى مئزري بارتخاء من علّاقته . واستقر غطاء الوجه والقبعة فوقه مباشرة . وتحته حذائي الطويل . وبدا شكلها معاً مثل رجل مسطَّح

مختبئ في داخل الحائط . أنزلت البدلة وشرعت في تغيير ثيابي . جذبتُ السحّاب وتأكدتُ أن كل شيء مُغلق ، وزررتُ الفتحات .

«إنه وقت العشاء تقريباً» ، قالت إيما . وقفَت هناك بيديها الفارغتين ، وذراعيها الفارغتين .

«أستطيع أن آكل الليلة» .

«لكنه رغيف اللحم . لقد صنعتُ رغيف اللحم» .

«لدينا ميكروويف» .

ارتجفت شفتها السفلى ، لكنها لم تقل أي شيء . وقفَت هناك فقط على ذلك النحو ، صامتةً تماماً ، بينما ارتديت قبعتي ، وعلقت غطاء الوجه أمام وجهي وخرجتُ .

ذهبتُ إلى المرعى بجوار نهر ألاباست وبقيتُ هناك بقية اليوم . في البداية عملتُ . كان الطقس جيداً بطريقة مزعجة . لا ينبغي أن يكون جيداً إلى هذا الحد . ليس هذا جيداً . تعلقَت الشمس كبيرة في السماء إلى الغرب ، فوق الحقل المزهِر . جميلةً مثل صورة في تقويم .

لكن العمل أصبح مرهقاً . شعرتُ بأن ذراعيَّ مشلولتان تقريباً ، وتمكّن الإجهاد مني . لم أكن قادراً على القيام بأي شيء سوى المشي . في دوائر حول الخلايا . فارغة . رمادية ، مثل جبل عملاق .

بقيتُ هناك حتى شرع النحل في العودة . أطبَق الصمتُ على الطبيعة .

كان عندئذٍ فقط حين مشيتُ عبر الحقل . إلى النهاية الأخرى . أخذتني قدماي إلى هناك فحسب . في اتجاه الخلايا القديمة الملونة الكرنفالية ، تلك التي ما تزال فيها حياة .

لماذا نجَت هذه الخلايا بالذات؟ مَن الذي قرر أن هذه النحلات بالذات يجبُ أن يُسمَح لها بالحياة؟

كنتُ أتنفس بصعوبة وتوقفتُ بجوار خلية صفراء . كل مرة كنتُ سأتفقد فيها خلية نحل ، كنت أنكمش . كل مرة كنتُ أتوقع أن أجد الشيء نفسه . استطعتُ أن أتصور مسبقاً مشهد النحل المخدور وهو يطنُّ حول قاع الخلية ، والفراغ ، والملكة وحدها مع حفنة صغيرة من النحل الصغير .

كان هناك شيء خطأ في هذه الخلية الصفراء ، أيضاً . كانت هادئة جداً . هناك شيء خطأ ، بالتأكيد . تفقدتُ لوح الطيران . بضع نحلات فقط . لا يكفي .

لم أستطع تحمُّل ذلك .

يجِبُ أن أفعل .

بعينين مغلقتين أمسكتُ بالغطاء . ثم فتحت الخلية . واندفع إليَّ على الفور ، الصوتُ الطنّان ، التهويم . كيف حدَث أنني لم أسمعه؟ كان كل شيء طبيعياً . طبيعياً تماماً ، مائة في المائة كما ينبغي أن يكون . النحل يئز هناك في الأسفل . وبعضه كان يرقص . لمحت الملكة . العلامة الفيروزية على ظهرها . رأيت الحاضنة . العسل الذهبي الصافي . كانت النحلات يعملن ، كُنَّ على قيد الحياة . كُنَّ هنا .

دار رأسي . كنتُ متعباً . هبطت على الأرض وبقيتُ هناك . كانت الأرض دافئة ، والعشب طرياً . وانغلقت عيناي .

لكنني لم أغفُ . لأنه كان هناك انقباضٌ في صدري . لقد وصلتني بركة دموع إيما . كان الماء يصعد . وتناثر مصطدماً بأقدامي .

ابتعلتُ ريقي ، وابتلعت . لم أستطع أن أتنفس . كنتُ أغرق . لكنني قاومت . وقفتُ على قدميّ ثانية . وقفتُ هناك فقط أنظر إلى النحل الذي يناضل هو أيضاً هناك في الأسفل . يخوض ذلك النضال العادي اليومي من أجل أبنائه ، من أجل جلب ما يكفي من حبوب اللقاح ، ومن أجل العسل .

سوف يموت هذا النحل أيضاً . لم يكن قابلاً للحياة ، ما كنتُ أفعله . كل مرة أفتح فيها الخلية ، يكون الأمر على هذا النحو . الشعور نفسه ، سواء كانت النحلات حيَّة أم ذهبت . لم تكن ثمة جدوى .

لم تكن ثمة جدوى!

كل العضلات في جسمي توترَت . كل قوتي تجمَّعت في واحدة من ساقيّ ، في قدمي . وفجأة ركلتُ .

سقطت الخلية على الأرض بصوت وانفلتَ سرب النحل .

هزت الألواح وحرَّرتها . كان النحل في كل مكان الآن . غاضباً ومرتعباً . دستُ عليه ، على الألواح ، على صغاره . لكن الصوت كان مكتوماً ، بالكاد مسموعاً . ليس مثل الزجاج المكسور . لكنني واصلتُ مع ذلك .

دمِّرهم . إسحقهم . مزِّق أجنحتهم . لأنهم دمَّروني .

ثم ضربتني الفكرة . لكَم كان ذلك بسيطاً!

نستطيع أن ندمر بعضنا بعضاً .

كنتُ أقف وسط سحابة من النحل الغاضب الذي يحوم مستثارًا من حولي .

كان الأمر بسيطاً جداً .

رفعتُ يديَّ إلى السحاب ، إلى غطاء الوجه .
كل ما عليه فعلُه هو أن أرفعه .
أن أخلع القبعة .
أخلع القفازات .
أفتحَ السحاب بسرعة ، وأُفلِتَ خارجاً من البدلة .
أركلَ حذائي من قدميَ .
وأقف هناك فقط . وأتركَ لها أن تقوم بالمهمة .

سوف تلسعني بدافع الدفاع عن النفس . سوف تَخِزُني بزباناتِها ، مضحِّيةً بحياتها لتأخذ حياتي . وهذه المرة لن يكون أبي هنا ليأخذني بين ذراعيه ويركض بي بعيداً ، بينما عصفت سحابة النحل فوقنا وتعقبتنا كل الطريق إلى النهر ، حيثُ سحبَنا إلى هناك وأبقانا تحت الماء حتى انتهى الهجوم .

هذه المرة سوفَ أهوي إلى الأسفل . وأبقى في الأسفل . سوف يجري السم في عروقي . سوف أدعه يواصل اللسع ، وإذا توقف ، سأركله بأصابع قدميّ العارية ، وأدوس عليه حتى يواصل ، ويظل يلسعني حتى لا يُمكن التعرف عليّ .

يجب أن يحصل على انتقامه . لقد استحقَّه .
وعندئذٍ سينتهي كل شيء .
سوف أفعل ذلك الآن .
الآن .

أمسكَت أصابعي بالغطاء . شعرتُ بالقماش الرقيق على قفازاتي السميكة .

رفعته .

الآن .

ولكن عندئذٍ . . .

صوتُ خطواتٍ تقطع الحقل . أحدٌ ما يصيح .

يتجهُ نحوي .

أولاً بهدوء . ثم أقوى . وأعلى .

يرتدي بدلة بيضاء . قبعة . غطاء للوجه . لابساً بالكامل ، جاهزاً للعمل . مرة أخرى يأتي بلا سابق إنذار . أو ربما كانت إيما تعرف .

سوف يأتي . ليبقى؟

إنه يركض الآن . هل رآني؟ ما الذي يحدث؟

أصبحَت الصرخات أعلى ، تثقبُ الهواء .

«أبي؟ أبي»!

تاو

وقف الصبي وأبوه خلفي وأنا أضعُ المفتاح في القفل وأفتح الباب إلى ظلامٍ مسائيٍّ فارغ .

لم تكن سترة كوان معلقة على الخطاف في الردهة . ولم يكُن حذاؤه هناك أيضاً .

دفعت مقبضَ باب الحمّام .

كان الرفُّ الذي فوق حوض المغسلة فارغاً . وتبقى هناك فقط أثر الصابون حيث كانت ماكينة حلاقته .

رحل دون أن يقول أي شيء . لأنه أراد أن يفعل؟ لأنه ظنَّ أنني أريده أن يفعل؟ لأن كلَّ شيء حولي ذكَّره بوي-وِن ، بالطريقة التي ذكرني به كلُّ شيء حولَ كوان؟

لأنه يلومني؟

لقد اختفى واحدٌ آخر أيضاً . لكنني لم أستطع أن أبحث عنه هذه المرة . لم أستطع أن أسأل ، لم أستطع أن أتصل به . كان هذا قراره ، ولم يكن لي الحق في السؤال . لأنني أنا التي ما أزال قمينةً باللوم .

بقي الصبي وأبوه في الردهة . نظرا إليَّ بترقُّب ، وكان يجب أن أقول شيئاً .

«يمكنكما أن تستخدما الحمّام» .

وضعتُ حقيبتي في منتصف أرضية غرفة المعيشة وصنعتُ سريراً لنفسي على الأريكة . استطعتُ أن أسمع الصبيَّ وهو يتحدث هناك

في الداخل . جاء صوته في موجات ، تواقاً ، وهو يتحدث عن التفاصيل العملية بطاقةٍ مكتشفة حديثاً . لقد اكتشفَ مستقبلاً . والظلامُ في داخله اختفى . أو ربما أكونُ أنا قد وضعتُ الكثير في الكلمات التي قلتُها في المساء السابق . حملتُها بكل أشيائي الخاصة .

ذهبتُ إلى النافذة . كان السياج لا يزال هناك . وفي الهواء فوقه تحوم طائرة مروحية في دوائر . كان النحل موضوعاً في حاويات ، كما لو في شرنقة ، ولم يكن يُفترض أن تتسلل إلى الخارج حتى نحلة واحدة ، ليس حتى يكون هناك المزيد منها وتتكون معرفة معينة حول كيفية السيطرة عليها . هذا هو ما أرادت زيارا أن تكون عليه الأمور .

أرادت أن تروِّضَه . إنه هو الذي سينقذنا . أرادت أن تدجِّنه ، بالطريقة التي دجنتني بها . وقد سمحت لنفسي بأن أروَّض . كان ذلك هو الخيار الأسهل . أن أتبعها ، وأن لا أفكر .

سمعتُ الولد يضحك . المرة الأولى التي أسمعه فيها يضحك . لكَم كانت ضحكته فتيَّة ومشرقة . . . لقد أعطيتُهما شيئاً . أصبحَ الصوت أعلى ، وجعل التنفس أسهل . متى كانت آخر مرة ضحك فيها أحد بين هذه الجدران الأربعة؟

خلفي كانت الحقيبة . وفي داخلها كان الكتاب . لم أُعِدهُ إلى المكتبة أبداً ، لكنني قرأته كله من البداية إلى النهاية . حملتُ الكلمات معي ، وإنما لم أعرف ما أفعل بها . كان ذلك هائلاً جداً ، ولم أستطع التعامل معه .

كانوا يحضِّرون الساحة في الخارج ، ويفسحون فراغاً . كانَت منصة تُبنى ، وكاميرات تُنصب . كانت عدة طواقم تعمل في آن واحد ، لأن

الكلمة سوفَ تُبث إلى العالم كله . ترأسَت مُخرجةٌ نشيطة الناس الذينَ يعملون في المكان . وفي الخلفيَّة رُصَّت سلالٌ كبيرة مليئة بكمثرى ملتقطة حديثة . بدت الرمزية مبالغاً فيها . لكن هذا ربما يكون ما يتطلبه الأمر .

أعطِيَت لي غرفة لباسي الخاصة . جاءت امرأة ببعض الملابس لأختار من بينها . لا شيء براقاً ، لكنَّ الملابس كلها كانت جديدة تماماً . تصميم بسيط ، يشبه الزي في المرحلة الأولى للحزب ، كما لو ليذكِّرَ المشاهدين بالمكان الذي أتيتُ منه ، بأنني كنتُ واحدة منهم ، واحدةً من الناس . كانت الملابس قاسية قليلاً ، بثنيات خفيفة ، وإنما مصنوعة من نسيج ناعم .

«إنه من القطن» ، قالت المرأة . «قطنٌ معادُ التدوير» .

لم يسبق أن امتلكتُ أبداً ثوباً من القطن . كلُّ متر يكلِّف راتب شهر . اخترت بدلة زرقاء ، وارتديتها . كان النسيج يتنفس ، بالكاد أشعر بوزنه على بشرتي . استدرتُ لأنظر في المرآة . كانت تناسبني ، بدوتُ مثل واحدة منهم . مثلها ، زيارا ، ليسَ مثل عاملةٍ في حقول الفواكه ، وإنما مثل الشخص الذي ربما كان يُفترض أن أكونه مُسبقاً .

كنتُ شخصاً آخر في هذه البدلة ، الإنسان التي طلبَت هي مني أن أكونه . استدرتُ ، ونظرتُ في المرآة من فوق كتفي ، تعلّقت السترة بروعة على الكتفين ، والبنطال كان مناسباً حول وركيّ . سحبتُ الأكمام قليلاً ؛ انتهت بالضبط حيث يجب أن تكون .

ثم التقيتُ هناك بنظرتي الخاصة . عيناي . . . بدتا كثيراً مثل عينيه . ولكن ، مَن كان؟ نظرتُ إلى الأسفل . وي-وِن لم يمتلك أبداً رداء قطنياً . لم تكتسب حياتهِ القصيرة أي معنى .

ثانيةً أجبرتُ نفسي على رفع رأسي ، لأنظرَ إلى نفسي . حملقَت فيَّ امرأةٌ حمقاء مفيدة .

كلا . فجأة أصبح النسيج يحتك بخشونة بجسدي . مزقتُ البلوزة . خرجتُ من البنطال وتركتهما راقدَين على الأرض .

سوف يكون للأمر معنى . وأنا أعرِف كيف .

سحبتُ سترتي الرثة القديمة على رأسي ، وارتديت بنطالي القديم ، وزررته بسرعة ولبست حذائي .

التقطتُ حقيبتي التي كانت راقدة على الأرض ، وفتحتُ الباب إلى غرفة الملابس وخرجتُ بسرعة . وجدتُ المخرجة وأمسكتُ بها .

«أين هي لي زيارا؟ يجبُ أن أتحدثَ إلى لي زيارا»؟

كانت في مبنى اللجنة في القرية ، وقد أخذَت أكبر مكتب هناك . طردَت حارسة الأمن ثلاثة رجال من هناك عندما وصلتُ ، حتى مع أنه كان واضحاً تماماً أنهم لم ينهوا محادثتهم .

وقفَت زيارا بسرعةٍ وسارَت إليّ لتحييني . حاولَت واحدةً من تلكَ الابتسامات اللطيفة ، لكنني كنتُ قد انتهيتُ من هذا الآن .

«إليكِ» ، أعطيتُها الكتاب .

أخذَتهُ ، لكنها لم تفتحه ، حتى أنها لم تنظر إليه .

«تاو ، أنا أتطلعُ إلى سماعك تتحدثين» .

«يجب أن تقرئي الكتاب» ، قلتُ .

«إذا أحببتِ يمكننا أن نتصفحَه في مرة قادمة ، سوف أكون سعيدة بذلك . الصياغة . ربما يجبُ أن نغيِّر بعض الصياغة . . .» .

«أريدكِ فقط أن تقرئي هذا» ، قلتُ .

حوَّلت نظرتها أخيراً نحوَ الكتاب ، وحكَّت العنوان بأحد الأصابع . «النحّال الأعمى»؟

هززتُ رأسي . «لن أفعل أي شيء ، لن ألقي أي خطابات حتى تقرئيه» .

رفعَت أنظارها بسرعة . «ماذا تقولين»؟

جماعتُك يفعلون كلَّ شيء بشكل خاطئ» .

ضاقت عيناها . «إننا نفعل كل ما بوسعنا» .

انحنيتُ إلى الأمام ، قابلتُ نظرتها وقلتُ بهدوء : «إنها ستموت . مرة أخرى» .

نظرَت إليّ . انتظرتُ إجابة ، لكنَّها لم تأتِ . هل كانت تفكر؟ هل أبقت الإجابة في الداخل؟ هل عنَت كلماتي أيّ شيء لها على الإطلاق؟ صعد الغضب في داخلي . ألا يمكنها أن تقول شيئاً؟

لم أستطع تحمُّل البقاء هناك أي فترة أطول ؛ استدرت وسرتُ في اتجاه الباب . وعندئذٍ أظهرَت رد فعل أخيراً .

«انتظري» .

فتحَت الكتاب بهدوء وقلبَت الصفحات حتى وصلت صفحة الغلاف .

«توماس سافيج» . ألقَت نظرة على اسم المؤلف . «أمريكي»؟

«إنه الكتاب الوحيد الذي كتبَه» ، قلتُ بسرعة . «لكن ذلك لا يجعلُه أقل أهمية» .

رفعَت رأسها ونظرَت إليّ مرة أخرى . ثم أشارت إلى مقعد .

«اجلسي . أخبريني» . .

في البداية تعثَرَت كلماتي من العجلة ، بينما أشرحُ بشكل عشوائي ، قافزة إلى الوراء والأمام . لكنني فهمت عندئذٍ أنها تعطيني وقتاً . عدةَ مرات طرق أحد الباب ، وكان هناك الكثير من الناس ينتظرون ، لكنها ردَّتهم جميعاً وشرعتُ في الحديثِ ببطء .

حدثتُها عن الكاتب ، توماس سافيج . كان الكتاب مبنياً على الخبرات وعلى حياته . كانت أسرة سافيج تربّي النحل لأجيال . كان أبوه واحداً من أوائل الناس الذين تأثروا بـ «الانهيار» ، وواحداً من آخِر الذين استسلموا . وعمل سافيج مع والده حتى النهاية . وقد غيرا العمليات العضوية في مرحلة مبكرة ، وكان ذلك هو شرط سافيج نفسه ، لم يُجبر النحل أبداً على الخروج إلى الطريق ، ولم يأخذ من العسل أبداً أكثر مما يكفي النحل ليبقى على قيد الحياة . لكن النحل لم ينجُ مع ذلك . مات النحل . مرة ومرة أخرى . وأخيراً أُجبروا على بيع المزرعة . وفقط عندئذٍ ، بعمر 50 عاماً ، جلس سافيج وكتبَ عن كل تجاربه ، وعن المستقبل . كان «النحّال الأعمى» كتاباً رؤيوياً متبصراً ، لكنه ما يزال حقيقياً وملموساً لأنه كان قائماً على حياة كاملة من الخبرة العملية .

نُشر الكتاب في العام 2037 ، قبل ثماني سنوات فقط من أن يصبح «الانهيار» حقيقة واقعة . وقد تنبأ بمصير الجنس البشري . وكيف يمكننا ، بدورنا ، أن نتدبر أمر النهوض من الرماد مرة أخرى .

عندما انتهيت ، جلست زيارا صامتة . أمسكَت الكتابَ بهدوء في يديها . ونظرتُها ، التي تستحيل قراءتها ، استراحت عليّ .

«يمكنكِ أن تذهبي الآن» .

هل كانت تلقي بي إلى الخارج؟ إذا رفضتُ ، فإنها ستستدعي الأمن ، وتعطيهم الأوامر بأخذي إلى البيت . أو أنها ستطلب مني البقاء هناك ، في الشقة ، حتى يحين وقت الخطاب ، ثم تطلب مني أن ألقي خطابات عدة مرات أخرى ، ضد قناعاتي الخاصة .

لكنها لم تفعل أياً من هذا . بدلاً من ذلك ، قلبَت الصفحات حتى وصلَت الفصل الأول ، وانحنَت على النص .

وقفتُ هناك . وعند ذلك ، رفعَت أنظارها إليَّ مرة أخرى ، وأشارت لي نحو الباب .

«الآن أريدُ أن أكون وحدي . شكراً لك» .

«ولكن . . .» .

وضعَت إحدى يديها على الكتاب ، وكأنما لتحميه . ثم قالت بهدوء «أنا لديّ أطفالٌ أيضاً» .

وليام

تدلّى ورقُ الجدران في حالة يُرثى لها من الجدران ، وكان اصفراره ما يزال غامراً . وكانت تغنّي مرة أخرى ، اليوم مثل كل يوم ، همهمةً شجية بأنغام خافتة وهي تكنس الأرض بحركات دقيقة . استلقيتُ ووجهي في اتجاه النافذة ، حيث رفرَفَت بضع أوراق شجر بنّيّة عابرة من هناك .

كنسَت الحُطام على صينية ووضعتها بجوار الباب . ثم أدارت وجهها إليّ .

«هل أنفض بطانيتك»؟

ودون انتظار إجابة رفعَتها بسرعة عني ، أمسكتها بين ذراعيها وحملتها إلى النافذة . وأنا استلقيتُ هناك في ملابس النوم فقط ، شاعراً بأنني مكشوف ، لكنها لم تنظر إليّ .

فتحَت النافذة ، واندفع الهواء إلى الداخل . أصبح أبرد منذ الأمس فقط . استطعتُ أن أشعر بقشعريرة تزحف في ساقيّ ، وسحبتُ قدميّ إلى تحتي .

حملَت البطانية خارج النافذة ونفضَتها بحركات كبيرة . وقفَت البطانية مستقيمةً مثل شراع هناك في الخارج قبل أن تسمح لها بالسقوط . وبمجرد أن أصبحت تتدلى بشكل مستقيم تقريباً إلى أسفل ، أعطتها جذبة عنيفة أخرى وأرسلتها عالياً أمام النافذة .

عندما انتهت ، وضعَتها فوقي . كانت باردة مثل الهواء في الخارج . ثم سحبَت مقعداً إلى جوار السرير ووقفت هناك وأراحَت يديها على ظهره .

«هل تريدُ أن أقرأ لك»؟

لم تنتظر جوابي . لم تنتظر جوابي أبداً في أيِّ وقت ، ذهبَت فقط إلى رف الكتب ، الذي كان مرتباً بدقة مرة أخرى . تردَّدَت قليلاً ، ونقلَت سبابتها بسرعة على أعقاب الكتب . ثم توقفت وسحبَت واحداً .

«سوف نأخذ هذا الكتاب» .

لم أر العنوان . وهي لم تقرأه لي أيضاً ، ربما عرفَت أن ذلك لا يُحدث أي فرق . لم يكن ما تقرؤه ، وإنما حقيقة أنها تقرأ ، هي التي تهم .

«شارلوت» ، قلتُ بالصوت الأجش للعجائز ، الذي لم يكن صوتي . «شارلوت . . .» .

رفعَت أنظارها . هزت رأسها بلطف . لم أحتج إلى قولها ، ولا يجب أن أقولها . لأنني كررتُها مرات لا تحصى ولا تعد مسبقاً وهي تعرف ذلك جيداً . كان ما طلبتُه منها هو أن تبتعد . تغادر . تتركني . أن تفكر في نفسها . تعيش ، ليس من أجلي ، وإنما من أجل نفسها .

لكنَّ إجابتها كانت هي نفسها في كل مرة . ومع ذلك ، سوف أستمر في قولها مرة وأخرى . لم أستطع أن أمنع نفسي . كنتُ مديناً لها بذلك ، لأنها منحت لي كل حياتها . ولكن ، لم تكن هناك كلمات يمكن أن تجعلها تغادر ، لا كلمات يمكن أن توقفها .

أرادت فقط أن تكون إلى جانبي .

ملأ صوتها الغرفة إلى جانب هواء الخريف البارد. لكنني لم أكُن أشعر بالبرد. أخذتني الكلمات إلى حضن دافئ. قرأت لوقتٍ طويل الآن، ولم تسمح بأي مقاطعة.

مددتُ يداً وعرفت أنها ستأخذها.

جلسَت هكذا، اليوم مثل كل يوم آخر، ويدها تستريح بهدوء في يدي، وملأت ليَ الصمتَ بالكلمات. كانت تُهدر الكلمات عليّ، كانت تهدر وقتها، وحياتها. وكان ذلك في حدٍّ ذاته سبباً كافياً لكي أنهض. لكنني لم أكن ندّاً لذلك. كنتُ مجرداً من - كلا، ليس مجرداً- لقد ألقيتُ عنّي إرادتي وشغفي.

ثم فجأة، صعد صوتٌ في اتجاهنا من الطابق الأرضي. صوتٌ لم أسمعه في البيت منذ عديد السنين. بكاء رضيع. رضيع؟ ليس لي. ربما هناك شخص ما يزور؟ ولكن مَن؟ شهورٌ مضت منذ سمعتُ أصواتاً هناك في الأسفل غير أصوات أفراد عائلتي.

توقفَت شارلوت عن القراءة. سمحَت لنفسها بأن تُقاطَع وانحنت أماماً قليلاً، كما لو أنها على وشك الشروع في الركض.

كان أحد ما يهدهد طفلاً إلى النوم هناك في الأسفل. تيلدا؟

نشَج الطفل، لكنه هدأ. أصبح أهدأ بالتدريج.

انحنَت شارلوت إلى الوراء في المقعد، التقطَت الكتاب وواصلَت القراءة.

أغلقتُ عينيّ. واستطعتُ أن أحس بيدها على يدي وبالكلمات وهي تنهض وتسقط في الهواء بيننا. مرَّت الدقائق. هي قرأَت وأنا استلقيت هادئاً تماماً، في حالة من الامتنان العميق.

لكن نحيبَ الطفل صعد مرة أخرى في الطابق السفلي . أعلى الآن . توقفَت شارلوت .

سحبَت يدَها .

تكاثف البكاء وتحوَّل إلى يأس ، وضيق ، ممزِّقاً الجدران .

وعندئذٍ وقفَت ووضعَت الكتاب . بسرعة سارت نحو الباب . «آسفة ، أبي» .

فتحَت الباب . ملأ البكاءُ الغرفة .

«الرضيع . . .» قلت .

توقفَت في المدخل .

بحثتُ عن الكلمات . «هل جاء أحد للزيارة»؟

هزت رأسها بسرعة .

«كلا . . . أنا . . . الطفل لنا الآن» .

«ولكن ، كيف . . .»؟

«ماتت الأم أثناء الولادة . والأب . . . لم يتمكن من العناية به» .

«مَن هو»؟ سألتُ . «هل هو هنا»؟

«كلا يا أبي . . .» ، قالت متردِّدة . «إنه في لندن» .

فجأة فهمتُ . جلستُ نصف جلسة في السرير ، حاولتُ أن أنظر إليها بصرامة ، لأجعلها تقولَ لي الحقيقة . «إنه ابنه ، أليس كذلك؟ ابن إدموند»؟

طرفَت عيناها بسرعة . لم تُجب ، لكنها لم تحتج إلى ذلك أيضاً .

«أنا آسفة» ، قالت مرة أخرى .

ثم تحولَت عني وغادرت .

ظل الباب مواربًا خلفها . سمعتُ خطواتها السريعة على الدرج ، وكيف هبطت الأدراج وسارت بهدوء على الأرض هناك في الأسفل .

«أنا قادمة» .

توقفَت .

«لقد جعلته . . .» .

أصبح صوتها أكثر انخفاضاً .

«هنا . . . . هنا الآن . . . هنا ، هنا . . . اششششش . . .» .

ثم .

أغنيتُها المهدهِدة الخافتة .

لكنها الآن لا تغني لي .

أخيراً لم تعد تغنّي لي . كانت تغنّي للطفل الذي تحمله في ذراعيها ، الطفل الذي تهزه ببطء .

جورج

الهزات العظيمة . ظلت في داخلي . لأيام . صباحاً ، مساء ، وليلاً .

ناضلتُ لأمسك بالشوكة والسكين . رأت إيما ذلك ، ولم تقل شيئاً . ناضلتُ لأستخدم الأدوات ، أوقعتُ المفك على الأرض ، وانحرفَ المنشار في يدي برعونة .

استيقظتُ والخوف في قلبي كلَّ صباح .

استيقظتُ ، وذهبت إلى أسفل والتقيته . كان يختلس نظرة إليّ ويحرك رأسه بإيماءة صغيرة قبل أن يغوص في كتابه مرة أخرى . لكن هذا جيد .

لأنه لم يكن يرتجف .

لم يتعثر . حتى عندما يقلب صفحات كتاب ، كان يفعل بثقة في حركاته ، هادئاً وواثقاً ، وكان يحمل كوب القهوة بيد ثابتة . والخطوات في اتجاه الحقل ، في اتجاه خلايا النحل ، متساوية ، بنفس الطول بالضبط ، كانت خطواته قوية وصلبة على الأرض .

وكنتُ أتبعه على الأعقاب . دائماً مع هذا الارتعاش في داخلي .

ولكن ، بينما شاهدت خطواته عبر الحقل ، ورفعُ الأحمال الذي يقوم به بساقيه ، وليس بظهره ، ينحني ، يرفع ، يضع ، مرة وأخرى ، بينما أراقب هذه الحركات ، توقفتُ ببطء عن الارتعاش . كل يوم أصبح من الأسهل أن أمسك الشوكة .

وعندئذٍ ، بينما كنا نستخلص العسل ، بينما تعلَّقَت شمسُ الخريف خفيضة ورؤوفة في السماء ، صفراء تماماً مثل القطرات التي نهزها من الإطارات ، لاحظتُ فجأة شيئاً . لقد ذهبت . الارتجافات ذهبت .

عملتُ بيدين هادئتين ثابتتين . مثلَه . إلى جانبه .

أصبحنا الآن ، كلانا ، في تناغم مطلق .

تاو

كانت خلية النحل محروسة ، لكن الخيمة أزيلت ، وانفتح الفضاء كلَّ المسافة إلى حافة الحقول ، مباشرة بجوار الغابة .

كان الناس قد تجمَّعوا عند مسافة مناسبة ، يقفون بهدوء وينظرون إليها فقط . لم يخَف منها أحد ، لم يكن النحل خطيراً ، كانت حساسية وي-وِن حالة معزولة . وحولنا أينعَت الأزهار في كل اتجاه ، في أجمات مزروعة حديثاً ، حمراء ، زهرية ، برتقالية ، عالم القصص السحرية نفسه الذي رأيته في الخيمة ، لكنه أصبح الآن ممتداً على مساحة واسعة ، لأن أشجار الفواكه احتُطبت وتم استبدالها بنباتات جديدة .

كان الجيش قد غادر ، وأزيلت الأسيجة والخيمة . انفجرت الشرنقة وعاشت الخلية بيننا . وسُمح للنحل بأن يطير حيثما يريد ، حرّاً تماماً .

كانت الخلية على بعد عشرة أمتار مني ، في ظل الأشجار ، والشمس تشرق عليها من خلَلِ أوراق الشجر ، ليس بعيداً عن المكان الذي عُثر فيه على أول خلية برّيَّة ، وليس بعيداً عن المكان الذي لُسِع فيه وي-وِن . خلية سافيج القياسية ، تماماً كما رسمها توماس سافيج في «النحال الأعمى» ، الخلية التي توارثوها في عائلته منذ 1852 ، ليس الرسوم التي اختفت عند نقطة ما في التاريخ ، وإنما القياسات والمظهر اللذين حفظهما سافيج ورسمهما مرة أخرى . من يد المخترع ، كان

القصد من الخلية إنتاج العسل والملاحظة ، ولذلك أراد أن يدجِّن النحل .

لكن النحل لا يمكن أن يدجَّن . وإنما تمكن العناية به فحسب ، أن يتلقى عنايتنا . وعلى الرغم من الهدف الأصلي للخلية ، فإنها تشكل أيضاً بيتاً جيداً للنحل . فيه كل شيء مرتب لتمكينه من التناسل والإنتاج . وقد احتفظ النحل بالعسل لنفسه ؛ لا شيء منه سوف يُجنى ، ولن يستخدمه البشر قط . سوف يتاح له أن يبقى كما أرادت الطبيعة : طعاماً للمواليد الجدد .

لم يكُن الصوت الذي جاء من هناك يشبه أي شيء سمعته من قبل . داخلاً وخارجاً . ذاهباً وقادماً تدفق النحل . ومعه جلب الرحيق وحبوب اللقاح ، غذاء لنسله . وإنما لم يجلبها للقلة التي هي أبناؤه ؛ كانت كل نحلة تعمل للمجموعة ، من أجل كل النحل ، للكائنات الحية التي يصنعها جنسها معاً .

شقَّ صوتُ الأزيز الهواء ، وجعل شيئاً ما يهتز في داخلي . لحناً هدّأني ، وجعل من الأسهل عليّ أن أتنفس .

وقفتُ هناك هكذا فقط . حاولتُ أن أتعقب كل نحلة بعينيّ ، أو أرى رحلة كل نحلة من الخلية ، إلى الأزهار ، من زهرة إلى زهرة ، والعودة ثانية . لكنها ظلَّت تفلِت منّي . كان هناك الكثير منها ، وأنماط حركتها عصيَّة على الفهم .

وهكذا ، جعلت نظرتي بدلاً من ذلك تستريح على الكل ، على الخلية وكلِّ الحياة التي أحاطت بها نفسها ، كلِّ الحياة التي تعتني بها .

بينما أقف هناك، ظهر أحد ما بجانبي. التفتُّ. كان كوان. كان يركِّز على الخلية، وهو يتطاول برأسه لتحصيل رؤية أفضل. لكنه عندئذٍ اكتشفني..

«تاو...».

جاء في اتجاهي. بمشية غير مألوفة، أثقل، كما لو أنه شاخ مُسبقاً.

وقفنا متقابلَين. أبقى كوان عينيه مركزتين عليّ، وأنا لم أخفض عينيّ كما كنتُ أفعل عادة. كانت هناك دوائر سوداء تحت عينيه. وكان منسحباً، شاحباً.

لقد افتقدته. افتقدتُ الشخصَ الذي كانه. الخفةَ المبهجة فيه، الرضا، والفرح بالطفل الذي كان لديه. والطفلِ الذي كان سيكون لديه. تمنيتُ لو استطعت أن أقول شيئاً يمكن أن يعيد إليه بهجته، لكنني لم أجد الكلمات.

تحولنا نحو الخلية، ووقفنا هكذا، جنباً إلى جنب ونظرنا إليها. رأسانا يكادان يتلامسان، لكن أيّاً منا لم يمسك يد الآخر، مثل مراهقَين لم يمتلكا الجرأة تماماً بعد. الدفء بيننا. عاد مرة أخرى.

أزّت نحلةٌ في الهواء قربنا، على بعد متر واحد فقط، وانحرفَت إلى اليمين، في حركة غير مخططة على ما يبدو، ثم طارت بيننا، شعرتُ بنسمة هواء صغيرة على خدي، ثم اختفت النحلةُ في الأزهار.

عندئذ أمسكَ بيدي.

حبستُ أنفاسي. هذه المرة كان هو الذي تجرّأ.

أخيراً، لمَسَني ثانية. أصبحَت يدي صغيرة وهي تلتقي بيده. تقاسَم دفئَه معي.

وقفنا هناك فقط ، متشابكَي الأيدي ، ونحنُ ننظر إلى الخلية .

وعندئذٍ ،

جاءت الكلماتُ التي لطالما تقتُ إليها .

بهدوء ، وبجدّيَّة لم تكن تشبهه بكل وضوح . ليسَ شيئاً قاله لأنه مضطر لقوله ، وإنما لأنه يعنيه .

«لم يكن خطأك ، تاو . لم يكن خطأك» .

بعد ذلك ، بعد أن توادعنا ، سرتُ وحدي في طرق الأخاديد التي شقتها الإطارات . كان النحلُ ما يزال يئز في داخلي . وكلماته أطلقت الكلمات في نفسي .

مشيتُ ، ببطء أكثر وأكثر ، حتى توقفتُ أخيراً وظللتُ واقفة وسط كل أشجار الفاكهة . كان كل شيء مفتوحاً ، لا أثر للأسيجة والجيش ، كلُّ شيء عاد كالسابق ، مثل العام الماضي في مثل هذا الوقت . كانت الدنيا تثلج أوراقاً صفراء . كانت الأرض مغطاة ، والأشجارُ ستصبح عارية عمّا قريب . كانت كل حبات الكمثرى قد قُطفت ، كل واحدة منها التُقطت بعناية ، ولُفَّت بالورق وحُملت بعيداً . كمثرى من الذهب .

لكنني استطعتُ أن ألمح التغيير في الأفق . الصفوفُ التي لا نهاية لها من أشجار الفاكهة انقسمت . كان العمال منهمكين في العمل وهم يحفرون عن الجذور وينتزعون الأشجار من الأرض . أصبحَت رؤيا توماس سافيج حقيقة أخيراً . أزلنا سيطرتنا وسوف يُسمح للغابة بأن تنتشر كما تريد . وفي التُربة سوف تُزرع نباتات أخرى ، وسيُسمح لمساحات كبيرة بأن تبقى غير مفلوحة .

نعم . أردتُ ذلك الآن . أن ألقي خطاباً . لأنني أردتُ أيضاً ، من جهتي ، أن أتحدَّث عن وي–وِن . كنتُ سأتحدث عما كانه لنا جميعاً ، ومَن سيصبح . كانت صورته قد طُبعت على يافطات كبيرة في الساحة ، وعلى الملصقات على طول جدران المباني ، وعلى الشاخصات فوق مداخل المباني العامة .

كانت واحدة من الصور القليلة التي لدينا له . كانت غائمة وباهتة ، ملتقطة على خلفية رمادية محايدة ، لكن الألوان على الملصقات كانت واضحة ، والتناقضات بين الألوان محددة ، وقد أُعطيَت عيناه المزيد من الضوء .

كانت هذه الصورة الملونة الحادة هي ما رآه العالم ، وكانت ما سأتحدثُ عنه . ليسَ عنه ، وي–ون ، لأنني لن أعطيه لهم أبداً . لن يعرف الناس هناك أبداً توقَه ، وعناده ، وتحدّيه . لن يعرفوا أبداً كيف كان يستيقظ أحياناً وهو يغني ، بلا انسجام ، وإنما بحماس . لن يسمعوا أبداً عن سيلان أنفهِ الأبدي ، وعن تغيير سرواله المبتل ، وفرك قدميه الباردتين كالثلج ، أو اكتساب دفء الجسد بالنوم مع جسدي في الليل . بالنسبة إليهم ، لن يكون أبداً أيّاً من هذا . هذا هو السبب في أن ذلك لم يعد مهماً الآن . هذا هو السبب في أن الشخص الذي كانَه لم يعد يهُم . حياة شخص مفرد ، لحم شخص مفرد ، دمُه ، سوائل جسده ، إشاراته العصبية ، أفكاره ، مخاوفه وأحلامه ، لم تكن تعني شيئاً . وأحلامي له لم تكن تعني شيئاً أيضاً ، إذا فشلتُ في أن أضعها في سياق وأتأكد من أن تنطبق الأحلام نفسُها علينا جميعاً .

لكن وي-وِن سيكتسب الأهمية على الرغم من ذلك . صورتُه . الولد الذي يرتدي الوشاح الأحمر ، وجهُه ، كانت هذه هي الحقبة الجديدة . للملايين من الناس ، وجهه المدور ، وعيناه الكبيرتان اللامعتان وهما تنظران فوقاً إلى سماءٍ زرقاءَ مشرقة ، كانت كلها مرتبطة بكلمة واحدة وحيدة . بشعور واحد موحِّد : الأمل .

تتنقل بنا هذه الرواية بين حكايات شخصيات من ثلاثة عصور، وما يربطها معا هو عالم النحل.

الرواية النرويجية الأكثر مبيعا في العالم.

«هذه الرواية ستبقى في عقلك وروحك لمدة طويلة .»

Trønder-Avisa

«بصراحة رواية ذكية . وببساطة رائعة جدا .»

Dagbladet

دار المنى

ISBN 978 91 87333 79 8

www.daralmuna.com